المكتبة العربية

شرح المشكل من شعر المتنبى

تأليف

علىّ بن إسماعيل بن سيده

المتوفى سنة ٤٥٨ هـ

تحقيق

الأستاذ مصطفى السقا   الدكتور حامد عبد المجيد





الهيئة المصرية العامة للكتاب

شرح المشكل

من

شعر المتنبي

جمهورية مصر العربية

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

يصدرها

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

بالاشتراك مع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة
١٩٧٦

شرح المشكل من شعر المتنبي

تأليف

علي بن إسماعيل بن سيده
المتوفى سنة ٤٥٨ هـ

تحقيق

الأستاذ مصطفى السقا   الدكتور حامد عبد المجيد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٦

مقدمة

ظهر المتنبى فملأ اسمه الآفاق العربية وشغل الناس . شغلهم فى البيئات العلمية والأدبية القريبة منه ، وشغلهم فى البيئات البعيدة عنه . وكانت الأندلس — وهى أبعد البيئات الاسلامية عن الشرق العربى — من أهم البيئات اهتماما بشعر المتنبى ، ومشاركة فى شرح ديوانه .

وكان أبو الطيب المتنبى أعظم معنى متفلسفا ، وأكثر تركيبا مستبهما . وفيما أبهم واستشكل من شعره ، تجاذب الناس القول ، ودارت حول المتنبى حركة أدبية واسعة فى بغداد وما حولها ، كان الأدباء فيها بين اثنين ، مدافع عنه ومتحامل عليه .

واتسع نطاق هذه الحركة الأدبية ، وتجاوز تخوم البيئة الشرقية الى الأندلس وكانت الأندلس فى القرن الخامس الهجرى خاصة ، قد استكملت شخصيتها العلمية والأدبية ، وبلغت من العلو الثقافى ما جعلها تنافس بغداد ، وتحاول جاهدة أن تنتزع منها الصدارة .

فإذا شغل علماء المشرق العربى وأدباؤه بالمتنبى ، فالأندلس جديرة أن تشغل به ، وتشارك فى فهم شعره .

كان أظهر من شرح شعر المتنبى من أدباء الأندلس : أبو القاسم إبراهيم ابن محمد بن زكريا النحوى المعروف بابن الإفليلى ، المتوفى سنة ٤٤١ هـ . وكان أبو القاسم هذا من المعاصرين لابن سيده . وقد تصدر لإقراء علم الأدب بالأندلس ، وكان ممن روى عن أبى بكر محمد بن الحسن الزبيدى كتاب النوادر لأبى على القالى .

وكان مع علمه بالنحو والفلسفة ، يتكلم فى معانى الشعر وأقسام البلاغة والنقد . وقد ألف كتابا شرح فيه معانى شعر المتنبى .

وفى ختام القرن الخامس الهجرى ، تولى ابن السيد البطليوسى ، إمام أهل الأندلس فى عصره ، شرح ديوان المتنبى ، إلى جانب شرحه سقط الزند لأبى العلاء المعرى .

وقد ورد إلينا شرحه سقط الزند وقامت على تحقيقه ونشره لجنة إحياء آثار أبى العلاء (١) . أما شرحه لديوان المتنبى فقالوا عنه إنه لم يخرج من المغرب . (ابن خلكان) .

وبين هذين العالمين الجليلين ، كان ابن سيده اللغوى وقد قصر همه على شرح المشكل من أبيات المتنبى ، وألف فيه كتابا له أثره ووزنه الأدبى وهو الذى حققناه ونقدمه اليوم إلى القراء .

وابن سيده من أظهر علماء الأندلس وأئمة اللغة العربية . لم يكن فى زمانه كما قالوا : « أعلم منه بالنحو واللغة والأشعار وأيام العرب وما يتعلق بها » .

وقد اشتهر بين معاصريه ومن جاء بعدهم من اللغويين والأدباء والمؤرخين بكنيته « ابن سيده » وكأن هذه الشهرة ، قد أنست الناس اسم أبيه فوقع الخلاف بينهم حين أرادوا تدوينه .

فالحميرى فى جذوة المقتبس يذكره بقوله : « على بن أحمد . أبو الحسين المعروف بابن سيده » (ترجمة ٧٠٩ ص ٢٩٣) .

وابن بشكوال فى الصلة يقول : « على بن إسماعيل ، يعرف بابن سيده من أهل مرسية يكنى أبا الحسن . . » .

وفى كتاب صاعد الجيانى : على بن محمد ، فى نسخة . وفى نسخة ، على بن إسماعيل .

---

(١) أعضاء هذه اللجنة : الأساتذة : عبد الرحيم محمود . مصطفى السقا . عبد السلام هارون . إبراهيم الأبيارى . حامد عبد المجيد .

وهذا الخلاف الذى نراه فى كتب الأندلسيين حول اسم أبيه ، يتردد كذلك فى روايات المشارقة نقلا عن الحميرى وابن بشكوال ، كما هو واضح فى معجم الأدباء لياقوت ، ونكت الهميان للصفدى ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وطبقات النحاة لابن قاضى شهبة ، ولسان الميزان لابن حجر حيث يذكر ابن سيده فى الجزء الرابع منه (ص ٢٠٢) مجرد ذكر باسم (على ابن أحمد . يأتى فى على بن إسماعيل) . ثم يترجم له فى ص ٢٠٥ باسم على بن إسماعيل .

* * *

ويبدو أن هذا التشابه بين كنية ابن سيده وبين ابن سيد (بتشديد الياء وكسرها) وهو جد أحمد بن سيد ، أبو القاسم اللغوى — وكان صاحب الشرطة بقرطبة ممن روى عن القالى — قد أحدث شيئا من اللبس أو السهو عند الحميرى ، فذكر ابن سيده على أنه على بن أحمد لا على بن إسماعيل :

وكذلك دفع هذا اللبس أو التشابه بين الاسم والكنية ، إلى أن ينسب إلى ابن سيده ، كتب ابن سيد خطأ .

فكتاب العالم فى اللغة ، وكتاب العالم والمتعلم ، وشرح كتاب الأخفش . هذه الكتب الثلاثة من تأليف أحمد بن أبان بن سيد وتنسب خطأ إلى أبى الحسن بن سيده . على أن بعض المؤلفين قد أشار إلى هذا ونبه عليه .

فابن قاضى شهبة فى أثناء ذكره مصنفات ابن سيده فى كتاب طبقات النحاة وإشارته إلى كتاب العالم يقول : « وكذلك كتاب العالم والمتعلم على المسألة والجواب وليس هما من تصنيفه ، وإنما هما من تأليف أحمد بن سيد (بتشديد الياء) » ثم يقول فى (جـ ١ ص ١٥٥) فى ترجمة ابن سيد ما نصه : (أحمد بن أبان بن سيد ، مؤلف كتاب العالم فى اللغة فى نحو مائة مجلد بدأ فيه بالفلك وختم بالذرة ، وخلط من نسب هذا الكتاب إلى ابن سيده صاحب المحكم وإنما هو من تأليف ابن سيد هذا . وقد أخذ هذا الرجل عن القالى وغيره) .

* * *

ومهما يكن من الأمر فإذا كان الباحثون يجمعون على اسمه وكنيته « على ابن سيده » ثم يختلفون فى اسم ابيه ، فعندنا أن والد ابن سيده هو إسماعيل كما ذكر ابن بشكوال ، لا أحمد كما أورده الحميرى ، وتورد فى تحقيقنا لذلك أدلة ثلاثة :

أولهـــا :

أن جميع كتبه التى وصلت الينا : المحكم والمخصص ومشكل شعر المتنبى ؛ تحمل اسم مؤلفها على بن إسماعيل بن سيده ولا يرد فى واحد منها ذكر لعلى بن أحمد ، كما أن مقدمات هذه الكتب تذكر اسم مؤلفها على ابن إسماعيل .

ففى مقدمة المخصص . « قال أبو الحسن على النحوى اللغوى الأندلسى المعروف بابن سيده »

وفى المشكل من شعر المتنبى (نسخة تونس) « قال أبو الحسن على بن إسماعيل النحوى المعروف بابن سيده » .

وفى نسخة القاهرة من هذا الكتاب (شرح مشكل أبيات المتنبى وضع أبى الحسن على بن إسماعيل النحوى المعروف بابن سيده) .

ثانيهـــا :

ما جاء فى خطبة لسان العرب ، إذ يقول ابن منظور : « ولم أجد فى كتب اللغة أجمل من تهذيب اللغة لأبى منصور محمد بن أحمد الأزهرى ولا أكمل من المحكم لأبى الحسن على بن إسماعيل بن سيده الأندلسى رحمهما الله وهما من أمهات كتب اللغة على التحقيق : وما عداهما بالنسبة إليهما ثنيات للطريق » .

وبعيد جدا ألا يتحقق ابن منظور أو يخفى عليه اسم والد ابن سيده صاحب أكبر موسوعة اعتمد عليها فى لسان العرب .

ثالثهـــا :

ما نراه فى كشف الظنون من نسبة كتبه إلى على بن إسماعيل لا على ابن أحمد . فعند ما يذكر كتاب الحماسة لأبى تمام (فى الجزء الأول ص

٦٩١) يقول حاجي خليفة : « فممن شرحه . . . أبو الحسن على بن اسماعيل بن سيده المتوفى سنة ٤٥٨هـ وهو شرح كبير فى ستة مجلدات وسماه الأنيق » .

وعندما يعرض لديوان المتنبى وشرحه يقول : « وشرح مشكل أبيات المتنبى لأبى الحسن على بن إسماعيل النحوى المعروف بابن سيده » .

وعند كلامه عن المحكم يقول : « المحكم والمحيط الأعظم لأبى الحسن على بن إسماعيل » .

وعندما يورد كتابه الوافى يقول : كتاب الوافى فى علم القوافى لأبى الحسن على ابن إسماعيل المعروف بابن سيده اللغوى (كشف الظنون ٢ : ٩٩٧) .

وعندما يصل إلى المخصص يقول : والمخصص فى اللغة لابن سيده أبى الحسن على بن إسماعيل اللغوى المتوفى سنة ٤٦٨هـ ، ألفه قبل المحكم » .

نشأة ابن سيده :

نشأ ابن سيده بمرسية ، وهى مدينة كبيرة فى شرق الأندلس ، كانت تموج بكثرة من العلماء والفقهاء والأدباء . ونبغ فيها عدد كبير من أهل العلم والأدب ، يرقى بهذه المدينة إلى الدرجة العليا من الرقى الفكرى والمكانة العلمية .

فى هذه المدينة ولد ابن سيده وفيها نشأ ، وأكبر الظن أنه قضى عهد صباه وشطرا من شبابه بين الدرس والتحصيل على علمائها ممن نشئوا فيها أو من الوافدين إليها .

فالرواة يذكرون أن ابن سيده تلقى العلم على أبيه إسماعيل بن سيده ، وكان طبيعيا أن يسمع الفتى الناشىء من أبيه ويأخذ عنه ، وكان أبوه قيما يعلم اللغة ومن النحاة الأجلاء ، وقد روى عن أستاذه الزبيدى مختصر كتاب العين . وتوفى بمرسية بعد الأربعمائة بمدة ، كما ذكر ابن بشكوال .

ويذكر الرواة أيضا أن ابن سيده قد أخذ عن صاعد البغدادى الوافد على الأندلس زمن المنصور بن عامر ، وقد أخذ صاعد عن السيرافى وأبى

على الفارسى وغيرهما . وكان من العارفين باللغة وفنون الأدب والأخبار اتصل صاعد بالمنصور بن أبى عامر فأكرمه وأدناه منه ، وألف له صاعد كتاب الفصوص ، على نحو كتاب النوادر لأبى على القالى وتوفى بصقلية سنة ٤١٧ هـ .

وكذلك يروون أن ابن سيده أخذ عن أبى عمر أحمد بن محمد الطلمنكى وكان إماما فى القراءات ، ثقة فى الرواية مفسرا محدثا ، ودرس بقرطبة ثم بالمرية فمرسية فسرقسطة ، وكان مشهورا بالورع والشدة على البدع .

وهم يذكرون أن الطلمنكى حين دخل مرسية أراد أهلها أن يسمعوا عنه الغريب المصنف لأبى عبيد ، فقال لهم : انظروا من يقرأ لكم وأمسك أنا كتابى ، فأتوه برجل أعمى يعرف بابن سيده فقرأ عليه مداولة إلى آخر الكتاب من حفظه فعجب منه وتوفى الطلمنكى فى سنة ٤٢٨ هـ . عن تسعة وثمانين عاما . وهو أستاذ ابن حزم وابن عبد البر .

وإذا كنا لم نهتد إلى شيوخ له غير هؤلاء الثلاثة ، فمبلغ اليقين أن ابن سيده أخذ بمرسية عن بعض الأئمة من علمائها من أمثال : أبى الوليد بن ميقل محمد بن عبد الله البكرى المرسى . وكان أبو الوليد هذا — كما ذكر ابن بشكوال — فى الصلة (ت ١١٥٥ ص ٤٩٩ جـ ٢) — من أحفظ الناس لمذهب مالك وأصحابه وأقواهم احتجاجا له مع علمه بالحديث ، الصحيح منه والسقيم وأسماء رجال نقله ، والتعديل والتجريح ، والعلم باللغة والنحو والقراءات ومعانى الأشعار ، توفى بمرسية سنة ٤٣٦ هـ .

وكذلك من أبى غالب تمام بن غالب المعروف بابن التيانى وهو من علماء مرسية وكان كما وصفوه « إماما فى اللغة وثقة حجة » وله كتاب مشهور فى اللغة . وله مع أبى الجيش مجاهد العامرى قصة تروى حول هذا الكتاب حين غلب مجاهد على مرسية ، وكان أبو غالب بها فبعث إليه ألف دينار أندلسية على أن يزيد فى ترجمته : « مما ألفه تمام بن غالب إلى أبى الجيش مجاهد » فرد الدنانير ، وأبى أن يصرف فخر تأليفه لمجاهد . وتوفى أبو غالب بمرسية فى سنة ٤٣٦ هـ وهى السنة التى توفى فيها مجاهد .

ثقافته :

درس ابن سيده ما كان شائعا فى عصره ، من علوم اللغة والدين ، ونهل من مناهل العربية الصافية حتى وصفوه بأنه « كان حافظا لم يكن فى زمانه أعلم منه بالنحو واللغة والأشعار وأيام العرب » ، وقال هو عن نفسه : « إنى أجد علم اللغة أقل بضائعى وأيسر صنائعى ، إذا أضفته إلى ما أنا به من علم دقيق النحو وحوشى العروض وخفى القافية وتصوير الأشكال المنطقية ، والنظر فى سائر العلوم الجدلية » .

وكذلك توفر على علوم الحكمة والمنطق خاصة ، حتى وصفه صاعد بأنه من حذاق المنطق .

وقال فيه ابن قاضى شهبة فى كتابه طبقات النحاة : « ومن وقف على خطبة [كتاب المحكم علم أنه من أرباب العلوم العقلية : وكتب خطبة كتاب فى اللغة ، إنما تصلح أن تكون خطبة لشفاء ابن سينا » .

ويبين من المحكم ومشكل شعر المتنبى أن ابن سيده كان على جانب كبير من العلم بالقراءات : ويرجع هذا فيما نعتقد إلى ما أفاده من أستاذه أبى عمر الطلمنكى خاصة ، وما أفاده بدانية أثناء إقامته بها فى بلاط مجاهد العامرى وقد اشتهرت دانية زمن مجاهد بما فيها من العلماء وأئمة القراءات .

عصره :

ولد ابن سيده فى سنة ٣٩٨هـ فاستقبل حياته فى مختتم القرن الرابع ، وهى فترة خطيرة اضطربت فيها أحوال الأندلس عقب وفاة المنصور بن أبى عامر واشتعلت نار الفتن بين المتنازعين على السلطان والطامعين فى الملك . وقد استمرت القلاقل حينا طويلا تشد المتنازعين إليها وتلفهم بنار الفتنة وحر الموجدة ، كما ظل الصراع شديدا يستعر أواره ويبلغ غايته ، حتى يطيح بالدولة الأموية ويزول آخر خلفائهم فى سنة ٤٢٨ هـ .

ثم تفرق الأندلس أيدى سبا إلى عهد عرف بعهد ملوك الطوائف : وهو عصر — على الرغم مما صحبه من نهضة علمية وأدبية ، وما امتاز به

من ازدهار الثقافة وألوان المعرفة — كان أضعف العصور الأندلسيه وأوهنها ، حيث تقسمت الأندلس أقساما كثيرة . فكان لكل مدينة أو أمارة صاحبها متخذا لقب الأمير أو الملك ، واشتعلت نار الفتن بينهم جميعا ، فأخذوا يتحاربون ويتطاحنون . وبدت المدائن الأندلسية مخربة مختصمة ، متدابرة متنافرة . فكان كل أمير إذا أحس بالقوة أو آنس فى نفسه البأس صرف تلك القوة ووجه هذا البأس فى سبيل تحقيق مجده الشخصى ، فلا يلبث أن ينقض على جاره فيدرأ هذا الخطر عنه ، فيتحالف مع جار أقوى ، أويستنصر بجيرانه من الأسبان ، ومضوا على ذلك طوال أيامهم ، حتى وهنت قوتهم ولانت قناتهم فأغار عليهم عدوهم من المسيحيين فاضطروا إلى الاستنجاد بالمرابطين .

عاش ابن سيده فى هذا العصر ، عصر الفتنة التى أطاحت بالدولة الأموية ثلاثين عاما كملا . وعاش فى عصر الطوائف إلى أن توفى فى سنة ٤٥٨ هـ ثلاثين عاما كذلك . وشاهد توزع السلطان فى أيدى هؤلاء الأمراء ، وأبصر ماكان من اصطناعهم لمظاهر العظمة والأبهة وتنافسهم فى تقريب العلماء والأدباء . إذ كان أعظم مباهاتهم « قول العالم الفلانى عند الملك الفلانى . والشاعر الفلانى مختص بالملك الفلانى » .

فأخذ العلماء والأدباء يتوافدون على قصور هؤلاء الأمراء . وكان ابن سيده أحد العلماء الوافدين على دانية فى زمن مجاهد العامرى .

اتصل ابن سيده بمجاهد ، وكان مجاهد من أصحاب الهمة وذوى الجرأة : فحين عصفت الفتنة بدولة ابن أبي عامر ، قصد مجاهد إلى الجزائر التى بشرقى الأندلس معَ من تبعه فغلب عليها وحماها ، ثم غلب على دانية واتخذها قصبة إمارته .

وكان مجاهد كما وصفوا من أشد الناس شغفا بالعلم وحبا للعلماء . فكانت دولته — كما ذكر صاحب البيان — أكثر الدول خاصة ، وأسراها صحابة (البيان ص ١٥٦) .

ومن أجل ذلك قصده العلماء والفقهاء من كل صقع وجنس : وألفوا له تواليف مفيدة فى سائر العلوم ، فأجزل على ذلك صلاتهم بآلاف الدنانير ؛ ومضى على هذا طوال عمره .

وكان ابن سيده منقطعا إلى أمير دانية ، كما يقول الفتح بن خاقان ، فى مطمح الأنفس ، وإلى هذا الأمير ألف أجل كتبه : المخصص ، والمحكم .

حظه من المعارف :

وصفه أبو نصر الحميدى فى جذوة المقتبس بقوله : « إمام فى اللغة وفى العربية حافظ لهما ، على أنه كان ضريرا . وقد جمع فى ذلك جموعا . وله مع ذلك فى الشعر حظ وتصرف » .

ويقول السيوطى فى بغية الوعاة : « كان حافظا لم يكن فى زمانه أعلم منه بالنحو واللغة والأشعار ، وأيام العرب وما يتعلق بها ، متوافرا على علوم الحكمة » .

ويقول عنه ابن قاضى شهبة فى طبقات النحاة : « وكان ابن سيده ثقة فيما ينقله من اللغة وغيرها ، قوله حجة، ولكنه عثر فى المحكم عثرات . وكان متوافرا على علوم العربية متوافرا على علوم الحكمة . وألف فيها تواليف كثيرة . ومن وقف على خطبة كتاب المحكم ، علم أنه من أرباب العلوم العقلية . وكتب خطبة كتاب فى اللغة ، إنما تصلح أن تكون خطبة لشفاء ابن سينا » .

ويقول ابن حجر فى لسان الميزان (جـ٤ ص ٢٠٥) : « كان من أعلم أهل عصره باللغة حافظا لها جمع فيها عدة تصانيف نافعة » .

وبعد أن أشار ابن حجر إلى مآخذ السهيلى عليه فى نقض الصحيفة ورمى الجمار ، عقب على ذلك بقوله : قلت : والغالط فى هذا يعذر لكونه لم يكن فقيها ولم يحج . ولا يلزم من ذلك أن يكون غلط فى اللغة التى هى فنه الذى تحقق به ... »

مؤلفاته :

كان ابن سيده إماما حافظا ، صافى الذهن ، جيد الملكة ، غزير المادة ، واسع الاطلاع ، وافر المحصول ، جامعا لأشتات الفرائد .

وقد خلف للعربية من بدائع التأليف وروائع التصنيف عدة كتب نافعة ، وصل إلينا بعضها ، وفقد بعضها ، أو هو لايزال فى أحراز بعيدة ، لم تصل إليها الأيدى ، فلم يعرف عنه غير عنوانه ، أو إشارات يسيرة إلى حجمه وموضوعه .

والرواة يذكرون أن له كتابا فى شرح الحماسة لأبى تمام سماه «الأنيق» فى ستة مجلدات . كما أن له كتابا فى شرح إصلاح المنطق لابن السكيت ، وقد ذكره حاجى خليفة فى كشف الظنون باسم «العويص» .

وله كتاب شاذ اللغة فى خمسة مجلدات ، كما يروون أن له تأليفا مبسوطا فى المنطق ، ولم يذكر عنوانه ولم يعثر عليه بعد .

على أن ابن سيده قد ذكر فى مقدمة المحكم ثلاثة كتب من تأليفه ، وربما كانت أربعة ، وهى :

كتاب «الوافى فى علم القوافى» (١) وسماه فى موضع آخر «الوافى فى أحكام القوافى(٢)» .

ومن حديثه عنه ؛ أنه عالج فيه دقائق النحو والصرف ، كما عرض فيه لنقد باب عيوب الشعر ، وطرائف قوافيه فى كتاب الغريب المصنف لأبى عبيد القاسم بن سلام .

وكذلك كتاب نقد فيه الأمور الصرفية والمسائل النحوية من كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت . وقد يكون ذلك الكتاب ، هو الذى عرف باسم العويص . فيكون الكتاب شرحا ونقدا .

وكتاب آخر فى التذكير والتأنيث . قال عنه : «وأما ما أتركه من

---

(١) المحكم ص ٢٠

(٢) المحكم ص ١٠

الأشعار بالتذكير والتأنيث ، فإنما ذلك لأنى قد أفردت له كتابا لم يوضع فى معناه مايوازيه فضلا عما يساويه . وكذلك الممدود والمقصور » .

وقد يكون فى هذه العبارة الأخيرة ، مايشعر بأن له تأليفا فى الممدود والمقصور .

أما ماوصل إلينا من مؤلفات ابن سيده ، فكتب ثلاثة : المخصص ، والمحكم ، والمشكل من شعر المتنبى .

والمحكم ، أحد الأصول اللغوية الستة التى اعتمد عليها ابن منظور فى لسان العرب . أما الأصول الأخرى فالتهذيب للأزهرى ، والصحاح للجوهرى والحواشى عليه لابن برى ، والنهاية فى غريب الحديث لابن الأثير ، وجمهرة ابن دريد . ويكاد يكون الأساس الأول فى اللسان، هو مانقله ابن منظور عن ابن سيده فى المحكم .

وقد طبع المخصص فى سنة ١٣١٦هـ فى سبعة عشر جزءا ، كما تم تحقيق المحكم وبدأت الجامعة العربية فى نشره(١).

أما المشكل من شعر المتنبى فهو الكتاب الذى قمنا بتحقيقه ونقدمه الآن بين أيدى الباحثين .

والسؤال الذى يعرض لنا الآن هو : أى هذه الكتب الثلاثة كان المؤلف أسبق إلى تأليفه ؟ وما هو الترتيب بينها جميعا ؟

وجوابنا على ذلك أن المخصص كان أسبق الكتب الثلاثة تصنيفا . فقد ألفه ابن سيده قبل المحكم ، وقد أشار حاجى خليفة فى كشف الظنون إلى ذلك . على أن المحكم حافل بنصوص كثيرة يشير فيها ابن سيده إلى ماسبق أن شرحه فى المخصص .

---

(١) شارك محققا هذا الكتاب فى تحقيق بعض أجزاء المحكم .

فى الجزء الأول من المحكم ص ١١٥ مادة (جدع) يقول ابن سيده ·
« وجدع الغلام جدعا فهو جدع : ساء غذاؤه . قال أوس :

وذات هدم عار نواشرها تصمت بالماء تولبا جدعا

وقد ذكرت تصحيف بعض العلماء لهذه الكلمة فى هذا البيت فى الكتاب المخصص .

وفى الجزء الأخير من المحكم فى (باب النون والباء والواو) يقول ابن سيده :
« نبا بصره عنه نبوا . وابناء فارس قوم من أولادهم ، ارتهنوا باليمن . وللأب والبنت أشياء كثيرة تضاف إليها قد جمعتها وتقصيتها فى الكتاب المخصص » .

وفى موضع آخر من هذا الجزء يقول : « الأم القصد . وقالوا : ما أنت وأم الباطل . أى ما أنت والباطل . وللأم أشياء كثيرة تضاف إليها قد أبنتها فى الكتاب المخصص » .

وفى (باب النون والباء والهمزة) فى هذا الجزء أيضا يقول : « النبأ الخبر ، والجمع أنباء . وتنبأ الرجل : ادعى النبوة .

وقد أنعمت شرح هذه الكلمة وأبنت اشتقاقها فى الكتاب المخصص .

فهذه النصوص قاطعة بأن المخصص كان أسبق إلى تأليفه من المحكم غير أننا نجد ابن سيده قد ذكر اسم المخصص فى مقدمة المحكم كما ذكر المحكم فى مقدمة المخصص .

قال فى مقدمة المخصص : « ومبين قبل ذلك لم وضعته على غير التجنيس بأنى لما وضعت كتابى الموسوم بالمحكم مجنسا ، لأدل الباحث على مظنة الكلمة المطلوبة ، أردت أن أعدل به كتابا أضعه مبوبا ، حين رأيت ذلك أجدى على الفصيح المدره والبليغ المنوه » فدل ذلك على أنه ألف المحكم قبل المخصص .

وقال فى مقدمة المحكم « . . . فألفت كتابى الملخص الذى سميته

المخصص وهو على التبويب فى نهاية التهذيب . ثم أمرنى بالتأليف على حروف المعجم فصنفت كتابى الموسوم بالمحكم » فدل ذلك على أنه ألف المخصص قبل المحكم :

فكيف نوفق بين ما جاء فى هاتين المقدمتين من ذكر اسم المحكم فى مقدمة المخصص واسم المخصص فى مقدمة المحكم ، وقد أوردنا من النصوص ما يقطع بأن المخصص كان أسبق إلى التأليف من المحكم ؟ والجواب على ذلك يسير .

فالمعروف أن المقدمة توضع عقب الفراغ من التأليف . فإذا كان ابن سيده قد استجاب لرغبة الأمير كما هو نص قوله السابق ، فبدأ فى المحكم بعد المخصص دون إبطاء ، فمعنى هذا أنه كتب مقدمة المخصص فى الوقت الذى شرع فيه فى عمل المحكم . أو على الأقل فى الوقت الذى انتهى فيه تصميم فكرة المحكم وترتيبه ونظام مواده . وهذه العبارة التى ورد فيها ذكر المحكم فى مقدمة المخصص ، إنما قصد بها إلى التمييز بين طريقتيه فى هذين المعجمين الكبيرين ، بين المخصص الذى أتمه وأكمله ، وبين المحكم الذى شرع فيه . وفى الوقت نفسه قد عبر بها عن أمنيته فى إتمام معجم كبير كالمحكم .

أما كتابه المشكل من أبيات المتنبى ، فكان تاليا فى التأليف للمخصص والمحكم . وفى الكتاب نفسه اشارات تبين ذلك .

ففى شرح ابن سيده لبيت ذى الرمة :

رخيمات الكلام مبتــلات جواعل فى القنا قضبا خدالا

يقول : مبتلات بالكسر ، أى مقطعات للكلام يبهرن المنطق نغمة فحذف المفعول . ومن رواه مبتلات ، فقد كفاك . لأن المبتلة لفظ المفعول وهى من النساء التى كل شىء منها حسن على حدة ، كأن الحسن بتل على كل جزء منها أى قطع . وقد أثبت هذا فى كتابى الموسوم بالمخصص فى اللغة » .

وفى شرحه لقول المتنبى :

« وقيدت الإبل فى الحبال »

يقول : « « وقد أثبت الابل واشتقاقه ووزنه وتكسيره وما فيه من اللغات فى كتابى الموسوم بالمحكم » .

شرح ديوان المتنبى :

أول من شرح ديوان المتنبى ، أبو الفتح بن جنى ، وكان طبيعيا أن يعرض عالم نحوى لغوى جليل كابن جنى لديوان شاعر كبير كالمتنبى ، ملأ الدنيا بشعره وشغل الناس .

فقد عرف ابن جنى أبا الطيب فى بلاط سيف الدولة الحمدانى بحلب ، وكان قصر هذا الأمير كغيره من قصور الأمراء فى ذلك الحين ، متلئ يؤمه أفذاذ العلماء ونوابغ الأدباء من شتى الأقطار والأمصار .

وعند سيف الدولة اجتمع أبو الفتح بأبى الطيب ، ونشأت بين العالم الجليل والشاعر الكبير صلة وصحبة ، وتآلفا . ودامت بينهما الصحبة والمودة ، وتوثقت بينهما الصلة والملازمة . ثم قدر لأبى الفتح أن يخدم فى بيت آل بويه بشيراز فى عهد عضد الدولة البويهى وبنيه : صمصام الدولة ، وشرف الدولة وبهاء الدولة . ولبهاء الدولة ألف ابن جنى كتابه « الخصائص » .

وذهب المتنبى إلى شيراز فالتقى بصديقه أبى الفتح عند عضد الدولة ، واستمرت المحبة بينهما قوية متينة . عرف فيها كل واحد منهما صاحبه عن قرب وخبرة . فكان المتنبى يجل أبا الفتح ويحله من نفسه أرفع محل ويقول عنه : « إنه رجل لايعرف قدره كثير من الناس » وكان إذا سئل عن شىء من دقائق النحو والتصريف يقول : « سلوا صاحبنا أبا الفتح » . كان كما يقول العمرى فى مسالك الأبصار « إذا سئل عن معنى قاله ، أو توجيه إعراب ، حصل فيه إغراب ، دل عليه وقال : عليكم بالشيخ الأعور ابن جنى ، فسلوه فإنه يقول : « ماأردت ومالم أرد (١) » .

---

(١) مسالك الأبصار ٤ : ٣٠٦

وكذلك عرف ابن جنى قدر أبى الطيب، صاحب المعانى الدقيقة والبصر النافذ والحكمة الخالدة والمثل السائر والاحاطة بالعربية، فأعجب به أيما إعجاب. وكان دائم الثناء عليه فى تآليفه والاستشهاد بشعره فى المعانى والأغراض المختلفة، ويعبر عنه بشاعرنا كما نرى ذلك فى الخصائص، إذ يقول : « وحدثنى المتنبى شاعرنا وما عرفته إلا صادقا (١) » .

شرح أبو الفتح ديوان المتنبى شرحين : الشرح الكبير ، والشرح الصغير ، والأخير هو الموجود الآن .

وقد تعقب النقاد والمعاصرون شرح أبى الفتح . وعلى الرغم من أن ابن جنى كان من الكبار فى صنعة الإعراب والتصريف ، لم يوفق فى شرح شعر أبى الطيب ، وقالوا عنه : إنه إذا تكلم فى المعانى تبلد حماره ، واستهدف شرحه للمطاعن والمآخذ .

وكان من الناقدين لشرح ابن جنى ، على بن عيسى الربعى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ ، وهو ممن شارك ابن جنى فى الأخذ عن أبى على الفارسى . فألف كتاب التنبيه على خطأ ابن جنى فى تفسير شعر المتنبى .

وكذلك ابن مؤرجه أبو على محمد بن حمزة . فإنه ألف كتابين كبيرين على شرح معانى المتنبى ؛ سمى أحدهما « التجنى على ابن جنى » والآخر « الفتح على أبى الفتح » ورد فيهما على ابن جنى فى شعر المتنبى .

ثم اختلف الناس بعد ذلك فى شعر المتنبى ، فقوم يتعصبون له ويفضلونه فى الشعر على جميع أهل زمانه . وآخرون يتعصبون عليه فلا يعدونه من الشعراء ويزرون بشعره .

ويشغل الناس بالمتنبى ، وتقوم حركة أدبية واسعة حول شعره وتتعاقب الشروح لديوانه .

وحسبنا أن نقف عند ما أحصاه حاجى خليفة فى كشف الظنون من هذه الشروح ، لنتبين إلى أى مدى كانت عناية الأدباء واهتمامهم بشعر المتنبى :

---

(١) الخصائص جـ ١ ص ٢٣٩

فقد شرحه أبو المظفر الهروى كمال الدين محمد بن آدم المتوفى سنة ٤١٤ هـ .

وشرحه أبوالعلاء المعرى المتوفى سنة ٤٤٩هـ ، وسماه اللامع العزيزى أو معجز أحمد .

وشرحه أبوالحسن محمد بن عبدالله العجلى المتوفى بمصر سنة ٤٦٠ هـ وكان فاضلا نحويا من أصحاب أبى على السرمانى .

وشرحه الامام أبوالحسن على بن أحمد الواحدى المتوفى سنة ٤٦٨ هـ وهو من الشروح الجليلة النفع ، الكثيرة الفائدة .

وشرحه عبد الله بن أحمد الشامانى المتوفى سنة ٤٧٥ هـ .

وكذلك أبوعبدالله سلمان بن عبدالله الحلوانى المتوفى سنة ٤٩٤ هـ .

وعبدالقاهربن عبدالله الحلبى النحوىالمعروف بالوأواء المتوفىسنة ٦١٣هـ،

وأبوالبركات مبارك بن أبى الفتوح أحمد المعروف بابن المستوفى الإربلى المتوفى سنة ٦٣٧ هـ ، وقد شرحه فى عشرة مجلدات وسماه « النظام » وبدار الكتب نسخه منه بعنوان : «شرح المشكل من ديوان حبيب أبى الطيب » ، فى مجلدين كبيرين .

فإذا تركنا هؤلاء الشراح من أدباء المشارقة وذهبنا إلى الأندلس رأينا مشاركتها فى شرح ديوان المتنبى .

فقد شرحه أبو القاسم بن الافليلى المتوفى سنة ٤٤١ هـ كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

وشرح المشكل من أبياته أبوالحسن على بن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ هـ .

ثم شرح الديوان كله أبو محمد عبدالله بن السيد البطليوسى المتوفى سنة ٥٢١ هـ .

والسؤال الذى يعرض لنا الآن هو : لماذا قصد ابن سيده إلى شرح المشكل من أبيات المتنبى ولم يشرح الديوان كله ؟

وجوابنا على ذلك أن ابن سيده كان معجبا بالمتنبي ، إعجابه بابن جني . وقد تناول الأدباء في المشرق شرح ديوانه منذ ظهر ، وصدر عليه شروح كثيرة كان أولها شرح ابن جني .

وغير خفي أن كتب ابن جني وأبي على الفارسي ، تعتبر بناء جديداً في النحو بعد بناء سيبويه . وكان ابن سيده أشد حرصا على نقل كلام ابن جني في المحكم وذكر توجيهاته في كل مناسبة .

وحين شرح ابن جني ديوان المتنبي ، أعجب به ابن سيده ، لكن هذا الشرح قد تعقبه النقاد كالربعي وابن فورجه وغيرهما من الأدباء . ومن مجموع ماقام به ابن جني وما اعترض عليه في شرحه ، وجدت الفكرة عند ابن سيده في شرح شعر المتنبي .

ولكن ابن سيده لايلجأ إلى شرح الديوان كله ، وإنما يتجه إلى ما كان سببا للخصومة ، ومثاراً للجدل ، مما أشكل من أبياته وما استغلق من معانيه وما استبهم من تراكيبه ، فيتناولها في عمق من حيث اللغة ، ومن حيث الوزن ومصطلحات العروض ، ومن حيث المعاني والدقائق النحوية والمسائل الصرفية . يتعمق في التحليل ، ويستقصي القواعد ، ويجمع الصيغ ، ويتلمس التعليلات والتخريجات ، ويكثر من الاستشهادات النحوية والآراء اللغوية ، والنقل عن سيبويه خاصة ، وهكذا حتى يتضح البيت المشكل ويتم فهم معناه .

الأمر الثاني الذي حدا بابن سيده إلى شرح المشكل من شعر المتنبي ، أن شعر المتنبي صادف هوى في فؤاد هذا العالم الحكيم ، وأشبع فيه رغبته الفلسفية ، كما أن مشكلات المتنبي اللغوية كانت مادة خصبة لما فيها من دقائق النحو والتصريف .

فإذا كان ابن سيده يرى أن من أبرز ماتضمنه كتاب « المحكم » ، تمييز أسماء الجموع من الجموع ، والتنبيه على الجمع المركب المسمى عند النحاة بجمع الجمع ، والفرق بين التخفيف البدلي والتخفيف القياسي ، أو الفرق بين القلب والبدل ، أو التنبيه على شاذ النسب والجمع والتصغير ، فإنه واجد هذه الدقائق عند المتنبي .

فكان عليه وهو من المعجبين به ، أن يطيل الوقوف عندها وأن يجعل كتابه فيها ؟

وحسبنا أن نجيل النظر فى شرح المشكل من أبيات المتنبى ، لنرى شاذ النسب فى تصغير «أينسيان» فى قول المتنبى: « له ياربى حروف أينسيان» ونرى الفروق بين الجموع وأسماء الجموع فى مواضع كثيرة ؛ ونرى الفرق بين التخفيف البدلى والتخفيف القياسى فى غير موضع .

وابن سيده فى كل هذا وأمثاله ، يسهب فى الشرح ويمعن فى التوضيح ويربط كل ذلك بشواهد من الكتاب لسيبويه .

وقد يتكرر شرحه لمسألة من المسائل، ثم يبين سبب ذلك ، كما فى قول المتنبى :

(ولو جعلت موضع الآلال لآلئا طعنت باللآلى)

فيقول فى ختام شرحه :

« وقد بينت ذلك غير دفعة فى هذا الكتاب وفى غيره من كتبى وإنما أعدته لطرافته ودقته ،وأنه لا يفهمه إلا الندرب ، فمن أنس به أحبه ووالاه ، ومن ناقده قلنا له : من جهل شيئا عاداه » .

نسخ الكتاب ومنهجنا فى تحقيقه

فى سبيل تحقيقنا لهذا الكتاب ، كان علينا أن نبحث عن نسخه فى مظانها وأماكن وجــودها ، فى فهارس مكتباتنا العربية من جهة ، وفى فهارس المكتبات الأجنبية وخاصة كتاب بروكلمان من جهة أخرى .

ففى دار الكتب المصرية ، عثرنا على نسختين من الكتاب إحداهما كتبت سنة ١١٦٨ هـ ، والأخرى صورت عن الأصل المخطوط المحفوظ بمكتبة تونس .

ثم بحثنا فى المكتبة التيمورية ، ومكتبة طلعت ، والمكتبة الزكية ، ومكتبة الأزهر ، والمكتبة الأحمدية بطنطا ، ومعهد المخطوطات بالجامعة العربية ، فلم نجد بين فهارسها إشارة إلى وجود هذا الكتاب بين ماتحويه هذه المكتبات .

ثم بحثنا فى فهرس مكتبة مدريد ، وفهرس مكتبة الاسكوريال ، فلم نجد ذكرا لهذا الكتاب فى فهارسهما أيضا .

وكذلك رجعنا إلى بروكلمان فلم نجــده يذكر من نسخ هذا الكتاب سوى نسخة دار الكتب (٢ أدب م) وذلك فى صفحة ١٤٢ من ملحق الجزء الأول .

فكان اعتمادنا بعد ذلك فى تحقيق هــذا الكتاب على هاتين النسختين الموجودتين بدار الكتب ، وهما نسختان نفيستان .

وصف النسختين :

أولا ـ نسخة دار الكتب رقم (٢ أدب م) .

وهذه النسخة مكتوبة بخــط النسخ الجميل ، كتبها حسين القرافى الشافعى ، وفرغ من كتابتها فى ٢٣ صفر سنة ١١٦٨ هـ ، وعنوان الكتاب فيهــا :

« هذا شرح مشكل أبيات المتنبى » وضع أبى الحسن على بن إسماعيل المعروف بابن سيده .

وتشتمل النسخة على ١٨٩ لوحة، وبكل لوحة صفحتان ،وفى كل صفحة تسعة عشر ســطرا . وقد صورت عنها نسخة أخرى حفظت بدار الكتب برقم ١٣٨٤١ ز .

ثانيــا – مصورة دار الكتب المنقولة عن المخطوطة المحفوظة بمكتبة تونس ، وقد كتبت بالخط المغــربى، ولم يذكر فيها اسم ناسخها ولا تاريخ نسخها ، وعنوان الكتاب فيها :

« شرح ابن سيده على مشكلات المتنبى » .

وبالنسخة سقط يسير فى بعض العبارات . وقد حفظت بدار الكتب برقم ١٩٨٧٧ ز .

منهجنا فى تحقيق الكتاب :

منهجنا فى تحقيق هــذا الكتاب ، هو منهجنا وطريقنا فى تحقيق جميع مانشرناه من قبل من كتب التراث العربى . وهذا المنهج يهدف دائما إلى تحقيق غرضين أساسيين :

الأول : تقويم النص وإخراجه صحيحا سليما كما صدر عن مؤلفه .

الثانى : أن يكون الكتاب فى تحقيقه كاملا مستوفى ، بحيث يستغنى به القارىء عن غيره ، فلا يضطر إلى الرجوع إلى مصادر أخرى .

ولما كان ابن سيده قد عنى كثيرا بالدقائق النحوية والمسائل الصرفية والنقل عن سيبويه خاصة ، فقد عارضنا الأصل على مانقل من « الكتاب » لسيبويه ، كما رجعنا إلى الأصول النحوية والمعاجم اللغوية فى كل مايتصل باللغة والنحو .

وبعد . فها هو ذا « المشكل من أبيات المتنبي لابن سيده اللغوى »
صورة للعـــالم المتمكن . ذى العقل الخصب ، والتفكير الناضج : حققنا
أصوله ، وحررنا نصوصه ، وجلونا غامضه .

ونقدمه اليوم إلى قراء العربية : شرحا وافيا من أجل الشروح لمشكلات
شعر المتنبي وأجزلها فائدة ، وذخيرة من أنفس ماخلفته السنون ، واحتفظت به
الحقب من تراث الأجيال : راجين أن يعم به النفع ، والله المرجو والمؤمل .
ومنه العون والتوفيق ،

المحققان

مصطفى السقا حامد عبد المجيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ

قال أبو الحسن على بن اسماعيل النحوى المعروف بابن سيده :
قال أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبى رحمه الله تعالى :

- ١ -

(أَبْلَى الْهَوَى أَسَفًا يومَ النَّوى بَدَنِى وَفَرَّقَ الْهَجْرُ بَيْنَ الْجَفْنِ والوَسَنِ)

يذهب الناس الى أن أسف البعد هو الذى أبلاه على عادة البِلَى وإنما قصد المبالغة ،أراد أن البِلَى يعمل فى الأجسام حالًا فحالا على الأيام . وقد عمل فيه ليوم واحد ، وهو يوم النّوى ، عمله لسنين .

- ٢ -

وقال :

(ظَلْتُ بها تَنطَوِى عَلَى كَبِدٍ نَضِيجةٍ فَوقَ خِلْبِها يَدُها)

ظلت : أقمت ، والخِلبُ : غشاوة الكبد ، والبيت مضمَّن بالأول وهو أبعد ما بان عنك خُرَّدُها .

فالعامل فى أبْعَدَ ،ظلت ، كأنه قال: ظلت لها بَعْدَ ما بان خُرّدُها ، والمعنى : بعدما بأن خردها ، ظلت منطوياً على كبد قد أنضجها التوجع وأذابها التفجّع ، و (عليها يدها) :

إنما توضع اليد على الكبد خشية من ضعفها .

يريد بذلك ، وكذلك يُفْعَل بالفؤاد ، كقول الآخر :

وضعتُ كفِّي عَلَى فُؤادىَ مِنْ نار الهوى وانْطَويت فَوق يَدِى

وأكثر الناس على أن (نَضِيجَة) ، صفة للكبد فى اللفظ والمعنى ، لاحظّ لليد فى النُّضج ، وإنما يريد أن اليد موضوعة على خِلب الكبد فقط ، ويُقَوِّيه البيت الذى أنشدناه ، وهو (وضعت كفى على فؤادى من . . . نار الهوى . . .) .

وقد يجوز أن يكون (نضيجة) صفة للكبد فى اللفظ ، ولليد فى المعنى ، أى على كبد قد نضجت يدها على خلبها من حرارتها ، وهذا أبلغ ، لأنه إذا أنضجت اليد وهى موضوعة على الخلب من حر الكبد ، فما الظن بالكبد ؟ فإذا كان المعنى على هذا ، جاز فى (نضيجة) الجر والرفع . فالجر على الصفة للكبد فى اللفظ ، والرفع على أن يكون خبر مبتدأ ، وذلك المبتدأ هو اليد ، كأنه قال : يدها نضيجة فوق خلبها . وهذا كما تقول : مررت بامرأة ظريفة أمها ، فالظرف فى اللفظ للمرأة ، وفى الحقيقة للأم . وإن شئت قلت : ظريفةٌ أمُّها ، أى أمُّها ظريفةٌ .

وأما إذا كانت النضيجة صفة للكبد فى اللفظ والمعنى ، فإنه لا يكون فيها إلاّ الجرُّ . وكون (نضيجة) صفة لليد ، أبلغ فى المعنى ، لأنها حينئذ نضيجة بما ليس فى ذاتها . وإذا كانت نعتاً للكبد ، فهى نضيجة بما فى ذاتها . واحتراق الشىء بما ليس فى ذاته ، أبلغ من احتراقه بما فى ذاته وإنما يريد أنه إذا وضع يده على كبده متألِّماً نضجت اليد بحر الكبد ، كقوله :

هل الوجد إلا أن قلبى لودنا من الجمر قِيد الرمْحِ لاحترق الجمرُ

وهذا عندى أبلغ من قول المتنبى ، لأن اليد إذا كانت على خلب الكبد ، فهى أقرب إلى الحرّ من الفؤاد من الجمر ، إذا كان بينه وبين الجمر قِيدُ رُمح ، مع أنه جعل الجمر النارىّ محترقاً من حر فؤاده . فحر الفؤاد إذن أشد من حر الجمر .

(شابَ من الهجر فرْقُ لِمَّتِهِ فصار مثل الدِّمَقْسِ أسْودُها)

وفى هذا البيت ثَرْمَلَةُ صنعة ، قال : (فَرْقُ لِمته) فخص جزءاً من اللمة. ثم قال : أسودُها ، فعَمَّ ، لكن قد يجوز أن يعود الضمير إلى الفرق ، وإن كان الفرق مذكراً ، لأن المذكر إذا كان جزءاً من ذات المؤنث جاز تأنيثه .

أنشد سيبويه :

وَتَشْرَقُ بالقول الذى قَدْ أذعْتَهُ كما شَرِقَتْ صدرُ القناةِ من الدَّمِ

وقد يجوز أن يريد بياض اللِّمة كلها ، وخص الفَرْقَ ، لأنه معظم الرأس ، ثم أعاد الضمير إلى اللِّمة . وإنما وجْهُ استواء الصنعة لو اتَّزن له ، وحَسُن فى القافية أن يقول :

شابتْ من الهَجْر لِمَّتُـهُ فصار مثل الدمَقْسِ أسودُها

أو يقول : (أسودُه) بعد قوله (لِمتّه) وأسودُها هنا : ليست مفاضلة ، إذ لو كان ذلك ، لكان أشد سواداً .

وقد يجوز أن يكون أراد المفاضلة ، فقد جاء ذلك شاذاً ، فقوله أسودها يريد به مُسوَدّها كما يقول : هو أسود القوم أى الأسود فيهم .

(كيف يحيك المَلامُ فى هِمَمٍ أقربُها منك عَنْكَ أبْعدُها)

كيف يكون أقربُ شيء أبعدَ شيء ! هذا خُلْفٌ إذا حُمل على ظاهره لكن لو قال : أقربها منك بعيد عنك ، كان حسناً ، ولكن الذى أراده : أقربها عندك مثل الذى أبعدُها . فالجملة فى موضع الصفة لهمم . أى أقربها منك عندك أبعدُها منك على الحقيقة .

(أَحْيَيْتُهَا وَالدُّمُوعُ تُنْجِدُنِي شُئُونُهَا والظَّلامُ يُنْجِدُهَا)

أحييتها : يعنى الليالى . تنجدنى : تعيننى . والشئون : مجارى الدمع ، واحدها شأن . أى أحييت الليالى بالسهر والبكاء .

ومعنى البيت : إن شأن الدمع أن يخفف الحزن ، كقول البحترى :

إن الدموع هى الصبابة فاطرح بعض الصبابة واسترح بهمومها

وهذا كثير فى أشعار العرب . وهو عندنا موجود بالمشاهدة ، فكأن الدمع يعينه على طول الليل ، وإعانة الدمع للمحزون على الحزن ليلاً ، أجدى من إعانته عليه إياه نهاراً ، لأن المحزون يتسلى نهاراً بما يتأمله ، وينظر إليه ، والظلام يقصر الطرف عما يتشاغل به المحزون نهاراً ، فيفرغ الحزين عند ذلك إلى الدمع ، لا يجد مُعيناً غيره . قال : (والظلام ينجدها) أى أن الظلام إذا قَصَر الطرف عما يتشاغل به المحزون ، زاد الليل بذلك طولاً . فكأن الظلام أنجد الليل عليه بقَصْره طرفه عن النظر إلى ما يتشاغل به . ولذلك قال الشاعر :

بلى إن للعينين فى الصبح راحة لطرحيهما طَرْفيهما كل مَطرَحِ

وقوله : (والدموع تنجدنى) جملة فى موضع الحال من التاء فى أحييت .

وقوله : (والظلام ينجدها) جملة فى موضع الحال من الهاء التى فى

أحييتها ، أى أحييت الليالى وأنا تنجدنى دموعى بالتسلية ، وهى ينجدها الظلام بالتطويل لها .

(لا ناقتى تقبلُ الرَّديفَ ولا بالسَّوْط يَومَ الرِّهانِ أُجهِدُها)

حاجَى بهذا البيت ، وإنما عنى نَعْلَه ، فكنى عنها بهذا النوع من الحيوان لأن الماشى يعلو نعله كما يعلو الراكب ناقته ، ونفى عنها ما لا يكون لاحقاً لغير الحيوان المركوب ، يخرجها بذلك من نوعه . ثم بين هذه الأُحجيَّة فقال :

(شِراكُها كُورُها ومِشفَرُها زِمامُها والشُسُوعُ مِقوَدُها)

أى كل واحد من طوائف هذه النَّعل يحل محل الأرداف من الناقة ، فجعل شراكها كالكور ، وهو ما يقع على القدم من النَّعل ، لأنه على وسطها ، كما أن الكور على وسط الناقة ، والزمام أمامها ، كما أن مِشفَر الناقة أمامها ، والشُّسُوع مِقْودها ، وذلك أنه يَفْضل عن ذات النعل ، كما أن المِقْوَد يفضل عن المقود .

وكان ينبغى أن يقول : وشِسْعها مقودها فيفرد ، كما قال : شراكها وزمامها ، لكنه جمع عَلَى أن كل طائفة من الشِّسْع شِسْعٌ ، وكذلك كان ينبغى أن يقول لو اتَّزن له : (وزمامُها : مِشْفرها) ، كما قال : (شراكُها : كورُها ، وشسوعها: مِقودها) ، فبدأ بطوائف النعل قبل أداة الإبل ، لكن حَسَّن عندى ابتداءه بالمِشْفر أن المشفر ذاتى ، والكور والمقود من الأداة ، لا من الذات .

(يا لَيتَ بى ضَربةً أُتيحَ لَها كما أُتِيحَتْ له مُحمَّدُها)

معنى إتاحة الضربة له : حُلُولها به ، ومعنى إتاحة محمد لها : نبوُّها عنه ، واحتماله لها ، وتأثيره فيها برغمه ، وكذلك كل حال وذى حال كل واحد منهما مُتاح لصاحبه ، وأراد أتيح لها محمدها كما أتيحت هى له .
وأتيح : قُدِّر .

ويجوز أن يكون أراد أن الضربة ندمت حين وقعت به ، لأنها لم تكن بحق ، فكان ذلك الندم تأثيراً فيها ، وكذلك السيف ضربَ غيرَ مُستَحق . وكل ذلك مجاز واتساع . أى قدر محمد للضربة كما قُدرت ، فكان هو المؤثر فيها ، ألا ترى بعده :

(أثر فيها وفى الحديدِ وَمَا   أُثِّر فى وجهـه مُهنَّدُها)

أثر فى الشىء : غادر فيه أثراً ، ولا يكون التأثير إلا فى الجواهر ، كقولك : أثر المطر فى الحائط والخَسْف فى الأرض ، وأثر المرض فى الجسم . ولا يكون ذلك فى العرَض ، وقد اقتسم قوله : (أثر فيها وفى الحديد) جوهراً وعرضاً ، أما الجوهر فالحديد والتأثير فيه شائع ، وأما الماء فى قوله : (فيها) فعَرَضٌ ، لأنها كناية الضربة التى فى قوله :

* يا ليت بى ضربة أتيح لها *

وإنما لم يصح التأثير فى العرَض لأن التأثير أيضاً الأثَرُ . والأثر عَيْنٌ ، والعين لا يكون إلا فى عين مثله ، أعنى بالعين : الجوهر ، إذ لا يحمل الجوهرَ إلا جوهر . وأما العرَض فليس بعين ، فيكون حاملا لعين آخر . فإذن قولُه : (أُثِّر فيها) استعارة ومجاز غريب . كأنه توهم الضربة عَيْناً ، بل هو عندى أبلغ ، لأنه إذا أمكنه التأثير فى العرَض كان له الجوهر أمكن ، لكنه مع ذلك قول شعرى . أعنى أنه ليس بحقيقة . وقوله :

* وما أثر فى وجهه مهنَّدُها *

المهند : السيف . وهو عندى من قولهم : (هَنَّدَتْهُ النساء) : أى تيمَّنه .

ولم ينف تأثير المهند فى وجهه نفياً كليًا . وكيف ذلك وقد أثبت الضربة ، وهى التأثير . وإنما أراد أن المهنَّد لم يُؤثر فى وجهه أثراً قبيحاً ، لأن وقوع الضربة عَلَى الوجه تَزين ولا تَشين ، لدلالتها عَلَى الشجاعة والإقدام ، كما أن التأثير فى الظهر دليل عَلَى الجبن والفرار ، كقوله :

فلسْنا على الأعقاب تَدْمَى كُلُومنا ولـكن عَلَى أعقابنا تقطُرُ الدِّما

ويُروى (تقطر الدِّما) . جعل (الدِّما) اسماً مقصوراً كفَتَى . أنشد الفارسى :

كمَهاة فقـدت برْغزهـا أعقبها الغُبْسُ منـه ندما

غفلت ثم أتت تطلبـه فإذا هى بعظام ودِمَا

فهذا شىء عَرَض ، ثم نعاود الغرض .

فكان المهند لما وقع على وجهه ، فكأن ذلك إشعار بالإقدام ، ثم لم يؤثر فيه البتة ، فلذلك نفى التأثير فى اللفظ نفياً عاماً . ونحوه ما حكاه سيبويه من قوله : (تـكلم ولم يتـكلم) أى أنك لما لم تُجِد ولا أصَبْتَ ، كنت بمنزلة من لم يتكلم وإن كنت قد تـكلمت .

(تَنقَدِحُ النَّارُ مِنْ مَضَارِبِها وصَبُّ مَاء الرِّقَابِ يُخْمِدُها)

قدحه فانقدح : أوقده فاتقد ، أى أن السيوف تقطع ما تحتها وتهوِى فى التراب ، فلا يردّها إلا حَجَر يقدح النار بملاقاته جِرْم السيف ، كقوله :

تَقُدُّ السَّلُوقىَّ المضاعَفَ نسجُهُ وتُوقِد بالصُّفَّاحِ نارَ الحُباحِبِ

(وصبُّ ماء الرقاب يُخمدُها) أى أن الدم الذى يطفىء تلك النار يجرى على السيف والجمر ، وسَمّى الدمَ ماء استعارة ومجازاً ، وإنما ذلك لأن ماهَته

سيلانُه ، وعلى هذا قالوا ماء العناقد . وسَمُّوا الدمع ماء ، كل ذلك اتساع وتجوز ، لا حقيقة .

(إذا أَضَـلَّ الهُمامُ مُهجَتَهُ يَوماً فأطرافهنَّ تَنشُدُها)

نَشَدْتُ الضالّة : طلبتُها ، وأنشدتُها : عَرَّفتها ، ونَشَدْتها فى التعريف لغة أيضاً . وقوله :

ويصيخُ أحياناً كما استمع المضِلُّ لصوت ناشد

قيل : يعنى بالناشد هنا المعرِّف وهو الصحيح ، لأن المضِلَّ يصغى إلى كلام المعرِّف ليدُلَّه عَلَى ضالّته . هذا قول الأصمعىّ .

وقيل : الناشد هنا : الطالب ، لأن المُضِل يُحب أن يجد مُضِلاًّ مثله ليتعزّى به . وهذا القول الآخر مستقل عن تعالى الأول . ويصحح القول الأول : لم أعثر على هذا البيت :

يُصيخ للنبأَةِ أسماعَهُ إصاخة المُنْشِدِ للناشِدِ

أى إصاخة الطالب للمعرِّف . أى أن الهُمام إذا فقد مهجته فإنه يسأل عنها أطراف هذه السيوف ، لأنها عارفة بمسالك الأرواح ، بها تُقْبض وعليها تَرِد ، لا مَظنّة لها إلاّ هى . فأطرافهن على هذا مفعول ثان أى تَنْشُدُها أطرافَهن .

(أَقَرَّ جِلدِى بها علىَّ فَلَا أَقْدِرُ حتى المَمَاتِ أَجْحدُها)

أى نضرة العيش بادية على بَشَرتى ، كقول العرب : بَشَرٌ ما أَحاكَ مشفر . فإذا جحدتُ نعمتك ، شهد بها جلدى فلم يمكنه إنكارها ، إذ أثرها عليه بادٍ . فإن جحدتُها وأقرَّ جلدى بها افتضحت . ونظيره قوله تعالى :

﴿تَعرِفُ فى وُجُوههم نَضْرَةَ النعيم﴾ .

قوله : (فلا أقدرِ حتى المات أجحدُها) أراد : على أن أجحدَها ، فحذف على وأن ، ورفع الفعل لعدم العامل الذى كان ينصبه وهو (أن) . ونظيره قوله تعالى : ﴿ قُلْ أفغيرَ اللهِ تأمُرُونِّى أعبُدُ ﴾ أى تأمرونى أن أعبد فحذف أن ورفع الفعل . ولو كانت القطعة مفتوحة الروى لقال : (أجحدها) فأعمل أن مضمرة إعمالها مُظهرة . وقد رُوى هذا البيت بالوجهين جميعًا .

- ٣ -

وقال المتنبى :

(أحْيا وأيْسَرُ ما قاسَيْتُ ما قَتَلاَ   والبيْن جارَ عَلَى ضَعْفِى وماعَدَلا)

يجوز أن يكون أراد : أحْيَاَ وأيسرُ ما قاسيتُه ما قتلنى ، أو ما من شأنه أن يقتل ، وإذا كان أيسر ما قاسيته قاتلاً ، فما ظنك بأكثره وأشدّه . وهذا على وجهين : إما أن يكون تعجب من ذلك فقال : أنا فى حال حياة ، وأقل مالاقيته قاتلٌ ، وإما أن يكون طمع بالحياة فأنكر ذلك ، فقال : كيف أحيا مع هذه (الحال) . فهذان وَجْها إرادةِ الاستفهام . وقد يكون أحيا خبراً ، أى أنا أحيا . وهذه حالى ، أى تجلدى . يتعجب من صبره . وقد يكون (أحيا) اسمًا يدل على المفاضلة ، أى : أثبتُ ما قاسيته لحياتى ما قتل ، وهـذا غلوٌ وإفراط ، لأنه إذا كان ما قتله أثبت شىء لحياته ، لم يبق له ما يوجب الموت .

(وَضاقَتِ الأَرضُ حتى كانَ هارِبُهم   إذا رأى غيرَ شىء ظَنّه رَجُلا)

أما الرؤية فلا تقع على غير شىء ، لأن غير شىء ليس بمحسوس إحساس الجوهر ، ولا إحساس العَرَض ، لأن غير شىء خارج عن الجوهر والعَرَض ، لأن كل واحد من الجوهر والعرض شىء ، وإنما أراد هذا الشاعر : إذا رأى غير شىء يُحفَل به ، فهو فى قوة قولك : إذا رأى شيئًا لا يحفل به ظنّه رجلا ،

كقول العرب : إنك ولا شئ سواء ، ومحال أن يسوّى بين الموجود والمعدوم ، لأنهما فى طريق التضاد ، ولـكنهم يريدون إنك ولا شئ يُعْبأ به سواء ولـكنهم قالوا : إنك ولا شيء ، واكتفوا به من قولهم وشيئاً لا يعبأ به ، لأن مالا يعبأُ به كالمعدوم ، ولذلك ألْزَمَنا سيبويه النصبَ فى قوله : إنما سرت حتى أدخلها ، إذا كنت مُحتقراً للسَّير ، قال الفارسىّ : إنما ذلك لأنه لاشيء أقرب إلى طبيعة النفى من الاحتقار ، والنفى عـدم فجعل الاحتقارَ كالعدم .

(فَبَعْدَهُ وإلى ذَا اليومِ لَوْ رَكَضتْ بالخَيلِ فى لَهَوات الطِّفْل ما سَعَلاَ)

أى أن هذه القبيلة قَلَّتْ وذَلَّت ، حتى لو ركضوا الخيل ، على قوة الركض ، فى لَهَوات الطفل ، على ضعفه ، ماشَعَر بهم فيسعُل ، بالغ بذلك كقوله:

ولَوْ قَلَمٌ أُلْقِيتُ فى شِقِّ رأْسِهِ من السُّقم ما غيرتُ من خطِّ كاتب

فأما قول رؤبة فى صفة الصَّائد :

فباتَ والنفسُ من الحِرْص الفَشَقْ فى الغاب لو يمضغ شَرْياً مابَصَق

فإنما أراد أن هذا القانص من النَّهَم عَلَى صيد الوحش ، وخشية أن يسمع له حِسًّا فينفر ، لو مَضَغَ الحنظل ، لم يبصُق خشية أن يُنَفِّرها بَصْقهُ ، وقال الأصمعىّ : إن نَهَمَه عَلَى التَّصيُّدِ قد شغله حتى لو مضغ الحنظل لم يشعر بمرارته فيبصُق .

وخص المتنبى لهواتِ الطفل لأنها مَظنةَ السُّعَال .

وقوله : ركضت بالخيل ، إنما وجهه : لو رَكَضتْ الخيل ، يقال : ركضت الدابةَ ، ولا يقال ركضتُ بها . هذا هو المعروف فى اللغة ، لـكن قد يجوز أن

يكون ركض بالدابة لغة ، فيكون من باب طَوَّحته وطوَّحْتُ به . وقد يجوز أن تـكون الباء زائدة ، كقوله (سُودُ المحَاجِرِ لا يَقرأنَ بالسُّوَرِ) .

(كَمْ مَهْمَهٍ قَذَفٍ قَلْبُ الدليلِ به   قلبُ المحبِّ قَضَانِي بعدَ ما مَطَلَا)

قال (المحِبّ) لجاء به عَلَى لفظ الفاعل ، ولم يقل الحبيب وهو يريده ، لأنه عَنَى شدة إشفاقه فى المَهْمَه ، وذلك أن المعشوق إذا أحب عاشقه ، فإنما يهجرهُ لخوف واشٍ أو رقيب ، فإذا رآه خَفَق قلبُه لإشفاقه . ولو كان المحِب غير مُحِبّ لم يتجشم الزيارة على شدتها . وهذا كقول عَلى بن جَبَلة :

يأبى من زارنى مُـكْتَتِماً   حَذِرًا من كل حِسٍّ فَزِعَا

فقضانى بعد مامَطَلا على هذا القول ، جملة فى موضع الحال . ويجوز وضع الفعل الماضى موضع الحال ، لأنه قد يوضع موضع المستقبل فى قوله : إن فَعَل فَعلْت . وفيما حكاه سيبويه من قولهم : والله لافعلتُ ، يريدون لا أفعل .

وقد ذهب بعضهم فى قوله تعالى : ﴿ أوجاءُوكم حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ إلى أن (حَصِرت) فى موضع الحال ، وقد فيه منويَّة . ويشهد عندى أن حصِرت فى موضع الحال قراءة من قرأ : ﴿ أو جاءُوكم حَصِرَةً صُدُورُهُم ﴾ .

وأما قوله : (قلب الدليل به قلب المحب) الذى هذه صفته فمعناه : أن فؤاد الدليل وَجِل كقلب المحب الزائر المتوقع للفضيحة .

وقد يجوز أن يكون (قضانى بعد مامطلا) خبراً عن المَهْمَه ، أى : كم من مَهْمه قد قضانى بعد مامطلا ، قلب الدليل به قلبُ المحب .

وأما (قضانى بعد ما ماطلا) وهو يعنى المهمه ، فمعناه : أن المهمه طال عليه ، فطله بالنجاة منه ، ثم قضاه بعد حين ، وكلاهما مستعار .

وأما قوله : (قلبُ الدليل به قلبُ المُحِبّ) فمعناه : أن قلب المحب يرجو ويخاف. وكذلك قلب الدليل يرجو الهداية ويخشى الضلالة .

- ٤ -

وقال أيضاً :

(مُحِبِّى قِيامِى مَا لِذَلِكُم النَّصْلِ   سليماً من الجرحَى بريئاً من القتلِ)

أى : يامحبى ثورتى وقيامى بدَوْلتى ، وتركى للأسفار ، كيف أفعل ذلك ولم أكسِرْ سيفى ، ولا ثَلَمْتُه بضربى أعدائى به ، فكَنَى عن الكسر بالقتل ، وعن الثلم بالجرح ، إذ الجرح والقتل إنما يلحقان الحيوان ، والسيف جماد لاحياة به . وأراد سليماً من الجرح ، فوضع الجَرْحَى موضع الجُرْح . وإن شئت قلت كأنه عَلَى حذف المضاف ، أى سليماً من ألم الجَرْحى ، أو من هيئة جُرح الجرحى ، وبريئاً وسليماً منصوبان عَلَى الحال من قوله : (مالِذَلِكُمُ) : أى استفهم عنه وهو فى هاتين الحالين ، كقوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهم عن التَّذْكِرَة مُعْرِضين ﴾ .

(أَمِطْ عنكَ تَشْبِيهى بما وكأنّه   فما أحدٌ فوقى وَلَا أحدٌ مِثْلى)

أما (كأن) فلفظة تشبيه ، فالكلام بها هنا عَلَى وجهه ، كأنهُ يقول : لاتقل فى : كأنهُ الأسدُ ، ولا كأنه السيف ، ولا كأنه الموتُ أو السيلُ ، فكل ذلك إنما هو دونى ، ولاينبغى أن تشبه الشىء بدونه ، إنما المعتادُ عكس ذلك .

وأما (ما) فليست بلفظة تشبيه بمنزلة كأنّ ، إنما استجازها فى التشبيه ، لأنه وضع الأمر عَلَى أنّ قائلاً قال : مايُشبه ؟ فقال له المسئول : كأنهُ الأسدُ ، كأنه السيف . فكأن هذه التى للمسئول ، إنما سببها (ما) التى للسائل . فجاء هو بالسبب والمسبب جميعاً ؛ وذلك لاصطحابهما . ومثل هذا كثير .

وقد يجوز أن تكون (ما) هنا بمعنى الجحد ، فجعلها اسما ، وأدخل الحرف عليها ، كأنه سمع قائلاً يقول : ماهو (إلا) الأسد . وفى هذا معنى التشبيه أى مثل الأسد ، فأبى هو ذلك . ثم رجع إلى النوع الأشرف فقال : (فما أحدٌ فوقى ولا أحدٌ مثلى) مفضلاً نفسه عليهم .

- ٥ -

وله أيضا :

(هَديَّةٌ ما رأيتُ مُهْدِيَها إلَّا رأيتُ العِبادَ فى رَجُلِ)

أى هذه هدية ، ويجوز هدية على البدل من قوله : (بما اتيت به). وقوله: ما رأيتُ مهديَها إلا رأيت الأنام فى رجل : أى أن فضائل الأنام مجموعة فى شخص واحد منه ، فلا مُعْتَبر بالعدد ، إذاحاز معانيهم أجمعين وحده ، كقوله أيضاً :

غدا الناس مِثْلَيْهم له لا عَدِمْتُهُ وأصبح دهرى فى ذَراهُ دُهور

ونحو قول بعض الحكماء وقد رَضِىَ تلميذاً له من بعض تلاميذه ، يقال إن ذلك التلميذ (رسْطاَلِيس) فقال : واحد كألف ، وليس ألف كواحد
وقال أبو نواس :

ليس عَلَى الله بمستنكرٍ أن يجمع العالمَ فى واحد

- ٦ -

وله :

(ولا وَقَفْتُ بجسمٍ مُسْىَ ثالثةٍ ذِىأرْسُمٍ دُرُسٍ فى الأَرْسُمِ الدُّرُسِ)

المُسْىْ ، والمِسَا ، والمَسَاء : واحد ، كالصُّبح ، والصِّبح ، والصَّباح . أى لولا هذه الظبية الإنسية ، لم أقف على رسوم هذه الدار ثلاثا بين يوم وليلة

أسألها. ولم يُرد أنهُ وقف عليها بعد ثلاث من إقفارها، لأن الدار لاتدرس بعد ثلاث .

وإنما عنى أنه وقف عليها ثلاثا ، وصفته الجسم بأنه ذو أرسم دُرُس ، ذهب فيها إلى نحوله وامحّائه . واستعار له أرسماً حين شبهه بهذا الربع الدارس والأرسم ، كقوله في صفة الدار :

ما زَالَ كلُّ هَزِيمِ الوَدْقِ يُنْحِلها والشوقُ يُنحلنى حتى حَكَت جَسَدى

وهذا البيت أبلغ فى نحول جسمه ، لأنه جعل الدار يحكى جسمه فى النحول ، فإذا جسمه أنحل منها .

وفى هذا البيت أعنى (ولا وقفت بجسم . .) لم يجعل لجسمه فضلاً على الدار فى النحول .

ودُرس : يجوز أن يكون جمع دَريس وأن يكون جمع دَرُوس ، كصَبور وصُبُر ، وأن يكون جمع دارس كبَازل وبُزُل .

(ما ضَاقَ قَبْلَكَ خَلْخالٌ عَلَى رَشَأٍ ولا سَمِعتُ بِديباجٍ عَلَى كُنُسِ)

يقول أنت كالرشأ فى الحسن ، وساقُ الرشأ دقيقة ، فكيف خالفت أنت الرشأ ، بأن ضاق خلخالك عن ساقك . ولو ألبست ساق الرشأ خلخالاً ، جال عليها ولم يثبت .

(ولا سمعتُ بديباج على كُنس) : أى على هودَجك سُتُور ديباج . ولم نسمع قبلُ بديباج على كِناس . إنما الكِناس غُصون أو أسْوق شجر أو مَحافِر أرض . وأنتِ قدخَرقت المعتاد ، بكون الديباج على كناسك . ومن رواه على كَنِس ، أراد على ذى كناس . وهذا عَلَى النسب ، إذ لا فعل له . ونظيره ما حكاه سيبويه : جَرِحٌ ، وَسَتِهٌ ، وطَعِمٌ وَنَهِرٌ ، وأنشد :

« لستُ بليلِيٌّ ولكنى نَهِرٌ » أى : ذو نهار .

فأما قراءة من قرأ ﴿فى أيام نَحِسَاتٍ﴾ ، فذهب الفارسى إلى أنه من باب فَرِقٍ ونَزِى ، توهموه على الفعل وإن لم يكن له فعل ، لم يقولوا نَحِسَ النهار .

وهذا الذى قاله الفارسىّ غيرُ قوى عندى ، أحسن منه أن يُحمل على النسب ، لأن نظيره كثير ، كما قد حكينا عن سيبويه ، وتوهم الفعل فى مثل نَحِس قليل فى كلامهم .

- ٧ -

وله ايضا :

(فَجَعلْتَ ما تُهدِى إلىَّ هديَّةً مِنِّى إليكَ وظَرفَها التأْميلا)

يحتمل وجهين. أحدهما : أنه أراد : لما جلَّ قدرك عما تناله يدى ولم تبلغه إلا هبة يدك التى هى كفاؤه ، جعلتُ ما تهديه إلىّ ، هدية منى إليك ، فما يعدل جلالة قدرك إلا جلالة جودك ، وجعلتُ ظرفها تأميلى أن تقبلها منى .

والآخر : أن يكون استحقه فقال : ما علمت أن (ما) تتحفنى به أو تزوِّدُنيه له صلتى ، سبيلُك أن تمسكه عنى ولا تُطلقه ، وأن تَعُدَّه هدية منى إليك ، بإمساكك عن إهدائكه إلى .

- ٨ -

وله أيضا :

(أمْطِرْ علىَّ سَحَابَ جُودِكَ ثَرَّةً وانظرْ إلىَّ بِرحمةٍ لا أغْرَقُ)

أى إن عطاءك جاوز المقدار ، فكاد يقتل المُعطَى فرحاً ، فتَلَافَ عُفَاتك منه ، لئلا يبلغ بهم الحَسَد المهلك ، فيكون كالماء المُغْرق ، كقول أبى تمام :

تَستثيرُ القلبَ لولا اتصالُها بحسنِ دِفاع الله وسوسَ سائلهُ

وقد يجوز أن يكون قوله : (انظر إلىّ برحمة) أي لا تكلفني من الشكر قدر الواجب فيهلكني ذلك ، فكنى عن ضعفه عن الواجب عليه من الشكر بالغرق . وقال ثرّة وهو يعني السحاب لأن السحاب جمع سحابة ، وكل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء ، فلك تأنيثه وتذكيره ، وجمعه وإفراده .

- ٩ -

وله ايضا :

(وقَلبُكَ فى الدُّنيا وَلَو دَخَلَتْ بِنَا وبالْجِنِّ فيهِ مادَرَتْ كَيفَ تَرْجِعُ)

يتعجب من ذلك . أي قلبك في الدنيا ، وهو من السعة بحيث لو دخلت الدنيا فيه بنا وبالجن ، أعجزنا الرجوع ، وتُهنا في سعته ، فكيف وسعت الدنيا قلبك ؟ وهلاّ ضاقت عن حمله ، لصغرها عن عِظَمه . يبيّنه ما قبله ، وهو قوله :

أَلَيْسَ عَجيباً أنَّ وَصفَكَ مُعجِزِى وَأَنَّ ظُنُونى فى معاليك تَظْلَعُ
وَأَنَّك فى ثوبٍ وصدُرك فِيكُمَا عَلَى أنَّهُ من ساحة الأَرض أَوسعُ

- ١٠ -

وله ايضا :

(طويل النجادِ طويل العمادِ طويل القَنَاةِ طويل السِّنانِ)

النجاد : حِمالةُ السيف ، فطوله كناية عن طول القامة ، وذلك مما يُمدَح به كقوله هو :

قُلُوبُهُمْ فى مضاء ما امْتَشَقُوا أبدانُهم فى تمام ما اعْتَقَلُوا

وكقوله :

وَغَالَ فضُولُ الدِّرع من جَنَبَاتِها عَلَى بَدَنٍ قَدُّ القَناةِ لَه قَـدُّ

وطولُ العماد : كنايةٌ عن السُّؤْدُد ، وأصل العماد : ما عُمد به البيت ، أى أُقيم . يقال : عمَدت البيت وعمَّدْته ، وعمادسيِّد الحلة : مَرْمُوقٌ يُقْصَدُ ، فكأنّ عماده ، وإن سارى عُمُدَ أهل الحِلّة ، أطول بكثرة الشائمين له ، والقاصدين نحوه . وطول القناة والسِّنان : كناية عن الحِذْق بالطعان . ولهذا وصفت العرب أرماحَها بالطول ، يريدون جودة العمل بها ، والقوة على تصريفها ، لا أنَّها طوال فى ذاتها ، لأن طولها مُبْعدٌ عن القِرن ، ولا يَحْمدُ ذلك إلا الجبان . ولو كان طول القناة فى ذاتها محموداً ، لكان السيف لكونه أقصر منها .. مذموماً . وإنما صفة القناة بالطول ، كصفة السيف بالطول . لايريدون فى كل ذلك إلا الحِذْقَ بالضِّراب والطِّعان .

ومما يدلُّك على أن طول القناة غير محمود ، أنَّ طول القناة قد يُوْرثها الخَطَل . قال الأصمعىّ : طول القناةِ أربع عشرة وأقصرُها سبع والممدوح بينهما ، وهو ما كان طوله إحدى عشرةَ كقول الشاعر :

وأسْمَرَ خَطِّيًّا كأَن كُعُوبَه ... نوى القَسْب قد أربَى ذِراعًا عَلَى الْعشْر

وكذلك قال البحترى :

كالرمحِ أَذرعُه عَشْر وواحدة ... فما استبدَّ به طولٌ ولا قِصَرُ

(يرَى حدُّهُ غامضاتِ الْقُلُوبِ ... إذا كنتُ فى هَبْوةٍ لا أرانى)

أى أنه ماضٍ يقطع كل عضو يلقاه ، حتى ينتهى إلى القلب ، فكأنه إنما قطع مادون القلب من الأعضاء حين رأى القلب ، فهَتَكَ إليه الحُجُب التى دونه ، إذ لم يمكنه الوصول إليه إلا باختراقها الهَبْوة ، وأرانى هنا : من رُؤْية العين ، لأنها غير متعدية ، فكان يجب أن يقول : لا أرى نفسى ، لأن فعلَ الفاعل إذا كان حِسِّيًّا ، لم يتعدّ إلى ذاته بكناية المتكلم . لايجوز ضربتُنِى ،

وإنما يتعدى فعل الفاعل إذا كان حِسيًّا إلى ذاته بلفظ النفس. يقولون: ضربت نفسى وفى التنزيل «رَبنا ظَلَمنا أنفسنا» إلاّ أنه قد جاء عنهم فَقَدْتُني وعَدِمْتُني، وهذا نادر غير معمول به.

لكن لما كانت أرى التى هى للعين مطابقة اللفظ لأرى التى هى للقلب، تتعدى على هذه الصورة، لأنها غير حِسّية، كقولهم: أرانِي ذاهبًا. استجاز أن يُجرِىَ (أرى) التى للعين مجراها.

وعلى هذا أُوَجِّه أنا ما حكاه سيبويه من قول العرب: أما تَرَىَ أى برق هاهنا؟ فعُلِّقت فيه أرى. ورؤية العين لا تُعَلَّق وإنما تعلق رؤية القلب، ورؤية القلب بَصَريةٌ لانفسانية. لكنها لما طابقت فى اللفظ (ترى) التى هى للقلب، وكانت هذه تعلق استجازوا تعليق التى للعين. على أنَّ الفارسىّ قد ذهب فى هذا الذى حكاه سيبويه إلى أنها رؤية قَلْب.

- ١١ -

وله ايضا:

(رَمَانى خِسَاسُ النَّاس مِنْ صَائِب استِهِ … وآخر قطنٌ من يديه الجَنَادِلُ)

يذهب إلى أن عدوّه ضدٌ له. هُوجَمُّ الفضائل، وعدوه جَمُّ النقائص والرذائل، ولذلك وقع بينهما التنافر، لأن الضدّ مُحارِب لضده، والشكل مُسالمٌ لِشَكله فهو يقول: لايعادينى إلا ناقصٌ لجرى العادة بمعاداة ذى النقص لذىِ الفضل. فإذا عَابَنِى —والإجماعُ قد وقع على فَضلى— فهو لامحالةَ ناقص. وقد صرح عن ذلك بقوله فى الأخرى:

وإذا أتتكَ مَذَمَّتى من ناقصٍ … فهى الشهادةُ لى بأنى كَاملُ

أى أنه لو كان فاضلاً مِثلى، ماذَمَّنى لِتَشَاكُلنا فى الفضل، ولأنه لو كان

فاضلاً لنَقَص وفَضَلت . فأوجب ذلك تَضَاداً وتعادِياً كقول أبى تمام :

لقد آسفَ الأعداء مجدُ ابن يوسُفٍ وذُو النقص فى الدنيا بذى الفضل مُولعُ

وقوله : (مِن صائب استِهِ ، وآخرَ قُطن) : أراد من بين صائب يرميه ، وآخر هذه صفته ، أى أنه ضعيف يُعدِى ضعفُه الجَنْدل فيضعف ، حتى لا يُؤثِّر كما لا يؤثر القطن إذا رُمِىَ به .

وصائبُ استه : أى مُصيبها . يقال : صابَ الشىء وأصابه .

وخص ذكر استه من بين سائر الأعضاء لوجهين :

أحدهما : قصدُ الاستخفاف به فى ذكر ذلك منه ، والآخر أن هذا الناقص المتنقِّص لى مغلوب مهزوم . والمهزوم لا يقع سلاحه إلاَّ على ما يلى ظهره ، فخص هذا العضو للأمرين جميعاً .

والأجودُ عِندى أنه إنما قصد الاستخفاف ، والشَّتْم ، والسَّب بذلك كثير . ولذلك سميت الاست السَّبَّة والسَّبَّ .

وأصل الناس : الأناس ، حذفوا الهمزة لكثرة استعمالهم إياه ، وذلك مع اللام ، وقد جاء محذوفاً وَلا لام فيها ، كما جاءت الهمزة فيه مع اللام فيما أنشده أبو عثمان من قول الشاعر :

إنَّ المنَايا يَطَّلِعْن على الأناس الآمنينا

ولما ذكر سيبويه اسم الله تعالى ، وكون الألف واللام فيه خَلفاً من الهمزة قال : ومثل ذلك . أناس : فإذا أدخلت الألف واللام قلت الناس . إلا أن الناس قد تفارقهُ : الألف واللام ويكون نكرة . والله تعالى لا يكون فيه ذلك ، وهو فصل معروف فى باب ما ينتصب على المدح والتعظيم والشتم فى باب النداء .

وقوله : (وآخَرَ قُطن) الجيد فى قُطن الرفعُ ، لأنه جوهرٌ والجوهر لا يوصف به . إلاّ أن الجرّ فى مثل هذا قد يَسُوغ ، وذلك على توهُّم الصفة ، يُقدر الجوهر صفة بقدر مايحتمله وضعه ، نحو ماحكاه سيبويه عن العرب من قولهم :مَررتُ بسرجٍ خَزٍّ صُفّتُه ،لأن الخَزّ وإن كان جوهراً فهو فى معنى لَيِّن صُفّتُه . قال : ومن العرب من يقول : (مررت بقاع عرْفَجٍ) . فيجعلونه كأنه وصف . قال الفارسىّ : كأنهم يقولون: مررت بقاع خشنٍ كله . وإنما قدّره بخَشِنٍ ، لأن العَرفج شاك ، والشوكُ خَشِنُ المس . فإذا جرّ فقال : (وآخر قُطنٍ من يديه الجنادل) فكأنه قال : وآخر لين أو ضعيف من يديه الجنادل .

(ومن جاَهِلٍ بِى وَهْوَ يَجْهلُ جَهْلَه وَيَجْهلُ عِلْمِى أنَّهُ بِىَ جاَهِلُ)

(وَيَجْهَلُ أنى مالكَ الأرْضِ مُعْسِرٌ وَأنِّى على ظَهر السِّماكين رَاجلُ)

ومن جاهل : معطوف على (صائب استه) . أى أنه قد اشتمل بالجهل ولاَ يَعلَمُ أنه جاهل ، بالغَ فى استجهاله ، فلم يُبقِ له أثراً من العلم ، إذ لو علم أنَّه جاهلٌ لَكان له جزءٌ من العلم .

وكذلك أيضاً بالغ فى استجهاله بقوله :

* ويَجهلُ علمى أنه بِىَ جاهلُ *

يقول : لا علم له البتَّة ، وكذلك يجهل قدرى عند نفسى ، فلا يعلم أنى إذا ملكت الأرض ، كنتُ مُعدِماً عند نفسى ، لقصور ذلك عن قدرى ، وأنىّ إذا علوتُ السماكين ، كنت عند نفسى راجلاً ، لأنّ ذاتِى أعظم قدراً وأكرم خطراً . و (مالكَ الأرض) : حال ، والنية فيه الانفصال ، أى مالكاً للأرض . والظرف فى قوله : (على ظهر السِّماكين) متعلق بمحذوف أى مستقراً على ظهر السماكين ، وهو حال ، فالمجرور فى موضع الحال ، وأراد

على (ظهور السماكين) ، أو (ظَهْرَى السِّماكين) فوضع الواحد موضع ذلك . ومثله كثير ، وحسّن ذلك أن السِّماكين يذكران كثيراً معاً ، فصارا كالواحد .

(فما وَرَدَتْ رُوحَ امرىءٍ رُوحُهُ لَهُ   ولا صَدَرتْ عن بَاخِلٍ وَهُوَ باخِلُ)

أى لم تَرِدْ سُيوفُنا روحَ امرىء إلا صار لغيره ، إما بكونه إلى العنصر وإما لغيره على المذهب الذى ليس بحميد . ولا وردتْ باخلاً بماله وذاته ، فقَدَر أن يبخل عليها بهما ، أو بواحدة منهما .

(يُخَيَّلُ لى أنَّ البِلاد مَسَامِعِى   وَأَنِّىَ فيها ما تَقُول العَواذِلُ)

خُيِّل له الشىء وخيل إليه : أى شُبِّه حتى حسبه كائناً ، يقول : قولُ العواذل لايَثْبُتُ فى سَمْعى ، كما لاأثبُتُ أنا فى بَلدٍ . أراد : وأنِّى فيها مايقول لى العواذل ، من النهى لى عن التَّغرب وضُروب التَّصرُّف ، كقوله :

أَواناً فِى بيوتِ البدْوِ رَحْلِى   وآوِنةً عَلَى قَتَدِ البعـير

ومثلُ هذا كثير فى شعره .

- ١٢ -

وله ايضا :

(ابْعَدْ بَعِدْتَ بياضاً لابياضَ لَهُ   لأنت أَسْودُ فى عَيْنى من الظُّلَمِ)

(ابْعَد : أى اهلك . بَعِدَ الشىء بعداً : هَلَكَ ، وبَعُدَ بُعداً : ضد قَرُب . ودعاؤه عليه بالبَعَد : أبلغ من دعائه عليه بالبُعد ، لأنه إذا هَلَكَ فقد صار إلى العَدَم ، وإذا (بَعُد) كان فى الوجود وإن لم يُقْرب . والبعَد أنحى له من البُعد . وقوله (بَياضاً لابياضَ لَه) : أى لا بياض له فى الحقيقة ، ولا يحدث عنه بشر ولافرَح .

والعربُ تَصِفُ الحُزنَ بالسّواد ، والسرورَ بالبياض . وهو معنى وله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَبْيضُّ وجوهٌ وَتَسْوَدُّ وجوهٌ ﴾ . وقال : ﴿ وإذا بُشِّرَ أحدُهم بالأنثى ظلّ وجهُهُ مُسْوداً ﴾ وأراد : (ابعَد بَعِدت ذَا بياضٍ) ، لأنه إنما يخاطب الشَّعْر الأبيض ، لا العَرَض الذى هو البَياض. (لأنت أسود فى عينى من الظلم) أيها الشيب .

فأما قوله : (أسْوَدُ فى عينى من الظُّلَمَ) ، فخطأه فيه قوم . قالوا : إن (فِعْل) (افعَلّ) هذا على أكثر من ثلاثة أحرف ، وهو (اسْوَدَّ) فلا تقع المفاضلة فيه إلا بأشَدّ وَأبْيَنَ وغيرهما من الأفعال الثلاثية ، التى تصاغ لِيُوَصَّلَ بها إلى التعجب من الأفعال التى على أكثر من ثلاثة .

وهذا منهم غلط . ليست (أفعَل) هنا للمفاضلة ، ولا (مِنْ) متعلِّق بأسود ، على حد تعلّق (مِنْ) بأفضل فى قولك : زيد أفضل من عمرو . وإنما هو كقولك لأنت أسود ، معدود من الظلَمِ فى عينى . (فَمِن) غير متعلقة بأسْود ، كتعلّق (مِن) بأفعل التى للمفاضلة ، وإنما هِى فى موضع رفع ، حالّةً محل الظرف ، بمنزلتها فى قول الأعشى :

فلست بالأكثر منهم حَصىً وإنما العزّةُ لِلْكاثِرِ

فلا يجوزُ أن تكون (مِنْ) متعلقةً بالأكثر ، لأن اللام تُعاقِبُ مِنْ وإنما هى هنا بمنزلة الظّرف . ولذلك جعل الفارسىّ (مِنْ) هنا بمنزلة ساعة فى قول أوس بن حجر :

فإنا رأينا ٱلعرضَ أحْوَجَ ساعةً إلى ٱلصَّوْنِ من رَبْط رعايةِمُسهمِ
(بحُبٍّ قاتِلَتى وٱلشيبُ تَغْذِيَتى هَواىَ طِفْلاً وشَيبى بالُغَ ٱلحُلُم)

أى عَذَبتُ نفسى بحب هذه التى قتلنى حبها بالشيب . فأما تغذيتى نفسى بالحب ففى حال طفولتى ، وأما فى الشيب ، ففى حال بلوغى الحُلُم ، أى هَوِيت وأنا طفل ، وشِبْت من ذلك الحب وأنا مُحتِلمٌ ، فجعَلَ الحُبَّ والشيب لنفسه غذاءين وهما مُهلِكان لامُتَمّنيان . والياء فى تغذيتى تكون فى موضع الفاعل ، فيكون المفعول حينئذ محذوفاً ، أى تغذيتى نفسى ، كما تقول : عجبت من ضرب زيدٍ عمراً . ويجوز أن تكون فى موضع المفعول الذى لم يُسَمَّ فاعلُه ، أى غُذِّيت . وهَوَاى : يجوز أن يكون مبتدأً وخبره الحال الذى هو طفلٌ كقولك : أكْثَرشُربى السَّويقَ ملتُوتاً . والقول فى شيبى وبالغَ الحلم ، كالقول فى هوَاىَ طِفلا . وكأنه قال : بالغاً الحُلُم .

ويجوز أن يكون هوَاى فىموضع جر على البَدَل من حُبىِّ ، وشَيْبى حينئذ فى موضع جرٍّ معطوفٍ على هَوَاىَ . والأول أقوى .

(شَيخٌ يرى الصلواتِ الخمسَ نافِلةً ويَستَحِلُّ دَمَ الُحجّاج فى الحرمِ)

يعنى بالشيخ هنا : المجَرب إذ لاتكون التجربةُ لغير ذوى السِّن والحنكَة ، كقول الرياحىّ :

أخو خمسين مُجتَمِعٌ أشُدّى ونَجّذَنِى مُداوَرَةُ الشُّئُونِ

وفى كلامهم : ابن خمسين : ليث عرين ، وقد قال هو فى موضع آخر :

(سأطلب حَقىِّ بالقنَا وَمَشايخ كأنهمُ من طول ما التَثَمُوا مُردُ)

مشايخ : جمعَ مشيخة ومَشْيُوخاء على حذف الزائد . (يرى الصلوات الخمس نافلة) : أى أنه لايعنى بمفْروضَات الدين ، ولاتَمنعُه مما يشاء إذا أمكنه ماطلبه . ويستحل دم الُحجاج فى الحرم : أى أنه مبالغ فى المضاء والنفاذ ، حتى لايردّه التحرُّج الذى يوجبه الدين فضلاً عما سواه . ويرى هاهنا : من رؤية

القلب ، لأن الصلاة فعل عَرضى ليس بجوهر محسوس ، فتكون حاسّة البصر واقعة عليه . وفى الحَرَم تتميم بديع .

(وَرَبَّ مال فقيراً من مُروّته لم يُثْرِ منها كما أثرى من العَدَمِ)

أى أن اللئيم الغنىّ يمنع نفسه حظَّها ، والفقير السَّمح إذا وجد أعطاها حظَّها ، فالفقر مع السماحة أجدى على صاحبه من الغنى مع اللؤم ، كقول حسان بن حنظلة :

إنا لَعَمْر أبيك يَحْمد ضيفُنا وَيَسودُ مُفْتَرِبًا عَلَى الإقلال

وتقدير البيت : لم يثر هذا اللئيمُ الغنىُّ من غناه ، كما أثرى هذا الفقير السَّمح من العَدم .

وقد يجوز أن يَعْنِيَ أن ثروة هذا اللئيم الغنىّ من الفقر ، أكثر من ثروته من الغنى ، أى أن حالة المُعدِم أظهر عليه من حالة الغَنِىِّ .

فأما قوله :

(يَجْنِى الْغِنَى لِلِّئَامِ لو عَقَلوا ما ليس يَجْنِى عليهمُ الْعَدَمُ)

فمعناه المبالغة . أى أنهم يمنعون أنفسهم حظَّها فى حال الغنى ، فلا يُقَدَّرُون بل يُذَمُّون بظهور حال الفقر عليهم ، وإن كانوا أغنياء . وأما إذا ظهرت عليهم حال العُدْم وهم مُعدِمون ، فلا ذَمَّ عليهم ، بل عذرهم فى ذلك بيِّن .

— ١٣ —

وله ايضا :

(حَاشَى الرَّقيبَ فخانته ضمائرُهُ وغَيَّض الدَّمعَ فانهلَّت بَوادِرُهُ)

يُريد : استَثْنَى الرقيبَ ، وأخرجه مما كان يعرف سِرَّه ، لأنه كان فى أول أمره يبوح بسرِّه إلى بعض إخوانه ، ويخفى ذلك عن الرقيب . فلما تمادَى

دلك به أفرط عليه ، إلى أن بخل وبكى ، وذَلّ وشكا ، فلم الرقيب ذلك منه .

(غَابَ الامير فغابَ ٱلخيرُ عن بَلدٍ كادَتْ لفَقْدِ ٱسمِهِ تبكى مَنابرُه)

كان هذا الأمير المجهول مخطوباً له بحمص أيام ولايته إياها ، فأزيل عنها فانقطع الاختطاب باسمه على منابر هذه المدينة ، فحنت المنابر وبكت لذلك .

(قد اشْتَكَتْ وَحْشَةَ الأَحْياءِ أربُعُهُ وخَبَّرتْ عن أَسىَ المَوتى مَقابِرُه)

الهاء فى مقابره : للبلد ذاك ، كما كانت فى المنابر له . أى تَوحَّش إليه الأحياء ، وهذا ممكن ، والأموات ، وهذا غير ممكن ، لكنه بالغ بالموتى ، وأفرط بقوله : إنَّ المقابر مُخبرة عن أَسَى الموتى ، فالنصف الثانى أغلى من الأوّل ، لأن الأحياء يتوحّشون ، وإن كان فيه غُلُوٌّ أيضاً لإسناده الشكوى إلى الأربُعِ فيه . وكأن الأربُع إنما اشتكت رِقَّةً لما تراه من توحُّش أهلها ، وبُعداً بذلك .

وإن شئت قلت : خُلِّيت الأربع بعد الأمير من سكانها ، فتشكت توحُّشها إلى الأحياء (وهذا) أولى ، لتطابق إسناد الأسى إلى الموتى .

(تَحَمَّى ٱلسُّيوفُ عَلَى أَعْدَائِهِ مَعَهُ كأنَّهنَّ بَنُوه أو عَشائِرُهُ)

أى إن السيوف تَحَمَّى على أعدائه معه ، تعصباً له وحباً ، حتى كأنَّ السيوف من مظاهرتها ونصرها له ، وتبليغها إياه ما شاء من عدوه ، بَنُون له أو عشائر .

قال أبو الفتح : وهذا أبلغ من قول أبى تمام :

كأنما هى فى الأوداج والغةٌ وَفى الكُلَى تجدُ الغيظ الذى تجدُ

لأن أبا الطيب قد جعل السيوف بنين له وعشائر . وإذا كانت المناسبة استحكمت العصبية ، وازدادت الأنفس حمية ، وأبو تمام لم ينطْ بيته بشىء من معنى المناسبة .

(إذا انتضاها لحرب لم تدع جسدًا   إلاّ وباطنه للعين ظاهره)

انتضاها : جرّدها . أى إن الدم الذى هو باطن الجسد يَفيض فيصير ظاهراً . وقيل تَقْطع الأشلاء وتَقُدّ الجلد ، فيظهر من الجسم ما كان باطنا .

- ١٤ -

وله أيضا :

(وَمِن جَسَدى لم يَترك السُّقمُ شَعْرةً   فما فَوقها إلاّ وفيها له فِعْلُ)

أى أن السُّقم نال كل طائفة من طوائف جَسَدى : اللّحم والعَصب والعَظم ، فأنحلَه وبراه ، حتى الشّعْر الذى هو أرقّ طوائف جسمى ، فإنه أثّر فيه بالشيب . والشيبُ سُقْمٌ ، لأنه مُشْعِرٌ بفَناء ، كما أن السُّقْم كذلك .

ولذلك قال بعض الشعراء فى صفة الشيب :

هو السُّقم إلاّ أنه غيرُ مؤلم   ولَمْ أر مثل الشيب سُقما بلا ألَمْ

وقد يجوز أن يَعنِى أنّه قَذَف فى أصغر طوائف جسمى ، وهو الشّعرُ ، بهذه النّازلة العظيمة الشنيعة ، وهو الشّيب . فقِس على سائر الجسم بمثل هذا القياس ، كما يُستدلّ بالأصغر على الأعظم ، وبالأقل على الأكثر ، أى اذا كان فعله فى الشّعر هذا ، فما ظنك باللحم ، وما يحمله من العَصَب والعظم ؟

(هُمامٌ إذا ما فارَق الغمدَ سَيْفُه   وعايَنْتَه لم تَدْرِ أيهُّما النَّصْلُ)

أى أن مضاءه كمضاء السيف ، وبشره وبشاشته كفرنده وصقالته ، فأنت تشكّ فيهما حتى لاتميز أحدهما من صاحبه . وهذا كقول أبى تمام :

* مُنْصَلِتاً كالسيف عند سَلِّه *

وقال رؤبة :   * كأننى سيف بها إصْليتُ *

ونحوه عندى قوله هو أيضاً :

* كَفِرِنْدِى فِرِنْدُ سيفى الجُرَازِ *

أى كبشرى عند القتال وبشاشتى وفرحى بتأثيرى فى أقرانى، فرند سيفى هذا الجُرازُ : القَاطِع ، وذهب قوم إلى أنه عَنَى بفرنده نفسَه : سهُومه وتغيُّرَه من السفر والجدِّ والتعب . فكنى عن ذلك التَّهام بالفرند ، لدلالته على شرف الهمة ورفعة النفس ، وإنما الصحيح الأول كقوله فى موضع آخر:

أرى من فِرنْدِى قطعةً من فِرنْدِه

وَجُودَةُ ضَرْبِ الْهامِ فى جُودةِ الصَّقْلِ

إذا قيل حِلْمًا قال لِلْحِلمِ مَوضع وَحِلْم الْفَتى فى غير مَوضِعه جَهْلُ

أى طلبُ الرفق فى موضع النِّزال خديعة لايخلد إليها أريب ، كقوله :

يناشدنى حاميمَ والرمح شاجرٌ فهلّا تلا حاميم قبل التّقدم

وإنما يروم بذلك قِرنُه منه التّماسَ نَهزَةٍ أو جَذْبًا إلى كشف شدة عن نفسه .

(ولولا تَوَلِّى نَفْسِه حَمْلَ حِلْمه عَنِ الْأَرضِ لانْهدّت وَنَاء بها الْحِملُ)

الحمْلُ : المصدر ، والحِملُ : الاسم . وناء بها : أثقلها ، وفى التنزيل (ما إنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوء بالعُصْبَةِ) . ولا يقال (نَاء) إلا فى حد الإتباع لِسَاء ، يقال : (له عندى ما سَاء وناء) ، وقد يكون مع الإتباع صيغ لا توجد فى حد الإفراد ، كقولهم هَنَأهُ ومَرَأهُ ، فإذا أفردوه قالوا أمْرأه . وقالوا : إنى لآتيه بالغَدايا والعَشَايا ، والغداة لا تجمع على غَدايا ، لأن (فَعْلَة) لا تُكسَّر عَلَى فعايل . لكنهم تجوزوه لما قرنوه بالعشايا ، ولا عليك أتبع الثانى الأول ، أم صِيغ الأول على حكم الثانى ، لأن مذهب العرب فى ذلك ، أن تصوغ الكلام من وجه واحد طلبًا للمشاكلة .

ومعنى البيت : أن حلمه رَزِين فلو لم يتولَّ حَمْله نفسه بنفسه ، ووكل

الأرض بحمله ، أثقلها فانهدّت . وإنما يوصف الحلم بالرزانة لما يتبعه من الوقار ، كقول الآخر :

أحلامُنا تزن الجبالَ رزانةً وتزيد جاهلنا على الجهال

وقد قال هو أيضا :

وبقيّات حلمه عافت النا سَ فصارت ركانةً فى الجبال

(وَحَالَتْ عَطايَا كَفِّهِ دُونَ وَعْدِهِ فليسَ له إنجازُ وعدٍ ولامَطْلُ)

أى أن عطاياه بلا عِدَة . والإنجازُ والمطل : عَرَضان أو خاصّتان للوعد . فوجودهما بوجوده ، فإذا ارتفع الوعد ارتفعت خاصّتاه اللتان هما الإنجاز والمطل ، وكذلك كل خاصّ ومخصوص ، إذا انتفى المخصوص انتفت الخاصّة ، كالضحك وقبول العلم والأدب اللذين هما خاصتا نوع الإنسان .

وإنما مَثّلتُ الوعد بالإنسان ، وإن كان الوعد عَرَضاً ، والإنسان جَوْهراً تَقريباً وتَثْبيتاً . فلا تظن بنا غير ذلك ، ولو وثقنا بفهم بنى الزمان ، لغنينا عن إطالة البيان .

(كَفى ثُعَلاً فخراً بأنك مِنْهُمُ ودَهْرٌ لأَنْ أَمْسَيْتَ من أهله أَهْلُ)

أى ودهرٌ بكونك من أهله . أى دهر مستحق لذلك . وَرَفَعَه بفعل مُضمر أى وليفخر دَهْرٌ ، وحَسُن هذا الإضمار ، لأن قوله : (كفى ثعلاً فخراً بأنك منهمُ) فى قوة قوله : لتفخر ثُعَلٌ ، فحمل الثانى على المعنى ، فكأنه قال : لتفخر ثُعَلٌ وليَفْخر دَهْرٌ ، والحمل على المعنى كثير ، فأهل : صفة لدهر ، وأراد كَفَى الفخرُ ثُعلاً فخراً بكونك منهم .

وله ايضا :

(أبرحتَ يامرَضَ الجفُون بِممْرَضٍ   مَرِضَ الطبيبُ له وعِيدَ العُوَّدُ)

أبرَحْتَ : بالغت فى تعذيبه ، وتجاوزت النهاية ، ومنه قولهم : أبرَحْتَ فارسا : أى بلغت الغاية ، وتجاوزت النهاية . ومرَض الجفون : فتورها . والممرض : يعنى نفسه ، لأن مرض الجفن أمرضه ، فيقول : بالغت يامرض الجفن بإمراض مريض ، مَرِض الطبيبُ له : إمّا رحمةً ، وإمّا عجزا عن شفائه . وَمَرِض العُوّدُ لشدة ما رأوا به فَعِيدُوا .

ولابن جنى فى هذا البيت كلام أُجِلُّه عن أن أعْزوَه إليه .

وقَوله : (مرض الطبيب له) ، فله : فى موضع الصفة للمُمْرَض ، ومعنى له : أى (من) أجله . وقد يكون فى موضع المفعول كقولك : أنا عليم بك ووكيل عليك .

(فلَه بَنُو عبد العزيز بنِ الرِّضا   ولِكلِّ رَكْبٍ عِيسُهم والفَدْفَدُ)

يريد أنه قصد بنى عبد العزيز ليَشفُوه مما به ، ولم يأخذ سِيرةَ الذين يأخذون بقول امرىء القيس : (وإنّك لم تقطعْ لُبانةَ عاشقٍ) .. البيت ، لأنهم يَرون البُعد من المحبوب ما يُريح . فترك هو هذا ، ونَحا إلى بنى عبدالعزيز ، يذهب إلى أن شُغْل بنى عبد العزيز هؤلاء أنْ يُرِيحوا من هذا المُمرِض ، وشُغْل كل ركب أن يركبوا العِيس ، ويَمشُوا فى القِفار .

وبعض الناس يقول : إن العِيس لبنى عبد العزيز ، والأحسن مابدأنا به .

(نِقَمٌ عَلَى نِقَمِ الزّمانِ يَصُبُّها   نِعمٌ عَلَى النِّعَمِ التى لاتُجحَدُ)

أى نعمُه البوادِى العوّد : تدفع نِقَم الزمان ، فتغنى من فقر ، وتَفُكّ من

أسْرِ ، والأسر من نِقَم الزمان ، فهو يَصُبُّ هذه النِّعم فينتقم بها من نِقَم الزمان ، لأن جُودَه وغياثه إذا أزالا الفقر والأسر ونحوهما من النقم ، فقد انتقما منها ، فهن إذَن نِقمٌ على النِّقم الزمانية ، ونِعَمٌ على الأسير والفقير ونحوهما ممّن أصابه الدهر بِنِقَمه .

(مَن فى الأَنام مِنَ الْكِرام ولا تَقُل مَنْ فيكَ شَأْمُ سِوَى شُجاعٍ يُقصدُ ؟)

الشَأمَ ، مذكر ، وتقدير البيْت : مَن فى الأنام من الكِرام سوى شجاع يُقصد يادُنيا ، ولا تقل (مَنْ فيك ياشَأمُ) ، فخص بذلك الشأم وحده ، فإنه أوحدُ الدنيا جميعاً . لا أوحد الشأم وحده .

(أرضٌ لها شَرفٌ سِوَاهَا مِثْلُها لَوكَانَ غيْرُكَ فى سِوَاهَا يُوجدُ)

أى مَنْبجُ هذه أرضٌ شريفةٌ ، وغيرها مثلها ، لولا كونك بها ، فإنما شرفت على البلاد بك لابذاتها .

(بَقِيتْ جُموعُهُم كأنَّكَ كُلُّها وبَقِيتَ بَينَهُم كأنك مُفْرَدُ)

أى أفنيت غَنَاء الكُلِّ ، فكأنك كلُّهم كقوله : (إلاَّ رأيتُ العبادَ فى رَجُل).

وبقيت بينهم كأنك مُفرد ، أى لم يكن فيهم من يجوز أن يُعَدّ ثانيًا لك ، وإن كان حَولك منهم جماعة .

(ما شارَكَتْه مَنِيَّةٌ فى مُهجَةٍ إلا لِشَفْرَتهِ عَلَى يَدِها يَدُ)

العرب تقول : لك على فُلاَن اليدُ البيضاء ؛ أى المزية الظاهرة .

فمعنى البيت : إن لشفرته الأَثر الأظهر ، فإما أنْ يكون ؛ لأن تأثير السيف أظهرُ من تأثير المنية ، لأن تأثير السيف جُسمانى عليه يقع الحِسّ ، وتأثير المنية نفسانى ، لا يقع عليه حس .

وقد يجوز أن تكون للشفرة اليد على المنية ، من جهة أن المنية معلولة للسيف ، والسيف علّة لها . والعلة أشرف من المعلول ، فوجبت المزية للسيف بذلك .

وقد يتوجه البيت على أن كلّ شريكين ، فمن المعتاد الأغلب أن يكون أحدهما أقوم بالأمور ، فتعلو يدُه يدَ صاحبه ، فإذا شاركت المنية سيفَه فحكمه أمضى ، والأول عندى أقوى .

(قَطَّعْتَهُمْ حَسَداً أَراهُمُ مَا بِهِمْ فَتَقَطَّعُوا حَسدًا لمن لا يَحْسُدُ)

أراهمُ ما بهم : أى كَشَفَ لهم عن تقصيرهم عنك ، ولو اتّزَنَ له أراهم ما هم به كان أدخل فى الصناعة المنطقية ، فتقطّعوا حَسَداً لمن لا يَحْسُدُ : أى هم يحسدونك لنقصهم عنك ، وأنت لا تحسد أحداً ، لأنّ الفضائل كلّها متجمعةٌ لك ، فلم يبق لك ما تَحسُد عليه غيرك .

وقوله : أراهم ما بهم ، جملةٌ فى موضع الصفة .

(أَنَّى يكونُ أبا البَرِيَّةِ آدمُ وأَبُوكَ والثَّقَلانِ أَنتَ مُحمَّدُ)

هذا مُحْلٌ من القول وسَفَهٌ ، أى أنك أنت الإنس والجن ، وأبوك محمد ، هذا يعنى أبا الممدوح ، فما لهذه البريّة وادعائها آدم أباها ، وهذا من قبيح الضعف ، وطريق السُّخف ، وقد دخل به العقابُ فى أنه لم يُحسن تأليف البيت ولم يُوفّق لإقامة إعرابه . ألاَ تراه فصل بين المبتدأ والخبر بجملة أجنبية فى قوله : (وأبوك والثقلان أنت محمد) . وموضع الكلام : أبوك محمد ، والثقلان أنت . وهذا لا يكاد يُسيغه لنفسه الذى يقول :

ضحِكَ الناس وقالُوا شِعْر وَضَّاح اليَمانِ
إنما شعرى قَيْدٌ قد عُقِدْ بخُلُّجانِ

وقال ايضا :

(طَلبتُ جَسِيمَ مَا طَلَبِي وَإنَّا نُخاطِرُ فيه بالْمُهَجِ العِظامِ)

أراد جَسيمَ طلبي ، و (ما) : زائدة . والعظام هاهنا : كناية عن العز والشرف .

أي يقول : أنت إنما تُخَاطر في طلب الملك بالمهج العزيزة التي لاخَلَفَ منها إذا فقدت .

(وَلَو بَرَزَ الزَّمانُ إليَّ شَخْصًا لأَدْمَى رَأْسَ مَفْرِقِهِ حُسَامِي)

أي لو شَخص الدهرُ لأثَّرتُ فيه بسيفي ، والدهر ليس بشخص لأنَّ وجُود النور وعدمه ، لاختلاف حركة الفلك ، فتمناه هو شخصا ليوقع به ، غُلُوا منه وعُلُواً ، وعليه دائرةُ السَّوء .

(إذَا امتلأَتْ عُيونُ الْخَيلِ مِنِّي فَويلٌ للتَّيقُّظِ وَالمنَامِ)

أي أروعُهم بيأسي مُتيقظين ، ويحلُمون بي ، وذلك بما بقي في نفوسهم من الروع ، كقوله هو :

يرَى في النوم رُمحك في كُلاهُ وَيخْشَى أَنْ يَراهُ في السُّهادِ

ومادة كل ذلك قول الشاعر :

وَعَلَى عُدوِّكَ يابنَ عَمِّ محمد رَصَدان ضوءُ الشمس والإظلامُ
فإذا تنبَّه رُعتَهُ وإذَا هدا سَلَّت عليه سيوفَكَ الأحلامُ

وأراد المتنبي : إذا امتلأَت عيونُ فُرْسان الخيل ، فحذف المضاف ، وأراد فويلٌ لها في التيقظ والمنام ، فأسند الويلَ إليهما مجازاً لاحقيقةً ، لأن التيقظ والمنام عرَضان لا يلحقهما ويل .

وقد يجوز أن يضع المصدر موضع الاسم، كأنه قال : فويلٌ للمُتَيَقِّظ والنائم، كقولهم : ماء غَوْرٌ : أى غائر ؛ ومثله كثير .

- ١٧ -

وله أيضا :

(أذَا الغُصْنُ أم ذَا الدِّعص أم أنت فتنةٌ)
(وذَيَّا الذى قَبَّلتُه البرقُ أم ثغرُ)

أى : أقدُّك غُصنٌ ؟ أم رِدْفُك دِعْصٌ ؟ و (ذيًّا) ، تصغير (ذَا) . وإنما صغرَّه ، لأنه أشار إلى الثغر ؛ والثغر يوصف بالصِّغر ، ألا ترى إلى قول النَّظَّام يصف عجبه من امرأة طرحت خاتَمها فى فيها فقال :

* مِنْ رَمْيِها الْخاتَم فى ٱلْخَاتَم *

شبَّه فاها بالخاتَم لِصغَره و (أم أنت فتنةٌ) : يكون فيه (أم) العَديلة لألف الاستفهام ، وتكون منقطعة كهَـلْ ، وقد اعترض السؤالُ عن الجمـلة ، أعنى قوله : (أم أنت فتنة) بين أثناء الـكلام عن الأجزاء ، لأن القَدَّ ، والرِّدْف ، والثغر ، كلها طوائف ، وأنت جملة . وإنما كان ينبغى ، لو استقام له ، أن يَقرع بالسؤال عن الطوائف ، ثم يُجمل ، أو يُجمل مبتدئا فيقول : أنت فتنة ، ثم يأتى بالطوائف .

وأما هذا الفصل عندى بين النظائر بالغريب ، فقلق غير متمكن ، وهذا إنما (يحكيه) أهل المنطقية . وكذلك قوله : (وذَيَّا الذى قبلته البرقُ أم ثغرُ) كان أصنع أن يقول : (بَرْقٌ) ، لمـكان (ثغر) ، لأنهما نـكرتان .

(فتًى كلَّ يومٍ يحتوى نَفسَ مالِهِ رِماحُ المعالى لا الرُّدَيْنِيَّةُ السُّمرُ)

تُغِير على ماله رماحُ المعالى ، يعنى المدائح . أى أن رماح المدائح التى تُبْنَى بها المعالى ، تُغير على ماله ، كقول أبى تمام :

* وآمله غادٍ عليه فسالبُه *

وقال : رماحُ المعالى ، ولم يقل سيوف المعالى ، توطئةً للردينية السُّمر .

وقوله : (نَفْس ماله) ، ليس للمال نَفس فى الحقيقة ، إنما تجوَّز بذلك ، كما تجوَّز بأن جعل للمعالى رماحا ، وليس هناك رمح ولا نَفْس ، وعلى هذا أُوَجِّه أنا قوله :

أَلستُ من القوم الأُلَى مِنْ رِمَاحِهم ... نَدَاهُم وَمِن قتلاهُمُ مُهجةُ البُخْلِ

لما استعار للبخل مهجة مقتولة ، جعل للندى رُمحاً قتلوا به مهجة البُخل . لا على ما ذَهَب إليه أكثرُ مفسرى هذا الشعر ، من أنه عَنى بقوله : (من رماحهم نداهم) : أنهم يجودون ، وإنما يجودون بما تُفِىء عليهم رماحهم من النَّهب. وما أدرى ما أعماهم عن هذا على وضوحه .

— ١٨ —

وله أيضا :

(ولا الدِّيارُ التى كان الحبيبُ بها ... تَشكُو إلىَّ ولاأشكُو إلى أحَدِ)

شكوى الديارِ إنما هى باعتبار النُّظَّار منْ سوء آثار الزمان عليها . كقول علىّ رضى الله عنه مخاطباً القبور : فإن لم تُجبك جهاراً ، أجابتك اعتبارا . ويقول الشاعر :

وَعَظَتْكَ أجْداثٌ صُمُتْ ... ونَعَتْكَ أَلْسنةٌ خُفُتْ
وَتكلمتْ عن أَوْجُهٍ ... تَبْلَى وَعن صُوَرٍ سُبُتْ

فيقول : إن دمعى حال دون تأمُّلى آثار البلاد فى الديار ، فيقوم مَقام شكواها إلىّ ، أى : لولا مَنْعُ الدمع إياى من التأمل ، لرأيت سُوء صُنع الدهر بها ، لكن الدمعَ كَفَانى وحَمَانى النَّظَر ، كقول الآخر :

فعيناى طوراً تَغْرقان من البُكا ... فأَعْشَى وطوراً تحسِران فأبصرُ

ولهذه العلة يقول الشاعر منهم لرفيقه : تبصّر وانظُر ، كقول امرىء القيس :

تَبصَّر خَلِيلِي هل ترى من ظَعائنٍ سَوَالِكَ نَقْبًا بين حَزْمَىْ شَعَبْعَبِ

وقال آخر :

* بل تَبصَّر ، فأنْتَ أبصرُ مِنِّى *

أى أن الدمع قد حال بينى أنا ، وبين التأمل، بإغراقه ناظرى ؛ وقد بكيت حتى أَكَلَّ الدمعُ بصرى . (ولا أشكو إلى أحد) ، أى أنها قفر لا أحد فيها فأشكو إليه ، أى ليس بها أحد يُشكَى إليه ، فأنا أدع الشكوى لذلك ، ونفيه العام هنا كقول النابغة :

(عَيَّتْ جَوابًا وما بالربْع مِن أحدِ)

وقد يتوجه البيت على أنه لم يبق فى الدار فضل للشكوى بما هدمها وأبادها من البِلَى ، ولا فىّ أنا فضل للشكوى . أى قد ضعفت عن ذلك ، والأول أوجه .

(أىُّ الأَكُفِّ تُبارِى الْغَيْثَ ما اتَّفقا حتَّى إذا افترقَا عادتْ وَلم يَعُدِ)

الأكف : جمع كَفّ ، قال سيبويه : ولا يكسّر على غير ذلك . أىُّ كفٍّ سوى كف هذا الممدوح تعارض الغيث ، أو تباريه ؟ حتى إذا أقلع الغيث عادت الكف للندى . وهى تلك الكفّ بعينها ، ولم يَعُد الغيث ، لأن ذلك الغيث بعينه لايعود أبدا . وفى قوله : (عادت) ، إشعار بأنها أقلعت وإنما قاله توطئة لقوله : (ولم يَعُد) ، ومثل هذا كثير فى كلامهم ، كقوله تعالى : ﴿ فمن اعْتَدَى عليكم فاعْتَدُوا عَلَيْه ﴾ ، وانتصار المؤمنين من الكفار ، ليس باعتداء ولا ظُلْم ، ولكنه ذكر الاعتداء هنا لتقدم (فمن اعتدى) . ومثله قول الشاعر :

ألا لا يَجْهلَنْ أحدٌ علينا   فنجهل فوقَ جَهْلِ الجاهلينا

وقوله :

. . . تُبارى الغيثَ ما اتّفقا   حتّى إذا افترقا عادت ولم يعُد

يسمى ترجيحا ، فقد وقعت المساواة بين الكفّ والغيث بلا فضل لأحدهما على صاحبه . فإذا أقلع الغيثُ ودامت الكف تجود ، فقد فَضَلَت الغيثَ الكفُّ ورجَحت عليه .

- ١٩ -

وله ايضا :

(وفشت سَرَائرنا إليكَ وَشَفّنا   تَعْريضُنا فَبدَا لكَ التّصْريحُ)

أى لما جَهَدَنا التعريض ، استروحنا إلى التصريح ، فانتهك السّتر . وإن شئت : لما عَرّضْنَا ؛ ظهرت دلائل الحُبِّ علينا كفيض الدمع ، وتغيرُّ اللون ، فعاد التّعريض تصريحًا ، بهذه الأدلة التى أعربت عن الحب ، وصرّحت به ، وإن كنا نحن لم نُرِد التصريح ، فتقديره . فبدا لك التصريحُ من تَعْريضنا . ومعنى شفّنا على هذا القول: نَقص تصبرُّنا ، وغيّر تجلّدَنا ، وقد يكون وشفّنا : أى شفَّ قوّتنا على التكتم فبكينا ، فحصل التعريضُ تَصريحا .

(شِمْنَا وَمَا حَجبَ السَّماء بروقَه   وَحَرى يَجُود وَما مَرَتْهُ الرِّيحُ)

شِمنا : أى نظرنا . وهو يستعمل فى البرق والنار . قال :

نَشِيم بروق المزن أين مَصَابُهُ   وَلا شىء يشفى منكِ يا بنة عَفْزرا

وقال ابن مقبل فى النار :

ولو تُشترى منه لباع ثِيَابَه   بنبحة كلب أو بنارٍ تَشِيمُها

أى شمنا البروق ، ولم يَحجب السماء . أى لا غيم هنالك ، فيُحجب أديم

السماء ، وإنما عنى مخايل يديه ، وإن شئت قلت : إن الجو يبسم بالبرق بعد تعبّسه بالغيم ، وهو يبقى أبداً ، فبرقه فى صحو ، ولا يلحقه عبوس ، فيكون ذلك العبوس كالغيم . فجوده هَنِىء ، وليس الغيث كذلك ، لأنه وإن حلّى الأفق بالبرق ، فإنه يحجب حسنَ السماء ، وجمال سِمَتها ، ويحجبها بالغَيْم وهذا قريب من قوله هو :

فترى الفضيلةَ لا تَرُدُّ فضيلةً ... الشمسَ تُشرق والسحابَ كنهورا

عنى بالسحاب الكنهور: نداه ، وبالشمس: بشره ، وحسنَ وجهه الوضىءُ ، وسنشبع شرح ذلك فى القصيدة التى هو فيها إن شاء الله تعالى .

(وحرّى يجودُ وما مرته الريح). أى حَرِىّ أن يجود من غير أن تَمْرِيه الريح .

يذهب إلى تخليص جود هذا الممدوح من الكدر ، وتفضيله على المطر ، لأن ماء المطر وإن كان طهوراً نافعاً ، فإن هناك مايُكدره ، وهو الغيم الذى يطمس نور الشمس ، فيَتولد الكُرْبة فى النفس والريح التى يتوقع منها الآفات وأنواع الحوائج . وإن شئت قلت : إن الريح هنا مستعارة ، وإنما كنى بها عن السؤال ، لأن السؤال يستخرج النوال ، كما أن الريحَ تَمرِى الماء . فيقول : جُوده متبرِّع يُغنى عن السؤال ، كقوله هو :

وإذا غنُوا بعطائه عن هَزِّهِ ... وَالَى فأغنى أن يقولوا وَالِهِ

ولذلك قال هو أيضاً :

والجِراحَاتُ عندَه نَغَماتٌ ... سَبَقَتْ قَبْلَ نَيلِهِ بِسؤَال

وسيأتى شرحه فى موضعه :

ونظيره قوله :

* وَحَرًى يجود وَما مَرَتْه الريحُ *

وعلى هذا القول الأخير قول البحتريّ :

مواهباً ما تَجَشَّمْنَا السؤال لها　　إنَّ الغمام قليبٌ ليس يُحْتَفَرُ

ويجوز (وحَرًى يجود) بإضمار (أن) ، أى وحَرًى أن يجود .

(ما مرته الريح) . جملة فى موضع الحال .

— ٢٠ —

وله أيضا :

(لَمْ يَلْقَ قبلكَ مَن إذَا اشْتَجَرَ القَنَا
　　جَعَل الطِّعَان مِن الطِّعَان مَلَاذَا)

إنْ شِئْتَ قُلتَ معناه : أنك تُلْقِى نفسك للطِّعان مُحتقراً لها ، لتهابك الأقران . وإن شئت قلت معناه : إنك تلوذ من الطَّعن بطَعْنِك لعدوّك ، علما أنك إن تهيّبته ولم تطعنه طَعَنَك فإنما تدفعه بالإقدام ، لا بالإحجام ، (لأنه) تمكين للعدو .

ولهذا قالت العرب : إن الحديدَ بالحديد يُفلح : أى إن الشر إنما يدفع بمثله . كقول قطرى :

تأخرتُ أسْتَبقى الحياةَ فلم أجِد　　لِنفْسى حياةً مثل أن أتَقَدَّما

وقال المتبنى فى نحوه أيضاً :

فإن تكُنِ الدولاتُ قِسْماً فإنَّها　　لِمنَ وَرَدَ الموتَ الزؤامَ تَدُولُ
لمنْ هَوَّن الدُّنيا على النفسِ ساعةً　　وللبيض فى هام الكماة صَلِيل
(لَمَّا رَأَوكَ رَأَوْا أباكَ مُحمداً　　فى جَوْشَنٍ وَأخا أبيكَ مُعَاذَا)

أى (ذكروا) برؤيتهم إياك عمّك وأباك . يذهب إلى قوة شبهه بهما كقولهم أبو يوسف أبو حنيفة ، أى مثله ، وقد قال المتنبى فى هذا المعنى :

لو تَنكَّرْتَ فى المَكَرِّ بِقَومٍ   حَلَفُوا أنَّكَ ابنُهُ بالطَّلاقِ

- ٢١ -

وله أيضا :

(وكأنما عِيسَى بنُ مريمَ ذِكْرُه   وكأنَّ عازرَ شخصُه المقبورُ)

عازرُ هنا : أحياه عيسى ، وأقامه من قبره ، فكذلك ذكر هذا الميت يحييه ، كما أحيا المسيحُ عازر . وترك صرف عازر لأنه أعجمى .

- ٢٢ -

وله أيضا :

(تُشَقَّق منهُنّ الجُيوب إذا بَدَتْ   وتُخْضَبُ مِنْهُنّ اللِّحَى والمفارِقُ)

(تشقق منهن الجيوب) . أى إن البعولة والبنين يقتلون بها ، إذا جُرِّدت من أغمادها ، فيشقِّق الثّكالَى جيوبهن . (وتُخْضَب منهن اللِّحى والمفارق) أى يُخضبن بالدم ،حتى يُشكل الشابُ والكهل والشيخ ، فلا تعرف الثّكلَى بعلهَا من ابنها .

(يُحاجَى به : مَانَاطِقٌ وهوسَاكِتٌ ؟   يُرى ساكِتاًوالسيفُ عَنْ فيهِ نَاطقُ)

الصمت والنطق : ضدان ، والضدان لا يجتمعان فى محل واحد ، فى وقت واحد ، لكن هذا الملك ينطق السيفُ عنه وفمه ساكت ، فالأحجية من البيت فى الشطر الأول وتحليلها فى الثانى . ونُطق السيف عنه ؛ عمله فى عُصاته وعُداته ، إذ السيف جَمادٌ ، والجماد لا نطق له . وإنما هو كقوله :

* وقالت الأنساعُ للبطنِ الخَوِر *

ولو تقصيت هذا لطال الـكلام ، لأن فى مثله يطولُ المثال .

- ٢٣ -

وله ايضا :

(وتُنكِرُ مَوْتَهُمْ وأنا سُهيلٌ   طَلَعتُ بموت أولادِ الزِّناءِ)

أكثرُ الموت الواقع فى البهائم ، إنما هو عند الرِّعاء بِطلُوع سُهَيل، فعدَّ أضدادَه من جهلهم . بَهائمَ يُميتهم سُهيل . قال :

وكان أضرَّ فيهمْ من سُهيلٍ   إذَا أوْفَى وأشأم من قُدارِ

وقال المنجمون : طُلوع سُهيل طلوع ضُرٍّ وَوَيْل . فيقول هو : طلوعى ضَررٌ عَلَى أولادِ الزِّنا . ولم يعن بذلك أنهم لزِنيْة فى أنسابهم ، إنما أراد أنهم يَعْتَزُون إلى الفضل وليسوا منه ، كما ينتسب بنُو الزنا إلى غير آبائهم .

وسُهَيْل : اسم جاء على بناء التصغير

- ٢٤ -

وله ايضا :

(مَلامُ النَّوى فى ظُلْمِها غايةُ الظُّلم   لَعلَّ بها مِثلَ الذى بِى مِنْ سُقْمِ)

أى أن ملاَمِى للنَّوى فى ظلمها لى ، واستئثارها بمحبوبى غاية الظلم ، لأن فى الإمكان ، وطبيعة تأثير الزمان أن تـكون النَّوى عاشقةً لهذا المحبوب كعشقى ، فيورِّثها ذلك سُقْما كسُقمى ، فالحـكم ألاَّ ألومها ، لأن من لم يُؤْثِر عليك إلاَّ نفسه فليس بمؤْثِر عليك أحدا .

وبالغ بقوله : غاية الظلم ، مُقدرا أن بالنوى من الوجد مثل مابه . وذكر

السُّقم ولم يذكر العشق استغناء بذكر المُسبِّب عن السبب . وأراد ملامى للنَّوى ، فأضاف المصدر إلى المفعول ، كقوله تعالى: ﴿ لا يَسْأَمُ الإنْسانُ من دُعاءِ الخَيْرِ ﴾

(طِوَال الرُّدَيْنيَّات يَقْصِفُها دَمِي وبِيضُ السُّريجيَّات يَقطعُها لحْمِي)

إن شئت قلت : إن دمه يقصف الرمح بحدته وقوته ، أى أنه أقوى من الرمح . (وبيض السُّريجيات يقطعها لحمى) : أى أنه أحدُّ من السيف ، فهو يؤثر فى السيوف تأثير السيوف فى غيره .

وقد يكون أن الرماح والسيوف تنبو عنه ، ولا تؤثر فيه البتة . فكأن دَمَه كَسَرَ الرمح ، وكأن لحمه قَطَعَ السيف . وقد يجوز أن يَعْنِى أنه من نفسه وعشيرته فى مَنَعَة . فإذا أصابه طعْن أو ضرب ، أكثرَ الطعن فى طلب ثأره ، حتى تَتَقَصَّف الرماح ، وتتقطع السيوف .

(مُذِلُّ الأعِزَّاء المُعِزُّ وإن يَئِنْ به يُتْمُهم فالمُوتِمُ الجابر الْيتم)

أى مُذِلُّ مخالِفيه المعادِينَ له ، ومُعِزُّ محالفيه المعاضِدين له . وإن يَئِن : أى يقرب به يُتْمُهم ، أى يُتِم أبناءهم بقتله أباءهم ، فإنه يجبر يتمهم بِعَوْدِه عليهم ؛ واكتفاله إياهم بعد الآباء .

وقد يجوز أن يُوتِم قوماً ويَجْبُر يُتْمَ آخرين ، لم يكن هو الذى أيتمَهم .

(إذا بَيَّتَ الأعداء كان استماعُهم صَريرَ العوالى قَبْل قَعقعةِ اللُّجْمِ)

أى يطوى سرَّه ؛ ويخفى حسَّه ، حتى يكاد يُخرس اللِّجام فلا يخرس . وهذه مبالغة فى طىِّ الخبر .

وقد يجوز أنه اعتقل الرمح أوَّلاً ، فإن أمكنه إلجام الفرس ؛ وإلا ركبه غير ملجم .

(مع الحزم حتى لو تعمَّد تركه لألْحَقَهُ تضييعه الحزمَ بالحزْم)

أى أن حزمه طبيعى ؛ فلو تعمد تركه لا نعكس تضييعه الحزم حزماً ، إذ ليس فى قوته غير ذلك .

(وَفى الحربِ حتى لو أرادَ تأخُّراً لأخَّره الطبعُ الكريمُ إلى القُدْمِ)

أى إن طبعه إتيان الفضائل ، وَتنكُّب الرذائل ، فلو رام التأخر مُمتَحِناً لطبيعته تلك ، لتأبىَّ عليه الطبع ، فردَّه إلى التقدُّم .

وقد اطَّرَدَ هذا المعنى فى غير هذا الموضع من هذا الشعر ، كقوله :

(لَهُ رحمةٌ تُحيِى العظامَ وَغضْبَةٌ بها فضلَةٌ لِلْجُرمِ عن صَاحِبِ الْجُرمِ)

يُحيِى العظامَ : مبالغةٌ فى قوتها على الإحياء . وغضبةٌ : أى إذا أغضبه الجرمُ الجانى تجاوز له غضبه قدر جُرمه ، فإما تجاوز به قدر جرمه فأهلكه ، وإما تهاون به فتركه .

(دُعيتُ بِتَقْريظيكَ فى كلِّ مجلسٍ فظَنَ الذى يَدعُو ثَنَائى عليكَ اسْمِى)

أى أنى لَزِمتُ مدحك ، وخَصصت حمدك ، حتى عُرفت بذلك ، وغلب على اسمى العَلَم وكُنيَتى ونَسَبى ، وظن الذى يدعو ثنائى عليك اسمى : أى قيل لى : يا مادح ابن إسحاق ، ذهاباً إلى أن ذلك اسمِى لا اسم لى غيره ، وأراد يدعونى ، فحذف المفعول . وثَنائى واسمى : مفعولا ظن . وإنما أراد الصفة المشتقَّة من ثنائى عليك ، كقوله : ياحامد ، ويا مادح . ولم يرد المدح ولا الحمد ، لأنهما عَرَضان ، والمسمى جوهر ، فلا يُدْعى الجوهر بالعَرَضِ .

(وَثِقْنَا بأَن تُعطى فَلو لَم تَجُدْ لَنَا لَخِلْنَاكَ قد أعطيتَ من قوّةِ الوهمِ)

يذهب إلى أنه لو عَدِم فضيلةً فى وقت ، لظُن فيه أنها موجودة أو تُيُقنت وذلك لما يُعتادُ من وجود الفضائل فيه ، وهذا كالصادق يَكْذِب فيُتَوهَّم كِذْبه صدقاً ، لما جرت به العادة من صدقه .

وقد عَظُم إعياه أبي الطيب في هذه القصيدة جداً .

فمن ذلك أنه عكس الأمر بين الفاعل في بيته الذى هو (طِوال الرُّدَينيات . . .) .

ومنه : أنه جَعَل الضِّد ينقلبُ إلى ضده كقوله : (لأَلحقَه تضييعه الحزم بالحزم) . وليس من شأن تضييع الحزم أن ينتج الحزم .

وكذلك قوله :

وفى الحرب حتى لو أراد تأخرًا   لأَخَّره الطبعُ الكريم إلى القُدْم

فجعل التأخر ينعكس إلى التقدم .

ومنه : أنه جعل العَدَم يُظَنُّ به الوجود ، كقوله :

(. . . فلو لم تجد لنا . خلناكَ قد أعْطَيتَ . . .)

(فكم قائلٍ لو كان ذَا الشخصُ نَفسَهُ   لَكَان قَراهُ مَكْمَنَ العَسكَرِ الدَّهْمِ)

النفس روحانية : فإنما تعظم عظما روحانيا كعِظَم العالم العلوىّ . والجسم جوهرٌ متكاثف ، فلو تجسَّمت هذه النفوس لعظم جِرمُها ، وكانت ذات طوائف جسمانية عظيمة . فكأن ظهر هذا الجِسْم يستُر وراءه عسكراً عظيماً فيحجبه ، وإن شئت قلت : لو كان شخصُه على قدر نفسه فى العِظَم ، لكان ظهرُه مَكْمَن عَسكر كبير . وخَصّ الظَّهْر ، لأنه لا غُضون فيه ، فالكمون فيه أصعب .

(عَظُمتَ فَلَمَّا لم تُكَلَّمْ مَهَابَةً
تواضعت وهو العُظْم عُظْماً عن العُظْم)

أى عَظُمت عِظَماً طبيعيا ، فملأت الصدورَ هيبتُك ، حتى لو تكاملت فأَرَحْت ما بالناس من تهيُّبهم لك ، تواضعت عُظما عن التعظُّم ، وهو العُظْم فى الحقيقة ، لأن العَظَمة والكبرياء إنما يليقان بالأعظم وهو البارى .

و (عَنْ) فى قوله : (عن العُظْم) ، متعلق بقوله عُظماً : بمعنى تعاظُم وهو نَصْب على الحال أو المصدر . وتقدير البيت : تواضعت عُظماً عن العُظْم وهو العُظْم أى ذلك التواضع هو العُظْمُ الحقيقى .

- ٢٥ -

وله أيضا :

(أُحادٌ أم سداسٌ فى أُحَادِ   لُيَيْلَتُنَا المُنوطَةُ بالتَّنَادِى)

أى أواحدة لُيَيلتنا هذه أم سِتٌّ فى واحدة . لُيَيْلَتُنَا : صغرها تصغير التعظيم ، كقول أوس :

فُوَيْقَ جُبَيْلٍ شاهِقِ الرأسِ لم يكن   ليبلُغَهُ حتى يَكَلَّ ويعملا

فقال جُبَيْل . والجبلُ الذى هذه حاله ليس بجبيل ، إنما هو جَبَل .

وإنما وجه تصغير التعظيم ، أن الشىء قد يعظُم ، فى نفوسهم ، حتى ينتهى إلى الغاية ، فإذا انتهى إليها ، عُكس إلى ضدِّه ، لعدم الزيادة فى تلك الغاية ، وهذا مشهور من رأى القدماء الفلاسفة الحكماء : أن الشى إذا انتهى انعكس إلى ضده ، ولذلك جعل سيبويه الفعل الذى يتعدّى إلى ثلاثة مَفْعُولين ، وهى نهاية التعدِّى بمنزلة الفعل الذى لايتعدى إلى مفعول . قال : لأنه لما انتهى فلم يتعدّ صار بمنزلة ما لايتعدّى . وهذا منه ظريف جداً .

والتنادى : القيامة ، لما جعل الليلة سِتًّا استطالها بعد ذلك ، فجعلها هو أكثر مدة ، فقال : إنّها منوطة بالبَعث .

وأُحاد : خبر مبتدأ مقدم ، ولا يكون مبتدأ لأنه نكرة ، ولُيَيْلَتُنا معرفة، فهو أولى بالابتداء ، وصغَّرَ الليلة على القياس .

(مَتَى لَحَظَتْ بياضَ الشَّيبِ عَيْنِى   فقد لَحَظَتْهُ مِنْها فى السَّوادِ)

أى حزنى على بياض شيبى كحزنى عليه لو رأته عينى فى سواد ناظرها .

كقول أبى دلف :

فى كل يوم أرى بيضاء قد طلَعَت كأنّما طَلعت فى ناظر البصر

(مَتَى ما ازْدَدتُ من بَعْدِ التَّنَاهى فَقَد وَقَع انتِقَاصِى فى ازْدِيَادِى)

أى إذا ازددتُ عُمراً بعد تناهى الأَشُد ، فتلك الزيادة فى سِنِّى نقصان مِنِّى ، لأنه قد بلغ غاية النَّماء ببلوغ الأَشُدِّ ، فهو آخذ بعد ذلك فى التحلُّل إلى بسيط العنصر ، كقوله هو وقد مدح بعض الأمراء بشعرْ عدد أبياته أربعون :

فبعثنــا بأربعــين مهاراً كلُّ مُهْرٍ ميدانه إنشادُهْ

عَدَدٌ عِشتَه يَرَى الجسمُ فيه أرباً لا يَرَاه فيما يُزادُهْ

أىْ عددٌ عشتَه أيها المدوح ، لأن سِنَّ المدوح حينئذ ، كانت أربعين. فسوّى عدة الأبيات بعدة سنيه ، وقال : (يَرَى الجسمُ فيه أرباً لا يراه فيما يُزاده)

يعنى بالأَرَب : النَّماء ، ولا يكون إلا إلى الأربعين . فإذا زِيد عليها عمرا لم يرَ الجسم فى ذاتِه نماءً ، إنما هو راجعٌ عن التركُّبِ إلى التحلُّل .

(وأَبعَدُ بُعْدِنا بعد التَّدانى وأقربُ قُرْبِنَا قُرب البِعادِ)

يقول : كنت منه بعيداً ، فكان البُعد منى حينئذ قريباً ، والقربُ بعيـداً .

فلما جئتُه وقربت منه ، انعكست الحال ، فعاد البعد بعيداً وكان قريباً ، وعاد القرب قريباً وكان بعيداً .

ونَسب الإبعاد والتقريب إلى هذا المدوح ، لأن انعكاس الحال ، إنما كان بسببه .فلولا هو لم يَبْعُد البُعد الذى كان قريباً ، ولا قرب القرب الذى كان

بعيداً : وإخراجه مصدر أبْعد وقرَّب على بُعْد وقُرب ، وإنما مصدراهما إبْعاد وتَقْريب ، على قوله تعالى : ﴿ واللهُ أنبتكُمْ مِن الأرْضِ نَباتًا ﴾ أى : نَبتُّم نباتا . وكذلك أبعد وقرّب ، مطاوعهما بَعُد وقَرُب ، فأخرج المصدر عليهما ، ومثله كثير .

(وأنَّكَ لا تَجودُ عَلَى جَوادٍ هِبَاتُكَ أن يُلَقّبَ بالجَوادِ)

أى لم تترك هباتُك أحداً غيرَك يستحق أن يُلَقَّب بالجواد إذا قيس بك. وتلخيص ذلك : أى لاتجود هِباتُك عَلَى أحدٍ بهذا الاسم ، وإن كانت لاتمنع غيره من ضروب العطايا ، (فأنْ) عَلَى هذا القول نَصْب بإسقاط الحرف أى بأنْ يُلَقّب . وهباتُك فاعل بتجود . ولا تكون التاء فى تجود للمخاطبة ويكون (هِباتك) بدلاً من الضمير الذى فى تجود ، ولا يجوز ذلك البتة، لأن المخاطب لايُبدل منه البته . ومن هنا منع سيبويه البدل فى قولك : بِكَ المسكين مررت . إنما تنصبه عَلَى الترّحم ، أو على نية إسقاط الألف واللام فى قول يونس ، فيكون منصوبًا على الحال . وقد كَرِه هو أيضًا قول يونس وقال : ولو جاز هذا لقلت : مررت بعبد الله الظريف تريد ظريفًا .

- ٢٦ -

وله ايضا :

(إذَا مَاسَتْ رَأيتَ لها ارتجاجاً لَهُ لَولا سَواعدُها نَزُوعا)

أى إنّها مُنَعَّمَةٌ تهتز فى مشيتها : فلولا سواعدها لبزها اهتزازها ثوبها .

(تُرَفِّعُ ثَوبَها الأردافُ عَنْها فَيبقَى من وشَاحِيْها شَسُوعا)

أى يرفع ردفُها ثوبَها عن جسمها . والوشاح عن الخصر ، فيُبْعِد بينهما وبين الثوب ، كقوله :

أبت الروادفُ والثديُّ لِقُمُصِها مَسَّ البطون وأن تمسَّ ظهوراً

(ذِرَاعَاهَا عَدُوَّا دُمْلُجَيْها يَخَالُ ضَجِيعُها الزَّندَ الضَّجِيعاً) :

إن شئت قلت : إنّ الدُّمْلُجَيْن يلزمان الذراعين لأنهما عَبْلتان كقوله :

تجول خلاخيلُ النساء ولا أرى لرَملة خلخالاً يجول ولا قُلْبا

وإن شئت قلت : إن الذراعين عَدُوَّا دُمْلُجيهما ، لأنهما يُقضِيان الدملجين، ويُشيِحانهما ، حتى يكادا يكسرانهما . وهو عندى كقول جرير :

لها قَصَبٌ رَيَّانُ قد شَجِيَتْ به خلاخيلُ سلمى المصمتاتُ وسُورُها

سُوْر : جمع سِوار . وكقول القُطاميّ فى صفة امرأة :

* إذا يميلُ على خَلْخالها انفصمَا *

ويروى : (انقصما) ويقويه : (ذراعاها عَدُوَّا دُمْلُجَيْها)

ولو أراد الأول لقال : سِوارها عَدُوَّا ساعديها .

على أنى لا أُحَجِّر ذلك ، لأن العدوّ من باب المضاف فى غالب الأمر أعنى أنك إذا كنت عدوا لشىء كان لك عدوا . فقوله : ذراعاها عدوا دُمْلُجيها كقوله : دملجاها عدوا ذِرَاعَيها .

(يخال ضجيعُها الزندَ الضجيعا) : أى زندها عَبْل يظنه الضجيع من عَبالته جسما .

(أُحبُّك أو يَقُولوا جَرَّ نَمْلٌ ثَبِيراً وابنُ إبْراهيمَ رِيعا)

معنى هذا البيت الأبدية ؛ أى إنى أحبك حتى يجر النمل ثبيراً . وهذا لا يكون عند أحد أبداً . وحتى يقال : رِيع ابن إبراهيم ، وابن إبراهيم على هذا المنزَع لا يُراع .

وقد أحسن فى هـذا الاستطراد وإن كان قرنه إمكانيا ، أعنى بقوله :

(وابنُ إبراهيم رِيع) فتناهى وهو قوله : (أو يقولوا جَرَّ نملٌ ثبيرا) ، لكن الثانى عنده فى الامتناع كالأول ، وإن كان فى تحصيل الحقيقة ليس مثله، وكذلك حبُّه إياها إلى أن يجر النمل ثبيراً شعر كذب .

(وَليس مُؤَدِّبًا إلاَّ بِنَصْلٍ كَفَى الصَّمْصَامَةُ التَّعَبَ القَطِيعا)

أى أرهب سيفُه الناس ، حتى ليس تفعل فى أيامه ما تستحق عليه السوط فضلاً عن غير ذلك ، فقد كفى سيفُه السوطَ التَّعب . وإن شئت قلت : إنه لا يُنزل عقوبة بجبان إلا القتل ، لا يضربه بسَوْط ، فقد استغنى بالسيف عن السوط . وكفى السوطَ التعبَ لذلك .

(فلا عَزَلٌ وأنت بلا سلاحٍ لحاظُكَ ما تكُون به مَنِيعا)

العَزَلُ : عدمُ السلاح عامَّة . واللحاظ : جمع لَحْظة ، وقد يكون مصدر (لاحظ) ، أى ملكتْ هيبتُك القلوب ، فنظرتك تُغنى عن السلاح ، فإنّ هيبتك اذا نظرت قاتلة ، لإقدامك وإن كنت بلا سلاح .

فقوله : (بِلاَ سلاحٍ) جملة فى موضع الحال ، أى فلا عَزَلَ بك ، وإن كنت غير متسلح . وقوله : (لحاظك ماتكون به منيعا) يجوز أن تكون فيه (ما) بمعنى الذى ، فيكون على هذا مابعدها صلة لها . ويجوز أن تكون نكرة بمنزلة شىء ، فما بعدها فى موضع الصفة ، لأنها إذا كانت نكرة لزمتها الصفة ، كما أنها إذا كانت معرفة لزمتها الصلة . ونظيره فى الوجهين قوله تعالى : ﴿ هذا ما لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾ .

ويجوز أن تكون (ما) زائدة كأنه قال : لحاظُك تكون به مَنيعا .

ومنيع : يجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول ، أى ممنوعاً محمياً ، وأن يكون فاعل تكريم . يقال : مَنُع مناعة فهو مَنِيع كرفُع رَفاعةً فهو رفيع .

(وَجاوَدَنِي بأن يُعطِي وأحوِي فأغرَقَ نَيْلُه أخْذِي سَرِيعا)

أى نازعنى الجود : بأن يُعطى هو ، وآخذ أنا ، ولم يكن للمتنبى هنالك جُود ، لكن الآخذ لما كان : يجودُ هذا الجود ، صار كأنه جُود . وهو أحسن عندى ممن قال : إن جود المتنبى إنما كان بالأخذ .

ونظير هذا القول الذى ذهبت أنا إليه قوله تعالى: ﴿ فَمَن اعتَدَى عَلَيكُمْ فاعتدوا عليه ﴾ وليس قتل هؤلاء المأمورين للمعتدين عليهم اعتداء . ولكنها مكافأة اعتداء ، فسُمِّى باسم السبب الذى هو الاعتداء . وكقول عمرو بن كلثوم :

ألا لايَجْهَلَنْ أحدٌ علينا فَنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا

(فأغرق نيلُه أخذِى سريعا) : أى مَللْتُ الأخذ ولم يَمَلّ هو العطاء .

- ٢٧ -

وقوله أيضا :

(أحَقُّ عافٍ بِدَمْعِكَ الهِمَمُ أحدثُ شىء عهداً بها القِدَمُ)

العافى : الدارس . والهِمَم : جمع هِمَّة وقد قيل هَمة بالفتح . ولا يمتنع أن يكون هِمم جمع لهَمة أيضا ، فقد جاءت فَعْلة مكسرة على (فِعَل) كبَدْرة وبِدَر وهضْبة وهِضَب . ومن المعتل ، ضَيْعَة وضِيَع ، وخَيْمة وخِيَم .

ومعنى البيت؛ أنه يسفِّهُ الناس فى بكائهم الديار والأطلال إذا عفت، ويقول لهم : أولى عافٍ بدموعكم هممُ الرؤساء فى هذا الزمان ، فقد عَفَت حتى صار

أَحْدَثُ عهدٍ بها قديما ، فما تفضُل هِمَمُهم عن ملاذِّ بطونهم وفروجهم ، فإياها فابكوا لا الديار ، فهن أولى بالبكاء عليها منها ، لأن الهمة المعدومة أعزّ فقداً من الدار . وإذا كان أحدث عهد بها قديماً ، فما ظنك بغير الأحدث .

(مِلْتُ إلى من يَكادُ بينكما إنْ كُنتما السَّائلين يَنقَسِمُ)

يخاطب صاحبه ؛ أى آثرت بقصدى وتأميلى من لو سألتماه ولا شىء لديه إلا شخصه لانقسم بينكما شِقَّين ، اعتيادا للنوال وألا يَرُد ذوى السؤال .

(يُريكَ من خَلْقِه غرائبه فى مَجْدِه كيف يُخلَقُ النَّسَمُ)

إن شئت قلت : إن الله لطف خَلقه للنسم كما شاء ، حتى دقّ على الوهم تصوُّرُ كيفيته ، ولهذا الممدوح غرائبُ من خلقه تُوصِّله إلى اقتناء المكارم ، تغرُب وتلطُف ؛ فمن تأملها ، فكأنه قد تأمل خلْق الله للنَّسم . وذلك تعظيم لقدر ما يأتيه ، لشبهه بخَلْق الله ، تعالى عن ذلك !

وإن شئت قلت : إنه بحسن أفعاله ويُمنها تحيا النفوسُ ، فكأنه بذلك يُحييها وينشئها وليس الخلق عنده فى قوله (يريك فى خلقه غرائبه) الخلق الذى هو إيجاد المعدوم ، وإخراجه إلى التكوُّن ، لأن ذلك لا يستطيع عليه إلا بارئنا جل وعز ، وإنما الخلْق ها هنا : كناية عن الصُّنْع ، وكَنَى عنه بلفظ الخلق ، ذهاباً إلى ابتداع هذه الغرائب ، وهذا من شديد المبالغة . وربما كَنَى بالخلق عن الصنع . وبين الخالق والصانع فرقٌ ، لا يليق إيضاحه بهذا الكتاب .

والنسم : جمع نَسَمَة ، اشتقت من النَّسيم ، كما اشتق الروح من الريح ، والنفْس من النَّفس .

(تُشرِقُ أعراضُهم وأوجُهُهُمْ كأنها فى نُفوسهم شِيَمُ)

لا شىء أصفى ولا أبسط من النور ، فلذلك توصف الجواهر الصافية به .

وأولى شيء بذلك الأمور النفسانية ، لأنها أذهب فى البقاء وعدم التراب من الجسمانية : والشيمة نفسانية ، والوجه جسمانى . والعرض : يجوز أن يكون بالجسم ، فلم يخلص إلى النفسانية كخلوص الشيمة ، فشبه أبو الطيب الأعراض والأوجه بالشيم فى الشروق والصفاء ، وتناهى البقاء . وإن شئت قلت : وضع هذا الكلام على أنه قد عَلِمَ أنه شِيمَة مُشرِقة علماً عاماً ، وقدّم ذلك لمزية الشيمة ، وهى الطبيعة ، على الوجه والعِرْض ، فحمل الوجه والعرض بعد ذلك عليها ، تشبيهاً لهما بها . والأوْجَه ما قدمناه من أن الشيمة نفسانية ، فهى أملك بالصفاء ، والوجه والعِرْض جسمانيان ، فحملهما عليها .

(كأنها فى نهارِها قَمَرٌ حَفَّ بها من جِنَانِها ظُلَمُ)

شبه البحيرة فى استدارتها بالقمر كقول ابن الرومى يصف رغيفاً :

ما بينَ رؤيتها فى كفِّه كُرَةً وبين رؤيتها قَوْرَاء كالقَمرِ

وشبه الجنان على حافاتها ، بالظُّلم من شدة خُضرتها ، وذلك لأن النبات إذا اشتدت خضرته ادْهَامّ ، كقوله سبحانه وتعالى فى وصف الجنتين ﴿ مُدْهامّتان ﴾ وقال الراجز يصف سائمة عَدَت على كلأ ناجم مُخضر :

فصَبَّحَتْ أرْعَلَ كالنِّبَال ومظلما ليس على الدغال

وقال: (فى نهارِها) ليستغرب وجود الظُّلم نهاراً ،واختار ذلك لمكان القمر، إذ القمر فى غالب أمره ، لا يكون إلا مع الليل ، وهذه البحيرة بالشام وليست البحيرة تصغير بَحْر ، لأن البحر مذكر ، فلا تثبت الهاء فى تصغيره ، إنما هى تصغير (بَحْرة) ا وهو القاع العظيم يُنبت السِّدْرَ ، كقول النَّمِر بن تَولَب فى صفة روضة :

وكأنها دَقَرَى تَخيَّل نبتُها أُنفٌ يغم الضالَ نبتُ بحارِها

(ناعمةُ الجسمِ لا عظامَ لها لها بَنَاتٌ وما لها رَحِمُ)

وصفَ جسمَها بالنَّعمة لأنه ماء ، والنعْمة إنما تـكون فى النامى ، وهما الحيوان والنبات ، وأما الماء ؛ فلا يَقْبل نماء . وإنما كثرته بعد القلّة كميّة لا كيفية . لـكن لما كان الناعمُ صافى البشرة ، وكان الماء صافياً ، استعار له النعمة ، كما يقال فى البرود ذوات الدُّرر والفرائد : ناعمة . وإنما هو على الاستعارة .

(لها بنات وما لها رَحِمُ) : أغرب بذلك ؛ لأن البنات مولودة ، ولا تلد إلا الرحم ، فهذه ذات بنات بغير رحم ولدتهن . وعنى بالبنات : سَمَكَهَا ؛ كأنه لما ربِّين فيها واغتذَين ، صرن لها بنات .

وإن شئت قلت : إن الماء للسمك كاللبن للمولود . فلما غذّتها هذه البحيرة بما فيها ، صارت كالوالدة المرضعة . وقد ألَمَّ المتنبى فى هذا بقول ابن الرومى يستهدى سمكا :

وبناتُ دِجْلة فى قبائِـكُمُ مأسورةٌ فى كل مُعْتَرَكِ

إلاّ أن المتنبى زاد عليه بقوله : (وما لها رَحِمُ) ، فأغرب .

(يُبْـقَرُ عَنْهنَّ بطنُها أبَـداً وما تَشـكّى وما يسيلُ دمُ)

يُحاجى بذلك ، لأن شق البطون الحيوانية يُشـكِى ويُدْمِى . وهذه البحيرة يُشق بطنُها عن سمـكها ، فلا تشتكى ولا تَدْمى بعدمها الحيوانية .

(وقد توالى العِهادُ منه لـكُمْ وجَادَتِ المَطْرةُ التى تَسِمُ)

الوسمى : أول المطر ، لأنه يَسِم الأرض بالنبات . والعَهْدة : المَطْرة تأتى بعد الوَسْمِىّ ، تعهد الأرض بالنبات .

واعتيادُ الشعراء الاعتداد على الملوك بتـكرر مدحهم فيهم ، وتمهيدهم بذلك الحقوق عندهم ، كقول أبى تمام :

لها أخوات غيرُها قد سمعتَها وإن لم تَرُغْ بى مُدّة فستسمع

فيقول : هذه القصيدة الثانية من جملة العهاد التى تتعهد الأرض ، وأما القصيدة الأولى التى كانت كالوسمىّ فقد جادَتْ .

- ٢٨ -

وله ايضا :

دارُ الملم لها طَيفٌ يُهدِّدُنِى ليلاً فما صدَقت عينى ولا كَذَبَا

أى تهددنى الطيفُ بالهجر ؛ كما كانت رؤيته تفعل فى اليقظة ، والحُلْم جارٍ على عاداته فى اليقظة ، فما كَذَب الطيفُ فيما تَهَدَّدَنِى به ، لأن الهجرَ واقع . وما صَدَّقت عينى فى رؤية الخيال ، لأنه زور لا حقيقة . والألف واللام فى (الملم) للمرأة ، وانفعل للطيف ولها . واللام فيها للاستحقاق لا للملك لأن الطيف غير مملوك ، وإنما هى مستحِقةٌ له من حيث كان إياها فى المعنى .

(عُمْرُ العَدُوِّ إذا لاقَاه فى رَهَجٍ أقلُّ من عُمْرِ ما يَحوى إذا وَهبَا)

ليس الموهوب يحوىٌّ فيصح قوله : أقلّ من عمر ما يَحْوِى إذا وهبا ، لأن ما فارقه بالهبة ، فليس فى ملكه ، وإنما عَنى : إذا أراد أن يهب . فاكتفى بالمعلول الذى هو الهِبةُ عن العلّة التى هى الإرادة .

(وَتغبِطُ الأرضُ منها حَيث حَلَّ به وتَحسُدُ الخيلُ منها أيَّها رَكِبَا)

غبطتُ الرجلَ : إذا تمنيتَ مثلَ مالَه من النعمة ، ولم تُرِد زوالها عنه . وحسدتَه : إذا تمنيت مالَه بزواله عنه . فجعل الأرض تَغبطُ ، لأنها جِرْم واحد

متصل . والذات الواحدة لايريد بعضها ببعض كزاهة ، وجعل الخيل تحسُد لأنها جمع غير متصل الأجزاء ، ولا مُتداخلها وإنما هى أشخاص مفترقة ، وإنما ضمها نوع فهى متغايرةٌ بالشَّخص ، ومشتركَةٌ بالنوع ، والأشخاص متشاكلة ومتعادية . فمن المألوف أن يُحِبَّ بعضَها بَعْض .

و (أيّها) : منصوب بركب ، ولا يكون بتحسد ، لأن الاستفهام لايعمل فيه ما قبله إلا أن يكون حرف جَرٍّ .

(بكُلِّ أشْعَثَ يَلقَى الموتَ مُبتسماً   حتى كأن له فى قتله أرَبَا)

أى أنه يستبشر بالمنية إذا كانت فى سبيل المُعَالاة ، لأن ذلك يُعقبه ذكراً رفيعاً ، ومثله كثير ، كقول الشاعر :

إذا قتلوا أقرانَهم لَم يَروهُمُ   وإن قُتِلُوا لم يقشعِرُّوا من القتلِ

إلا أن أبا الطيب أغربَ بقوله : (مبتسما) ، فهو أبلغ فى قلة المبالاة بالمنية من قوله : (لم يقشعروا) . وقال أبو تمام :

يَستَعذِبُون مناياهم كأنهمَ   لايَيْأَسون من الدنيا إذا قُتِلُوا

إلا أن الابتسام أبلغ من الاستعذاب ، لأن الابتسام مُشعِرٌ بلذة نفسانية .

- ٢٩ -

وله أيضا :

(بأَبى الشُّموسُ الجانحاتُ غَوارباً   اللَّابِسَاتُ من الحرير جَلاَبِبَا)

الشموسُ هنا : النساء . والجانحات : الموائِلُ للغروب . فإن شئت قلت : إنه شَبَّهن بالشموس فى هذه الحال ، لأنه يقيهن ، فأظهرن الخَفَر ، أو خَفَرْن فَسَتَرْن بعضَ محاسنهن ، وأبقين بعضا : إما للمُباهاة ، وإما لأنهن لم يمكنهن

إلا ذلك ، لجعلهن كالشموس التى أخذت فى الغُروب ، تخفى بعضها ، وبقى بعضها ، كقول قيس بن الحطيم :

تَراءتْ لنا كالشمس تحت غمامة بَدَا حاجِبٌ منها وضَنَّتْ بحاجبِ

وإن شئت قلت : إن هؤلاء النساء غِبْن فى الخدُور والهوادج ، فكأنهن شموسٌ غوارب . هذا قول أبى الفتح ، وليس عندى بقوىّ ، لأنهن إذا غِبْن فى الُخدور والهوادج ، فهنَّ غير محسوسات ، والشمس إذا جنحت للغروب فبعضها محسوس ، وبعضها غير محسوس . ولم يقل الشاعر : بأبى الشموسُ غواربا فيُتَأول عليه أنه عنى النساء اللواتى أخفتهن الخدور ، وإنما قال : الجانحاتُ ، والجنوح لا يقتضى كُلِيَّة الغروب .

فإن قلت : فقد قال : (غواربًا) ، فأشعر ذلك بغروب كُلٍّ ، قلنا : قد أثبت الجنوحَ قبل ذلك . وإنما قال : غواربًا ، وهو يذهب إلى أنها آخذة فى الغروب ولَمَّا تَغربْ بعدُ . كقولهم فى العليل إذا يئِسَ منه : هو ميِّتٌ ؛ وإن لم يُمتْ بعدُ . وقد يجوز أن يُوقع غواربا على الكُلِّ حين غَرب الجزء تجوزاً لا حقيقة .

- ٣٠ -

وله ايضا :

(سَلامٌ فلولا الخوفُ والبخلُ عِندَه لقلتُ أبو حفصٍ علينا المُسَلِّم)

أى إنى ارتحت بسلام هذا الطيف علىّ ، كارتياحى بسلام هذا الممدوح ، فكأن سلامه علىّ تسليم أبى حفص علىّ . لكن الفرق بين الخيال وتسليم أبى حفص أن تسليم الخيال يتخلله البخلُ بتمام الوصل وتحقيقه ، والخوف من فراقه ، وألَم معاتبته علىّ بطعم الغُمْض بعده . فتسليمه كَدِرٌ بهذه الآفات ، وتسليم أبى حفص لا يلحقه بخلٌ ولا خوفٌ ، بل هو الشرف السابغ المهنئ .

(وأغربُ مِن عَنقاء فى الطيرِ شَكْله وأعوزُ من مُستَرفِدٍ منه يُحرَمُ)

ليس الشكل هنا : الصورة لأن صورته موجودة ، وعنقاء مُغْرِب معدوم البتَّةَ . فلا يقال فى موجود إنه أغربُ من معدوم . والشَّكل هنا : المِثْل ، أى أن شَكْلَه اسمٌ واقع على غير مُسَمًّى ، أى لا شكل له ، كما أن العنقاء اسم لغير مسمى . وإنما يوجد الشكل ملفوظا به فى نفى الشكل عنه ، أعنى فى قولك : ماله شكلٌ ، فتفهَّمْه ، فإنه معنى منطقىّ .

(وأعوزُ من مُسترْفِدٍ منه يُحرم) : أى أن نظيره عدم ، كما أن مسترفِداً منه محروما عَدَم .

وقال : (أعْوز) وإنما هو أشد إعوازاً ، لأنه جاء به على حذف الزائد . هذا قول أبى الفتح . وليس على حذف الزائد كما قال ، لأنه يقال : عازَه الأمر وأعْوَزه . فأعوز فى بيت المتنبى على (عازَ) ، لا على (أعْوزَ) .

وإنما يتوهم حذف الزائد إذا لم يوجد عنه مندوحة ، كقولهم : ما أعطاه للدرهم وآتاهُ للجميل وأولاهُ للمعروف ، فإن هذه كلَّها على حذف الزائد . والمسترفِدُ : طالب الرِّفد ، لأن باب استفعل فى غالب الأمر ، إنما هو للطلَب والمحاولة ، كاستخرج واستَسْمن واستَجاد .

قال سيبويه : وقالوا مرَّ مستعجِلا ، أى مرَّ طالباً ذلك من نفسه ، متكلفا إياه .

- ٣١ -

وله أيضا :

(أركائِبَ الأحْبابِ إنَّ الأدْمُعَا تَطِسُ الْخدودَ كما تَطِسْنَ اليَرْمُعَا)

أى أن الدمعَ يؤثر فى الخدود تأثيرَكُنَّ فى اليَرْمع ، وهو الكَذَّان .

وتَطِس : تَكسِر ، وليس هناك كَسْر ، إنما بالغ فى التأثير ، فكَنَى عنه بالكسر ، للتكثير .

(نظمت مواهبهُ عليه تمائماً فاعتادها فإذا سقطن تفزَّعا)

أى اعتقاده فى مواهبه أنها تقيه الذام، كاعتقاده فى التمائم أنها تقيه السوء، فإذا خلا منهن تفزّع، كفزع ذى التمائم إذا سقطت عنه. وإنما ضرب ذلك مثلا. ولو قال: فلو سقطن تفزّعا: لكان أشبه بالمعنى، لأن قوله: (فإذا) يُشعِر بسقوطهن فى بعض الأوقات، لكن سقوطها إنما يكون لعدم مالٍ أو انقطاع سؤالٍ، فهذا توجيه قوله: (فإذا سقطن)، و (تمائماً) منصوبة على الحال، وإن كانت اسما، لأن فيها معنى حَوَارِس، وقد يكون الاسم الجامد حالاً، على توهم الصفة، كقوله تعالى: ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً ﴾. قال سيبويه: (وسمعنا من العرب من يقول: العجبُ من بُرٍّ مَرَرْنَا به قبلُ، قفيزاً بدرهم قفيزا بدرهم) فقفيزا بدرهم حال، وهذا واسع كثير.

(يهتزُّ للجدْوى اهتزازَ مُهنّدٍ يوم الرَّجاء هزَزْته يومَ الوغَى)

أى اهتزازُه للعطايا والجَدْوَى، اهتزازُ السيف عند الوَغَى، والوعى: صوت الحرْب. والغين أعلى فى الحرب. وإنما الوَعَى والوغَى: الصوت، فسميت الحرب بهما لمكان الصوت.

- ٣٢ -

وله أيضا :

(وربيعاً يُضاحكُ الغيثُ فيه زَهَرَ الشُّكرِ من رِياضِ المَعالِى)

أى أنه مَظِنّة للنعم، وأهل لوافر القسم، كما أن الربيع مظنة للخِصب وزمن للإسراع، مع مافيه من الاعتدال، وتساوى الأحوال. فلذلك سمى هذا الممدوح ربيعاً. أى أنه مشتمل على النعم المَرْبُوبَة بالشكر كاشتمال زمن الربيع على ضروب النَّواوير، وأنواع الأزاهير. وقوله: (يضاحك الغيث فيه): عنى

بالغيث النِّعمة . وجعل الشكر زَهرا ، لأن النعمة هى التى أنبتت الشكر ، كما ينبت الغيثُ الزَّهر ، فهذا الممدوح كلما أُنْعِم عليه شَـكَر . وإذا كان غيث وزهر ، فلابد من روضة ، وهى الأرض . التى تنبت الزهر ، وكل ذلك مستعار .

(والجِرَاحَاتُ عِندَه نَغَماتٌ سَبَقَتْ قبل نَيْله بسؤال)

من طبيعة الـكريم ، أن يبادر بالنوال من غير أن يُحوِج إلى السؤال ، لأن فى ذلة السؤال مالا يفى به فضلُ المسئول . فإذا كان نَدًى من غير مسألة فهى اليد البيضاء التى لم يَشِنْها تـكدير ، ولا خالطها تَنْغيص . فإذا سبقت المسألةُ نَوالَ المسئول الـكريم ، سُرَّ بذلك سروراً مشوباً بالـكراهية ، إذ إيثارُه الجودَ قبل السؤال ، فنَغَمات السائل عنده ، كالجراحات التى تُصيب الشجاع فَتَسرُّه من جهة الثبات ، سروراً يخالطه الـكراهية ، لما يلحقه من الألم . وإن شئت : لم تمثل ذلك بجراحات الشجاع ، وقلت : إن نغمات سائله جراحات عنده تؤلمه ، إذا لم يكن نيله له من غير سؤال .

(وبقَايا وَقَارِه عافَتِ النَّاسَ فصارتْ رَكانةً فى الجِبالِ)

كأنه استبدَّ بالوقار أجمع ، إلا أنَّه بقيت منه بقية ، فتلك البقية عافت نوعَ الإنسان ، لِمَا رأته به من قلة الاحتمال لها ، والعجز عن الاستقلال بها ، لضعف مُنَّته ، وَوَهْيِ قوته . فعدلت إلى أجسم الجواهر الأرضية ، وهى الجبال ، إذ لم تجد جوهرا يستقل بها إلا إياها .

وإن شئت قلت : إن لوقاره (هَيُولَى) خُلِق منها فما فَضَل من تلك الهيولَى يكون رَكانةً فى الجبال . وهو قريب من القول الأول .

(واستعارَ الحديدَ لوناً وألقَى لَونَه فى ذَوائبِ الأَطفالِ)

الحديد هنا : كناية عن السيوف والأسنة والنِّصال ، ولونهن الغريزى : البياض لكن استعارت لونا غيره ، وهو احمرارُها بالدم، ولذلك جعله مستعاراً، لأنه لون غريب . إنما هو لمكان الدّم الذى صَبَغها به ، فيقول : لما صَبغ سيوفه ورماحه بالدم، أشاب بأهوالها الأطفال فكأنهنّ لما استعارتْ غير لونها ، أعارت لونها ذوائبَ الأطفال . وكان لونها قبل ذلك السواد . كما كان لون السيوف البياض قبل ذلك .

- ٣٣ -

وله ايضا :

(أسَفِي على أسَفِي الذّى دَلَّهْتِنِي عَن عِلْمِه فبه عَلَىَّ خَفَاء)

ليس يأسف فى الحقيقة على الأسف ، إنما يأسف على تمييزه الذى كان يَعْقِل به أسفَه . فحقيقة الكلام ، أسَفِي على عَقْلى الذى كنتُ أحصل به أسفى .

(فبه علىّ خفاء) : أى أنكِ قد دلّهتنى حتى ما أشعر بأسَفِي .

وقد كان ينبغى له أيضاً أن يذهب عليه ، لو كان مُدَلَّها، أسفُه على هذا الأسف ، إلى ما لانهاية له ، لكن هذا مَقْطع شِعرىّ فلا تَتَقَصَّيَنّ بالمنطِق ، فيفسد . وما أحسن هذا المثل العامّى ، الذى هو قولهم : الاستقصاء فُرْقَةٌ ، ولا تستخِفَنّ بذكر هذا المثل ؛ فقد ذكره أبو نصر الفارابى فى باب من البُرْهان :

(وشَكِيَّتى فَقْدُ السَّقَامِ لأنَّه قَد كانَ لمَّا كانَ لى أعضاء)

وهذا البيت أيضا يشبه الأول : لما لم يَشْكُ فقدَ السقام لأنه مكروه ، والمكروه لا يستوحِش أحدٌ من فقده ، ولكن شكا فقد أعضائه ، لأن السّقام عَرَض والعَرَض لا يكون إلاّ فى الجواهر ؛ فإذا عَدِمَ أعضاءه فقد عَدِم السّقَام . وإنما شَكا فى كُلٍّ الأكبر ، واستسهل الاصغر .

(فتَبِيتُ تُسْئِدُ مُسْئِداً فى نِيِّهَا إسْآدَهَا فى المَهْمَهِ الإنْضَاء)

الإسْـآد : سرعة السير ، وقيل : سير الليل . والنَّىّ : الشحم . وتقدير البيت : فتبيت تُسْئِد مُسْئِدا الإنضاء فى نيِّها إسْـآدَها فى المَهْمه . والإنضاء : المزال . أى أن الإنضاء الحادث عليها من التَّعب ، يُسْئِد فى نِيِّها أى يَسرِى فيه مُسرعا ، فيأخذ منه ، كما تُسْئِد هى فى هذا المهمه الذى تقطعه . يقول : يأخذ السيرُ من جسمها كأخذها هى من المهمه ، فقد أفناها السَّيرُ كما أفنت هى المهمه ، فلم يبق من جسمها شىء كما لم يبق من المهمه ، فسئداً فى اللفظ حال من الضمير الذى فى تسئد ، وهو فى الحقيقة للانضاء والإنضاء : فاعل بقوله : مُسْئداً .

وتحقيق الحال فى ذلك، أن تقول : فتبيتُ تُسئد ، والإنضاء مُسئدٌ فى نِيِّها ، والعائدُ إلى الضمير الذى فى تُسئِدُ من هذه الحال اللفظية ، ما فى نِيِّها وإسآدها من الضمير .

وتقدير لفظ البيت ، على ما صوَّرته لك يُؤَدِّيك إلى حقيقة إعرابه ، لكنِّى ذهبتُ إلى التبيين .

(وَكَذَا الكريمُ إذا أَقَامَ بِبَلْدةٍ سَالَ النُّضَارُ بِهَا وَقَامَ الماءُ)

أى أنه يَبُثُّ الذهب ويصرفه فى كل وجه ، فكأنه بكثرته يَسيل ويُمَاعُ ، حتى يخجل الماء من كثرته ، فيقف حائراً . يقال : قام الماء : إذا جَمَد فلم يسل . ومنه قوله تعالى : ﴿ إلاَّ ما دُمْتَ عَليه قَائِماً ﴾ أى ثابتاً غير منصرف ، ألا ترى قوله بعد هذا : (جَمَد القِطَارُ . . .) وإن شئتَ قلت : يَخْجل القطر من سيلان الذهب ، فيعود سيلانه — بإضافته إلى سَيَلان الذهب — جُمودا ، إلا أنه يجمد عن السَّيَلان .

(مَنْ يَهتَدِى فى الفِعل مالا يَهْتَدى فى القَوْل حتى يَفْعَلَ الشُّعَراءُ)

أى هو من يَهتدى فى الفعل إلى ما لا يهتدى إليه الشعراء فى القول حتى

يفعل . يقول : ذهنُه فى الفعل أنفذ من أذهان الشعراء فى القول ، فإذا أغربوا فى مدحه لم يك ذلك الإغراب من غوص أذهانهم على المعانى . إنما نظروا إلى فعله الذى غاص عليه هو بذهنه . فاهتدوا إلى القول بما رأوه من فعله .

ولولا ذلك لم يهتدوا ، فإذا فعل تعلموا وصفه من فعله .

(مَنْ نَفعُهُ فى أن يُهاجَ وضُرُّهُ فى تَركِه لو تَفْطن الأعداء)

إنما جعل نفعه فى أن يُهاج ، لأنه إذا هِيج أوقع بالأعداء ، فأغار وغَنِمَ ، وأثرى ، واتسعت كفُّه للجود . وتلك بغيته من الثروة . وضرُّه فى تركه إذا سُولم سالَم ، وهو فى ذلك يجود بما عنده حتى ينفَد ، فلا يجد ما يجود به . فهذا وجه ضُرِّه فى تركه .

وإن شئت قلت : البأس وحبُّ الحرب فى طبيعته ، فإذا هِيج مُكِّن بما فى طبعه ، والإنسان ينفعه تحريكه إلى مافى سَجيَّته ، لأن فى ذلك كل بلوغ أمنيته ، وضرُّه فى تركه : أى أنه مُشْتَهٍ للقتال بطبيعته ، فإذا سُولم اشتاق إلى مشاهدة مافى طبعه ، فضرُّه شوقه إلى ذلك إذا لم يمكنه مشاهدته ، كقوله هو:

فــلا تُبلِغَاهُ ما أقُول فإنه شُجاعٌ متى أذكُرْ له الطعنَ يَشتَقِ

والقول الأول عندى أحسن ، لقوله بعد هذا :

(فالسِّلْمُ يَكسِرُ من جَنَاحَىْ مَالِه بِنَوالِه ما تَجْبُرُ الهَيْجاء)

أى أنه يجود بماله فَيُثْلَم ، ثم يُغير فتَجبُرُ الهيجاءُ ما انثلم ، ثم يسالم فيعود إلى طبعه الأول من الجود ، فكلما هاضت السِّلم ماله جَبَرتها الحربُ ، وبالعكس ، أى كلما جَبَرَتْه الحربُ هاضته السِّلم .

(يا أيُّها المُجْيَا علَيــه رُوحُه إذ لَيْس يَأْتيه لَهَا استِجداءُ)

(أحيا عليه روحه) : بأنه لم يستوهبه ولو استوهبه لأعطاه فعُدِم ، فإن لم يستجده

روحه أحْيَالَه . وعَدَّى (المُحْيَا) بعَلَى ، لأنه فى معنى المحبوس عليه روحه .

(احْمَدْ عُفَاتَكَ لا فُجِعْتَ بفقْدِهِم   فلَتَرْكُ مالم يأْخذوا إعْطَاءُ)

يقول : احمدهم على أن لم يستجدُوك رُوحَك ، إذ لو استجدوك إياه ، لَحِقَك طبع الكرم والسخاء على هِبته لهم ، فقد استوجبوا أن تَحمدهم على ترك هذه الروح لك ، لأنه عَطاء منهم لك ، كما ينبغى لهم أن يحمدوك عَلَى ما أعطيتهم من مالك فهم يقتضونك الشُّكرَ على عطائهم ، كما تقتضيهم أنت إياه على عطائك لأن المعطَى بطبيعته يجب أن يشكر . فأعطِ من نفسك أيها الممدوح ، كما تطلب من غيرك . بل أنت أولى بشكرهم ، لأن الذى تركوا لك ، وهو الروح ، أنفسُ من الذى أعطيتَهم ، وهو المال .

وقوله : لافُجِعْتَ بفقدهم : إنما حد الصنيعة أن تُشكر لأنها إذا شُكرت حَيِت وإذا كُفِرَتْ ماتت ، لأن كُفْرها له ستر .

فيقول : لاماتت صنائعك عند عُفاتك بكَفْرها وقلّة شكرها . دعا بذلك له وإن شئتَ قلت : لافُجعت بحمدهم : أى لافارقتك المروءة ، فيفضِى بك فِرارها ، إلى ضد حَمْدِ عُفاتك لك .

(لا تَكثرُ الأمْواتُ كَثْرةَ قِلَّةٍ   إلاَّ إذا شَقِيَتْ بِكَ الأحْيَاء)

أى أن الأموات أقلاء ، حتى تعود فيهم ، فيكثرون حينئذ .

وقوله : (إلاَّ إذا شَقِيتَ بك الأحياء) : جَمْجَمَةٌ عن قوله : إلاَّ إذا مِتَّ ، أى فإذا مِتَّ وشقيت الأحياء بفقدك ، قَلَّت الأحياء ، وكثرت الأموات . وقال : كثرة قِلّةٍ : لأنّ الأموات وإن كثرت أعْدادُهم ، فهم قليل لعدمِهِم للغِنَى ، وأخذهم فى الفَنَا .

وإن شئتَ قلتَ : كثرةَ قلةٍ : أى كثروا بك وأنت واحد ، والواحد قليل ، فتكثُّرهم بك تكثّر قلّة .

وقد يتجه هذا البيت على معنى آخر ، وهو أن الأحياء إنما ينالون الحياة بندَاه ، فإذا عُدِمَ بالموت، مات الأَحْيَاء الذين كانوا يتعيَّشون بذلك، فكثرت الأموات بموت هؤلاء الأحياء بعده .

وقد يجوز أن يعنى بالأحياء هاهنا أعداءه . يقول : لاتكثر الأموات إلا إذا ضاربتك أعداؤك ، فَغَلَبْتَهم وقتلتهم ، فحينئذ تكثر الموتى بهم . وشقاء الأعداء به قَتْلُهُ إياهم ، وقال : كثرة قلة : لأن مايدخل تحت الفَنَاء قِلةٌ فى الحقيقة ودل ذلك على أن أعداءه كثير . والقولان الأولان عندي أوجه .

أخبرنى بعض أهل بغداد ، أن الممدوح بهذه القصيدة أدركته الوفاة بعد إنشاد المتنبي إياه هذا الشعر بأيام قليلة ، فكان يتقلب على فراشه ويردد هذا البيت الذى فسرناه .

(أبدأْتَ شَيئاً مِنكَ يُعرف بَدؤُهُ   وأَعَدْتَ حتّى أُنكِرَ الإبْدَاءُ)

أى أعَدْتَ أعظم مما بدأت به ، حتى لايسمى المبدأُ به بالإضافة إلى المُعاد .

وإن شئت قلت : أُعادَ المعروف كثيراً ، حتى صار كأنه لابَدْءَ له .

(لَم تُسْمَ ياهَارونُ إلا بعد ما اقْـ   تَرعَتْ ونَازَعتِ اسْمَكَ الأسماءُ)

أى تَنافَسَتْ فيك الأسماء ، رغبة فى الشرف بذاتك ، وتَغَالَبَتْ فلجأَتْ إلى الاقتراع ففاز هذا الاسم وهو هارون بك . وتقديره لم تسم هارون ياهارون فاكتفى من ذكر المفعول الثانى بقوله : ياهارون ، لأن نداءه إياه به دليل على أنه اسمه . وهذا من أحسن الحذفِ وأوجزه .

(فَغَدَوتَ واسْمُكَ فيكَ غيرُ مشاركٍ
والناسُ فِيمَا فى يدَيْكَ سَــواءُ)

أى لم تُسْمَ بغير هذا الاسم من الأسماء التى نازعته فيك ، والناس فيما لديك سَواء : أى أنه وإن لم تشترك فيك الأسماء فالناس مشتركون فى مالك شِركَ تساوٍ .

(وَلَجُدتَ حَتَّى كِدْتَ تَبْخَل حَائلاً
للمُنتهى ومن السرور بُكاءُ)

إن شئت قلت : بلغ جُودُكَ الغاية . ومعروف أن الشيء إذا انتهى انعكس ضِداًّ فكذلك جودُك ، لما انتهى فلم يك مزيداً ، كاد أن يستحيل بخلا . وقوله : ومن السرور بكاء : (أى) أعلمت أن الشيء إذا انتهى عاد إلى ضده كالسرور إذا أفرط كان بكاء . وقال : (كدت تبخل) ، ولم يقل : حتى بَخِلْت ، استقباحاً منه أن يُوجب عليه البخل .

وإن شئت قلت : تَنَاهَيْتَ فى الجود ، فبخلت أن يُشارِكَك أحدٌ فى اسمه ، فحال الجودُ بخلا ، كما يحول السرورُ بكاء .

والقول الأول عندى أوجه ، إذ لو كان على القول الأخير ، لم يكن بِكِدْتَ معنى لأنَّهُ نقُصانُ من مدحه ، إذ بُخْلُه بأن يُشَارَكَ فى اسمه الجود غيرُ مذموم . وأما فى القول الأول فالبخل المطلق مذموم . فتفَهَّمْه ، فإنه جيد لطيف .

وقوله : للمنتهى : أى من أجل الانتهاء .

(لَمْ تَحْكِ نائلكَ السحابُ وإنما حُمَّتْ به فَصَبِيبُها الرُّحَضَاءُ)

الرُّحَضاء : عرَق الحُمَّى يُرْحَضُ : أى يغسل . أى لم يُحاكِكَ السحاب

بمطره ، ولا ناوأكَ ، لأنه معترف أنك أندَى منه . وإنما تأمل بذلك وأيقن بالعجز عنه ، فحسدك فحُمَّ حمى حُسّاده ، فمطرُها إنما هو عرَقُ حُمَّاها .

(لَو لَمْ تَكُن مِنْ ذَا الوَرَى ٱلّذْ مِنْكَ هُوْ
عَقِمَتْ بمولدِ نَسْلِهَا حَوَّاءُ)

جَعَل الورى جُزْءاً منه ، بعد أن جعله جُزءاً من الورى . فالأولُ حقيقة ، والثانى مجاز ، لا يكون الكلُّ جزءاً للجزء . هذا خُلْفٌ ، لكن جَمَلَهم منه ، إشعاراً أنه جمال هذا النوع ، به عُرِف ، وإليه نسب ، فكأنه إنما يكون منه ، كقوله :

أنىَّ يكونُ أبا البرايا آدمُ وأبوكَ والثقلان أنت مُحمدُ

وهذا قبيح داخل فى الشَّنَع .

وقوله : عَقِمَتْ بمولد نَسْلِها حواءُ : أى لو لم تكن من ولَدِها كان نَسْلُها كلا نَسْل ، حتى كأنها عقيم ، لم تلد قَطُّ .

وقوله : بمولد نسلها : أى عُدَّتْ عَقِيماً على أنها قد ولدت .

- ٣٤ -

وله ايضا :

(يحولُ بيَن الكلْبِ والتَّأَمُّلِ)

إن شئتَ قُلت إن الظَّبى يُجهد الكلب فيَشْغَله عن التأمل . وإن شئت قلت : إنه يمنع الكلبَ أن يتأمَّلَهَ بسرعته ، كقول البحترىّ يصف فرسًا :

جارَى الجيادَ فطارَ عن أوْهَامها سَبْقًا وكادَ يَطيرُ عن أوهامه

وهذا أبلغ من قول أبى الطيب ، لأن سَبْق الوَهْمِ أدلُّ على السرعة من

سبق الطَّرف مع لفظ الطيران ، والطيران أبلغ فى السرعة ، ولذلك شَبّهت العرب خيلَها بالطير كقول لَبيد :

وَكأنى مُلْجِمٌ سُوذَا نِقا

وكقول الآخر :

كأنَّ غُلامى إذا علا حالَ مَتْنِه على ظهر بازٍ فى السماء مُحَلِّقِ

(لَهُ إذَا أدبرَ لَحْظُ المُقْبِلِ)

أى أنه من تيقُّظه يُراعى جهاتِه ، فكأنهٌ يَرى ما وراءه كرؤيته ما أمامه .

(شَبِيهُ وَسْمِىِّ الحِضَار بالوَلِىْ)

الوسمىُّ والولىُّ هنا : مستعار ، وأصلهما فى المطر ، الوَسْمىُّ الأول . والولىُّ الثانى . يقول : ثانى جريه مثل أوله كقولهم : فرس ذو عَقْب . أى جريه الثانى كجريه الأول ، وذلك لشدته وصلابته ، حتى إن إعياءه كجِمامه .

وهذا كقوله فى موضع آخر يصف فرسا :

وأَقْتُلُ أىَّ الوحشِ قَفَّيتُه بِهِ وأنزِلُ عنه مِثلَه حينَ أركَبُ

أى أنه من المَنَعةِ والنَّشاط فى آخر عَدْوه ، مثله فى أوله ، وحسُن استعارته الوسمىّ الأول الجرى وآخره ، لأنهم يستعملون لفظ الغَيث فى هذا النحو كقولهم : فَرَسٌ سَكْب ، وفَيْض وغَمْر ، وبَحْر . كل ذلك جواد ، وهُنّ من صفات الغيث والماء . وقالوا : شآبِيبُ الجرى ، كقولهم شآبيبُ المطر ، وهى الدُّفَع منه .

(وَعُقْلَةُ الظَبى وَحَتْفُ التَّتْفلِ)

أى إذا رأى الكلبُ الظَّبىَ والتَّتْفُلَ وهو ولد الثعلب ، كان عُقْلة للظبى يأخذه ويمنعه من الهرب ، ويهلك التتفل . وهذا كقول امرىء القيس :

بِمُنجردٍ قَيدِ الأوابدِ هَيكلِ

أى أن هذا الفرس قيدٌ للوحش ، فكذلك هذا الكلب ، عُقْلَةٌ للظبى ، وحَتْفٌ للتتفل . وقد قال المتنبى أيضاً مثله فى هذا الموضع :

يَتَقَبَّلُون ظِلالَ كُلِّ مُطَهَّمٍ أَجَلِ الظليمِ وَرِبْقَةِ السِّرحَانِ

فقول : ربقة السرحان كقول امرىء القيس : قَيْد الأوابد ، وزاد عليه أجل الظليم . فبيته هذا الأخير مكافىء لبيته الأول ، لأن الْحَتْف كالأجل والرِّبقة كالعُقْلة . وصح له الشرف على امرىء القيس .

(لو كَانَ يُبلِى السَّوطَ تحريكٌ بَلِى)

أى أن هذا الكلب مَجْدول مضمر كالسَّوط ، فكما أن السوط لايُبليه التحريك ، كذلك هذا الكلب لايبليه شدة عَدْوه ولا ينقصه ، ولو كان السَّوط الذى شبيه له فى الجَدْل الضُّمْر والاستعمال له يُبلى لبلى الكلب .

(فَحَالَ ما لِلقَفْزِ للتَجدُّلِ)

أى صُرِع فصارت قوائمه التى كانت للقفز إلى التجدل . أى أُلزوق بالجدَالة وهى الأرض .

(وَصَارَ ما فى مَسْكِه فى المِرْجَلِ)

المرجل : قدر النحاس خاصة ، مذكَّر من بين أسماء القدر ، يقول : سُلِخ عنه جلده ، وأُدخل فى القدر ، فعاد ما كان من لحمه فى الجلد رهين المِرْجل ، وأراد : ما كان فى مَسْكِه ، ففى مسكه من صلة الذى ولا يكون خبراً لكان هذه المرادة ، لأن تلك لاتضمرُ ، وتعمل ، لأنها فعل كونىّ غير مؤثر ولذلك

منع سيبويه إضمارَها وإعمالَها ، فقال : (واعلم أنه ، لايجوز لك أن تقول : عبدَالله المقتولَ ، وأنت تريد : كُنْ عبدَالله المقتول) . ولذلك حمل الفارسيّ قوله تعالى : ﴿ فوجد فيها رجلان يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ﴾ على الحكاية ، لا على إضمار (كان) استدلالا بما قدمت من كلام سيبويه .

- ٣٥ -

وله ايضا :

(رَأينا بِبَـــدْرٍ وآبَائِهِ   لِبَـدْرٍ وَلُوداً و بَدراً وَليدَا)

معنى هذا البيت : التعجبُ من خَرْق العادة ، وهو من ظريف المحاجاة . فَبدرٌ الأول : اسم الممدوح . والآخران : عنى بهما البدر المعروف .

يقول : ليس من طبيعة البدر الفلكى أن يَلِدَ ولا أن يولد . فلما رأينا بدراً هذا الممدوح وأباه وجدنا بوجودنا إياه بدراً مولوداً ، ووجدنا بوجود آبائه وَلُودَ البدر . فقد خَرق علينا المعتاد ، فوجب التعجب .

وحاصل البيت : وجدنا ببدر هذا الممدوح بدرًا وليدا . ولا كبير فائدة فى وجود الآباء ، لأن المولود والوالد من باب المضاف والمضاف إليه . فإذا وَجَد بدرًا مولودًا ، فلا مَحالة أن له والِدَين . فإذن ذكرُه الآباء هنا حَشْوٌ ، إلا أن يُفيدنا بذلك أن أباءه بُدُور . وليس بكبير فائدة أيضاً ، لأن النوع لايلدُ غير نوعه ، فتفهمْه .

(طَلَبْنَا رِضَاهُ بِتَركِ الذى   رَضِينَا له فَتَرَكْنَا السُّجودا)

أى رضينا أن نسجد له إذا رأيناه إكبارًا له وإيثارًا ، إلا أنه لايريد ذلك منا ، لأن هذا إنما ينبغى لله عز وجل ، فطلبنا نحن حينئذ رضاه ، بترك السجود الذى رَضينا له . فقد مدح بدرًا هنا بشيئين :

أحدهما : جلالة القدر ، حتى رُئِيَ أهلاً للسجود له . والآخر : تَوَرُّع بدر عن هذا الذى رضيه المتنبى له ، قبْحًا لـكلامه ، ونَهْرًا فى هذا الموضع وأشباهه لنظامه .

وقوله : فتركتنا : معطوفٌ على طلبنا ، ولا يكون معطوفا على رضينا ، لفساد المعنى ، وأن (الذي) لايعود عليه من المعطوف على صلته شيء .

(بِهَجْرِ سُيوفِك أغمادَها   تَمَنَّى الطُّلَى أن تكونَ الغُمودَا)

أى أن سيوفَك مَسلُولة أبدا ، فأغمادها خِلْوة ، والسيوف فى الطُّلى ، فتمنى الطُّلى أن تكون الأغمادَ ، لتخلو منها كما خَلَت الغُمود .

(فأنتَ وحيدُ بَنِي آدمٍ   وَلستَ لِفَقْدِ نَظيرٍ وَحِيدَا)

أى : واحدهم فى الفضائل ، وكرم الشمائل ، ولم يحترم الزمان نُظَرَاءك . بل لك نظراء فى حب المجد ، والسعى إلى ابتناء الحمد ، ولـكنهم لم يُؤتوا من ذلك ما أوتيتَه ولا حُبُوا بما حُبِيتَه ، وليس أوانك خِلْواً من السادة ، فتكون أنت إنما سُدت لخلُوِّ الوقت من ذوى السيادة ، لأن تلك سيادة لاتتبين لها مَزِية . وإنما الفخر أنّك ذو نظراء ، وأنك مُوفٍ عليهم ، بخلاف قول الشاعر :

خَلَتِ الديارُ فَسُدْتَ غيرَ مُسَوَّدِ   ومِن الشَّقاء تَفَرُّدِي بالسُّؤْدَدِ

- ٣٦ -

وله ايضا :

(حَدَقٌ يُذِمُّ مِن القواتل غيرَها   بَدرُ بنُ عمّار بْنِ إسْماعيلا)

أى أنه يُذِمُّ كل مظلوم فَيُقِيدُه من وَاتِرِه وينصفه . إلاّ من قتلته هذه الحَدَق ، فإن هذا الأمر على جلالته ، لا يُقوِّى مظلومَها ولا يُقِيدُ قتيلَها .

وهذا نحو قوله فى سيف الدولة :

وُقِيَ الأميرُ هوَى العيونِ فإنه ... مالاَ يزولُ بيأسه وسَخائِهِ

(وكأنما غرّته عَيْنٌ فادّنى ... لايُبْصِرُ الخطبَ الجليل جَلِيلاَ)

تعجب من الأسد كيف أتيَه . ولقاؤه من أجل الخطوب . لكن عَيْن الأسد غرّته ، فلم تره إياه على صفته التى هو عليها من المهابة والجلالة ، فأقدم لذلك ، ولو أرته عينُه إياه على ماهو به ، لأحجم ولم يُقْدِم ، وهذا كقوله فى موضع آخر :

ذَمّ الدُّمُسْتُق عَيْنَيه وقَدْ طَلَعَتْ ... سُودُ الغَمام فظنُّوا أنها قَزَعُ

أى أن عَينى الدُّمستق احتقرتا المسلمين ، فأرتاه جموعَهم قليلة ، فأقدم فوقع عليه البلاء ، فذمّ عينيه ، لكنهما حين ألقى الأمر على خلاف ما أوهمتاه. ونحوه قوله تعالى:﴿وإذ يُرِيكمُوهُمْ إذا الْتَقَيْتُمْ فى أعينكم قَلِيلاً وَيُقللكُمْ فى أعْيُنِهِم﴾. إلا أن رؤية الدُّمُستق والأسد لما ألْفياهُ دون ماهو به ، خلاف هذا الذى فى التّنزيل من جهة وموافق من جهة ، وذلك أن تقليل الكفار فى أعين المؤمنين إنما كان تثبيتاً لقلوب المؤمنين ، فذلك خير أريد بهم ، كما أريد بالأسد والدُّمُستق الشر لهما. وأما قوله تعالى : ﴿ ويُقَلِّلُكُمْ فى أعْيُنِهِم ﴾ فهذا مطابق لحال الأسد والدمستق لأن الله تعالى إنما قلّل المؤمنين فى عيون الكافرين ليحتقروهم فَيَثْبُتوا . ولذلك قال تعالى ﴿ لِيَقْضِيَ اللهُ أمراً كان مَفْعُولا ﴾ أى إنما قلّل الكفار فى أعين المؤمنين ليكون أجراً للمؤمنين عليهم، وقلّل أولئك فى أعين الكافرين ليقدموا عليهم ، فتدور عليهم دائرةُ السَّوْء .

- ٣٧ -

وله أيضا :

(أبْعَدُ نَأْيِ المَلِيحةِ البَخَلُ ... فى البُعد مَالاَ تَكَلَّفُ الإبلُ)

جعل النأى أنواعاً ، أبعدها البُخْلُ ، إذ سائرُ أنواع النأى يُرجى دُنوهُ ،

إمّا بإياب المحبوب وإما بتجشّم السير إليه . فأما البخلُ فلا احتيال فيه ، لأنه من قِبَل المحبوب نفسه ، لامن قبل تَأيِ أَوْجَبَه . ولذلك قال : (فى البُعد ما لا تَكَلّفُ الإبلُ) : أى أن بُخْل هذه المليحة مسافةٌ نفسانية ليس للإبل فيها عمل ، فلا تَكَلّفُها ولا تَعْتَمل فيها . إنما تكلف الإبلُ قطع الأرض .

وهذا كقوله هو :

لو عَدَا عنك غيرَ هجرك بُعْدٌ   لأرَارَ الرَّسيمُ مُخَّ المَنَاقِ

أى لو كان بعدُك من جهة المسافة الأرضية لأعملنا إليك الإبل حتى نُهزِلها ولكنّ بُعدك نَفسانى . إنما هو من جهة هجرك . فالهجرُ هنا كالبخل فى بيته الأول إلا أن البيت الأول أوجزُ ، لأنه انتظم قضيَّتين كل واحدة منهما مُسْتَغْنية بذاتها مع قصر عروضه .

(مَلُولَةٌ ما يَدُومُ ليس لها   مِنْ مَلَلٍ دَائمٍ بها مَلَلُ)

أى أنها تملّ كل دائم ، إلا مللَهَا فإنّه دائمٌ ، وهى مع دوامه لا تَملّه . (فما) على هذا مفعول بملُولة ، لأن مفعولاً عند صاحب الكتاب مما يتعدى .

ومن رواه تدوم : جعل (ما) جَحْداً ، أى ما تَثْبُت . دَامَ الشيء : ثبت . حكى سيبويه عن العرب : (ما تدُوم لى أدُومُ لك) أى أدُومُ لك ما تدُوم لى . وأراد ماتدوم صلتها أو ماتدوم للبيل .

(بِصَارِمى مُرْتَدٍ بِمخْبَرَتى   مُجْتَزِئ بالظَّلامِ مُشْتَمِلُ)

أى لاصاحب لى فى سَفَرِى إلا سيفى مُرْتَدِياً به ، ولا دليل لى إلاّ خِبْرَتى بالفَلاة ، ولا مانع لى من الأعداء سوى الذى يسترنى عنهم .

وقوله : (بِمَخْبِرتى مَجْتزِىْ) : كقوله :

ذَرَانى والفَـلاةَ بلا دَليلٍ وَوَجْهِى والهجيرَ بلاَ لِثَامِ

ورفع ذلك كله بإضمار مبتدأ ، أى أنا مُرتدٍ بِمَخْبِرَتى مشتمل ... الخ .

(أصْبَح مالاً كمالِه لِذوى الحا جَةِ لا يُبتَدَى ولا يُسَلُ)

أى نُصَرِّفه على احتكامنا واقتراحنا ، كما يُصرِّف ماله ، فلا هو يبتدئنا بالعطاء ، ولا نحن نسأله . أى فكما أنا لا نستأذن مَالَه ، بل نأخذه مُحتكمين ، كذلك لا نستأذِن بدراً فى أخذ ماله . فقد استوى هو ومالُه فى أنهما لا يُستأذَنان ، ولذلك قالت العربُ : ما هو إلاّ هَشِيمةُ كَرْم ؛ أى يأخذه الواردُ كيف شاء ، لا يعسرُ عليه منه شىء ، كما أن الهشيمة ، وهى العودُ اليابس لا تتعذر على مُحتَطِبِها ولا تحوجه إلى تعب فى تناولها .

(إنْ أدْبَرتْ قُلتُ : لا تَليلَ لها أوْ أقْبَلَت قلتُ : مَالَهَا كَفَلُ)

التَّليلُ : العُنق وما يليها من الصدْر ، أى صدرها المقبل يَحْجُزُ عن كفلها ، وكفلها المُدبر يَحجز عن صدرها ، فأنت من حيث تأمَّلْتَها رأيْتَها مُشْرفة ، والمستَحب من الفَرَس أن تهتَز مقبلة وتَنصَبَّ مدبرة ، فباهتزازها مقبلة يَخفى الكفلُ ، لإشراف التَّليل ، وبانصابها يَخفى التليل لإشراف الكَفَل .

(أنت نَقِيضُ اسْمِه إذا اختلفتْ قَواضِبُ الهِندِ والقَنَا الذُّبُلُ)

جعل اسمَه وهو بدر ، دالاً على صورته وطبيعته . وذلك أن البدر إنما يسمى به القمر إذا قابل الشمس فامتلأ نوراً ، وهو مع ذلك سعدٌ لا نَحْس .

يقول : فأنت خِلافُ هذا الاسم ، أى خلاف طبيعة المسمَّى بهذا الاسم فى الحرب ، لأنك فى السِّلم طَلْقٌ نَير ، وحظك السعادة ، وتلك طبيعة البَدْر وفى الحرب عَبُوس مُهْلِك ، وتلك طبيعة زُحَل . فأنت فى الحرب على غير

ما أنت به فى السلم طبيعةً . فقد وجب لاسمك فى الحرب أن يكون غير اسمك فى السلم . وقال : (أنت نقيض اسمه) ولم يقل : ضِدَّ اسمه ، لأن النقيض أشدُّ مباينة لنقيضه ، من الضدّ لضدّه .

(أَنْتَ لَعَمْرِى البَدرُ المنيرُ ولـكنّـ ـكَ فى حَوْمةِ الوغَى زُحَلُ)

أى أنك سَعْد فى السلم ، وشيمتك فى الحرب ضدّ ذلك ، وليس بالبدر ولا بزُحَل فى الحقيقة ، وإنما عَنَى بالبدر أنه مُسْعِد ، وبزُحَل أنه مُنْحِس ، والمنير هنا : مفيد لأن البدر قد يتلبَّسُه الغيم فلا يُنِير .

(مَدَدْتَ فى رَاحة الطبيب يداً وَمَا دَرَى كيف يُقْطَعُ الأملُ)

أى كَفُّك مجتمع الآمالِ قد اتّصلَتْ بها ، كأن عُروقَها قد صارت آمالا ، والطبيب لامعرفة له بِبضْع الآمال ، ولا بمعاناتها ، إنما يعانى الأبدان ، فلا تلحقنَّه ملاما ، لأنك كلَّفته مالا يُحْسِن ، والإنسان إنما يلام على تقصيره فيما يُعْزَى إليه عِلْمه ، فإن قصر فيما لَيس من علمه فغير مَلُوم .

وقوله : (كيف يقطع الأمل) لم يُرِد القطع المُفْسِد ، وإنما أراد كيف يقطع الأمل للإصلاح .

- ٣٨ -

وله ايضا :

(فَمَا حاولتُ فى أرضٍ مُقَامًا ولا أزْمعتُ عن أرضٍ زَوَالَا)

أى أنى ملازم لظهر بَعيرى ، فكأنى مقيم ، وأنا مع ذلك سائر . فإمكانى يتقسم مابين الحالين . لأنى لاظاعنٌ ولا قاطِن .

(إلى بدر بنِ عمار الّذى لَمْ يَـكُن فى غُرَّةِ الشّهرِ الهِلَالَا)

البدرُ يبدو هلالا ثم يتزايد ، ولا يسمَّى بدراً حتى يكمل ، وبدر بن عمار

لم يك قطُّ هلالاً ، بل لم يزل كاملا . وهذا مَقْطَع شعرىّ ، لأنه لم يك قَطُّ هلالا ولا بدراً . وكأنه لم يزل بدرًا ، لأن ذلك لم يزل اسمه . وهذا البيت وإن كان المقصود به المدح ظاهراً فقد يجوز أن يقصد به الذم باطنا . لأنه لا بدر على الحقيقة إلا وقد كان فى غرة الشهر هلالاً . وهذا لم يكُ هلالا ، فليس إذن بدرًا .

فالحاصل له من ذلك، أنه بَدْرٌ بالتسمية ، لا بالطبيعة ، فيكون ذلك مقتضيا للهُزُؤ ، فخرج مُشْبِها لقوله :

وفارقتُ شَرَّ الأرض أهلاً وتُربةً بها عَلَوِىٌّ جَدُّه غيرُ هاشمِ

(جَوابُ مُسَائِلِى أَلَهُ نَظِيرٌ وَلَا لَكَ فى سُؤَالِكَ لا ، أَلَا ، لاَ)

تقديرُ البيت : جواب مُسَائلى : (أله نظيرٌ) : ألا ، لا ، أى ليس له نظير ، فلا جَحْدٌ ، وألا : استفتاح (ولا لك فى سؤالك) نَظير ، لا ، أيها السائل ، فلا الثانية توكيد ، وإنما حاجة الكلام : ولا لك أيُّها السائل نظير ، إذا شككت فى أنه لا نظير له ، حتى أحْوَجك ذلك إلى السؤال . فقوله : (ألا ، لا) : خبر المبتدأ الذى هو قوله : (جوابُ مُسائلى) . وقوله : (ولا لك) معطوف على قوله : (ألاَ ، لاَ) فعَكَس ، بأن قدم المعطوف على المعطوف عليه .

(وَقَالَوا : هَلْ يُبَلِّغُكَ الثُرَيَّا فقلتُ نَعَم إِذَا شِئْتُ استِفالاَ)

أى أنا معه فوق الثُّريَّا ، فإذا أردت أن يبلِّغنى إياها ، فإنما أبلغُها بأن يَحُطَّنِى إليها ، فأنا لا أريده منه بلوغ الثريّا ، إلاّ أن أشاء التَّسَفُّل لأن العالىَ لا يبلغ ما هو أخفض منه إلا بأن يُحَط إليه .

وهذا كقوله :

فَوقَ السماء وفوقَ ما طَلَبُوا فإذا أَرادوا غايةً نَزَلُوا

أى أن عُلُوّهم الآن فوق كل غاية ، فإذا أرادوا غاية محدودة ، نزلوا إليها ، إلا أن هذا البيت الآخر أفخم معنى . وأصل ذلك قول البحترىّ لمحمد ابن علىّ :

لِمحمدِ بنِ عَلىٍّ الشَّرَفُ الذى لا يَلْحَظ الجَوْزاء إلاَّ مِنْ عَلِ

أى أنه فوق الجوزاء ، فإذا لحظها فإنما يلحظها من فوقها .

(فقَدْ وَجِلَتْ قُلوبٌ مِنكَ حَتّى غَدَتْ أوجَالُها فيها وِجَالاَ)

أى وَجِلَتْ قلوبهم ، حتى غَدَتْ أوجالَهُمْ ؛ فَوجِلَتْ الأوجال ، وهذه مبالغة كقولهم : جُنَّ جنُونه . وقالوا : شِعْرٌ شاعر . ومثله كثير حكاه سيبويه وسائر أهل اللغة . قال سيبويه : سألت الخليل عن ذلك ، فقال : أرادوا المبالغة والإشادة . ووِجال : جمع وَجِل كوجِع ووِجاع ولو قال :وَجَالَى ؛ يريد جمع وَجِل ، لكان كحَبِجٍ وحَبَاجَى وحَبِطٍ وحَباطَى .

(يُفارِقُ سَهْمُكَ الرَّجلَ المُلاقى فِرَاقَ القَوسِ ما لاَقى الرِّجَالاَ)

أى إن سَهْمَك كلما لاقى رجلاً خَرَقه ونَفَذَ منه على ما هو به من قوته الأولى عند فراق القوس ، وذلك دَأْبُهُ ما لَقِيَ الرجال وإن كثروا. يصفه بجودة الرَّمى وقُوّة النَّزْع . فما : منصوبة على الظرف ، والقوس : فى موضع نصب - أى فراقَه القوسَ . فأضاف المصدر إلى المفعول، كقوله تعالى: ﴿ لا يَسْأَمُ الإنْسانُ مِنْ دُعَاء الخَيْرِ ﴾ .

- ٣٩ -

وله ايضا :

(أفْدِى المُودِّعَةَ التى أتْبَعْتُها نَظَرًا فُرادى بين زَفْرَاتٍ ثُنَا)

أى حَضَر الرقيبُ فَحذِرَه ، فقلَّت نظراته ، وغَلَبت الحسرةُ ، فكثرت

زَفَراتُه . حتى كانت الزَّفَرات ضِعْف النظرات . فلذلك جعل النظراتِ فرادَى ، والزَّفَرات ثُناء . واحتاج إلى قَصْر (ثُناء) وثُنَاء معدُولٌ عن (اثنين اثنين) المقتضية (ثِنتين ثِنتين) ، ولا تكون معدولة عن (اثنين اثنين) لأن المعدول بمدَد المعدول عنه . وقال . زَفْرات فأسكن الفاء للضرورة ، كقول ذى الرُّمَّة :

أبتْ ذِكَرًا عَوَّدْنَ أحشاء قلبِه خُفوقا وَرَفْضَات الهوى فى المفاصلِ

(وَتَوقَّدَتْ أنفاسُنا حَتَّى لَقَدْ أشْفَقْتُ تَحْتَرِقُ العَواذِلِ بَيْنَنَا)

أشْفَق من احتراق العَذُول مع شَنَـآنه له ، خشية أن يتم احتراقه بما هما عليه من توقُّد النفس . فقال : إن العواذل إنما احترقْن بتوقُّد أنفاسهما عند التقائهما ، وأراد (أن تحترق العواذل) أى (من أن) فحذفها ، وأبطل عملها بحذفها . وإن شئت نصبت الفعل على مكان (أنْ) فكانت بمنزلة مُؤثِّر غابَ وبقى تأثيره دالاً عليه .

(مَن لَيْسَ مِنْ قَتْلاَهُ من طُلَقَائِهِ مَنْ لَيس مِمَّنْ دان مِمّن حُيِّنَا)

يقول : عِدَاه قَتْلاَه وأسْراه ، ومن أفلت منهم فإنما هـو طليقهُ ، بصفحه عنه .

(ومن ليس ممن دان ممن حُيِّنا) دَان الرجلُ : أطاع . أى من لم يكن من دائنيه فهو من مُحيَّنِيه . وأراد : دَانَ له ، فحذَف للعلم بها . ومَنْ هنا بمعنى الذى ، كأنه قال : الذى ليس من قتلاه معدود فى طلقائه ، والذى ليس من دائنيه مُحَيَّن . فقوله : (من طُلَقَائِه) فى موضع خبر المبتدأ ، الذى هو (مَنْ) الأولى . وقوله : ممن حُيِّنا خبر مبتدأ ، الذى هو (مَنْ) الثانية .

(وَقَطَعْتُ فى الدُّنيا الفَلاَ وَرَكائبِى فِيها وَوَقْتِىَّ الضُّحَى والمَوْهِنَا)

أى أفنيت الأمكنة والأزمنة والركائب . وكان يجب أن يقول : ووقتى الضُّحَى والمَوْهِنَ لأن المَوهِنَ نحْوٌ من الزمن اللَّيلى ، نصف الليل . والضحى : أولُ الزّمن النّهاريّ . فقابل هو المَوْهِنَ الذى هو نصف الزمن. اللَّيْلىّ ، بالضحى ، الذى هو أول الزمن النهاريّ . ولو قال قائلٌ : عَنَى بالضحى اليوم كلّه ، وبالموهن اللّيل كله ، وأقام الجزء مقام الكُلّ ، كما أُقيم الكُلُّ مُقام الجزء فى قوله تعالى : ﴿ وإنكُمْ لتَمرُّون عَلَيهِمْ مُصَبِحين * وَبِاللّيلِ ﴾ لكان جائزا ، فَتَفَهّمْهُ فإنه لطيف .

(أمْضَى إرَادتَه فَسَوفَ لَهُ قَدْ   واسْتَقْرَبَ الأَقْصَى فَثَمَّ لَهُ هُنَا)

إن شئت قلت : متى قال غيره : سوف أفعل ، قال هو : قَدْ فعلت ، فسَبق . ومتى قال غيره : ثَمَّ النجم أو السماء مستبعِدا ، قال هو — (هُنـا) مستقربا .

وإن شئت قلت : إذا نَوى أمراً سابق نيّته بفعله ، فصار المستقبل ماضياً ، ومتى لحظ أمراً بعيداً أعملَ عزمه ، فقرُب عليه فتناوله .

(نِيطَتْ حَمائِلُه بِعَاتِق مِحْرَبٍ   مَا كَرَّ قطُّ وهَلْ يَكُرُّ وَمَا انثَنَى)

إنّما يكون الكرُّ بعد الانثناء فالانثناء عِلّةٌ له ، فإذا لم يكن انثناء لم يكن كَرٌّ ، لأنه إذا ارتفعت العِلّةُ ارتفع المعلول ، فيقول : هذا المِحْرب ما كرّ لأنه لم ينثن ، فيُعقِب الانثناء بالكَرّ .

(تَتَقَاصَر الأَفهَامُ عن إدرَاكِه   مثلَ الّذِى الأفلاكُ فيه والدُّنَا)

غاية ما أدركت الأفهام ، الفَلك وما فيه ، فأما ما هو فيه ، فلم يُدْرِكه وَهْمٌ ولا فَهْمٌ : فيقول : إدراكُه مُعوِز كإدراك مافيه الدنيا والفلك . والدُّنَا : جمع الدنيا ، كالعُلَا جمع العُليا ، وهذا مُطّرِد .

(لاَ يَسْتَكِنُّ الرُّعبُ بَيْنَ ضُلُوعِهِ   يَوماً ولا الإحسانُ ألاَّ يُحسِنَا)

أى لا يَتصورُ الخوف بين ضلوعه ، ولا يتصور أيضاً بينهما العلم بالا يحسن. بل هو مُحسنٌ لأنْ يُحْسِن . أى الإحسانُ غَلَبه . والإحسان هنا أن يكون المعرفة ، كقول فلان مُحسنٌ لعلم كذا ، ويجوز أن يكون الإحسان الذى هو ضد الإساءة ، فكأنه قال فى كل ذلك : ولا يُحسن تركَ الإحسان؛ إنما يُحسن الإحسانَ . وهذا كقول الآخر أنشدَناه أبو الفتح :

تُحْسِنِ أن تُحْسِنِ حتى إذا   رُمْتَ سِوَى الإحسانِ لم تُحْسِنِ

إلا أن هذا البيت بعيد ، لأنه نسب إلى الممدوح مرام غير الإحسان .

(سَلَكَتْ تَماثيلَ القِبابِ الجِنُّ مِنْ   شَوق بها فأَدَرْن فيكَ الأَعْيُنَا)

أى سَلَكت الجنّ صُور القِباب، لتنظر إليك شوقاً ، وإنما قال : (تماثيل القِباب) ولم يقل (القِباب) ، لأنهم يزعمون أن الجن تألف التصاوير الموضوعة على أشكال الحيوان . وقد قيل : إنما كُرِه اتخاذها فى الثياب والستور والبُسُط لهذا .

(وَعَجِبْتُ حَتَّى ما عجبتُ من الظُّبا   ورأيتُ حَتَّى ما رأيتُ من السَّنا)

الظُّبا : السيوف . والسَّنا : الضوء . أى عجبت من السيوف حتى أَنِستُ بالعجب ، وأَخْلَدتُ إليه ، فلم أَعْجب بعد ، وَرأيت لمعانَهن حتى عُشِّى بصرى فلم أر . فصدر البيت كقول أبى تمام :

عَلَى أنها الأيام قد صِرْنَ كلّها   عجائبَ حتى ليس فيها عجائب

(فَطِنَ الفؤادُ لِمَا أَتيتُ على النَّوى   ولِما تَركتُ مَخافةً أنْ يَفطِنا)

أى لم تقتصر على العلم بما صنعتُ ، حتى علمتَ ما تركتُه مخافة أن يَفطن به . وقيل معناه : قد علمتَ ما كان من شكرى وثنائى عليك ، وهو الذى

فَطَن فؤادك له . وكذلك فَطنَ أيضاً لما تركته ؛ خوفاً أن يَفطن له ، مِنْ تَنَقُّصِك أيضاً ، فلو لم يكن تركى لذلك إلاّ مخافة أن يَفطن فؤادك له ، فكيف وطبيعتى فيك خلافُ ذلك . والبيت يقتضى أنه قد كان هنالك شىء من الإخلال بقدر بَدْر بن عمّار . ويقوِّيه قوله :

(أضحَى فراقُك لِى عليهِ عُقوبةً ليس الذى قاسيتُ شَيئاً هيِّناً)

أى عُوقبت على تقصيرى عن واجبك ، بفراقك الشديد على الكُرْه إلىّ ، فليس الذى لاقيته من ذلك بهيّن ، أى بيسير . ولا يريد الهيِّن الذى هو ضد العزيز .

- ٤٠ -

وله أيضا :

(يتَدَاوَى من كثرة المال بالإقـ لالِ جُودًا كأنّ مالاً سَقَامُ)

أى يَتشافى بالجود ، حتى كأن المال مَرَضٌ يبغى إزالتَه ، والإقلال بُرْءٌ يطلبه .

وقوله (كأن مالاً سَقَامُ) — أراد كأن وجود مال ، لأن المال لا يقال له سَقام إذ هو جوهر والسَّقام عَرَض .

(حَسَنٌ فى عيونِ أعدائِهِ أقْـ بَحُ مِن ضَيفهِ رَأَتْهُ السَّوامُ)

أى هو حَسَنُ الصورة غاية إلاّ فى عيون أعدائه ، لعلمهم بإهلاكه إياهم ، أقبح من ضيفه فى عيون السَّوام ، لعلمها إذا رأت الضيف أنها منحورةٌ ، كقول الشاعر :

حبيبٌ إلى كلب الكريم مناخُهُ بغيضٌ إلى الكَوْماءِ والكلبُ أبصَرُ

ومثله كثير . فقوله : (فى عيون أعدائه) : ظَرْف لأقبح ، ولا يتعلق

بحسن ، لأنه لايحسن فى عيون أعدائه . وتقدير البيت : حسن فى عيوننا معشر أحبابه ومن لايَشْقَى به ، لكنه بخلاف ذلك فى أعين عِداه . وقد بالغ بالقُبح ولم يبالغ بالحُسن ، لأن قُبْحَه فى عيون أعدائه ، أمدح له من الحسن فى عيون أحبابه .

(وَعَوارٍ لَوامعٌ دَمُها الحِلُّ وَلكنَّ زِيَّها الإحْرَامُ)

اللوامع : السيوف لبريقها . ووصفها بالعُرْى : لاعتيادها مفارقة أغمادها .

وعَوارٍ : جمع عار ، لاجمع عُرْيان ، لأن فُعْلانَ لا يكسرُ على (فَواعل) (دَمُها الحل) : أى أنها مستحلة للدماء ، على أن زِيَّها الإحرام : أى أنها مجردة أبداً كالمُحْرِم والمحرِم لايَسْفِك الدماء . فقد اجتمع فى هذه السيوف طبيعة الحلى وزِىُّ الإحرام .

(وَمِنَ الرُّشْد لَمْ أَزُركَ عَلَى القُر بِ عَلَى البُعْدِ يُعرَفُ الإلْمَامُ)

كان قريباً منه فلم يَزُره ، ثم بَعُدَ فزاره ، ليكون ذلك أدلَّ على إجلاله وإعظامه له ، فأوجبه . وأراد : من الرُّشد أنى لم أَزُرْك . وقوله (على البعد) : متعلق بيعرف . وعلى القرب متعلق بأَزُرْك .

- ٤١ -

وله ايضا :

(تَخلُو الدِّيارُ مِن الظِّباءِ وَعِنْدَه مِن كل تَابِعَةٍ خَيالٌ خَاذِلُ)

كَنَى بالظباء عن الحِسان . أى تخلو الديار ممن كان بها . والخيالُ غير مفارق لى . وكَنَى بالتَّابِعَة عن صغارها ، لأن الجِدَاية وهى الصغيرة من الظباء تتبع أمَّها . ولما جعل المرأة غزالةً جعل الخيال خاذلاً ، كما تَخذُل الظبيةُ عن القطيع ، أى تتأخر .

وإن شئت قلت : جعل الخيال بمنزلة ولد الغزال ، وَرَبَّةَ الخيال بمنزلة الغَزال . فتابعة بمعنى متبوعة على هذا القول . وجعله الخيال بمنزلة الولد لها تعسُّف لأن الخيال رُوحانى ، فهو أَلطفُ من رؤية الخيال ، كما أن الصغير الجسم ألطفُ من الكبير . وخَاذِلٌ : أى خَذَلها وزارنى . فَمِنْ — على هذا — تكون للتبعيض وللجنس ، فَتَفَهَّمْه .

(كَافَأْنَنَا عَنْ شِبْهِهِنَّ مِنَ المَهَا فَلَهُنَّ فى غَيْرِ التُّرابِ حَبَائِلُ)

كافَأْنَنَا : من الكُفُؤ ، وهو المثل ، والمها : بقر الوحش: يُشَبّه النساء بهن فى سواد الحدق . والحبائل : الشَّرَكُ ، واحدتها : حِبالة ، أى صِدْنا المها وهنّ أشباه النساء ، بحبائل منصوبة لهن فى التراب ، فكافأننا عن فعلنا بأشباههن بأن صِدْنَنَا كما صِدْنَاهن ، طلباً بثأرهن ، إلا أن النساء صِدْنَنَا بحبائل لم تُنصب لنا فى التُّراب ، وهى الأعين والخدود وغيرها من المحاسن الظاهرة ، كالمباسم والأعطاف والقدود ، وكلهن حبائل إلا أنها لا تثبّت فى التراب .

(مِنْ طَاعِنِى ثُغَرِ الرِّجالِ جَآذِرٌ وَمِنَ الرِّماحِ دَمَالِجٌ وَخَلَاخِلُ)

كَنَى بالجآذر هنا عن النساء ، كما كَنَى عنهن فى البيت الذى قبله بالظباء أى ينبغى أن تعدَّ جآذرُ الإنس من طَاعِنِى ثُغَرِ الرجال ، لأنّهن يفعلن من القَتْل ما لا يفعل الطاعن . وينبغى أن يُعَدَّ الحَلْىُ من السلاح ، لأنه سلاح النساء ، كقول الأعشى :

إذا هُنَّ نَازلن أقرانَهُنَّ وكانَ المِصَاعُ بِمَا فى الجُوَنْ

يعنى بما تَضَمَّنَتْ الجُوَنُ من الطِّيب وسائر أنواع الزينة . ولو جعل السلاحَ محاسِنَهُنَّ لكان أليق بالشعر . ولكن لما كان السلاح فى المعتاد لَيس بجزء من المُتَسَلِّح ، جَعل سلاحهن ماليس بجزء ، وهى الدَّمَالج والخلاخِلُ وكان مَصُوغُ الذهب والفضة ، كصُوغ الحديد لرجال الحرب .

وقد يجوز أن يكون أراد . من طاعنى ثُغَر الرجال جآذرُ ، ومن السلاح دُملجٌ وخَلْخَالٌ يذهب فى ذلك إلى التعجب . وحذفت الألف التى لفظها الاستفهام ، ومعناها هنا الإنكار . لأن اللفظ مُكتفٍ بذاته ، لما فيه من معنى التعجب ، كقول أبى تَمّام :

أَسَرْبلُ هُجْرَ القول مَنْ لَوْ هَجَوْتُه إذنْ لَهَجانِى عنه معروفُهُ عِنْدِى

أى أأُسَرْبِلُ ، فحذف الألف . ومثله كثير إذا تضمن الكلامُ معنى الإنكار والعجب .

- ٤٢ -

وله ايضا :

(صَغَّرْتَ كلَّ كَبيرةٍ وكَبُرْتَ عَنْ لَكَأَنَّهُ وَعـدَدْتَ سِنَّ غُلَامِ)

أى فَعَلْتَ الصنائع الحِسَان . فصغَّرت كل صَنيعةٍ جسيمة فَعَلَها غيرُك ، بالإضافة إليها . وجَلَلْتَ عن التشبيه بشىء من الأشياء التى لا نظير لها فى العالم . كالشمس والبدر والبحر . وعددت سِنَّ غلام : أى نِلت هذه النهاية ، وبلغت تلك الغاية فى حدّ صباك . فذاك أغرب وأشرف .

فقوله (وعددت سن غلام) جملةٌ فى موضع الحال . كأنه قال : بلغت كلَّ ذلك غُلاماً ، وكان ينبغى أن يقول : (صَغَّرت كلَّ عظيمة) مَكانَ (كبيرةٍ) لأن الصِّغَر عند الأوائل ، إنما يقابله العِظَم . ولكنه حمله على طريق اللغة ، لأن الكبير وإن كُنِى به عن المُسِنِّ ، فقد يكون للعظيم . إلاَّ أن غير المشترك فى التقابل ، خير من المشترك ، فتفهَّمْه .

(مَهْلاً أَلاَ لِلّهِ مَا صَنَع الْقَنا فى عَمْرِو حَابِ وَضَبَّة الأَغْتَامِ)

أراد عَمْرو حابِس ، فرخَّم للمضاف اضطرارا ، كقوله أنشده سيبويه :

أَودَى ابنُ جُلْهُمَ عَبادٌ بصِرْمة ان ابن جُلْهَمَ أَمْسَى حيَّةَ الوادِى

قال : أراد بن جُلْهمة ، والعرب يُسمون الرجل جُلْهمة ، والمرأة جُلْهم .
كل ذلك حكاه سيبويه .

والأغتام : جمع أَغْتَم . كسَّر أفعلَ على أفعال ، وهو قليـل . ونظيره أَعْزل وأعْزال ، وهو الذى لاسلاح له ، وأغرل وأغرال وهو الذى لم يُختَن .

(أَحْجارُنَاسٍ فوقَ أَرضٍ مندَمٍ ونُجومُ بيضٍ فى سماءِ قَتَامِ)

لما استعار للدّم أرضاً ، استجاز تسمية جُثَثِ القتلى أَحْجاراً وشبه البيض لِلَمعانها فى القتام بالنجوم النيِّرة فى الظلام .

(وَذِرَاعُ كلِّ أَبِى فُلانٍ كُنْيةٌ حَالَتْ فَصَاحِبُها أَبو الأَيْتامِ)

أى وفى ذلك المُعْتَرَكِ أذرع قطعت من قوم كانوا يُـكْنَون أبا زيد ، وأبا عمرو ، وأبا عبد الله ، وغير ذلك من أنواع الـكُنَى . فلما قُطِعت منهم ماتوا ، فـكُنِى كلٌّ واحد منهم أبو الأيتام .

- ٤٣ -

وله ايضا :

(عَذِيرِى مِنْ عَذَارَى مِن أُمُورِ سَـكَنَّ جَوانِحِى بَدَلَ الُخدُور)

عذارَى : أى خطوبٌ أبكار لم تُصِبْ أحداً قبل . هذا معنى العُذْرة فيهن .

و (مِنْ) ها هنا للتبيين . أى ليست هؤلاء العَذَارى من النِّساء ، إنما هى من أمور الدهر ، أى أعذرى ، أو مَنْ عاذرى ؟ وقوله : (سَـكَنَّ جوانحى بدل الخدور) جملة فى موضع الصفة لعذارىَ ، وبهذه الصفة مع قوله : (من أمورٍ) خَلَّص عذارى الخطوب هنا : من عذارى النساء ، لا يَسْـكُنَّ الجوانح إنما

يَسْكنّ الخدور . فأقام جوانحه لعذارى الهموم مُقام الخُدور لعذارى النساء.
بَدَلَ ظرف . أى مكان الخدور ، كما حكاه سيبويه من قول العرب : إن
بَدَلَكَ زيدا ، أى إن مكانك . قال : ويُقال للرجل : اذهب معك بفلان ،
فيقول : معى رجل بَدَلَ فلان ، أى يغنى غَناءه ، ويكون فى مكانه .

- ٤٤ -

وله ايضا :

(مَنَافِعُهَا مَاضَرَّ فى نفع غيرِها تَغَذَّى وتَرْوَى أن تَجُوعَ وأن تَظْما)

أى أن ضُرَّها لنفسها منفعةٌ لها ، إذا جرّ ذلك نفعا لغيرها تَنَوُّتًا بالمجد ،
واحتساب الأجر ، كقوله تعالى : ﴿ ويُؤْثِرُون على أنفُسِهم وَلَو كَانَ بِهِمْ
خَصَاصَةٌ ﴾ .أى طلباً للأجر. ثم فسّر قولَه : (منافعُها ما ضَرّ فى نفع غيرها).
بالنصف الثانى ، فقال : (تَغَذَّى وتَرْوَى أن تجوع وأن تظما) . أى أنها
تجوع لتخُصّ غيرها بطعامها ، فهى تَغَذَّى بذلك الجُوع ولا يُؤثر فيها ، بل
هو نَماء لجِسمها . وتعطش لتُخُصّ غيرَها بشرابها ، فذلك العطش رِىٌّ لها ،
إذ هو فى سبيل المجد .

فتلخيص القضية . أنها تَغَذّى بالجوع ، وتَرْوَى بالعطش . وكان وجه
الصنعة — لو استقام له الوزن — أن يقول . تَشْبَع وتَرْوَى ، ليُقابِل الجُوع
بالشِّبَع ، كما قابل العطش بالرِّى . لكن لما كان فى التَّغذِّى ما يُشعِر بأنه ربما
كان معه الشِّبَع ، تَسمَّحَ به ، وأراد (أن تَظْمَـأَ) فأبدل الهمزةَ إبدالاً
صحيحاً ، حتى ألحقها بحروف العلّة ، وذلك لحاجته إلى الوصل ، لأن الهمزة
لا يُوصل بها الرَّوِىُّ ، ولا يَطّرد هذا فى كل شىء .

وليس لك أن تقول : إنه خَفّف الهمزة تخفيفاً قياسيًّا ، لأن الهمزة إذا

خففتْ تخفيفاً قياسيًّا ، لم توصل به ، لأنه فى نية الهمزة . فمن حيث لايوصل بالهمزة مُخَفَّفة ، لايوصل بها مخففة تخفيفاً قياسيًّا ، فتفهَّمْه فإنه لطيف .

(إذا فَلَّ عزْمِى عَن مَدىً خَوفُ بُعْدِهِ   فَأَبْعَد شىء مُمكنٌ لم يَجِدعَزْمَا)

أى أن الممكن من المَطَالب ، إذا لم يعزم عليه طالبه ، كان بمنزلة الممتنع . والفرق بين الممكن الذى لا يجد عَزْماً وبين الممتنع ، أن الممكن إذا عُزِم عليه نيل ، والممتنع لايُنَالُ البتَّة ولو عزم عليه . وقوله : (فأَبْعَدُ شىء ممكنٌ) : يريد فأبعد الممكنات ممكن لا يُعْزَم عليه . ويجوز أن يكون شىء ها هنا يجمع الممكن والممتنع ، لأن العقل لا يشكُّ فى أن الممتنع أبعد الأشياء .

وتلخيصه : إذا فَلَّ عزمى بعد مطلبى فأبعدُ منه مَطلبٌ ممكن ، لم يجد لَدَىَّ عزما .

- ٤٥ -

وله ايضا :

(سِرْبٌ مَحاسِنُه حُرِمْتُ ذَواتِها   دَانى الصِّفَات بَعِيد مَوصُوفاتِها)

السِّربُ : القطيع من الظِّباء والشاء والبقر . وعَنَى (بالسِّرب) هنا النساء ، تشبيهاً لَهُنَّ بالظباء . والمحاسنُ : واحدها حُسْن على غير قياس . وذواتها : صَواحِبُها . أى هَوایَ سِرْبٌ حُرِمْتُ ذواتِ محاسِنه ، وذَوات المحاسن هنَّ ذلك السِّرب . فكأنه قال : حُرِمْتُه ، بأن حِيل بينى وبينَه . وقد يجوز أن يكون سربٌ مبتدأ ، ومحاسنه مبتدأ آخر ، أو بدلاً من سِرْب . وحُرِمت ذواتِها :خبر عن المحاسن ، والمبتدأ الثانى وخبره ؛ خبر عن سِرْب . فلا يحتاج على هذا القول إلى إضمار (هَوَاى) . وأن يكون سربٌ خبر مبتدأ مضمر : أولى كما قدمنا ، لقبح الابتداء بالنكرة . ثم قال : (دَانى الصفاتِ

بعيدُ موصوفاتِها) : إنما دَنَتْ صفاتُه عليه ، لأنه يَقدِرُ على وصفهن بما أُوتيَه من اللَّسَنِ ، والمَنطق الحَسَن . وبَعُدت موصوفاتُ السِّرب،لأنهنَ مقصوراتٌ محجوباتٌ ، أو ممنَّعات ، والضمير فى (موصوفاتها) : راجعٌ إلى السِّرب وإن كانمذكراً . لكن جاز ذلك ، لأنه فى معنى الجماعة . ولايجوز أن يكون راجعاً إلى الصفات ، لأنه نوع من إضافة الشىء إلى نفسه .

(وكأنَّها شَجَرٌ بَدَا لكنَّها شَجرٌ جَنَيْتُ المُرَّ من ثَمَراتِها)

أى كأنَّ العِيس شَجَرٌ من عُلُوِّهن . والعرب تشبه الحمول كثيراً بالنخل ، وذلك لما يضَعُون على الهوادج من الرقم والعُهون الملونة ، فيشبِّهون ذلك بالزهور والبسْر المُلَوَّن . ولم يشبه المتنبى الهوادج وما عليها بذكر النخل ، وإنما عنى عُلُوَّ الإبل ، فشبهها بالشَّجر عامة ، ثم قال : (لكنها شجر جَنيتُ المُرَّ من ثمراتها) ، يعنى بذلك : إبعاد الإبل حَبَائِبَه عنه ، وقد بيَّن ذلك بقوله :

(لا سرتِ من إبلٍ لَوَ انىٍّ فوقَها لمَحَتْ حَرارةُ مَدْمَعىَّ سِماتِها)

دَعَا عليهن ألا يَسِرن ، إشفاقاً من بعد حبائبه عنه إذا سارت .

(وتَرى المُروَّةَ والفُتُوَّةَ والابُوَّ ةَ فِىَّ كلُّ مليحة ضَرّاتِها)

يعنى أن الللائح يَعْشَقْنهَ ، وهو يوثر عليهنَّ المروَّة والأبُوَّة والفُتُوَّة ، وذلك أن هذه الثلاثة يَنْهَيْنَهُ عن عِشْقِ النِّساء ويأمُرْنَ بُحُبِّهن أنفسهن . فعَلِم الملائح أن هذه الخصال الثلاث يَضرُرن بِهِنَّ عنده ، كما تَضُر المرأةَ عند بعلها ضراتُها ، إذلولاهن لواصلهن .

(وَمَقانِبٍ بمَقانِب غَادَرْتُها أقواتَ وَحْشٍ كُنَّ من أَقْواتِها)

المِقْنَبُ : القطعة من الخيل . أى صَرَفتُ مِقْنَب غيرى بمِقْنَبى . فهذا معنى

قوله : (وَمَقانِبٍ بمقانب غادَرْتها) وقوله : (أقواتَ وَحْشٍ كُنَّ من أقواتها) أى صَرَعْتُ هذه المقانب ، فتركتها أقواتا للوحوش ، التى كانت من أقوى هذه المقانب ، فعاد الأمر بالعكس ، وجعل الوَحش الآكلةَ لهم مما كانوا يقتاتون به ، لأن العرب تأكلُ الذئب ، والضَّبع والهلياع والفهد ونحو ذلك من آكلة الإنسان . وقد شبَّه بعضهم هذا البيت بقول البحترى :

كلانا بها ذِئْبٌ يحدِّثُ نفسه بصاحبه والجِدُّ يتبعهُ الجَدّ

وليس مثله ، لأن البحترى لم يأمُل أكلَ الذئب كما أمَّل الذئب أكلَه وإنما قال : كلانا قائل لصاحبه ، الذئب يريد أكلى ، وأنا أريد قتله .

(أقْبَلْتُها غُرَرَ الجِياد كأنَّما أيْدِى بَنِى عمرانَ فى جَبَهاتِهَا)

الكريمُ يوصف ببياض اليد ، وهى الخيل التى أقبلْتَها هذه الوجوه . هنَّ غُرّ ، فكأن غُرَرها أيدى هؤلاء موضوعة فى جبهاتها . يعنى أقبلتها خيلاً سابقة ، يُقبلون جِباهَها كما تقبّلُ أيدى بنى عمران . فهذا معنى التشبيه .

(تَكْبُو وَرَاءكَ يَا ابْنَ أحْمَدَ قُرَّحٌ لَيستْ قَوائِمُهُنَّ من آلاتِها)

القُرَّح هنا : كناية عن الرجال الكهول المُذَكِّين . وأصله فى الخيل ، واحدها قارح ، وهو الذى أتى عليه خمسُ سنين من نِتَاجه . فشبه الممدوح بفرسٍ جواد ، وشبه مبارزيه بخيل قُرَّح ، كقوله :

فدًى لأبى المِسْكِ الكرامُ فإنَّها سَوابقُ خيلٍ يَهتَدينَ بأدْهَمِ

أى بفرسٍ أدْهَم . وخصَّه بالدُّهمة ، لأنه عَنى به كافوراً .

وقوله : (ليست قوائمهنَّ من آلاتِها) : أى ليست قوائمها آلات لها لأنها تعثر وتكبو وتضعف عن مجاراتها ، فكأن هذه القوائم ليست من آلاتها

إذ لو كانت آلاتٍ لها لنصرَتْها ولم تخنها ولا أظهرتْ فضلك أيها الممدوح على هذه القُرَّح . وإنما قوائمها من آلاتك أنت ، لدلالتها على سبقك ، إذا كَبتْ هذه القرح وراءك ، فهن آلاتُك المبيِّنة لفضلك لا آلاتها ، لأن من نصرك وخذل مناوئك ، فإنما هو آلة لا لمناوئك ، وإن كان أهلاً له ، وجزءاً منه ، كقوله تعالى : ﴿ يانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أى ليس من أنصارك ولا مُعاضِدِيك ، إنما هو من أعدائك . ولم ينفِ أنه ابنه حقيقة ، لأن نساء الأنبياء لم يَفْجُرْن .

وذكر القوائم هنا ، لذكره الخيل ، ذهابا إلى الصنعة . وإنما القوائم هنا كناية عن الخصال والفضائل النفسانية . وقيل : إن الضمير فى آلاتِها لـ «وراءك» ، أى لا يتبعك إلاَّ خيلٌ قوائمها أثبت من قوائم هذه القُرَّح . وأما قوائم هذه فمقصِّرة عن متابعتك ، والصبر على مُجاراتك .

(سُقِيَتْ مَنابِتُها التى سَقَتِ الوَرَى بِنَدَى أَبِى أَيوبَ خَيرِ نَبَاتِها)

الصَّنعة سارية فى هذا البيت ، وذلك أنه جعلَ للنفوس منابت ، وليست النفوس نباتية فتنبت ، وإذا لم تنبت فلا مَنْبِتَ لها ، ومعناه : سقى الله أهل هذا الممدوح بنداه لأنهم أجواد ، فإذا أفاض عليهم جوده ، أفاضوه على من سواهم . وقوله : (وخيرُ نَبَاتِها) الهاء للمنابت . ودعا للمنابت بُسقيا النبات لها ، وتغذيتها إياها ، قلبا للعادة . لأن المَنْبِت يغذِّى النبات ، والنبات لا يُغَذِّى المَنْبِت ، إذ المنبت غير نامٍ ، ولكنه أغرب بذلك ، وجعل الممدوح خَيْر نبات المنابت التى هو منها ، لأنه أشرفها وأوسطها ، فالباء التى فى قوله : (بنـدى أبى أيوب) على هذا التفسير متعلقة بُسقِيَتْ . وقد يجوز أن تكون متعلقة بَسقَت . ويكون سَقْى المنابت غيرَ مُبَيَّنٍ . فكأنه قال : سُقيت منابتها ، وأمسك ولم يذكر ما تُسقَى به .

(لَو مَرَّ يركُضُ فى سُطورِ كِتابَةٍ   أحْصى بحافِرِ مُهرِهِ مِيماتِها)

يصفه بالحذق فى الفروسية . وخص المُهْر لتكون أغرب ، لأنه إذا فعل ذلك بالمُهْر وهو غير ماهر ولا مُرْتاض ، كان أقدر أن يفعل ذلك بالقادح ، لارتياضه وانقياده .

(يَضَعُ السِّنَانَ بحيثُ شَاءَ مُجَادِلاً   حَتَّى من الآذانِ فى أخْرَاتِها)

يصفه أنه حاذق بالطعن ، حتى إنه يضع السِّنان فى خَرْت الأذن . وقوله مُجادلاً : حال مُفيدة . والمُجَادِلُ : المُجارِى فى مَيْدان الطعن ، وذلك أنه إذا فعل وهو جائلٌ فى الحرب ، كان أقدر عليه وهو فى الميدان وادع .

(لاخَلْقَ أسمحُ منك إلاَّ عارفٌ   بِكَ رَاءَ نَفْسَكَ لم يَقُلْ لَكَ هَاتِها)

أى المعروف عنك الجود بكل ماسُئلته ، فلا أحد أسمح منك إلا إنسان عرف هذه الشيمة منك ، فلم يسألك نفسك . وجعله أسمح منه ، لأنه ترك له أنفس الأشياء ، فكأنه قد جادَ عليه بما لم يجد هو بمثله على أحد ، لأن الجودَ بالنفس أقصى غاية الجود وهذا كقوله هو :

يأيُّها المُجدَى عَليه رُوحُهُ   إذْ ليس يَأْتِيه لهَا اسْتِجْدَاء

وقد أنعم شرحُه فيما تقدم . وَراء : مقلوبة عن رأى ، قال الشاعر :

فَلَيْتَ سُويداً رَاءَ مَنْ فَرَّ منهمُ   ومَنْ جَرَّ إذ يَحْدُونَهُمْ بالركائبِ

ويَدُلُّك على أن (رَاءَ) مَقلوبة عن رَأى ، أنه لم يأت لها مصدر ، إذ الأفعال المقلوبة لامصادر لها عند سيبويه ، ولا أعرف أحداً خالفه . ولو كانت (رَاءَ) لغة فى رأيتهُ ، لكان لها مصدر . وهذا أصل من أصُول التصريف ، فتفهمْه .

والخَلْق فى هذا البيت : بمعنى المخلوق . ولذلك أبدل (عارف) منه .

إذ لو كان الخلق مصدراً لم يجزْ إبدال عارف منه ، لأن الجواهر لاتبدل من الأعْراض . وإنما كان يَنْصِبُه على الاستثناء المنقطع ، مع أن المصدر لامعنى له فى هذا البيت . ولذا حَذَّرْنا منه إعرابا (بالإعراب) .

(غَلِتَ الذى حَسَبَ العُشُورَ بآيةٍ تَرْتِيلُكَ السُّورَاتِ من آيَاتِهَا)

غَلِت فى الحساب ، وغَلِط فى القَوْل . هذا فرْق . وقيل : هما سواء . يمدح إمام أنطاكية ، فيصفه بتجويد التلاوة ، وحُسن التأدية ، حتى جعل حُسْنَ لفظه وترتيله للقراءة فى الإعجاز ، بمنزلة الآية ، فيقول : يجب أن تكون قراءتك هذه مضافة إلى الآيات ، تُعَدُّ بصورة فى النفس آية ، فقد غَلِط حُسَّاب العُشور إذا لم يَعُدُّوا قراءتَك منها . وكان يجب أن يقول : ترتيلُك للعشور من آياتها ، أو الأعْشار من آياتها ، فكان أذهب فى الصنعة .

وهذا البيت كله (خَلْف) من وَجْهين . أحدهما : طريق الغُلُوّ الذى لامَساغ له فى الذات اللَّقِينة المتيقنة . والآخر : أن الترتيل عَرَضٌ فى اللفظ وليس بذات لفظ ، والآية لفظ . وإنما التَّرتيلُ فى ذات اللفظ كالعَرَض فى الجوهر ، فلا ينبغى أن يُعدَّ ماهو عرَض فى الجوهر جزءا من ذات الشىء ، فتفهَّمْهُ ، فإنه لطيف المعنى .

(لا تَعْذُل المرَضَ الذى بك ، شَائِقٌ أنتَ الرِّجال ، وشَائِقٌ عِلاَّتِها)

كان هذا الممدوح عليلاً ، فيقول : لاتلم المرض المعتمد لك ، والحالُّ بك ، لأنك محبَّبٌ إلى النفوس وإلى أحوال النفوس ، فكما أنك تَشُوق النفوس فتذهب نحوَك ، وتحلُّ بك ، كذلك الأحوال ، والعلّة نوعٌ من الحال ، فلاعتاب عليها فى حبها لك .

فتلخيص البيت : لاتَعذُل مرضَك، لأنك تشوق الرجال ، وتشوق عِلَلَها

فشائق : خبرُ مبتدأ مقدم ، وأنت مبتدأ . أى أنت شائقٌ الرجالَ وعلَّهَا .
ولا يجوز أن يكون شائقٌ مبتدأ ، وأنت فاعل بشائق ، لأن اسم الفاعل إنما يعمل عمل الفعل إذا كان (معتمداً) على شىء قد عمل فى الاسم قبله ، أعنى ، كأنه يكون خبراً لمبتدأ ، أو فاعلا لفعل ، أو صفة لموصوف ، أو حالا لذى حال ، ونحو ذلك ، فأما أن يكون يعمل عملَ الفعل وهو مبتدأ ، فلا يجوز .
فلو قلت : ضاربٌ زيداً تُريد : اضربْ زيداً كان خطأ .

(فإذا نَوتْ سَفَراً إليكَ سَبَقْتَها   فَأَضَفْتَ قبل مُضَافِهَا حَالاَتِها)

هذا البيت متعلق بهذا البيت الذى قبله : أى أن الرجال إذا نوتْ سفراً[٣] إليك سبقْتَها بإضافتك أحوالها ، قبل إضافتك إياها . وإضافته لحالاتها قبوله لها بجسمه ، لأنه فى ذكر المرض ، عرَض ، والعَرَض يطلب مَحَلاًّ ، ومحله الجسم . ويشبه ذلك قوله بعد هذا :

(ومنَازِلُ الحُمَّى الجُسُومُ فَقُلْ لَنَا   ما عُذْرُها فى تَرْكِها خَيْراتِهَا)

أى إذا كانت الأمراض أعراضاً ، ولم يكن للعَرَض بُدٌّ من جسم ، وأمكن العَرَضَ جسمُك الذى هو خــــير الجسوم ، فكيف يُعذر على تركه .

(فاليومَ صِرتُ إلى الذى لو أنَّه   مَلَكَ البَرِيَّةَ لاستَقَلَّ هِبَاتِها)

هذه الهاء فى موضع المفعول به ، أى لاستقلّ أن يهبَها لعالم آخر . فكان يجب على هذا أن يقول : لاستقل هبتها ؛ لأن الهبة هنا المصدر ، لا الموهوب ، ولكنه جمع المصدر ، لأنه عنى به الموهوبين ، ولأنه مصدر متنوع ، لأنه كان يهبها فُرادى وَمثْنى ، ومازاد على ذلك من الكمّ ، فقد تنوع المصدر باختلاف الأعداد ، فاستجاز الجمع لذلك .

(مُسْتَرخَصٌ نَظَرٌ إليه بما به   نَظَرَتْ ، وَعَثْرةُ رِجْلِهِ بديَاتِها)

« مَابِهِ نَظَرَتْ » : يعنى أعين البرية . أى أن النظر إليه رخيص بأعينها يعنى بفقدها الأعين . وكذلك عَثْرةُ رجله لو اشْتُرِيت بديات البرية لكانت رخيصة .

- ٤٦ -

وله أيضا :

(وَتَرْكُكَ فى الدُّنيَا دَوِيًّا كأنَّما تداوَل سَمْعَ المَرْءِ أَنْمُلُهُ العَشْرُ)

يعنى لا يسمع شيئاً ، كقول النابغة : « وتلك التى تَستَكُّ منها المسَامِعُ » والدَّوِىّ : الصوت . وهذا البيت مضمن بما قبله . أى إنما المجدُ السيفُ ، والفتكة البكر ، وأيامْ حرب يُسْمع لها من اجتماع الأصوات المختلطة الواصلة إلى الآذان ، مثل صوت البحار الذى يسمعه الإنسان إذا أطبق أذنيه بأنمله .

والأنمل هنا : الأصابع ، واحدتها أنْملة ، من باب تَمْرة وتمر ، وليس بتكسير أنملة لأن هذين البناءين إنما يكسران على (أفاعل) . وقوله « تداول سمعَ المرء » : يجوز أن يكون السمع اسماً للأذن ، فلا يحتاج فى هذا القول إلى حذف . ويجوز أن يكون السمع هنا : الحِسَّ لا الجوهر الذى يُحَسُّ به ، فإذا كان ذلك ، فلابد من حذف ، كأنه قال : تداولَ موضع سمع المَرْء وإلى هذا ذهب أبو على فى قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللهُ على قلوبِهم وعَلَى سَمْعِهِم ﴾ وجّهه على الوجهين جميعاً .

(إذَا الفَضْلُ لم يَرْفَعْكَ عن شُكْرِ نَاقِصٍ

عَلَى هبةٍ فالفضلُ فيمَنْ لَه الشُّكْرُ)

أى إذا اضطرْرت إلى ناقص فتفضل عليك فشكرتَه فقد حصل الفضل لذلك الناقص فمن الحق أن تَتَحامى رَجاء الناقص ، لئلا يتيح لك فضلاً منه عليك ،

فيكون الفضل له . وقال : (الفضل فيمن له الشكر) أى : الفضل للشاكر ، لا للمشكور ، لأنه يُشَرِّف هذا الناقص بشكره ، أو بنفعه به .

(وَغَيثٍ ظَنَنَّا تَحْتَهُ أَنَّ عامِراً عَلاَ لَم يُمتْ أو فى السحابِ له قَبْرُ)

عامر : جَدُّ هذا الممدوح . يصف سحابا بكثرة الماء ، حتى كأن عامراً علا إلى الفلك فأمطر الناسَ جوده ، أو دفن فى السحاب ، فهو يجود بالماء وإن كان فيها مَيِّتاً .

وقوله : (لم يمت) بدل من قوله : (عَلاَ) . وقد يجوز أن يكون حالاً من الضمير الذى فى علا أى علا غيرَ مَيِّتٍ .

(أو ابنَ ابنِهِ الباقى علىَّ بن أحمدٍ يَجودُ به لو لَمْ أَجُزْ وَيَدِى صِفْرُ)

أى لولا أنى جُزْت به خالىَ اليد منه ، لما شككت أن أحدهما هناك .

ويدى صِفْرُ : جملة فى موضع الحال .

(إليكَ طَعَنَّا فى مَدَى كُلِّ صَفْصَفٍ
بِكلِّ دَآةٍ كُلُّ ما لَقِيتْ نَحْرُ)

أى قطعنا إليك الأراضىَ البعيدة بكل ناقة مُوثَقَة ، تفعل فى الأرض البعيدة ماتفعل الطَّعنة فى النحر . ومَعناه أنها تتوغل الطعنة فى الصدر ، وتبلغ الغاية ، كما تبلغ الطعنة إذا وصلت إلى القلب .

(إذَا وَرِمَتْ من لَسْعةٍ مَرِحَتْ لها كأن نَوالاً صَرَّ فى جِلْدِها النِّبْرُ)

النبر : دُوَيْبَة تلسع الإبل ، فتَحبَطُ مواضعُ لسْعها وتَرِم ، يقول : إذا لسعها النبر لم تَأْلَمه ، لاعتيادها إياه ، وطَيَّب نفسها، وفَرِحَت له ، حتى كأن تلك اللسعة التى أورمت جلدها ، صَرَّت فيها نوالاً لَهَا ، فهى تفرح لذلك ، كما يفرح المُعطَى بالعَطية .

وقوله : « كأن نوالاً » : يجوز أن يكون نوالاً منصوباً بكأن ، والجملة التى هى (صرَّ فى جلدها النِّبر) : خبر كأن . وفيه ضعف لأن اسم (إن) نكرة غير مؤيدة بالصفة . وخير منه عندى أن يكون فى (كأن) إضمار الشأن أو الحديث ، أى كأن الأمر أو الحديث ، ونوالاً : مفعول لصَرَّ . فقوله : « نوالاً صَرَّ فى جلدها النِّبْر » : تفسير للمضمر الذى فى (كأن) .

(فَجِئْنَاكَ دُونَ الشمسِ والبدرِ فى النَّوى
ودُونَكَ فى أَحْوالِك الشَّمسُ والبَدْرُ)

قوله : (دُونَ الشمس والبدر فى النوى) حال أى جئناك وأنت أقرب إلينا من الشمس والبدر ، وهما دونك فى المجْد وشرف القدْر .

(لِسَانى وَعْينِى والفُؤَادُ وهِمّتى أَوُدُّ اللَّواتى ذَا اسْمُهامنكَ والشَّطرُ)

الأُودُّ : الاحِبَّاء ، واحدهم وَُد . فيقول : هذه الأعضاء منى تُحبُّ ما قابلها من أعضائك التى أسماؤها هذه .

وقوله : (والشطر) : أى كأن هذه الأعضاء منى شقيقة سَمِيَّتها منك ، حتى كأنهما اقتسمتا جزءاً من العنصر الذى منه كَونُها . وإذا كان هذا فى الأعضاء ، فكان لسانى موافقاً للسانك ، يقول ماتقول ، وعينى مطابقة لعينك تستحسن ماتستحسن ، وفؤادى ملائم لفؤادك ، يهوى مايَهْواه ، وهذه عُمْدة أعضاء الإنسان . فالجملتان شقيقتان . فنحن إذَنْ شقيقان .

وأما قوله : وهمّتى ، فزيادة ، لأن الفؤاد محل الهمة ، فهو يغنى عنها .

- ٤٧ -

وله أيضا :

(أَقِلْ فَعَالِى بَلْهَ أَكْثَرَهُ مَجْدُ وَذَا الجدُّ فيه نلتُ أَمْ لم أَنَلْ جَدُّ]

بَلْه : يُنْصَبُ بها ويجر ، النصب على أنه اسم للفعل كرُوَيدَ . والجر على

أنه مصدر، وإن لم يكن له فعل؛ فقد وجدنا مصدراً دون فعل، كويلٍ وأخواتها. أى أقلُّ فَعالى شرفٌ. دَعْ أكثرَه، كقول القائل فكيف أكثرُه. وهنا إفراط فى القول، لأنه ليس فوق الشرف منزلة، فيكون أكثر فعله أعلىَ من الشرف. إلا أن الشرف يتفاضَل فى ذاته، فإذا كان أقلُّ فَعاله شرفًا، فأكثره شرفٌ أعْلَىَ من ذلك.

وقوله: (وذَا الجِدُّ فيه نلتُ أم لمْ أنل جَدٌّ). الهاء عائدة إلى المجد، أى ود الجِدُّ فى طلبه جَدٌّ.

الجِدُّ: الاجتهاد والتشمير. والجَدُّ: البَخْتُ. ويقول: جِدى فى الأمور بَخْتٌ. وإن لم أنل به بَخْتا، لأن الجِدّ معدود فى السعادة، لكونه من الفضائل النفسانية، التى يبعث عليها الأنَفَة والشهامة، كما أن التوانى يُعَدّ فى الشقاوة لكونه من الرذائل التى يبعث عليها العجز والسآمة، يقول: فأنا إن لم أنل بسعيى حظاً نلت به عند نفسى وغيرى عُذْراً أحْصُل به على راحة نفسى، لا يَلحقنى كلام من أحد: كقوله: (ومُبْلغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مثلُ مُنْجِحِ)؟

(سَأَطْلبُ حَقِّى بالقنَا ومَشَايخٍ كَأَنَّهُم من طول ماالتَثَمُوا مُرْدُ)

مشايخ: جمع مَشْيَخَة، حكيناه عن أبى زيد، وقد يجوز أن يكون جمع مَشْيُوخَاء، الذى هو اسم لجمع شَيْخ، فكان ينبغى على هذا (مَشَاييخ)، لكنه اضطر لحذف، كقوله:

والبكراتِ الفُسَّجَ العطامسا

فشبههم بالمُرْد، لأنهم التثموا حتى لم تظهر لحاهم، كما لم يظهر للمرد لِحَىً. ولو اتزن له لكان أحسن أن يقول: كأنهم من شدة ما التثموا، لأن كيفية

الالتئام حَجَبت لحام ، بإحكامهم إياها . والشدة كيفية ، والطول كمية . فالكيفية أولى بما ذهب إليه .

وإن قلت :إنهم أطالوا الالتئام حتى حُسِبُوا مُرْداً كان له وجه .

(تَلَجُّ دُمُوعى بالجُفونِ كأنَّما جُفُونِى لِعَيْنَىْ كُلِّ باكيةٍ خَدُّ)

أى أن جفونى مساربُ للدمع لايخلو منهـــا ، حتى كأنها خـدٌّ لكل باكية .

فالدمع يلازمها كما يلازم خَدَّ الباكية .

وإن شئت قلت : ذهب فى ذلك إلى غزر الدمع . أى أن جفون دموعى مُجْتَمَع الدموع ، حتى كأنها خد لعينى كل باكية .

(سَرَى السَّيفُ مِمَّا تَطْبع الهندُ صَاحِبِى

إلى السيفِ مِمَّا يَطْبَعُ اللهُ لا الهِند)

صاحبى : نعت للسيف . ولا يكون على حد قولك (ضاربى) المنقولة من قولك: زيد ضاربٌ عمراً ؛ لأنه لا يقال: زيد صاحبٌ عمرا ،وذلك أن هذه الصفة جُرِّدت من معنى الفعل ، فلم يعدُّوها من المصادر ، وقولهم : (لله درُّك) فدرك : مصدر وقد أجْمدوه حتى قال سيبويه : هو بمنزلة قولهم : (لله بلادك) وقوله :(مما تطبع الهند) ، يعنى السيف الذى عنصره الحديد ، وهو الذى يَطبعُ الهند . والسيف الثانى : هو الممدوح ، وهو الذى يطبعُه الله لا الهند ، لأن الهند لا تَخْلُق وإنما الخالق الله وحده :

(يَكادُ يُصيبُ الشىء من قَبْلِ رمْيِهِ وَيُمكِنُه فى سَهْمِه المُرْسَلِ الرَّدُّ)

يصفه بالقوة فى الرماية ، والعلم بها ، فيقول : يصرِّف سهمه كيف شاء ، حتى لو أراد ردَّه بعد إرساله مثلاً ، أمكنه ذلك . و (يمكنه) : يجوز أن يكون

معطوفا على (يصيب) . فيكونان جميعا داخلين تحت (يكاد) . ويجوز أن يكون من الفعل الذى هو خبر (يكاد) فيكون ذلك أبلغ . وكلتا القضيتين داخلة فى الامتناع، لا يجوز أن يصيب شيئاً قبل رميه له . ولا أن يقارب ذلك. وكذلك القول فى القضية الثانية . والهاء فى (رميه) يجوز أن تكون ضميراً لشىء فيكون مجروراً فى موضع نصب . كأنه قال : من رميه هو . ويجوز أن يكون ضميراً لفاعل ، والمفعول على هذا محذوف ، أى من قبل رميه إياه .

- ٤٨ -

وله ايضا :

(حَوْلِى بِكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمُ خِلَقٌ
تُخْطِى إذَا جِئْتَ فى اسْتِفْهَامِهَا بِمَنِ)

أى أنهم لا يعقلون و (مَنْ) إنما يستفهم بها عن يعقل ، فإذا استفهمت عن هؤلاء بمن فأنت مخطىء ، إذ لا حظٌّ لهم فيها وإنما حظُّهم (ما) التى هى لما لا يعقل ، وإن شئت قلت : إنهم وإن كانت صُورهم صُوَرَ الناس ، فهم بهائم ، لجهلهم ، وإنما تُعامل الأنواع بطبائعها لا بأشكالها ، ولذلك أخذت الحكماء فى حدودها طبائعها دون صُورها ، حتى إن بعضهم قال استضعافاً للحدّ المأخوذ من الصورة : (فإنه لا يُستنكر أن يكون إنسان على شكل سمكة ، كما لا يستنكر أن تكون سمكة على شكل إنسان) . وأراد (تُخْطِىء) ، فأبدل إبدالاً صحيحاً للضرورة ، كما أنشد سيبويه : (فارعَىْ فَزارةُ لا هناكِ المرتعُ) .

ولو خفف تخطى قياسيا لجعلها بين بين، لا نكَسَرَ البيت، لأن الهمزة المخففة بَيْن بين عند سيبويه بزِنتها مخففةً .

(ومُدْقِعِينَ بِسُبْرُوتٍ صَحِبْتُهُمُ عَارِينَ من حُلَلٍ كَاسِينَ مِنْ دَرَنِ)

أى ورب فقراء بأرض قَفْر صحبتهم وبُليت بهم (عارين من حُلَل) : أى هم اللصوص لا يتسربلون ،(كاسين من دَرَن) : يصف شَعَثهم وقَشَفَهم. وإنما يُعَدِّد ما مُنِىَ به وبلى ، من مكاره الأيام ، وصحبة من لم يكن أهلاً للصحبة .

(كَمْ مُخلصٍ وَعُلاً فى خَوْضِ مَهْلَكَةٍ وَقَتْلَةٍ قُرِنَتْ بالذَّمِّ فى الجُبُنِ)

أى : كم إنسان أقدم ، فسلم وعلا مع إقدامه ، ولم يضره اقتحامه الهَلَكة . وآخر جَبُنَ ، فقتِل مع جُبْنِه ، ومات مع ذلك ، مذموماً على نكوله مَلُوماً. وقوله : « فى الجُبُن » متعلق بقَتْلَةٍ ، كأنه قال : وقَتْلَة فى الجُبن قُرِنت بالدم ، كما أن قوله (فى خوض مَهْلَكة) مُتعلقة بمخلص وعُلا .

(مَدَحتُ قوماً وإن عِشنا نَظَمت لَهمُ
قَصَائداً من جياد الخَيْل والحُصُنِ)

عنى بالقصائد: الجيوش، وإنما كنى عنها بذلك ، لقوله: (مدحت قوماً) . واستعمل النظم مكان الحَشْد ، لمكان القصائد، وجعلها من جياد الخيل والحُصُن، لأنه عنى بالقصائد العساكر، والعساكر إنما تأتلف من الخيل وفُرْسانها، ولو قال: (من إناث الخيل والحصن) لكان أذهب فى الصنعة ، لأن الحُصُن : الفحول من الخيل ، فكان يطابق الإناث ، لقوله تعالى : ﴿ وَبَثَّ منهما رِجَالاً كَثِيراً ونِسَاء ﴾ . وأما (من جياد الخيل والحصن) ، فقسمة غير سالمة ، لأن الحصن قد تدخل فى جياد الخيل ، وكذلك جياد الخيل قد تدخل فى الحصن ، إذ بعض الجياد حِصان ، وبعض الحصن جواد . ومن عَنى بالحصن الجياد ، ما ذهب فى باب القُبْح ، لأنه لا يوجب قسمتها ، إذ الجياد هى الحصن .

(تَحتَ العَجَاجِ قَوافِيها مُضَمَّرةٌ إِذَا تُنُوشِدْنَ لَمْ يدخُلْنَ فى أُذُنٍ)

عنى بالقوافى الخيل ، وخصها بالذكر لأنها أشرف ما فى الشعر ، لاشتمالها على اللوازم ، كالرَّوى والصِّلة والخرُوج والرِّدف والتأسيس ، وغير ذلك من طوائف القافية ، وإذا جادت القوافى ؛ سَرَت جودتُها فى الشعر . واستجاز أن يجعل القوافى (مُضَمَّرة) ، لكنايته بها عن الخيل .

(إذا تُنُوشِدْن لم يدخلن فى أذن) : فرق مليح صحيح ، لأنهن لَسْنَ فى الحقيقة قوافى ، فتلج فى المسامع ، وإنما هن خَيْل ، وليس هناك تناشد . إنما استجازه للفظ القصائد والقوافى .

(غَضٌّ الشبابِ بَعيدٌ فجْرُ لَيْلتِه مُجَانبُ الجَفْنِ للفَحْشاء والوَسَنِ)

يستغرب العبادةَ مع الشباب . و (بعيد فجر ليلته) : أى لا ينام ، فآخر ليلته بعيد من أولها . (مُجانب الطرف للفحشاء والوسَنِ) : هذا اختصار مليح . وما أحسن مقابلته الشباب بالفحشاء ، والسهر بالوسن . وكأنه قالَ : غضٌّ الشباب ، مجانب الطرفِ للفحشاء ، طويل الليل ، مجانب الطَّرْف للوسن .

(أَلقىَ الكِرَامُ الأُلَى بَادُوا مَكَارِمَهمُ
عَلَى الخَصِيبِىِّ عنْدَ الفَرْض والسُّنَنِ)

(الأُلى) : بمعنى الذين بادوا من صلة (أُلَى) . أى باد هؤلاء الكرام وألقوا مكارمهم على هذا الممدوح ، كأنهم كَفَلُوه إياها ، كما يُكفَل الوصىُّ اليتيم .

(فَهُنَّ فى الحَجْرِ مِنهُ كُلَّمَا عَرَضَتْ
لَهُ اليَتَامَى بَدَا بالمَجْدِ والمِنَنِ)

فهُنَّ : يعنى هذه المكارم الملقاة عليه التى كَفِّلَهَا . يقول : هذه المكارم التى مات أهلها ، وبقيت يتامى فى حجر هذا القاضى الممدوح ، فهو يفرق أمواله

فيهم ، ويبدأ منهم بالمجد والمنّة . فهما من جملة الأيتام ، يظهرها ويؤثرها ، كما يفعل الرّابُ المُشبِل . وقوله : (بدا) : أراد (بدأ) فأبدل إبدالاً صحيحاً للضرورة . كما تقدم فى تخطِى ونحوها .

- ٤٩ -

وله أيضا :

(لَقَدْ حازَنِى وَجْدٌ بِمَنْ حَازَهُ بُعْدُ   فَيَا لَيْتَنِى بُعْدٌ ويالَيْتَه وَجْدُ)

أى الوجْد خُلُقى فقد حازنى ، والبعد خُلُقه فقد حازه ، يقول : فياليتنى بُعد لأحوزه كما حازه البعد ويااليته وجْد فيحوزنى كما حازنى الوجد ، فنجتمع ولا نتفرق .

(سُهادٌ أتَانَا مِنْكِ فى العَينِ عِندنَا   رُقادٌ وقُلاَّمٌ رَعَى سَرْبُكُمْ وَرْدُ)

استحسن كل مكروه أتى من قِبلهم ، واستلطف كل جافٍ لهم ، حتى جعل السُّهاد رُقاداً ، والقلام — وهو ضرب من الحَمْض — وَرْداً . كل ذلك لحبّه إياهم .

(إذا غَدَرتْ حَسْنَاء وَفَّتْ بِعهدِها   وَمِنْ عَهْدِهَا ألاَّ يَدُومَ لَها عَهْدُ)

شيمة المرأة : الغَدْر . وهى التى عُهدت عليه فمتى غدرت فقد أوفت بعهدها

(وَسَيْفِى لَأَنْتَ السَّيفُ لاماتَسُلُّهُ   لِضَرْبٍ وَمِمَّا السَّيفُ مِنه لَكَ الغِمْدُ)

أقسم بسيفه ، ثم تلقى القَسَم بقوله الممدوح ، لأنت السيف ، أى إنك أمضى من السيف بل أنت السيف فى الحقيقة ، إذ لولاك لم يكن للسيف غَنَاء كقوله :

إذا ضَرَبَتْ يُمناهُ بالسَّيفِ فى الوَغَى
تَبَيَّنْتَ أن السيفَ بالكف يَضْرِبُ

(وممَّا السيف منه لك الغمد) : الشيء إنما يُصان بما هو دونه فى القَدر ، ليكون له وِقَاء . يقول : فأنت أشرف من السيف ، لأن السيف مطبوع من الحديد ، وأنت تلبس الدروع والجواشِنَ والترْك ، فهن لك كالغمد . وإذا كنت أنت مصوناً بما السيف منه مصنوع ، فلا محالة أنك أشرف من السيف ، لأن السيف مساوٍ للدرع فى القَدْر ؛ لأن جوهرهما سَوَاء . والدرع لك لباس . والغمدُ فى قوله : (ومما السيف منه لك الغمد) : مرفوع بالابتداء . وخبره : (مما السيف منه) ، فغمدك من الحديد الذى طُبع منه السيف .

(كَأَنَّ عَطِيَّاتِ الحُسَيْنِ عَسَاكِرٌ فَفِيهَا العِبِدَّى والمُطَهَّمَةُ الجُرْدُ)

العسكر إنما يأتلف من الخيل والرجال . وهذا يَهَب الخيل والعبيد . فهذا وجه الكيفية فى تشبيهه عطاياه بالعساكر . ثم يكثر هبة هذين النوعين ، حتى يعود فى كثرة العسكر . فهذا تشبيهها بالعساكر من جهة الكمية . والعطية : المُعطَى لا العطاء إذ لو كان ذلك لم يجز تشبيه العَرَض بالجوهر ، فتفهَّمْه .

(حَبَانِى بِأَثْمَانِ السَّوَابِقِ دُونَهَا مَخَافَةَ سَيْرِى إِنَّهَا للنَّوى جُنْدُ)
(وَشَهوةَ عَوْدٍ إِنَّ جُودَ يَمِينِه ثُنَاءُ ثُنَاءُ وَالجَوَادُ بِهَا فَرْدُ)

أى أعطانى الدنانير دون الخيل ، مخافة أن أَبِينَ عنه ، لأن الخيل جُند للنوَى وأعوان . و (شَهْوَةَ عَوْدٍ) أى أراد أن أقيم فيُوَالِى لى عطاياه . إنَّ جود يمينه ثُناء ثُناء : أى أياديه مَثْنَى ؛ وهو فى ذاته فَردٌ . وإن شئت عَنَيْت بالعود ، أنه معدوم النظير فى جوده ، كما يقال : رجل واحد : لا مِثْلَ له ، قال أبو ذؤيب :

يَحمى الصَّرِيمَةَ أُحْدَانُ الرِّجال له صَيْدٌ ومُجْتَرِئٌ بالليلِ هَمَّاسُ

فكأنه قال : والجواد بها أوحَدُ .

(فَهُم فى جُموعٍ لايَراهَا ابنُ دَأْيَةٍ   وهُمْ فى ضَجيجٍ لايُحسُّ به الخُلْدُ)

ابن دأية : الغُراب ، سُمِّى بذلك لأنه يقع على دَأْيَة البعير ، وهى فقَارَته ، فيعقرها . والعرب تصف الغراب بصحة البصر ، حتى عنوا به فقالوا : أبصر من غراب ، والخلد : فأرة عَمياء لاسَمع بها ، زعموا . يقول : فما يراهم الحديدُ البصر ولا يُحِس بهم الذكىّ الحسِّ مبالغة . وليس يذهب فى ذلك إلى قـلة جموعهم ، وخفوت لَجُمهمْ ، إنما يذهب إلى احتقارهم ، وقلة غنائهم ، ومثله فى ذلك الاستضعاف قوله :

فَبَعْدَه وإلى ذا اليوم لو رَكَضَتْ   بالخيل فى لَهَوَات الطفل ماسَعَلاَ

- ٥٠ -

وله أيضا :

(أُراكِضُ مُعْوِصَاتِ القَوْلِ قَسرًا   فَأَقْتُلها وغَيرِىَ فى الطِّرَادِ)

أى أنا ذو بديهة ، فإذا عورضت فى قول الشعر فَرَغتُ وغيرى يعد فى تلحينه وتسديته ومعاناته ، وليس هناك قتل ولا طراد ، وإنما استعارها وأقتلها : بمعنى أصيبها وأملكها كقولهم : قتلتُ الأمر علماً . والمُعْوِص : الأبىُّ الممتنع .

- ٥١ -

وله أيضا :

(أنَا لائمى إن كُنتُ وَقْتَ اللَّوائمِ   عَلِمْتُ بِمَا بى بَيْنَ تِلْكَ المَعَالِمِ)

قوله : (أنا لائمى إن) كقوله : أنا مثلك إن فعلت كذا . أى ضربنى الله

مثل لا شئ فى قلة اللب والجهل بالحب. وقيل أراد : أنا لائم نفسى أى جعلنى الله لائماً لها ، وهذا أضعف فى العربية ، إنما تستعمل العرب فى مثل ذلك أنا لائم نفسى هذا مذهب سيبويه . وقد أنشد بعض الكوفيين :

(ندمتُ على ما كان منى عدمتُنى)

فعلى هذا يجوز (أنا لائمى) أى لائم نفسى .

يقول : إن كنت علمت بحالتى وعقلت أمرى بين تلك المعالم ، كقول الأشتر :

بقَّيتُ وَفْرِى وانحرفت عن العُلاَ ولقيتُ أضيافى بوجه عَبُوسِ

إن لم أشُنَّ على ابن حرب غارةً تعدو ببيض فى الكريهة شُوسِ

(وَلـكِنَّنِى مِمَّا شُدِهْتُ مُتَيَّمٌ كَسَالٍ وَقَلْبِى بَائِحٌ مثلُ كَاتِمِ)

أى ولكنى متيَّم كسالٍ بما شُدِهتُ وذهِلْت . أى قد أفرط ذهولى ، حتى كأنى ذَهِلت عن الهوى ، فعدتُ كالسَّالِى ، ومعنى كل ذلك أنه يريد : لم يخلص لى حال ولا يَثْبتُ لى حقيقة ، وإنما يقول إنه بقى فقيد العقل ، ومَن فَقَد عقله لم يَثْبُت له تذكُّر ولا سُلُوّ ، ونحو هذا قوله تعالى فى صفة أهل النار : ﴿ لا يَموتُ فيها ولا يَحْيى ﴾ . وإن شئت قلت : ذَهِلت عن الشكوى ، حتى كأننى سال وذهوله عن الشكوى إما أن يكون عَدِم حِسّه بتلاشى جسمه كقوله هو :

وَشَكِيَّتِى فقدُ السَّقام لأنَّهُ قَدْ كَانَ لمـَّا كَانَ لى أَعْضَاء

وقلبى بائح مثل كاتم : أى أنه قد ظهر علىّ الحبّ ، فكأن قلبى بائح به وهو مثل كاتم ، أى أنه لم يقصد إظهار ذلك . ومعنى كل ذلك نفى القصد لا طوله .

(عَنِ الْمُقْتَنِى بَذْلَ التِّلادِ تِلادَهُ وَمُجْتَنِبِ الْبُخْلِ اجْتِنَابَ الْمَحَارِمِ)

أى يقتنى بذلَ التِّلاد مكان تلاده ، فأعقبه ذلك ذكراً فى البذل ، فكأنه قال : عن المقتنى الذكر الجميل ، ببذل التِّلاد مكان تلاده . الذى كان اقتناه ، لما فى تلاده من البقاء فى الذكر الجميل المقْتَنَى مَكانه . من البقاء .

فتلادَه عندى — منصوب بالظرف ، كما أنك لو أظهرت المضاف المحذوف فقلت : مكان تلاده ، كان منصوباً على الظرف ، فلما حُذِف المضاف، عمل الفعل فى المضاف إليه ذلك العمل نفسه ، كقوله تعالى : ﴿ واسْأَلِ القرية التى كُنَّا فِيهَا ﴾ . ولو قال : (تلادُه) ، فرفعه بالمُقْتَنَى على السعة لجاز . أى كأن ماله يدعوه أن يبذله فيَقْفُوه بذلك فخراً . فكأنّ المال هو المقتنِى له ذلك.

ولا كلام فى قوله : (ومُجْتنب البخلِ اجْتناب المحارم) لظهوره .

(كَأَنكَ ما جَاوَدْتَ مَنْ بَانَ جُودُهُ   عَلَيكَ ، ولاقَاوَمْتَ مَن لَمْ تُقَاوِمِ)

إن شئت قلت : إن حسادَك جاودُوك فى الجود والبأس ، حتى غلبتهم فيهما ، فكأنك بعد غَلَبِك إياهم ما جاودوك ولا قاتلوك . ثم جعل للقضية مثلاً مطلقاً،أى أيها الإنسانُ مَن غلبك بعدما غلبْته فكأنك ما غلبته ، وإن شئت قلت: كل من جاودته قُتْتَه،وكل من حاربته غلبته، حتى كأنك إنما اخترت من المُجاوِدين والمحاربين من وثقت بظهورك عليه ، ولم يَكُ ذلك قصدك ، إذ لو كان ذلك لم يك محموداً منك ، لأنك لم تَشْجُع إلاّ على من علمت أنه دونك ولا جاريت فى النَّدى إلا من علمت أنك فوقه . هذا كله لا يُمْـدح به . ولكنك إنما كنت الظاهر على المجاودين المحاربين ، بفضيلتك النفسانية ، ومزيتك الطبيعية إلاّ أنك اخترت من هو دونك . وقوله : (من لم تقاوم) كقوله : ولا قاتلت من بانت شجاعته عليك ، فهذا اللفظ المسلوب فى معنى لفظ آخر مُثْبت ، وإنما ذكرت لك هذا لتثبت قدمك فى تَبيُّنه .

- ٥٢ -

وله ايضا :

(غَدَا النَّاسُ مِثْلَيْهِم بِهِ لاعَدِمْتُهُ   وأصْبَحَ دَهْرِى فى ذَرَاهُ دُهُورا)

أى فيه من الفضائل مافى كل الفضلاء . فقد صار الناس به ناسَيْن . ولا يعنى بالناس جميع نوع الإنسان ، لأن فى جماع النوع رفيعاً ووضيعاً ، وإنما عَنَى بالناس الفضلاء من الناس ، ولولا ذلك لم يقتض مدحاً ، كقول أبى نواس :

لَيْسَ على الله بمُستنكرٍ   أن يجمع العالم فى واحد

لم يرد العالم كلَّه ، إنما عَنَى رُفَعاءهم وخيارهم .

(وأصبح دهرى فى ذَراه دهورا) :

يقول : جنيت من لذيذ تمَرَ العيش فى دهرى عندَه ، ماجناه أهلُ كل دهر من حُلْو تمر دهرهم ، فصار دهرى بذلك دهوراً .

- ٥٣ -

وله ايضا :

(وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صحيحاً   وآفَتُهُ من الفَهْمِ السَّقِيم)

قد يكون القول صحيحاً فى ذاته ، ولا تلوح صحته إلى الجاهل به ، فيعيبُه ، لأنه يظنه على خلاف ماهو به . مِنْ كلام الحكماء : (من عَلِم أنِسَ ، ومن جَهِل استَوحَشَ) . وقال تعالى : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بما لَمْ يحيطوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُه﴾ : أى لو فهموه لعلموه ، فآمنوا به . ويشبه هذا البيت قوله هو :

ومن يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ   يَجِدْ مُرًّا به الماءَ الزُّلالاَ

وله أيضا :

(كَفِرِنْدِى فِرِنْدُ سَيْفِى الجُرَازِ   لَذَّةُ العَيْنِ عُدَّةٌ لِلبِرَازِ)

الفرند : ماء السيف ، فارسى معرب . إنما هو مابين الباء والفاء . والعرب تعرِّب مثل هذا بالفاء المحضة ، والباء المحضة. هذا قول سيبويه فى باب اضطراد الإبدال فى الفارسية .

الجُرَاز : الماضى النافذ . وإنما شبه فرنده بفرند السيف ، لأن فرند السيف، دليلٌ عَلَى مضاء حَدِّه . وعنى بفرند نفسه هنا شحُوبَه ، وتغير لونه من الأسفار والتعب ، فجعله فِرِنداً ، لأنه دليل على مضاء عزمه ، كما أن فرند السيف دليل على مضاء حده .

ففى ذلك شبه فرنده بفرند السيف ، وإن لم يكن شُحوبه فى الحقيقة فرنداً، بل هو خلاف الفرند ، فإنما سمّاه به ، لأنه محمودٌ منه ، كما أن ذلك محمود من السيف . ونحوه قوله صلى الله عليه وسلم (لَخلُوفُ فم الصَّائم أحَبُّ إلى اللهِ من المِسْكِ) وليس الخلُوف بطيب ، ولكن لدلالته على ما يحبه الله عز وجل من الصيام .

وأما ابن جنّى فقال : عَنَى أن جوهر سيفى كجوهرى . فإن كان عنى بالجوهر الفِرند ، فخطأ ، لأن الفرند إنما هو صفاء السيف بما يحدُثُ من الصقّال ، فهو لذا عَرَض .

وإن كان عَنَى بالجوهر سِنْخ هذا السيف ، أى أن سِنْخى فى نوع الإنسان كسنخ سيفى هذا فى نوع الحديد ، فصفاء فهمى من جهة شرف [جوهرى ، كما أن صفاء هذا السيف من جملة شرف جوهره ، فهو حسن .]

ويقوى ذلك أنه قد استطرد فى أبيات السيف من هـذا الشعر ، تشبيهه نفسه به ، وجعله نفسه فى نوعه ، كسيفه فى نوعه . ثم أخبر عن نفسه فقال : هو لذةُ العين ، أى أنظر إليه فأستملحُه ، وهو أيضاً عُدَّةٌ للقتال .

(ودقيقٌ قَدى الهبَاء أنيقٌ مُتَوالٍ فى مُسْتَوٍ هَزْهَازِ)

أى وفيه فِرِنْد دقيق ، قدر الهباء فى شكله وتضاؤله . متوالٍ : متتابع . فى مستوٍ ، أى فى متن مُستوٍ . فأقام الصفة مقام الموصوف ، وقواها بهزها ، لحسن ذلك .

(يَا مُزِيلَ الظلام عَنِّى ورَوْضِى يَومَ شُربِى ومَعْقِلى فى البَرَازِ)

البرازُ : الصحراء . يقول لسيفه : إذا اسودَّت الدنيا علىَّ بنزول الملمَّات، كشفتَها عنى وفرَّجْتَها . وقد يعنى به أنه يزيل الظلام عنه بمائه وضيائه . (وَرَوْضِى يوم شُرْبِى) : شبَّهَه بالروض فى خُضرته ، وجعله روضة يوم شربه، على ما تجرى به عادة الشجاع من تلقفه سيفه وتنزيهه طرفه فيه ، متأملاً لحسنه وماهية جَوْهَرِه . وكان أذهب فى الصنعة أن يقول : (وروضتى) لأن الرَّوض جمع ، وهو يخاطب واحداً ، ولـكن هذا واسع كثير . (ومَعْقِلى فى البَرَاز):أى انى أمتنع بك إذا امتنع غيرى بحصن ، لأن الشجاع إنما يلجأ إلى سلاحه لا إلى معقل ، كقوله هو :

(جواشنُها الأسنةُ والسيوف)

وكقوله : (فلا أحارب مدفوعاً إلى جُدُرِ)

وإن شئت قلت : إذا كنتُ فى الصحراء فلم أجد معقلاً ، فأنت أيها السيف هناك مَعْقِـلى .

(إن بَرْقِى إذا بَرَقْتَ فَعَالِى وصَلِيلِى إذَا صَلَلْتَ ارْتجازِى)

يذهب بذلك إلى التقريب بين نفسه وسيفه ، لَمَّا أن مثَّل نفسه به فى جوهره أراد أن يكمل تشبيهها به فى أغراضه ، فيقول : أيها السيف ، لا تظننى مُقَصِّراً عنك ، بأن لالَمْعَ لى كلَمْعِك ، ولا صليل لى كصليلك ، فإنك إن قدَّرت ذلك ، فأنت مخطىء ، لأن مايُوازى لَمَك وصليلك منى ، أشرف من لَمْعك وصليلك . أنا أفعل بك يوم الرَّوع ما يكسو جبينى وسائرَ وجهى ضِياء ، استبشاراً به وفرحاً . فذلك البشر هو بَرْق المُوازِى لبرقك ، وأرتجز بشعرى إذا صُلْت فيقوم ذلك مقام الصليل لك فإذن لا يُقَصِّر حالى عن حالك .

(وَلِقَطْعِى بِكَ الحديدَ عَلَيْها فَكِلانا لجِنْسِه اليومَ غَازِ)

وهذا أيضاً زِيادة فى تقريبه بين نفسه وسيفه . يقول : أنا أقتل أقرانى وهم جنسى ، وأنت تقطع عليهم الدروعَ والمغافِر والتَّرْك ، وكل ذلك جنسك ، فقد حكيتُ فعلك فى نوعك ، بفعلى فى نوعى . أنا إنسان أقتل إنساناً ، وأنت حديد تقطع حديدا . وهذا من أبدع الصنعة ، مثَّل نفسه بذاته ، فى سيفه بذاته ، ثم عرَضَهُ المتصل به الذى لايتعداه ، كالبَرْق والصليل ، ثم فى عرَضه الذى يُوقِعه بغيره ، عن حركة واستعمال ، وهو قَطْعُهُ الحديد ، فقدَّم ماهو من الذات لايتعداها ، وأخَّر مايتعدى الذات . فتفهمْهُ فإنه غريب .

(كَيْف لايَشْتكى وكيفَ تَشَكَّوْا

وبِهِ لا بِمَنْ شَكَاها المَرَازِى)

أى كيف لايشتكى هذا الممدوح وهو الذى يتحمل المغَارِم ، ويتكلف المُؤَن بذاته ، وماله فيه المَرازى . وكيف تشكاها هؤلاء وقد احتملها هو عنهم فالعجب من شكواهم ولا رُزْء بهم ، ومن يحتمل الرزية عنهم لايشتكى . فتقدير القضية : وبه المرازِى لا بمن شكاها .

والمرازِى : جمع مَرْزأة ، وكان حكمه المرازِئ ، فأبدل إبدالاً صحيحا قياسيا ، لأنه لا يوصل بالهمزة المخففة إلا هكذا ، أعنى أن نبدل ابدالاً محضاً، حتى تلحق بحروف العلة ، ولذلك استشهد سيبويه على أن الهمزة تبدل إبدالاً صحيحاً فى حال الاضطرار ، كبيت عبدالرحمن بن حسّان بن ثابت :

وكنت أذلَّ مِن وَتِدٍ بقاعٍ يُشَجِّجُ رأسَه بالفِهْرِ واجِى

اعتقد البدل فى واج صحيحاً ، لأن القطعة جيمية ، فالوصل ياء محضة .

وهذا الاستشهاد من دقائق سيبويه ، ولطائفه التى بزَّ فيها الممارِى ، وسبَقَ المُجارِى .

- ٥٥ -

وله أيضا :

(فَمَتَى أقُومُ بِشُكْرِ ما أوْلَيْتَنى والقَوْلُ فيكَ عُلُوُّ قَدْرِ القَائِلِ)

أى أن مدحك يُشَرِّف مادحَك ، فكما شكرتك على نوالك بالشعر ، رَفع شعرى فيك من قدرى ، فاقتضانى الشكرُ على ذلك شُكراً آخر ، إلى غير نهاية . (فمتى أقوم بشكرك) يُوئِسُ نفسه من القيام بشكره ، ويجعله داخلاً فى الامتناع .

فهذا استفهام فيه معنى النفى ، أى ألا أقوم بشكر ذلك أبداً .

- ٥٦ -

وله أيضا :

(كأن على الجَوانِبِ منه نارًا وأَيْدِى القَوْمِ أَجْنِحةُ الفَرَاشِ)

أى على جوانب هذا السيف نار . شبه لَمْعَه إذا هُزَّ بلسان النار ، وشبه أيدى القوم فى تطايرها حوَالَى ناره بالفراش المتهافت فى النار . وقال : أجنحة الفراش ، لأن طيرانها إنما يكون بالأجنحة . وقد كان يعنى من ذلك الكلام : وأيدى

القوم فراش . ولكن أبدع بقوله : (أجنحة الفراش) ولامعنى لرواية من روى (كأن على الجاجم) لقوله : « وأيدى القوم » وإنما كان يسوغ لو قال : وهن أجنحة الفراش يعنى الجاجم . فأما كون السيوف على الجاجم كالنار وتطاير الأيدى مع ذلك، فتشبيه بعيد .

(يُدَمِّى بَعْضُ أَيدِى الخيلِ بَعْضاً وما بِعُجَايَةٍ أَثَرُ ارْتِهَاشِ)

العُجاية : عُصَيبَة فوق الحافر . والارتهاش : أن تضطرب يد الفرس، فتنعقر ذراعاه ، لأن ذلك الاضطراب يحدث عنه احتكاك . فيقول : إنما دميت أيدى هذه الخيل بعجلة الهزيمة، والازدحام فى الهرب ، لارتهاش كان أصابها . ولو وصفها بالارتهاش ، كان ذلك عيباً لها ، ولم يقتض مدحاً .

(تَقُوه حَاسِرًا فى دِرْعِ ضَرْبٍ دَقِيقِ النَّسْجِ مُلْتَهِبِ الحوَاشِى)

أقام الضرب فى تحصينه له ، مُقام دِرعٍ دقيقة النسج . ووصفها بالتهاب الحواشى ، ذهاباً إلى حِدّة ضربه .

(مِنَ المُتَمَرِّدَاتِ يُذَبُّ عَنْهَا بِرُمْحِى كُلُّ طَائِرِه الرَّشَاشِ)

أى قوسى هذه متمردة كالشيطان المَرِيد ، أُذُبُّ عنها بالطعن المُرِشّ . ولو قال : يَذُب عنها رمحى بكل طائره الرشاش ، لكان أليق ؛ لأن الرمح فاعل لطعنته . والطعنة منفعلة له . فكأنه عكس إدلالاً واتساعاً .

(عَلَيكَ إِذَا هُزِلْتَ مع اللَّيَالِى وحَوْلَكَ حين تَسْمَنُ فى هِرَاشٍ)

الهُزال هنا: مَثَل لإدبار الدُّول ، والسِّمن : مَثَلٌ لإقبالها . يقول : إذا ساعدك الزمان بالإقبال عليك تهارَشُوا فى طلب المنفعة حواليك .

وذكر الهراش تخسيساً لهم ، لأنه من فعل الكلاب . فإذا ألمت بك نوائبه فهم عليك أعوانه . والعرب تكنى بعَلَى على خلاف ما تكنى معه بمع .

فع واللام : للموالاة . وعلى : للخذلان والمعاداة . قال تعالى : ﴿لها ما كَسَبَتْ وعليها ما اكْتَسَبَتْ﴾ ومعنى هذا البيت متداوَل كثير . ومنه قول بعض المُحْدَثين :

وكنتَ أُخَىَّ يا أخَا الزمانِ فلمَّا نبا صرتَ حَرْباً عَوانَا

وتقدير البيت : عليك مع الليالى إذا هَزلت ، وحولك فى هراش إذا سمنت أى أنهم هم كذلك .

- ٥٧ -

وله أيضا :

(خَلاَ وَفيهِ أهلٌ وأَوْحَشَنَا وَفيهِ صِرْمٌ مُرَوِّحٌ إبِلَهْ)

الصِّرم : الجماعة من الناس،أى أنه خال عندى وإن كان فيه أهل، لأنهم غير أحبائى الذين عَهِدت بها ، وهو موحش وإن كان فيه صِرْم من الناس ، لعدم أولئك الأحباء . ويقويه بعد هذا :

(لو خُلِط المِسْكُ والعَبيرُبها ولستَ فيها لَخِلتُها تَفِلَهْ)

وإنما تحسُن الأمـكنه فىعيون المحبِّين باحْتيازِها المحبوبين .وقوله :(وفيه أهل) : جملة فى موضع الحال . وكذلك قوله : (وفيه صِرم) جملة فى موضع الحال أيضـاً ، فإذا رَدَدْتَها إلى الإفراد ، فكأنه قال : خلا عامراً ، وأوحشنا آهلاً .

(يَنْصُرُها الغَيثُ وهىَ ظَامِئةٌ إلى سِوَاهُ وسُحْبُها هَطِلَهْ)

ينصرها : يُسْقِيها . قال :

مَنْ كان أخطَـأهُ الربيعُ فإنَّما نُصِرَ الحجازُ بغَيثِ عبد الواحِدِ

وإنما قيل فى المكان المسقىّ : نصره الغيث لأن المكان فى غالب الأمر إنما يُهْجَر لجَدْبه . فذلك الهجر خَذْلٌ له . فإذا سُقِى أَعْشبَ وأَخْصب فاستدعى مَنْ رحل عنه ، فكأنه نُصِر بالمعاودة ، كما خُذِل بالتّرك ، ولذلك دُعِى للدار بالسُّقيا ، لتخصِبَ فيعاودَها من حلّ بها ، فيعودَ عامراً ما كان منها غامراً .

يقول : الدار ظامئة إلى من رَحَل عنها ، إلاّ إلى الغيث الذى ينصُرها هــــذا وسحبها هَطِلة ، ليكون ذلك أبلغ فى استغراب الظمأ . وما أشبه هذا بقوله :

إذا أردت كُميتَ اللون صافيةً وجدتُها وحبيبُ النفسِ مَفقودُ

قوله : (وهى ظامئة) : جملة فى موضع الحال . وكذلك (وسحبها هَطِلَة) والسُّحب : جمع سَحاب لاجمع سحابة لأن (فَعَالة) لاتكسَّر على فُعُل . إنما جمع سحابة : سحائب .

(واحَرباَ منك يا جِدَايتها مُقيمةً فاعْلَمى ومُرْتَحِــلَهْ)

الجِدَاية : الظبية . أى:واحربا منك ياظبية هذه الدار . أقمتِ أو ارتحلتِ ، لأنك إن رحلت عَدمْتُكَ ، ولا خفاء بحال من عَدِم حبيبه . وإن أقمتِ مُنِعتِ منىَّ وقُصِرت عنىّ . فمُقامك وارتحالك سواء ، كلاهما عائد علىّ بالحَرَب ، وهو الهُلْك . ومثله قول الآخرَ :

(والقريب الممنوعُ منك بعيدُ) . وقوله : (منكِ) : أى من خَبلِك ومن أجْلك . واستعمل (وَا) هنا دون (يا) . لأنه أشهر أعلام التفجّع والنُّدبَة .

(وَبيضُ غِلمانه كَنَائِلِهِ أولُ مَحْمُولِ سَيْبِهِ الحَمَلَهْ)

جعلهم محمولين حاملين لأنهم إذا حملوا إلى المعطين البدر والثياب كانوا

فى جملة الهبات فكأنهم حملوا أنفسهم مع حملهم الهبات . وقوله : (أول محمول سيبه) قدمهم فى السيب لأنهم أشرف أنواعه . وقال : (بيض غلمانه) يعنى : الصقلب والروم لأنهم أثمن من الزنج والنوْب وأحسن فى الأعين وهذا البيت كقوله :

كأنَّ عطياتِ الحُسَين عساكرٌ ففيها العِبِدَّى والمُطَهَّمة الجُرْدُ

(وراكبَ الهَوْلِ لامُفَتِّرهُ لَو كانَ لِلهولِ مَحزِمٌ هزَلَهْ)

أى أنه يركب الهول دائماً ، لايُفتِره ولا يُرِيحه ، فلو تجسم الهول ، فكان موكوباً يُشَد عليه الحزام ، لَهَزل ذلك المَحزِمَ ، بدوام الركوب وملازمته ، وخصَّ المحْزِم دون طوائف الجسم ، لأنه موضع الركوب والهمْز .

(قَدْ هَذَّبَتْ فَهمَه الفَقَاهَةُ لِى ، وهَذَّبَتْ شِعْرِى الفَصَاحةُ لَهْ)

والفقاهة : الفَهْم . تقول العرب : ماله فقاهة ولا فصاحة .

يقول : فقاهته فى الشعر قد هذبت فهمَه لى ، باستحسانه ما أنقح من شعرى فيه ، حتى ما يستحسن غيره من الشعر المتعسّف المَخْشُوبِ . وهذبت فصاحته شعرى له ، أى لما علمت أنه فصيح ، نقّيت ألفاظ شعرى واستجدتها ، فكانت فصاحته هى التى هذبت شعرى .

(فَأَكْبَرُوا فِعلَهُ وأَصْغَرَهُ أكبرُ من فِعْلِهِ الّذِى فَعَلَهْ)

أى أعظموا فعل أبى العشائر ، وأصغره هُوَ ، أى استَصْغَره ، لأنه صغير بالإضافة إليه ، كما هو عظيم بالإضافة إليهم . ثم قطع فقال : « أكبر من فعله الذى فعله » : أى الفاعل أكبر من الفعل المنفصِل عنه .

(فصرتُ كالسَّيفِ حامدًا يَدَهُ مايَحْمَدُ السَّيفُ كلَّ مَنْ حَمَلَهْ)

أى، أجاد الفهم عنى ، كما أجاد الضرب بالسيف ،فأنا كسيفه فى أنى أحمد فهمه ، كما يحمد السيف يده . إلا أن السيف يَحمد منه جُسْمانياً وهو يده . وإنما أحمد منه نفسانياً وهو فَهْمُهُ .

(مايحمد السيف كل من حمله) : أى ليس كل حامل له يجيد الضرب به ، فيكون حامداً لكل من حملَه . وكذلك أنا ، ليس كل أحد يفهم شعرى ، فأحمدَهم كما حمِدت هذا الممدوح .

- ٥٨ -

وله ايضا :

(أعيدُوا صَبَاحِي فَهْوَ عِنْدَ الكَواعبِ
ورُدُّوا رُقَادِي فهو لَحْظُ الحَبَائِبِ)

إن شئت قلت : طال علىّ الليل فلاصباح ، وأسهرنى الحزن فلا رُقاد ، وكل ذلك بمغِيب من أحببت . فيقول : أعيدوا الكواعِب إلىّ ، فإذا كان ذلك قصُرَ ليلى ، وجاء الصباح . وردُّوا الحبائب إلىّ ، فإن رُقادى عندهن ، فإذا عُدْنَ عاودنى نومى .

وإن شئتَ قلت : غاب عنه الصباح بمغِيبِ الكواعبَ ، لأن الدنيا تُظلِم على المحزون ، فإذا أراد أن يُردّ ذلك عليه ، استدعى أن يُرَد إليه الرُّقاد . لأنه قد كان يَرى الخيالَ فيه وفى الخيال أُنس فلما عدم الرقاد ، عدم الخيال الذى كان يأنس به .

وقوله : (فهو لحظ الحبائب) أى أن سبب رُقادى نظرى إليهن ، فإذا لم ألحظْهن سهرتُ غَرَضاً إليهن .

(أَرَاكِ ظَنَنْتِ السِّلْكَ جِسْمِى فَعُقْتِهِ
عليكِ بِدُرٍّ عن لِقاءِ التَّرَائِبِ)

السلك : الخيط . يقول : عهدت جسمى ناحلاً ؛ فلما رأيت السلك حسبته إياه؛ ومن عادتك البخلُ بالعناق . فَحَجَزْتِ بين السِّلْكِ وبين ترائبك بنظام الدُّرّ عليه ، جرياً على ما اعتدتيه من البخل .

وقوله : (عليكِ) : ظرف فى موضع الحال .

(إليكِ فإنِّى لستُ ممن إذا اتَّقَى عِضَاضَ الأَفَاعِى نَامَ فوقَ العَقَارِبِ)

ضَرُّ العقرب ، أسهل من ضَرِّ الأفاعى ، فهو يزجُر عاذلته على اقتحام المهالك ، والاهتجام على صِعاب المسالك ، فيقول لها : إليكِ ؛ فإنى لا أصبرُ على الصغير من الأذى ، فَرَقًا من العظيم ؛ وإن كان أيسر من الموت ؛ كما أن سمّ العقارب أخفُّ من سمِّ الأفاعى ؛ وأبلغ من هذا قولُه :

* إن المنية عند الذلِّ قِنْدِيدُ *

(أَتَانِى وعيدُ الأَدْعِيَاءِ وأنَّهم أَعَدُّوا لى السودان فى كَفْرِ عاقِبِ)

(كَفْرِ عاقب) : موضع بالشام ، وأرصد له فيه قوم يريدون إهلاكه .
(والأدعياء) : ناس ادَّعَوْا إلى علىّ عليه السلام .

(ولو صَدَقُوا فى جَدِّهم لَحَذِرْتُهُمْ فهل فِيَّ وحدى قولُهم غير كاذبِ)

أى لو صدق هؤلاء الأدعياء المُوعِدُون لى ، فى ادِّعائهم قُرْبَى علىٍّ عليه السلام ، لحذِرتُهم لشرفهم ، ولكنهم يكذبون فى ذلك ، فهل فِيَّ وحدى يكون قولهم صادقاً ، كما يكونون فى نسبهم ، كذلك يكونون فى تَوَعُّدهم إيّاى .

(بأىِّ بلادٍ لم أُجُرَّ ذوائبى وأىُّ مكانٍ لم تَطأْهُ رَكائِبى)

أما جَرُّه ذوائبه : فكناية عن الغَزَل والتَّغَنِّى ، كقول الآخر :

أيَّامَ أسحبُ لمتى عقد المَلاَ وأَغُضُ كلَّ مُرَجَّلٍ [رَيَّانِ

وأما وطء ركائبه المكان ، فكناية عن الغزو ، يقول : كلُّ مكان قد شاهدت إما طالبَ غَزَلٍ ، أو غَازِىَ أَمَلٍ .

(كَأَن رَحِيلِى كانَ مِن كَفِّ طاهرٍ فَاثْبَتَ كُورى فى ظُهُور المَوَاهِبِ)

أى أن مواهب هذا الممدوح مُشَرِّقَةٌ ومُغَرِّبة . فكأن رحيلى كان من كَفِّه ، وهى مكانُ العطايا ، فأثْبَتَ كُورى فى ظهور مَواهبه فهى تُشَرِّق بى وتُغَرِّب .

ووجه اتصال هذا البيت بالذى قبله ، أى لم أدع موضعاً إلا أتيته ، كما أن مواهب طاهر لم تدع موضعاً إلا أَتَتْهُ . وإنما صح لى ذلك بإثباته رحلى على ظهور مواهبه السيَّارة .

وجعل للمواهب ظهوراً ، لذكره الكُور الذى موضعه الظَّهر . وهذا مجاز . إذ لا ظهر لمواهبه ولا بطن .

(فَلم يَبْق خَلْقٌ لم يَرِدْنَ فِناءَهُ وَهُنَّ له شِرْبٌ وُرُودَ المشارِبِ)

يُحقِّق تشريقُ مواهبه وتغريبُها ، وأخذها من الدنيا فى كل أفق وقُطْر .

فيقول : لم يبق خَلْقٌ إلا وقد وردت هبات طاهر فناءه ؛ إما قادماً بها من لدُنه ، وإما محمولة إليه . والخلق هنا : بمعنى المخلوق ، إذ لا معنى للمصدر فى هذا الموضع .

(وهُنَّ له شِرْبٌ وُرُودَ المشارِبِ) : أى وهى وإن كانت مشارب للآملين ، فإنها تطلب الآملين الزُّوار ، مع طلبهم إياها طلب العِطاش للمشارب . وقوله :

(وهُنَّ له شِرْبٌ) : يتعجب من أنها لهم شرب ، وهى تطلبهم طلبَ الظمآن للماء . وهذا نحو قول أبى تمام :

فأضحتَ عطاياهُ نَوازعَ شُرَّدًا   يُسائلْنَ فى الآفاقِ عن كلِّ سائِل

إلاّ أنَّ بيتَ أبى الطيب أغرب . وتلخيصه : فلم يبق خَلْق لم يَرِدن فناءه وُرُود المشارب ، على أنهن شِرْب لذلك الخَلْق .

(فقد غَيَّبَ الشُّهَّادَ عن كل موطنٍ   وردَّ إلى أوطانه كل غائبِ)

أى دعا صِيتهُ فى السَّخاء الناس حتى غابُوا عن أوطانهم ، مسافرين إليه . ثم أغنى هؤلاء السَّفرْ ؛ فردهم إلى أوطانهم ، وكفاهم عن السَّفرْ إلى غيره ، بما أفادهم إياه . قال بعض النُّـقَاد : وهذا كقول أبى نُواس :

وإذا المَطِىُّ بنا بلغْن محمداً   فظهورُهنَّ على الرِّجال حَرَامُ

وليس عندك مثلَه ، لأن المتنـبّى قال : أغنى هذا المدوحُ قُصَّادَه ، ورَدَّهم إلى أوطانهم ، فـكفاهُم السَّفَر . وأبو نواس قال : إذا بَلَغَتِ المطىُّ بنا هذا الأمير ، حَرَّمنا ظهورها على الرِّجال ؛ أى لم نركبْها أبداً ؛ ولا امتهناها ، جزاء لها على تبليغها إيانا أمَلنا من لقائه . ولم يذكُر عَطاء ؛ ولا كِفاية سَفَر ، ألا تراه يقول بعد هذا ، مُبيِّنا لعلة تحريم ظهورها على الرجال :

قرَّبنَنَا من خَيْر مَن وَطِئ الحَصَى   فَلَهـا علينَا حُرْمَةٌ وذِمَامُ

(أُنَاسٌ إذا لاَقَوا عِدًى فَـكأنَّما   سِلاحُ الذى لاَقَوْا غُبارُ السَّلاَهِبِ)

السَّلاهب : الطِّوال من الخيل وغيرها . وإن شئت قلت : سلاح أعاديهم بمنزلة غُبار الخيل فى أنه لا يعبأ به . وخَصَّ السَّلَاهِبَ ، لأن الطوال أخفُّ ، فغبارها أخف .

وإن شئت قلت : إن سلاح من تقيهم إنما هو إثارة الغبار بالهرب والانهزام ، وجعل ذلك سلاحهم ، لأنه هو الذى يقيهم كما يقى السلاح غيرهم ، أى ذلك الذى يقوم لهم مقام السلاح .

وإن شئت قلت : كان السلاح هنا الدروعَ والجُنَن أى هى عليهم أوهَى نسْجاً من الغُبار تخرِقها الرِّماح ، كقوله فى صفة الرماح :

قَواضٍ قواضٍ نسج دَاودَ عِنْدها   إذا وَقَعَتْ فيه كَنَسْجِ الخَدَرْنِق

الخَدَرْنِق : العنكبوت ؛ شبه الدروع فى خَرْق الرماح لها ، وسهولة ذلك منها عليها ، ببيت العنكبوت .

(رَمَوْا بِنَواصِيها القِسِيَّ فَجِئْنَها   دَوامِيَ الهَوادِي سَالماتِ الجَوانِبِ)

أى رَمَوْا نواصِيَ هذه الخيل بالقِسِيّ ، فعكس ، (ومثله كثير) ؛ فجاءت دَوامِيَ الهوادِى ، وهى الأعناق والمقَاوِم ، لإقدامها . وسلمت جوانبها ، لأنها لم تستعرِض ولم تَسْتَدبِر . وكَنَى بالجوانب هنا عن الأعْجَاز والأعْطَاف جميعاً ، وهم يصفون المُقْدِم بأن جُرحه فى أمام جسمه ، والمُدْبِر بخلافه ، كقول القُطامِيّ :

ليست تجرَّحُ فُرَّاراً ظهورُهُمُ   وفى النحور كُلومٌ ذات أَبْلَادِ

وقوله : (دوامى الهوادى) : أراد دَوَامِيَ ، فسكن اضطراراً .

(يَقولُون تأثيرُ الكواكبِ فى الوَرَى

فَمَا بَالُه تأثيرُهُ فى الكواكبِ)

أثّر فيها باعتلائه عليها . يقول : أثّر هو فى الكواكب ؛ وهو من الورى فكيف زعموا أن الكواكب تؤثّر فى الوَرَى . يذهب إلى تكذيب المنجّمين ، فيقع فيما هو أوحش وأفحش من قولهم ، وهو قوله : إن هذا الممدوح أثّرَ فى النجوم بفضله عليها . وهذا نحو قوله :

فتبًّا لدِينِ عَبيدِ النُّجُومِ   وَمَنْ يدَّعِي أنَّها تَفْعَلُ
وَقَدْ عَرفتكَ فما بَالُها   تَرَاكَ تَرَاهَا ولا تَنْزِلُ

(يرى أنَ مَا مَا بانَ مِنكَ لضاربٍ   بأَقْتَلَ ممَّا بانَ مِنْكَ لِعائِبِ)

أى يرى أنه ليس الذى بان منك لضارب ، بأقتل مِمّا بان منك لعائب . أى العيب أقْتلُ من الضَّرْب . ففى (أن) مُضْمَر على شَرِيطة التفسير ، وما الأولى نفى ، والثانية بمعنى الذىّ والجلة بكلّيتها تفسير المضمر على شريطة التفسير .

(حَمَلْتُ إليه من لِسَانى حَدِيقةً
سَقَاهَا الحِجَا سَقْىَ الرياض السَّحائبِ)

الحديقة : الروضة . شَبَّه القصيدة بها فى حسنها ، إلاّ أن الذى قام لهـا مَقام السحاب للحديقة ، إنما هو عقلىّ ، بأنه سقاها بفكره وبأمله ، سَقىَ السحابِ الرياض ، كقول أبى تمام فى صفة الشِّعْر :

ولكنّه صوبُ العُقُولِ إذا انْجَلَتْ سَحائبُ منه أعْقِبتْ بِسَحَائِبِ

وأراد سَقْىَ السحابِ الرياضَ ففصل بين المضافين اضطراراً .

- ٥٩ -

وله أيضا :

(كتمتُ حبكَ حتى عنكَ تكرمةً ثم استوى فيك إسرارى وإعلانى)

أى كَتمتُ حُبِّى عن الأنام ، حتى عَنْكَ وإنما كان كتمانه تكرمة لك ، ثم غلبنى ذلك فاستوى سِرِّى وجَهْرى أى أظهرت منه مثل ما كنت أخفى .

(كَأنَّه زَادَ حَتَّى فَاضَ عَنْ جَسَدِى
فَصَارَ سُقْمِى بِهِ فى جِسْمِ كِتْمَانِى)

أى كأن الحب زاد حتى سَقِمتُ ، ففاض بَعضُ سُقْمى إلى جسم كتمانى ، فرض الكتمان ، وَبَطل ، فظهرَ الحبّ . وهذا اعتذار منه إلى محبوبه فى إعلانه بحبه . أى إنما كان ذلك لهذا . واستعار للكتمان جِسماً ، وان كان عَرَضاً ، لأنه ذكر السُّقم ، والسُّقم عَرَض ، والعرض لابد له من محل .

وان شئت قلت : الهاء فى كأنه راجعة إلى الكتمان . وإن لم يَجْر له ذكر، كقوله : من كَذَبَ كان شرا ؛ أى كان الكذب شرا له . حكاه سيبويه . ومثله كثير فى التنزيل وغيره . فيكون المعنى على هذا ، كأن الكتمان فاض عن جسدى فتغَشّى الجسم ؛ واستتر السقم الحالُّ فيه باستتار جسمى ، لأنه إذا استتر الجوهرُ الحالُّ فيه العَرَض ، استتر العَرَض فى أغلب الأمر . ولما قال إن الكتمان مشتمل على الجسم كاشتمال الثوب ، استجاز أن يجعل الكتمانَ جسماً مؤلَّفا ، وقد خفى جسمه وظهر مافاض عليه من الكتمان، فكأن السُّقم فى جسم الكتمان .

- ٦٠ -

وله ايضا :

(وَلَقَدْ عَلِمنَا أنَّنَا سَنُطِيعُهُ   لَمَّا عَلِمنَا أنَّنَا لانخْلُدُ)

أى علمنا أننا فى طاعة الفراق والانقياد له ، لتيقننا الموت ، الذى هو أشد أنواع الفراق ، لأنه اضطرارىّ الوجود، وغيره من أنواع الفراق ممكنٌ لا واجِب، وكأنه قال : نحن متيقّنون لوقوعه ، لعلمنا أننا نموت . وذكر الطاعة ، لأن الامتناع من الموت ممتنع .

ومن ظريف هذا البيت : إيجابه إطاعة الجنس ، وجعله علة ذلك إطاعة النوع الضرورىّ ؛ لأن النوع قابل لاسم الجنس . وهذا منه تفلسف منطقىّ بديع .

— ٦١ —

وله ايضا :

(أعْلَى قَنَاةِ الْحُسين أوسطُها   فيه وأعْلَى الكَمِيِّ رِجْلَاهُ)

(فيه) : أى فى المأزق . ومعناه : أنه لما طعن بها الفارس تحنّت ، وتقوّست - أحد طرفيها فى المطعن والآخر فى يد الطاعن ، فيعتمد عليه ، فصار أوسطها أعلى أنبوب فيها . (وأعلى الكمىِّ رجلاه) أى يطعن الفارس فيخر مكبوًّا : أعلاه رجلاهُ وأسفله رأسه .

(تُنْشِدُ أثْوابُنَا مَدائِحَهُ بِأَلْسُنٍ مَالَهُنَّ أَفْوَاهُ)

أى تدل من رآها أنا قد مدحناه ، فأخذنا مدحه ، فتخبر عن جودة المدح بجودتها ، إذ لا يكافئ الممدوحُ الناقد بالجيِّد إلا على الجيِّد .

وقيل: عَنى أنها جُدُد ، فهى تُقَعْقِع . وهذا لا يلتفت إليه .

(إذا مَرَرْنَا على الأصم بها أَغْنَتْه عَن مِسْمَعَيْهِ عَيْنَاهُ)

(بها) : أى بالحُلل . يقول : إذا رأى الأصمُّ علينا هذه الحلل التى كساناها أبو العشائر ، عَلِمَ أننا داعون له من أجلها ، وشاكرون عليها ، لِمَا يُرى من بَهائِهَا وسَنَائِها وإن لم يسمع شكرنا إياه ، ولا دعاؤنا له . فعيانه موثوقٌ به ، بل هو أشد إعراباً عن ذلك من اللسان . لأن اللسان ربما حذف إما اختصاراً وإما الُكْنة . ونحو هذا البيت قوله هو :

خَلَقَتْ صفاتُك فى العيون كلاَمَه كالخَطِّ يَملأُ مسْمَعَى من أبْصَرا

ونظير البيت الأول قول الأسود ، وهو نُصَيْب :

فعاجُوا فأثنوا بالذى أنت أهله ولو سَكَتُوا أَثْنَتْ عليك الحقائبُ

وقال قوم لم يكْنِك يا أبا العشائر ، فقال :

(قالُوا أَلَمْ تَكْنِه فَقُلْتُ لَهُمْ ذَلِكَ عِيٌّ إذَا وَصَفْنَاه)

قالوا (ألم تكنه): يُخَرّج ظاهره على أنه قد كنّاه ، لأنك إذا قلت مُنكراً : ألم تقم ؟ فمعناه : قد فعلتَ القيام . وإذا قلت أقُمْتَ ، لم يكن فيه

إثبات أنه قام ، وإنما هو إنكار أمر القيام . والمتنبي لم يُكَنِ أبا العشائر في القطعة التي قبل هذه . وإنما قال له هؤلاء المطالبون المتتبعون لزَلَله : (ألم تَكْنِه) ؟ وهم مستفهمون لا منكرون ، فلم يشعر هو لمكرهم ، فاعترف لهم ، فقال : لا . ثم أعلم ماحاوله هؤلاء الحاسِدُون منه ، فقال هذا الشعر معتذراً ، وحكى ماواجَهُوهُ من لفظ الاستفهام .

(لايَتَوَقَّى أبُو العَشَائِرِ مِنْ   لَبْسِ مَعَانِي الوَرَى بِمَعْنَاهُ)

أى إن صفاته مُغنية عن تسميته وَتَكْنِيَتِه ، لأنه منفرد بها لا يُشْرَكُ (فيها) إذ هي صفات لا يُحلَّى بها غيره . فصارت كالاسم ، بل هي أشد اختصاصاً له من الاسم والكنية ، لأن حُسَيْناً وأبا العشائر كثير . والصفاتُ التي لأبي العشائر هذا ، لا تَلْحَق إلا إياه . فصارت لذاته كالحدِّ للنوع المحدود. ولذلك سَمَّى تكنيته مع وصفه إياه عِيًّا .

— ٦٢ —

وله ايضا :

(كَيْفَ تَرْثِي التي تَرَى كُلَّ جَفْنٍ   رَاءَهَا غَيْرَ جَفْنِها غَيْرَ رَاقِ)

أى لا يسعها الرثاء للباكين ، لأنه ليس يبكي من هجرها واحد ، بل كل واحد وإنما كانت ترثى لو انفردَ باكٍ بالبكاء ، فأما جميع الباكين من هجرها ، فلا يسعهم رثاؤها لهم . وإن شئت قلت : إن كل جفن رآها بكى من هجرها إلا جَفْنَها وحدها ، فإنه لا يبكي ، لأنها لا تهجره . ويقَوِّى ذلك بعد هذا :

(أنْتِ مِنَّا فَتَنْتِ نَفْسَكِ لَكِنَّـ   كِ عُوفِيتِ مِنْ ضَنىً واشْتِيَاقِ)

فهي لاترثي لذلك من غيرها ؛ لأنها مُعفاة منه . وتقدير البيت : كيف ترثي التي ترى كلَّ جفن رآها رَاقٍ إلا جَفْنَهَا (فغيرَ جَفْنها) استثناء (وغير راق) حال . وإذا رَدَدْت غير راق إلى الاسم المحصَّل فكأنك قلت : كيف

ترثى التى ترى كل جفن رآها باكيًا، لأن (غير راق) معناه : باكٍ . كما أنك إذا قلت : زيد غير عالم . فغير عالم كقولك : جاهل وأراد : راقئًا، فأبدل إبدالاً صحيحًا، للوصل.

(لَوْ عَدَا عَنْكِ غَيْرَ هَجْرِكِ بُعْدٌ   لأَرَارَ الرَّسِيمُ مُخَّ المَنَاقِ)

عدا : صرف . وأرارِ : ذاد . والرسيم : ضرب من السير . والمناق : الإبل السّمان . أى لو كان المانعُ عنك بعداً لا هَجراً ، لَسِرْنا دَأْبًا حتى تُهْزَلَ إبلنا، فيذوب مُخُّها ، فاكتفى بذكر المُسَبَّبِ عن ذكر السَّبَب. ومثله قوله:

أَبْعَدُ نأى المليحة البخَلُ   فى البُعْدِ مالا تَكَلَّفُ الإبلُ

(وَلَسِرْنَا وَلَوْ وَصَلْنَا عَلَيْها   مِثْلَ أَنفَاسِنَا عَلَى الأَرْمَاقِ)

الأرماق : البقايا . أى سرنا إليك على هذه الإبل التى كانت تعود أرْماقا ونحن كالأنفاس عليها خِفةً ، لما لَحِقَنَا من النُّحول : كقوله :

بَرَتْنِي السُّرَى بَرْىَ المُدَى فَرَدَدْنَنِي
أَخَفَّ على المركُوبِ من نَفَسِى جِرْمِى

(فمثلَ أنفاسنا) : حال من الضمير الذى فى وصلنا (وعلى الأرماق) ظرف متعلق بأنفاسنا . وإن شئت قلت : ولو وصلنا على هذه الإبل فقد استكرهت أرماقُنا حمل أنفاسنا لذلك .

(كاثَرَتْ نَائِلَ الأميرِ مِنَ الما   لِ بما نَوَّلَتْ مِنَ الإِيرَاقِ)

الإيراق : التَّجنيب والمنْع . يقول : كاثرت عطاء الأمير بمنعها . يصفها بكثرة ذلك منها . فكأنه قال : عارضَتْ جُودَهُ ببخلها ، ليكون أبعث على حبها، كقول العرب : (تَمَنَّعِى أَشْهَى لَكِ) . وقد يكون أنه وصفها بالعفة ، كما وصف الأمير بالكرم ؛ أى أن عِفتَها فى نوع العِفة ، ككرم الأمير فى نوع الكرم .

(يابني الحارث بن لقمان لاتعـ ـدمكمُ في الوغى متون العتاق)

في الوغى اختصاص حسن . يصفهم بالشجاعة إذ لا يُدْمِنُون ركوب الخيل أبدا لإراضتها وسياستها .

(طاعنُ الطَّعْنَةِ الّتي تَطْعَنُ الفَيْـ ـلَقَ بالذُّعْرِ والدَّمِ المُهْرَاقِ)

الفَيلَق : الكتيبةُ . والذُّعْر : الفزع . أي أنها طعنة تملأ صدور الكتيبة كلها ذُعراً ، وإن لم تكن تقع الطعنةُ إلا بواحد . فكأنه بذلك قد طعن الفَيْلَق كله ، فيفرُّون .

(هَمُّهُ في ذَوِي الأَسِنَّةِ لا فِيـ ـهَا وأطرافُها له كالنِّطَاقِ)

أي حَفَّت به الأسنة ، حتى صارت له كالنِّطاق ، فَهَمُّهُ حينئذ في قتل ذوي الأسنة ؛ لهوانها عليه ، وحقارتها لديه .

وقوله : (وأطرافها له كالنطاق) : جملة في موضع الحال ، يستغرب ذلك ، وهذه حاله . وشبهه بعض النقاد بقول أبي تمام :

إن الأسودَ أسود الغابِ همَّتُها يوم الكريهةِ في المسلوبِ لا السَّلَبِ

وليس مثله ، لأن أبا تمام نفى عن الممدوح حُبَّ السَّلَب وأبو الطيب ذكر أن أبا العشائر لا يعبأ بالأسنة المحدِقة به لشجاعته ، ولم يذكر حُبَّ سَلَب ولا ضِدّه ، وقال : (وأطرافها) ولم يقل (وهي) ، لأن الأسنة لم تخالط لحمه بَعْدُ ، وإنما هي على ظاهر جسمه ، فأطرافها هي المحدقة به لا جُمْلَتها .

(جَاعِلٍ دِرْعَه مَنِيَّتَهُ إنْ لَمْ يكن دُونَها من العارِ وَاقِ)

أي يجعل درعه منيته التي تقيه العار ، إذا لم يجد غير الموت واقياً . وكان أظهر من ذلك — لو اتزن له — أن يقول : جاعل منيته دِرْعه .

(والأَسَى قَبلَ فُرقَةِ الرُّوحِ عَجزٌ   والأَسَى لا يكُون بَعْدَ الفِراقِ)

يُسَفِّه رأى من شحَّ بنفسه وجَبُن . فيقول : لا معنى للأسى قبل فرقة الروح ، لأنه فى حد الوجود ، فإذا حل به العَدَمُ وأزالَ الوجود فلا أسى هنالك ؛ فمن الحُكْم ألا يكون أسىً . وقيل : الأسى لا يكون بعد الفراق، وإنما هو قبل الفُرقة ، فعلى هذا يكون صدر البيت تسفيهاً لرأى المشفِق على الذات ، وعجزُه اعتذار له .

(لَيْسَ قَوْلِى فى شَمْسِ فِعْلِكَ كالشَّمْسِ وَلَكنْ فى الشمس كالإشْرَاقِ)

جعل لفعله شمساً : استعارة لحسن أفعاله وإنارتها . فيقول : ليس ثنائى عليك فى نوع الثناء ؛ مثلَ فعلك فى نوع الفعل ، ولكن فعلك شمس وثنائى ، إشراقها ، أى أن ثنائى يَنْشُر فعلا ويُبَيِّنه كما يُظهر الإشراقُ جوهَر الشمس. وكَنَى عن فعله بالشمس ، وعن ثنائه بالإشراق ، لأن الشمس أشرقُ من الإشراق ؛ من حيث كانت جوهراً والإشراقُ عَرَضٌ فيها .

— ٦٣ —

وله ايضا :

(وَلَو لَمْ أَخَفْ غَيْرَ أَعْدَائِهِ   عَلَيْهِ لَبَشَّرتُهُ بالخُلُودِ)

غير أعدائه : الحِمام الطبيعى . فيقول : لو لم أَخَفْ عليه الموت إلا من قبل أعدائه لتيقنت أنه خالد ؛ لقصور عِداهُ عنه . وهو نحو قول جرير :

زعم الفرزدَق أن سيقتل مِربعا   أبشر بطول سلامة يامِرْبَعُ

إلاَّ أن قول أبى الطيِّب أبلغ ، لأن جريراً بَشَّر مِرَبعا بطول السلامة ، ولم يفصح بالخلود . وأبو الطيب أراد أن يبشّره بالخلود .

وله ايضا :

(قَطَّعْتِ ذَيَّالكِ الخُمَار بِسَكْرَةٍ وأدَرْتِ من خَمْرِ الفِراق كُئُوسَا)

الخُمار : أخف من السكر . فيقول : كنت أشكو هجرَكِ مع القرب ، فأتبعنِي بَيْنك ، وهو أشد من الهجر الذى كان مع دُنوِّ الدار ، وقرب المزار. وكثيراً ما يستعمل هذا النحو ، أعنى أنه يستصغر العظائم ، بإضافتها إلى ما هو أعظم منها ، كقوله :

وَقَدْ كنتُ قَبْلَ الموتِ أسْتَعظِمُ النَّوى
فقد صارت الصُّغْرى التى كانت العُظْمى

وكقوله :

ولم يَسْلها إلا المنايا وإنما أَجَلُّ من السُّقمِ الذى أذْهَب السُّقما

(وَبِه يُضَنّ عَلَى البرية لاَبِهَا . وعَلَيْه مِنْها لاَعَلَيْهِ يُوسَى)

أى يَضِنُّ على البرية أن يُعدّ منها وإن كان من نَوْعها ، لأنه أشرف منها جوهراً وفضلاً . فكأنه إنما يُعَدّ فى نوع آخر غير نوع الإنسان ، ولا يُنْفَس بالبرية عليه ، لأن خطره أنفس من خطرها ، فتقديره : لاَبها عَلَيه . « فحذف عليه » للعلم بها ، وكذلك يُحْزَن عليه منها : أى يُحْزن على أن يُعَدّ منها ، فيُبْخَسَ حقه ، ولا يُحْزَن عليها من كونه معدوداً فيها بالنوعية ، لأنها دونه فى القَدْر والخَطَر .

وإن شئت قلت : إنه إنما يُحْزَن عليه من بينهم إذا هلك ، لا عليها إذا هلكت ، لعجز غَنائها عن غنائه .

فَمِنْ على القول الأول للعلة أى مِنْ أجلها ، وعلى القول الثانى بمعنى مِنْ بَيْنِها .

وأراد : (يُؤْسَى) ؛ فأبدل إبدالاً صحيحاً للرِّدْف ، فى قول أبى الحسن .
وهو تخفيفٌ قياسىٌّ فى قول أبى عثمان ؛ لأنه يرى الرِّدف بالتخفيف القياسىّ
معاملة للفظ .

— ٦٥ —

وله ايضا :

(مرَتْكَ ابنَ إبراهيمَ صافيةُ الخَمْرِ
فَهُنِّئْتَها من شارِبٍ مُسْكِرِ السُّكْرِ)

أى أنت سكران صاحياً بأريحيّة خلتك ؛ فإذا شربتَ الخمر أسكرتها بفضل
سكر أريحيتك . وقال مُسْكِرِ السكرِ ولم يقل مُسْكِرِ الخمرِ لأن إسكاره
السكر أبلغ من إسكاره الخمر . وهو أذهب فى الشعر وأغرب ؛ لأن العَرَض
لا يَحْمِلُ عَرَضاً ؛ فتفهمْه . وقال : مرَتْك ؛ وإنما هو مَرَأتْك ؛ فأبدل إبدالاً
صحيحاً ، كقوله : (فارْعَىْ فزارة لا هَنَاكِ المَرْتعُ) .

— ٦٦ —

وله ايضا :

(يا أُختَ مُعْتَنِقِ الفَوَارِسِ فى الوَغَى
لأَخُوكِ ثَمَّ أرقُّ منكِ وأرحَمُ)
(يرنُو إليكِ مَعَ العَفَافِ وَعندَهُ أنَّ المجوسَ تُصيبُ فِيماَ تحكمُ)

قيل : يخاطب محبوبته . جعلها أختاً تعففاً عنها ، وتنزهاً عن الفجور بها .
(لَأَخوكِ) : يعنى نفسه . (ثَمَّ) : أىْ فى موضع القتالْ . و (اعتناق
الفوارس) أرق منك فى الهوى وأرحم ، ذلك على قساوته فى الحرب ، يرنو
إليك مع العفاف . . . البيت .

أى أن أخاك وهو يعنى نفسه ينظر إليك فيعجبه حسنُكِ ، إلا أنه يَعِفُّ تشرفًا لا تديناً ، وعنده مع عِفته ، أن المجوس تُصيب فى حكمها الذى هو نكاح الأُخوات .

وإن شئت قلت : إنه يتغزل بأخت رجل شجاع ، فيقول لها : أخوك على شدته وبَسَالته ، أرقُّ منك وأرحم ، ثم أخبر عنه أنه يرنو إليها مع العَفاف الذى تُوجبه منافرة الطبيعة لنكاح الأخوات ، فيذُم نفسه على ذلك العفاف الطبيعىّ . وعنده أن المجوسَ تصيب فى نكاح الأخوات .

وقد قيل فى هذين البيتين قول لا ينبغى أن يُلتفت إليه لِسُخْفِه .

وقولُه المجوس : أراد المجوسيين ، فلذلك أدخل عليه الألف واللام . ولو عَنَى القبيلة لقال إنَّ مَجُوسَ كقوله :

أَحَارِ أُرِيكَ بَرقًا هبَّ وَهْنًا كَنَارِ مَجُوسَ تَسْتَعِر اسْتِعَارَا

(رَاعَتْكَ رائعةُ البياض بَعارِضى[٣] وَلَوَ آنَّها الأولى لَرَاعَ الأَسْحَمُ)

الرائعة : أول ما يظهر من الشيب . والعرب تصف المَرْعَى بالسواد ، فإذا حَلَّت الشَّيبةُ جعلوها (راعية) لذهاب السواد ، كما تُذهِب الراعيةُ من الماشية خضرةَ المرعَى .

(ولَوَ آنها الأولى لراع الأسحم) : أى لو تقدم البياض قبل السواد ، ثم أعقبه السواد لكان أروع ؛ لأن السواد أروع من البياض وأهول .

(والظُّلْمُ مِنْ شِيمِ النُّفُوسِ فَإن تَجِدْ ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ)

المعنى : والظلم من تأليف خلق النفوس . ومعنى الظلم : وضع الشىء فى غير موضعه . وتأليف النفوس من أربعة أشياء متنافرة : من حارّ رطب ، وبارد رطب ، وحار يابس ، وبارد يابس . وهى ما اعتدلتْ صَلَح الجسم ، وإذا اختلفت فسدَ الجسم ، فهل يوجد ؟

(وَتَرَاهُ أَصغَرَ ماتَرَاهُ نَاطِقًا ويكونُ أكذبَ ما يكونُ ويُقْسِمُ)

أى يعظم ساكنا بهيبته ، فيغرُّ من رآه ، فإذا تكلم صَغُر من لكنته ، كقوله :

وكأَيِّنْ تَرى مِنْ صامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ
زيادتُه أو نقصُه فى التكلُّمِ

(ويكون أكذبَ ما يكون ويُقسم) : أى إذا تناهى فى الكذب أقسم عليه أنه حق له .

— ٦٧ —

وله ايضا :

(كُنْ لُجَّةً أَيُّها السَّماحُ فَقَدْ آمنهَ سَيْفُهُ مِنْ الغَرَقِ)

اللُّجة مَهْلَكة للأرواح ، والسَّماح مَهْلَكة للمال . فيقول : أيها السماح اعْظُمْ ، حتى تكون لُجة مُهْلِكة لما له ، فإن سيفه يَحلف عليه بالإغارة والنُّهبة جميع ما تتلفه أنت . ولما جعل السماح لجة استعار اسم الغَرَق للفقر . ونظير هذا قول الشاعر :

ومَنْ يفتقرْ منا يَعِشْ بحُسامِهِ ومَنْ يَفْتَقِرْ من سائر الناس يَسْأَلِ

وقال : كن لُجة ، ولم يقل : كن بَحْراً ، لأن اللُّجة أهول ما فى البحر ، ألا ترى أن العرب تسميها (العَوْطَب) ، لما يَحْدث فيها من العَطَب أو يُخاف ، ولم يُسَمُّوا جملة البحر عَوْطَبا .

— ٦٨ —

وله ايضا :

(أنَا بالوُشَاةِ إذا ذكرتُكَ أَشبَهُ تأْبِى النَّدَى وَيُذَاعُ عَنكَ فتكْرَهُ)

الكريم يكره ذكر إحسانه إلى مُؤَمِّليه ، حذرا أن يُظانوا ذكر ذاك

اعتداداً به عليهم وَمنًّا ، فكأن من يذكره عنه ؛ يُشيع عنه ما يكره إشاعته ؛ وَينِمُّ به . والقطعة رائية ؛ ولا تكون هائية ؛ لأن بعد هذا البيت بيتاً آخرُه (نَصْرهُ) ؛ فهذه هاء إضمار ؛ متحركٌ ما قبلها ؛ وهاء الإضمار المتحرك ما قبلها ؛ لا تكون رَوِيًّا .

فإن قال قائل : قد قال فى المصراع الأول من هذا الشعر (أنا بالوشاةِ إذا ذكرتك أشبهُ) فَقَفّى بالهاء . قُلْتَ : لم يُقَفِّ بهاء . وليس الشعر بمصرّع ، وإنما هو فى البُعد من التصريع ، بمنزلته لو قال : (إذا ذكرتك أمثلُ) مع قوله تكره . فهذا احتيالٌ لطَّفه له أهل بغداد .

والذى عندى أن أبا الطيب كان جاهلاً بصناعة القوافى ؛ فإنها مهنة دقيقة ، يعجز عنها الشعراء ؛ ويغلَطون فيها . نعم ؛ وقَلَّ من يعرفها من النحويين إلاَّ الخليلَ وأبا الحسن إماميها وقليلاً بعدهما .

— ٦٩ —

وله أيضا :

(وَمَنْ خُلِقَتْ عيناكِ بَيْن جُفُونِهِ
أصابَ الحَدُوَر السَّهلَ فى المرتَقَى الصَّعْبِ)

أى أن قلبى متنزه بمناعته ؛ أى بشجاعته ؛ دافع عن نفسه ببأسه . ولكن من كانت له عين كعينك ، أصاب الأمر الصعْب بالسّعى السهْل . أى فذلك ممكن لك مِنِّى على تمنُّعه على غيرك . والانحدار سهل ، والارتقاء صعب . فمن كان الارتقاء عليه فى سهولة الانحدار ؛ فكل صعب له سهل ، كقول البحترىّ :

ومُصعِدٌ فى هضاب المجد يَطلُعُها   كأنه لِسُكونِ الجأش مُنْحَدِرُ

وقد بالغ أبو الطيب بالمقابلة بين الحدور السّهل والمرتقى الصعب ؛ لسرى طبيعة الضد فى الوَصفَيْن والموصُوفَين . قابل الحَدُور بالمرتقى ، والسّهلَ بالصعب . ولو أمكنه أن يقابل الحَدُور بالصعود ؛ لـكان أذهب فى الصنعة . ليوازن اللفظين .

— ٧٠ —

وله أيضا :

(وَفَاؤُكُما كالرَّبعِ أَشْجاهُ طَاسِمُهُ   بأَنْ تُسْعِدَا والدَّمعُ أشفَاه سَاجِمُهُ)

يخاطب خليله . وإنما كثرت مخاطبة العرب خليلَين وصاحبَين ؛ دون أقلّ أو أكثر ؛ لأن أقل السَّفْر المُترافقين ثلاثة ، فالواحد يخاطب صاحبيه . يذهبون فى ذلك إلى أنه إن اختلف الاثنان قَتلَ الأقوى الأضعف . فاذا كان لمما ثالث ؛ توسط فحال بينهما فى الأغلب . فلذلك لم يَصْطَحِب فى الأكثر أقلُّ من ثلاثة لهذه العلّة . هذا معنى مخاطبة العرب فى أغلب الأمر الاثنين ، حتى تجاوزوا فى ذلك إلى أن خاطبوا الواحد بخطاب الاثنين ؛ كقوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فى جَهَنَّم ﴾ . ومن كلامهم : ياحَرَسِيُّ اضْرِبا عُنقَه . وقال :

فإن تَزْجُرانى يابنَ عَفَّان أزدجر

والطامس : الدارس . وأشجاه : أشدُّه إشجاء وإحْزاناً . ولا يكون فعلاً ، لمقابلته إياه بقوله : أشفَاه . وأشفَى : اسم لا فعل . يقول : وفاؤُكما أيُّها الخليلان بأن تسعدانى على بكائى فى هذا الربع الدارس ، كهذا الربع الذى بكيتهُ ، وذلك فى تَرْكِ المساعدة فى الوقوف به مَعِى ، ففى ذلك أشبه وَفاؤُكما للربع دروساً وطُموسا . ثم قال : (والدمعُ أشفاه ساجمه) : أى لا تلومانى على البكاء ، فان أشفَى الدّمع سَاجمُهُ . وقد يجوز ، (الدمعُ أشفاهُ ساجمه) : أى بالإسعاد وبالدمع الذى أشفاه ساجمُه . أى : وفاؤُكما بالإسعاد لى ، والبكاء معى .

(دارسٌ) قد قارب العَدَم ، كما أن الربع كذلك ، فكلا كما أشجاهُ لى مادَرَس ، وقد يَقْنع المشُوقُ من صاحبه أن يَقف معه على الربع عاذلاً أو عاذراً ، وإن لم يَشْركه فى شوق ولا بكاء ، كقول البحترىّ :

قف مَشُوقاً أو مسعِداً أو حزيناً   أو مُعِيناً أو عاذرًا أو عَذُولاَ

فقد يجوز أن يكون أبو الطيب عَدِم هذا كله من خليليه ، وأبيا موافقته على وجه : لامَشوقين ولا مسعدين ، عاذرين .

والدمع على هذا ، معطوف على موضع (بأن تسعدا) أى بالإسعاد . وبالدمع الذى أشفاه ساجمه ، يعنى بكاءه معه . والباء فى (بأن تُسْعِدَا) : متعلّق بمحذوف أى وفاؤكما بالإسعاد . ولا تكون متعلقة بـ «وفاؤكما» الأولى ، لأنك قد أخبرت عنها بقولك : (كالرّبع) فمحال أن تخبر عن الاسم وقد بقىَ مايتعلق به ، لأن هـذا المتعلق به جزء منه . فكما لا يخبر عن الاسم قبل تمام حروفه ، كذلك لا تخبِر عنه وقد بَقِىَ ماهو جزء منه .

(سَقَاكِ وَحَيَّانَا بِكِ اللهُ إنَّمَا   على العِيسِ نَوْرٌ والخُدُورُ كَمَائِمُهْ) .

جرى فى هذا البيت على مذاهب العرب وطرائقهم ، لأنهم يُحَيُّون بالنُّوَّارِ وأصناف الأزهار . فلما أبصرها فى الخدور جعلها نَوراً فى كِمِّه ، فدعا له بالسُّقْيا ، لينعمَ ويَحْسُن . ودعا لنفسه أن يَحْيَا بذلك النَّوْر .

(إذَا ظَفِرتْ مِنك العيونُ بنظرةٍ   أثابَ بها مُعْيِى المَطِىِّ وَرَازِمُهْ) .

يريد أن النظر إليها سببٌ لقول الشعر فيها ، والتغنى به فى الطرق ، وجميع ما يتصرفون به ، ويَحْدُون به ، فتنشط الإبل لذلك ، إذ من طبعها أن تنشط للحُداء .

(قِفِى تَغْرَم الأولَى من اللَّحظِ مُهْجَتِى
بِثانيةٍ والمُتْلِفُ الشىءَ غَارِمُهْ) .

يقول: لحظتُك فأهلكتِ اللحظةُ مُهْجَتِي. فَبقى عَلَيَّ حتى ألْحَظَكِ أخرى، فَتَرُدَّ عليَّ ما أذهبتِ الأولى، وذلك أن لكل نَظرة أنظرُها تأثيراً فيَّ، فإذا قد عدمتُ المهجة بالأولى، فعمل الثانية ردُّها، لأن الشيء إذا انتهى في ضدٍّ انعكس إلى ضدّه.

(وَتَكْمِلَةُ العَيْشِ الصِّبا وعَقِيبهُ   وغَائِبُ لَوْنِ العَارِضَيْنِ وقَادِمُهْ)

أي كمال العيش، يعني جميع طبقاته، فأوّلهن الصِّبا: وهو من النشوء إلى الشّباب، وعَقِيبُه الشباب، وبعده غائب لون العارضين، وهو الشيب مالم يَقْدُم، فإذا قدم فقد كَمل العيش، وما بعد الكمال إلا النقص. والهاء في (قادمه) راجع إلى اللّون، ولا يكون راجعاً إلى (غائب)، فيكون من إضافة الشيء إلى نفسه، وليس كذلك إذا كان مضافاً إلى اللون، لأن اللون جنس انقسم إلى نوعين: غائب وقادم؛ والنوع غير الجنس، فكأنه قال: وتكملة العيش الصِّبا وعَقِيبُه، وسَوادُ الشَّعر وبياضُه، لأنه إذا كان البياض غالبًا، فالسواد حاضر.

(وأَحْسَنُ مِنْ مَاءِ الشَّبِيبةِ كُلِّهِ   حَيَا بَارِقٍ في فَازَةٍ أَنَا شَائِمُهْ)

قوله: (في فازة) يعني فازة ديباج ضربت لسيف الدولة، والحيا هنا: الخصب، ويعني به سيف الدولة. والشائم: الناظر.

(إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ مَاجَ كَأَنَّمَا   تَجُولُ مَذَاكِيه وَتَدْأَى ضَرَاغِمُهْ)

أي هذه الفازة مُصَوَّرَةٌ بصُوَرة خَيلٍ وأُسْد، فإذا مرت به الريح حركت الفَازةَ، فتحركت هذه الصُّور بحركاتها، فتُخَيَّل أن مَذَاكِيهَا، وهي الخيل المصورة فيها تجول، وأن ضراغمها تَدْأَى: أي تمرمرا سريعاً. ومن روى (تَدْأَى): أي تَهْمِس المشيَ لِتختِل. والضراغم: الأسد. واحدها

ضِرْغم وضِرْغَام وضِرغامة . وأن يكون فى البيت جمعَ ضِرْغم أولى ، لأنه إن كان جمع ضِرْغام أو ضرغامة ، لزم (ضراغيم) لأن الألف إذا كانت رابعة فى الواحد ، صارت ياء فى الجمع ثابتة ، إلا أن يُضْطَرَّ شاعر ، كما أنشد سيبويه :

والبكراتِ الفُسَّجَ العَطامسَا

وإنما حكمه العطاميس ، فحذف للضرورة ، فإن يكن ضراغمه جمع ضِرْغم وهى لغة مشهورة حكاها ابن دُرَيْد وغيره ، أوجه من أن يُوَجَّه على الضرورة .

(فقَدَمَلَّ ضوءُ الصُّبح مما تُغيرُهُ   وَمَلَّ سَوادُ اللَّيلِ مما تُزَاحِمُهْ)

(وملَّ القَنا مما تَدُقُّ صدوره   وملَّ حديدُ الهند مما تُلاَطمُه)

ذكر طاهر بن الحسين أن (تُغيرُه) فى البيت من الغَيْرة ، يريد أن الصبح يَغار من كثرة ماتفعل فيه ، من قلبه إلى ضده ، من شدة القتال ، وكذلك الليل أيضاً يَغار من ذلك ، لأنه يُصيِّره يوماً ، لإظهاره فيه السيوف والرماح ، من ضيائها .

قال أبو الفتح بن جنى : أراد تُغير فيه ، فحذف حرف الجر اختصاراً .

وقال فى (تزاحمه) : أى تَسْرِى فيه ، فاستعمل (تزاحمه) فى موضعها .

والهاء فى (تزاحمه) مفعول به ، وليست بمعنى (تزاحم) فيه . وقال الوَحيدُ : ليس هذا أراد بقوله (تُغيره) وإنما أراد أنك تسير فى بياض الحديد ، من البَيْض والدروع ، فكأن الصبح يَغار عليه إذا رأى ضياء غيره قد أُلْبِسَ به .

وقوله : (وملّ سواد الليل مما تزاحمه) : يعنى بالغُبار ، كأنه ليل آخر

يزاحم الليل الذى هو الظلمة . وقوله : (وملَّ حديدُ الهند مما تُلاطِمُهْ) أى تلاطمه بأمثاله .

(قَبَائِعُهَا تحتَ المرَافِقِ هَيْبَةً وأنفذُ مما فى الجُفُون عَزائمُهْ)

يريد أنهم يسترون سيوفهم ويخفونها هيبة ومخافة من سيف الدولة . وعزائمُه أنفذُ من شفار سيوفهم .

(سَحابٌ من العِقبَان يَزْحفُ تَحتَها

سَحَابٌ إذَا اسْتَسْقَتْ سَقَتْهَا صَوَارِمُهْ)

ويروى : (فَوقَها) ، فيكون قوله : (العِقْبان) فى أول البيت كناية عن الخيل ، كما قال :

تَظُنُّ فِراخُ الفُتْخِ أنك زرتَها بأُمَّاتِها وهى العِتاقُ الصَّلادمُ

السحابُ : جمع سحابة . وكل جَمْع ينقُص عن واحده بالهاء ، ذلك تذكيره وتأنيثه ، فأنّث فى قوله (تحتها) ، وذَكَّر فى قوله : صوارمه ، أخذاً بالأمرين . ولا يمكنه هنا غير ذلك ، لمكان الوزن ، وأن هذا الشعر موصولٌ ، ليس له خروج ، أعنى أنه ليس بعد هائه حرف لين . وقيل تأنيث هذا النوع على الجمع ، وتذكيره على الجنس . أى قد حُشِرت العِقبان فى أفق جيشه ، ثقةً منها بما يُقتَلُون ، فيكون رزقاً لهذه العِقْبان ، كقول الآخر :

وتَرَى الطيرَ على آثارِنا رَأْىَ عَيْنٍ ثقةً أن ستُمَارُ

فالعِقبان على هذا الجيش كالسحاب ، لتكاثُفِها واشتباكها ولونها . والجيش تحت هذا السحاب ، الذى هو من العِقبان ، سحابٌ آخر . فإذا اسْتَسقتِ السحاب الأعلى يعنى العِقْبان ، سَقَتْه صوارمُ هذا السحاب الأسفل ، الذى هو الجيش، بأن تضع لها القتلى ، فتنزل عليها ، فتخصب . وجعل الأسفل

يَسقِى الأعلى ؛ إغراباً ، لأنه بعكس ماجرت عليه العادة ، من أن الأعلى هو الذى يَسقِى الأسفل .

وقال : (إذا استسقت) وإنما العِقبان وسائر سباع الطير مستطعمةٌ لامُستَسْقِيةٌ ؛ لأنه ذكر السَّحابَ ؛ والسحابُ مُستقٍ . كقول أبى ذُؤيب فى صفة السحاب :

تَرَوَّت بماء البحر ثم تَرفَّعَت

ومن الحسن أن تكون الرِّواية « يزحف » على لفظ التذكير ؛ توطئة لقوله : صوارمُه ، فيكون ضرباً من الإشعار . وجَعَلَها تزحف لكثرة الجيش ، كما قالوا : كتيبةٌ جرّارة ، أى لا تَقدِرُ على السير إلا رويداً ؛ لكثرتها .

(سَلَكْتُ صُروفَ الدَّهرِ حتَّى لَقِيتُه

عَلَى ظَهرِ عَزمٍ مُؤيَداتٍ قَوائِمُهْ)

الهاء فى لقيتُه : عائدة على سيف الدولة . وعَلَى : متعلقة بسلكتُ .

فالمعنى : إن عَزْمَه قوى مُؤيد ؛ فاستعار أنه ركبه وسلك صروف الدهر عليه .

— ٧١ —

وله ايضا :

(أأطْرحُ المَجْدَ عن كَتِفِى وَأَطْلُبُه وأتْرُكُ الغَيثَ فى غِمدِى وأنْتَجِعُ)

كَنَى بالمجد عن الرمح الذى يُحْمل على الكتف مُعتَقلاً ؛ لمَّا كان المجد يُكتسب به . فهذا من باب الاستغناء عن ذكر السبب بذكر المُسبَّب . وإن شئت قلت : جعل الرمح هو المجد مبالغة . كقولهم : مازيد إلاّ أكلٌ وشُربٌ : وإن شئت : كان الحذف ؛ (أى ذا المجد) وهو الرمح أيضاً ،

لإدراك المجد به . (وأطلبه) : أى أطلبُ أثراً بعد عين . وأترُكُ الغيث فى غِمْدى : يعنى السيف الذى هو سبب خصب المعيشة . وليس الغيثُ هنا ذات السيف . وإنما عَنَى الغيث . وإن شئت قلت : جَعَلَه الغيثَ مبالغَة ؛ إذْ كان سبباً له ، ثم قال وأطلب الرزق على غير هذا الوجه الذى لا يَكرُم عيش ولا يُخصِب إلاّ به ، كقول النبى عليه السلام : « الخير فى السَّيفِ والخير مع السَّيف » .

وأصل الانتجاع : طلب الكلأ . ثم صار كل طلب : نُجْعَة . وحسن لفظ الانتجاع لتقدم ذكر الغيث .

(ذَمَّ الدُّمُسْتُق عَيْنَيْهِ وقَد طَلَعتْ سُودُ الغَمامِ فظَنُّوا أنها قَزَعُ)

أى غرّت الدمستقَ عيناهُ ، ثم توهَّمَ جيش سيف الدولة قليلاً وهو كثير ، فأقدم اغتراراً بما خيَّلته إليه عينهُ ، فذمّ عينيه ولَامَهُمَا إذ لم تخبراه باليقين ، فتُرِيَاهُ الجيش على ما هو به من الكثرة ، لأنه لو صَدَقَتَاهُ لم يُقْدِم . والقَزَعُ : قطع السحاب المفترقة . يقول : ظنَّ الجيشَ قليلاً كقَزَع السحاب ، وهو كسود الغَمام ، وإنما شبهه بالغمام السُّود ، لأنه أهول منظراً ؛ ولأن فيه صَواعقَ بلا غَيثٍ ، فهى أشبه بصفة الجيوش من جهة العاقبة واللون ، ألا تراهم قالوا : كتيبة جأواء وخَضْراء وخَصيف . وكل ذلك إلى السواد .

فتلخيص البيت : ذم الدمستق عينيه حين أوهمتاه الجيش قليلاً وهو كثير ، فأقدم ، وكان أذهب فى الصنعة لو اتَّزَن دون زِحافٍ — أن يقول : (فَظَنَّ) ، بلفظ الإفراد لأنَّه إخبارٌ عن الدُّمستق ، ولكنه حمل الضمير عليه وعلى من حوله .

(كأنَّمَا تَتَلقَّاهُم لِتَسْلُكَهُمْ فالطَّعنُ يَفْتَحُ فى الأَجْوافِ ماتَسَعُ)

أى كأنّ خيله تريد سُلُوكَ عِداه ، كما يَسْلُكُ السهمُ الرمِيَّةَ ثم يَمرُق ،

فالطعن يفتح فى أجوافهم مانسع الخيل ، إشادَةً بالطعن ، وتشييعاً له . كقول قيس بن الحطيم :

سَلَـكْتُ بها كَفِّ فأَنْهَرْتُ فَتْقَها   يرى قائمٌ من دُونها ماوَرَاءها

وأراد ماتَسَعُ الخيل ؛ فحذف المفعول ، لتقدم ذكر الخيل .

(دُونَ السِّهَامِ وَدُونَ الفَرِّ طَافِحَةً   على نفوسهم المُقورة المُزُعُ)

أى قد تغشَّتهم الخيلُ حتى صارت أقرب إليهم من السِّهام التى فيهم ، مبالغة وليس بحقيقة ، لأن السِّهام التى فيهم ، أقربُ إليهم من الخيل التى عليهم . و (دون الفرِّ) : أى أن الخيل تمنعهم الفِرَار . وقال : (على نفوسهم) ، ولم يقل على أبدانهم ؛ لأن نفوسهم قد فاضت عن أبدانهم ، فكأن الخيل عليها دون أجسامهم، وقيل معناه : إن هـذه الخيل تَسبِق السِّهام وتفوت حتى تغنى عن الفرِّ . ويروى (دُون السِّهام ودون القرِّ) فيكون المُقْوَرَّةُ على هـذا الدروع التى قد أخلقها التداول؛ حتى عادت كالمقوَرَّة من الخيل وهى الضامرة ـ المتجردة (المزُع) على هذا : التى قد تمزَّقت أشلاؤها أى قد تمزعت كما يتمزعُ اللحم أى يتبدّد . فيكون المعنى أنه لاتقيهم الـكُسَى حَرًّا ولا برْداً ؛ ولـكن هذه الدروع المقوَرّة . والرواية الأولى أصح .

(إذا دعا العِلْجُ عِلْجًا حالَ بَيْنَهُمَا   أَظْمَى تُفَارِقُ مِنْهُ أُخْتَها الضِّلَعُ)

رُمح أظمى : أسمر ؛ وقيل : ظمآن إلى الدم ؛ والأوَّل أولى ؛ إذ لو كان من الظمأ لـكان حَرِيًّا أن يُسمَع مهموزاً ، ولم أسمعه كذلك . إلا أن مثـل هذا الإبدال قد يجوز فى الضرورة كقوله : (لَاهَنَاكِ المَرْتَعُ) ولا حاجة بنا إلى توجيه ذلك هنا ، إذ المشهور فى كتب اللغة أن الأظمى : الأسمـر . يقول : إذا تداعى العِلْجان لتناذر أو تشاور أو تناحُر ، حال بينهما رُمح

أظمى يدخل بين الضِّلعين ؛ فيفرج بينهما حتى يتفرقا . و (منه) : أى من أجله . وحسَّن ذلك المفارقة هنا لقوله : (حال بينهما) . وكان من حُسن الصنعة لو اتّزن له — أن يقول : إذا دعا العاج صاحَبه ليوازىَ به قوله : (أختها الضِّلَعُ) ؛ لأن الأخوة والصحبة من باب المضاف ولكنه ذلك أراد ؛ كأنه قال : إذا دعا العِلج صاحبه أو أخاه .

(كَمْ من حُشَاشَةِ بِطْرِيقٍ تَضَمَّنَهَا   للبَاتِرَاتِ أمينٌ مالَهُ وَرَعُ)

الحُشاشة : النفْس . وقيــل ، تقيتُها . والباتِراتُ : السيوف القاطعة . والأمينُ هنا : القَيْد ونفى الوَرَع عنه إغراباً بأمينٍ لا ورع له . وإنما سماه أميناً لحفظه على السيف ما استودعه إياه من الأسَارى ؛ حتى يردّهم إليه عند القتل فهو أمين لذلك . وليس له وَرَعٌ ، لأن الوَرَعَ إنما يكون عن قصد ، والقصد انما يكون لذى العقل . وكذلك أمانته غير حقيقية . ولو كان أميناً عاقلاً لـكان وَرِعاً إذ لا أمانة إلاّ بوَرَع .

(يُقَاتِلُ الخَطْوَ عنهُ حِينَ يطلُبهُ   ويَطْرُدُ النوم عنهُ حين يَضْطَجِعُ)

أى تقصر خُطا هذا الأسير بضيق القَيْد ، إذا أراد أن يخطو . ويطرد النوم عنه تَرنُّم حلَـقَه كقول أبى نواس :

إذا قام غنتهُ على الساق حَلْقة   لها خَطْوُهُ عند القيام قصير

والمقاتلة والطراد فى البيت مستعاران .

(قل للدُّمُسْتُقِ إنَّ المسلمين لـكُمُ   خانوا الأميرَ فجَازاهُمْ بما صَنَعُوا)

خيانتهم اياه : خلافُهم له ؛ بسعيهم الى النهب وأسلاب العَدُوِّ المفزوعين . وإسلامهُ إياهم له : تركُه الطلَب بثأرهم ؛ أو رضاه لهم ما حل بهم .

(وَجَدْتُمُوهُم نِياماً فى دِمَائِكُمُ   كأَنَّ قتلاكُمُ إياهم فَجَعُوا)

أى خافوكُم ؛ فألقوا نفوسَهم فى دماء قتلاكُم ؛ لتحسبوهم منهم ، فتتجافوا عنهم ؛ وكأنهم هم المفجُوعون بقتلاكم ، يُلقون أنفسهم عليهم كإلقاء المفجوع نفسه على القتيل تأسفًا . وقيل : كان المسلمون يأتون قَتْلَى الروم يتخلّلُونهم ؛ فينظرون من به رَمَقٌ فيقتلونه ، فبينما هم كذلك أَكَبَّ عليهم المشركون فقتلوهم .

(تَشُقُّكُمْ بِفَتَاهَا كُلُّ سَلْهَبَةٍ   والضَّرْبُ يأخُذُ مِنكمْ فَوقَ مايَدَعُ)

(بفتاها) : أى بفارسها . ذهب فى لفظ الفتى الى الرفع من شأن الفارس؛ كقولهم : (أنت الفتى كلُّ الفتى) لا يُذْهب به إلى فَتَاء السِّن : لكنه كقولك : أنت الرجلُ . تمدحه بالصبر والثبات والنجدة ، لا تعنى به الرجولة ، التى هى الذكورِيّة (والضربُ يأخذُ منكم فَوق مايَدَعُ) . ذهب قوم الى أنه عنى أن القتلى أكثر من النّاجين . وهو لعمرى قويْلٌ والذى عندى أنه لم يَعْنِ بذلك الكَمَّ ؛ وانما عَنَى أن الضَّرب يأخذ النفوس ، ويدع الأبدان ؛ والنفس فوق الجسم فى لطف الجوهر ؛ وشرف العنصر . فهذا معنى قوله : ما يَدع . لا الكمية التى ذهب اليها أولاً .

— ٧٢ —

وله ايضا :

(يردُّ يَدًا عن ثَوبِهَا وهْوَ قَادِرٌ   ويَعْصِى الهوى فى طَيْفِها وهو راقِدُ)

(يرد يدا عن ثوبِهَا) : كناية عن العفاف . والثوب هنا : يجوز أن يعنى اللباس ؛ وأن يعنى بعض طوائف جسمها ؛ كقول الآخر :

خرّقوا جَيبَ فتَاتِهِمُ   لم يُبالوا حُرْمَةَ الرَّجِلَهْ

قيل : يعنى بالجيب القُبل . قوله (وهو قادر) : أى متمكن بها ، لا يتقى

رقيباً لأن ذلك في النوم وأثبت لنفسه قدرة في نومه لأنه قد تهيأ للنائم أفعال اليَقِظ وإن كانت غير مقصودة، وقد قيل : إن قوله (يرد يدا عن ثوبها وهو قادر) : ان هذا إنما هو في اليقظة . وانما أراد وهو يقظان فلم يتزن له ، فكنى بالقدرة عن اليقظة لأن اليقظان أملك لذاته من النائم مع أن قادراً مقلوب لفظ راقد . فأناب المقلوب في المقابلة مناب الضدّ الذى هو يقظان . (ويعصى الهوى وهو راقد) : أي أنه يملك نفسه عن شهوته في حال النوم . وتلك حال لا يغلب فيه عقلٌ شهوةً ، لأن التحصيل حينئذ عازب ؛ فهو يَقْرُب بتمالكه عن محبوبه في حال الرُّقاد .

وجملة معنى البيت : انه اعتاد العفاف في يقظته ؛ كقوله هو :

وترى المروّةَ والفتوّةَ والأبوّ ... ةَ فِيَّ كُلَّ مليحةٍ ضَرّاتِها

فاذا رأى الطيف أراه النوم ما تعود من العفة في اليقظة فعفَّ ، فإن ذلك من خلق النفس كثير . أعنى أن ترى في حُلْمها ماتَعودّتْه يَقْظَى ؛ ولذلك علة ذكرها حذاقُ القدماء جالينوس وغيره . والطَّيف فَعْل من طاف يطوف الاّ أنّا لم نسمع فيه طَوْفا . وقد يكون (فَعْلا) من طاف يطيف ؛ سُمِّى بالمصدر ، لأن طاف يَطيف عندنا من باب باع يبيع واسع ولا أحمله على ما ذهب اليه الخليل في طاحَ يطيح قياساً عليه ؛ لأن باب باع يبيع واسع كثير .

وباب« طاح يطيح » قليل ، لا يُوجد لها أخت إلاّ تاهُ يتيه في لغة من قال : تَوَّهْتُه . وحكى أبو زيد : ماهَت الرَّكِيَّةُ تَميه وهو من الواو فهي ثالثة «لِطَاحَ وتاهَ » على قول الخليل :

مخضَّبةٌ والقومُ صَرْعَى كأنَّهم ... وإن لم يكونوا سَاجِدِين مَسَاجِدُ

أي هذه البلاد مُخَضَّبة ، الدماء فيها جارية والأشلاء مُنْكَبَّة ومَنْبطوحة فكأنها مساجدُ مُخَلَّقَة لانكباب القتلى وإن لم يكونوا ساجدين .

(تُنَكِّسُهم والسَّابِقَاتُ جِبَالُهم   وتَطْعُنُ فيهم والرِّماحُ المكايِدُ)

تنكسهم : تقلبهم على رءوسهم . فيقول: من شأن تنكيسك لهم عن متون خيلهم وهم رُكبان لها . فلما تركوا الخيل ، وركبوا الحصونَ والقلاع وقُنَن الجبال مكان الخيل ، فلم يمكنك تنكيسهم بالرمح حينئذ ، كما كنت تنكِّسُهم به فُرْسانا ، أقمت كيدكَ لهم مقام الرمح فنكَّستهم عن الجبال به .
وقوله : (والرماح المكايد) : أى المكايد هى التى أقامت مَقام الرماح لأنك وصلت بالمكيدة إلى مثل : ما كنت واصلاً إليه بالرمح . وقد أجاد فى تطبيقه قوله : (والسابقات جبالهم) بقوله : (والرماح المكايد) .

(فَتىً يَشْتَهِى طُولَ البلادِ وَوَقْتُهُ   تَضِيقُ به أوقَاته والمَقَاصِدُ)

أى همته يَقصُر عنها الدهرُ فهو يشتهى طول الدهر ليسع همته ، وجيشه عظيم تضيق عنه البلاد فهو يشتهى أن تتسع البلاد وتطول لتحمل جمعه . فالأوقات أزمنة تضيق عن همته والمقاصدُ أمكنةٌ تضيق عن جيشه . وفى البيت حذف . وتمامه — لو اتزن — فتى يشتهى طولَ البلاد لجيشه وَسَعَةَ الأوقات لهمّته فهمته تضيق عنها الأوقات وجيشه تضيق عنه البلاد .

(أُحِبُّكَ ياشمسَ الزّمانِ وبَدْرَهُ   وإن لاَمنِى فيكَ السُّها والفَراقِدُ)

جعله شمس الزمان وبدره ليخبر عنه بكمال النُّورية وأنه يعم الليل والنهار بضوئه وهذا أحسن . لأن الممدوح موجود نهاراً وليلاً فهو للنهار شمس وللليل بدر،واختار البدر على القمر لأن القمر ربما لم يُغْن ضوؤه كبير غَناء معما آثره من الوزن . وجعل غيره من الأملاك بالإضافة إليه سُهاً وفراقد . ولا خَفاء بما بين الشمس والبدر وبين السُّها والفراقد من المراتب فى النُّور . فيقول : أنا أحبك أيها الملك الذى هو فى الملوك كالشمس والبدر فى النجوم لعظم نفعك وجسامة

هنائك فى نوعك وإن لأمنى فيك أملاك ؛ هم فى الملوك كالسُّها . والفراقد فى الكواكب فكيف أطيعمن هو كالسها والفراقد فيمن هو كالشمس والبدر وهما مُغنيان عن السها والفرقدين . بل احدهما مغن عنهما . والسها والفرقدان لايتجزءان منها ولا من احدهما وقال : (والفراقد) . وإنما هو (الفرقدان) لأنَّ جمعهما . بما حولهما ، أو على أنه جعل كل جزء منهما فرقداً وقد فعلت العرب ذلك قبله كثيراً كقوله :

ودونَ الجَدَى المأمولِ منك الفراقد

وحكى سيبويه : أنهم يقولون للبعير (ذو عثانين) جعلوا كل جزء منه عُثْنونا.

وقال جرير : أنشده سيبويه :

قال العواذلُ ما لجهلك بعدما شاب المفارقُ واكتَسَين قتيرا

— ٧٣ —

وله ايضا :

(يحيدُ الرمحُ عنك وفيه قَصْدٌ وَيقْصُر أن يَنَال وفيه طُولُ)

أى هيبتُك فى فؤاد القِرْن تخذُل يده فيحيد رمحه عنك مهابةً لك بعد أن سَدّده ويَقْصُر الرمح أيضاً أن ينالك هذا القِرنُ به حَذَره إقدامك عليه وإن كان طويلا . وإنما يَعنى بطول الرمح العمل به وجودة التصريف له لا الطول الذى هو ضد القِصَر . لأن الطُّولَ عيبٌ وذلك أن الرمح إذا كان طويلاً خَانَ فضَعف .

— ٧٤ —

وله أيضا :

(شَفَنَّ لِخَمْسٍ إلى مَنْ طَلَبْنَ قُبيلَ الشُّفُونِ إلى نَازِلِ) .

الشَّفَن : النظر من فوق إلى أسفل . (لخمس) : أى بعد خَمْسٍ بين يوم وليلة . والعرب تُغَلِّب فى مثل هذا المؤنثَ على المذكَّر ، لسبق الليلة فى تاريخ الشهر .

أى رَكبت فُرسانك خيلَهم إلى عدوهم وطَوَوْا عليها المراحلَ ليلاً ونهاراً فما نزلوا عنها حتى هجمت بهم على مطلوبهم . فكان نظرهُنّ إلى من طلبته من العدوّ قبل نظرهن إلى نازِلٍ عَنهن . أى لم ينزل أحدٌ منهم عنها فتنظر إليه . وإنما أدركوا ما طلبوه ثم كان النزول بعد ذلك .

(فأَقبلْن يَنْحَزْنَ قُدّامَهُ نَوافِرَ كالنَّحْل والعَاسِلِ)

ينحزن : ينفعلن ويَتَحوزْنَ فقلبت الواو ألفا لانفتاح ماقبلها ، فالتقى بذلك ساكنان لحذف الأول لالتقائهما . أى كانت خيلُ عدُّوك أمامك وهو فى آخرها من خوفك . وهى بينك وبينه نوافر . فاقتضى البيت ثلاث تشبيهات اختصرها بأن ردها إلى اثنين وشَرْح ذلك أنه شبَّه الممدوح بالعَاسِلِ وعدوه بالعسل المطلوب للثَّوْر وصحابه بالنَّحل التى يُنَفِّرها العاسِلُ ليصل إلى العسل المطلوب . وعنى بالخيل هنا : أصحاب الخيل . واكتفى من تشبيهه عدوه بالعسل لفظاً لأن كلامهُ يقتضى ذلك وهو من حُسْن دليل الخطاب ؛ لأنه إذا كان عاسلٌ ونحل فهناك عَسَلٌ لامحالة ، وقوله : (ينحزن قدامه) : أى ينحاز بعضهم إلى بعض .

(ومَا بين كَاذَتَى المُسْتَغِيرِ كما بَيْن كَاذَتى البائِلِ)

الكَاذَة : لحم الفخذ ألفهُ منقلبة عن واو . قالوا ثوب مَكُوذ : بلغ الكاذة . والمستغير : الفرسُ المُغير ، بناه على استفعل لأنه طَلبٌ ، والطلب يأتى على استفعل كثيراً عليه بنى سيبويه باب استفعل .

يقول : قد تفرج مابين أفخاذ الخيل بالركض ، كما يَنْفَرج ما بينهما إذا تفارجت للبول أى فتحت أفخاذها .

(فَلُقِّينَ كُلَّ رُدَيْنِيةٍ ومَصْبُوحَةٍ لَبنَ الشّائِلِ)

يقول : إن خَيْلَ سيف الدولة لقيت مع الخارجى بعد جَهْدها أشدّ الأعراب الذين يَغْذُون الخيلَ الكرام التى تُؤْثَر باللبن عنه قِلّتة . ولقيتْ جَيْشاً (لخارجى من الأعراب يقاتل) على ناقة قد تيقّن استهلاك أصحابه دونه . فأعرض عن ركوب الخيل ووصفه بحاله فى كَـذِبه ودَعْواه .

إنما الشائِلُ بغير هاء : اللأّقح، وبالهاء : التى خف لبنها . والخيل إنما تغذى بلبن الشائلة لأن اللبن إذا خف مَرَأ ونجع وإنما أراد هذا الشاعر الشائلة فحذف الهاء للضرورة .

والمصبُوحة : المسقيةُ الصَّبوح وهو ما اصطُبِح بالغداة حارًّا . أى كل قَناةٍ رُدَينية وفرس مَلبُونةٍ وهى أقوى الخيول . أنشد سيبويه :

لا يَحمل القارسَ إلا الملْبُونْ المَحْض مِن أمامِهِ ومِن دُونْ

(وَطَعْنٍ يجمّعُ شُذّانَهُمْ كما اجْتَمَعَتْ دِرّةُ الحَافِلُ)

« شُذّانهم » : مَنْ شذّ منهم . والدِّرّة : اللبن يجتمع فى الضّرع . « والحافِلُ » : إما أن يكون جُملة فيعنى به الناقة فيكون من باب ناقة بازل أى من المؤنث الذى لاهاء فيه . وإما أن يكون جزءاً فيَعْنى به الضّرع وهو عندى أجود لأنه موضع تحفل اللبن . ومعنى البيت : أنه عنى طَعَنْتَ كلّ طعنة عظيمة تجمعُ المتفرقين على صاحبها ، تعجباً من سعتها ، كما تُجْمَع الدِّرّةُ فى الضرع المُحَفّل كقول الشاعر :

تركتُ بنى الهُجَيْم لهم دَوَارُ إذا تمضى جماعتهم تعودُ

والدِّرة فى الدر كالحلية فى الحلْى . أعنى أن هاء التأنيث تعاقب الفتحة . ومثله بَرْك وبِرْكة وهى الصدر . وحَبّ وحِبّة وهى بذور الصحراء .

(وأنْبَتَّ مِنهُم ربيع السِّبَاع فأثْنَتْ بإحسانِك الشَّامِلِ)

أقام الأشْلاء للسباع ، مُقام الربيع للماشية . والأول (ربيع للسباع) إنما

هو على المثل كما قيل : فلا يَرْعَى فى لحوم الناس . يقول : أَلقيتَ لها الأشلاء فأَخْصَبَت كما تخصب السَّوام فى الربيع . ونحوه قوله :

وأصبحتْ بِقُرى هِنْرِيطَ جَائلةً تَرعَى الظُّبَا فى خصيب نبتُه اللِّحَمُ

يَعْنى الرءوس جعلها خصيبة إشعارًا بأن أصحابها شُبَّان . وقوله : (فأثنتْ — بإحسانِك الشَّامِلِ) : مبالغةٌ وإفراط ومذهب شعرىّ غير حقيقى . لكن يقول : إن السِّباع قد اعتادت ذلك منهم حتى عَقَلت أنَّه من لدُنه فَشَكَرَتْ لذلك .

(وكَمْ لَكَ من خَبَرٍ شَائِعٍ لَهُ شِيَةُ الأَبْلَقِ الجَائلِ)

أى خبرك مشهورٌ ظاهر شُهرته كشهرة الأبلَق الجائل . وذلك أن الأبلق مشهورٌ فى موضعه . فإذا جال كان أشهرله، لأَنه يُعرف فى مواضع . وكذلك خبرك سائرٌ مشهور فى كل موضع .

— ٧٥ —

وله أيضا :

(وَلَهُ — وإنْ وَهَبَ الملوكَ — مَواهِبٌ
دَرُّ المــــلوكِ لدَرِّهَا أَغْبارُ)

الغُبر : بقية اللبن فى الضرع . فيقول : هباتك كأول الدَّر ، وهبات الملوك كبقايا اللَّبن بعد الحلب . وأوضح من هذا أن يقول : إن مواهب الملوك وإن كَثُرت وغَزرت بالإضافة إلى مواهبك ، كالغُبر بالإضافة إلى الدَّرّ الذى هو أغزر اللبن ؛ فهذا أبين . والأول وجيه . واللَّام فى قوله (لدرِّها) بمعنى إلى : أى درها بالإضافة إلى درها . وقوله : (دَرُّ الملوكِ لدرها أغبار) : جملة فى موضع الصفة للنكرة . فكأنه قال : وله مواهبُ دَرُّ الملوك لدرِّها أغبار . وإذا رَدَدْتَ هذه الجملة إلى المفرد ، فكأنه قال : وله مواهبُ فائقة .

وقوله : (وإن وهب الملوك): معناه : أجزَل الهبةَ . فهذا يُحسِّن معنى البيت. ويدلك عليه قوله: (دَرُّ الملوك) فقد أوضح ما أراده فى قوله:(وإنْ وَهَبَ الملوك) ولا يكون وَهَب هنا مجردة من معنى الغَزَارة لأن الممدوح إذا فاق واهِباً غير مُجْزِل ، لم يك ذلك فضلاً إنما فضله أن يفوق المُجْزِلين .

(وَبِدُون ما أنا مِنْ وِدَادِكَ مُضْمِرٌ يُنْضَى المَطِىُّ ويَقْرُب المُسْتَارُ)

أى بأقل من هذا الوداد الذى أضمره لك تعمل المطى فى الأسفار إلى المودود حتى تنضَى،فيقرب بذلك ما كان بعيداً . وذلك أن الشّوق يحمل على احْتِثاث المَطِىّ وإغْذاذ السَّير كقول الشاعر :

كأن عليها سائقًا يَسْتَحِثها كفَى سَائقًا بالشوق بين الأضالع

وقال :

وعَوْدُ قليل الذَّنب عاودَتَ ضَرْبَهُ . إذا هاج شوق من مَعاهدها كِبْرُ

والمُستارُ : مُفْتَعَل من السيْر . أى : يقرب الموضع الذى يسار إليه .

—٧٦—

وله ايضا :

(وكـذا تطلعُ البُدورُ عَلَيْنَا وكـذا تَقْلَقُ البحُورُ العِظَامُ)

أى إن همتك لا تستقر لأن شيمتك الحركة كما أن البدر شأنه الحركة دائماً كلما غاب من موضع طلع على آخر وكذلك البحر يتموّجُ فلا يستقرّ . وكَنَى بالقلق عن التموج لأن القلق ضد الطمأنينة والاستقرار . و (كذا) : مجرور فى موضع نصب . أى مثل طلوعك تطلع البُدور ومثل قلقك تقلق البحور ومثّل طلوعَه بطلوع البدر وقلقَه بقلق البحر إشعاراً أن الممدوح كالبدر جمالاً وكالبحر نوالاً . وقوله : (العظام) : مؤازرة للبدور لأنه لو قال البحور ولم يذكر العظام لم يك مطابقاً للبدور ، فتفهمه .

(والذِى يَضْربُ الكتائِبَ حَتى   تَتَلاقَى الفِهَاقُ والأقْدامُ)

الفهاق : ما يلى الرأس من فِقَر العُنق . وقيل الفِهقة : مَواصِل الأعناق فى الرءوس أى ينقص الأعضاء ويبضعها، حتى يلتقى طرفا الجسم على بعد بينهما . وإن شئت قلت : يضرب الهام ، فتسقط على الأقدام .

(فكثيرٌ من الشجاع التَّوقِّى   وكثيرٌ من البلَيغ السَّلاَمُ)

أى هيبته تروع قلوب ذوى النَّجدة وقلوب ذَوِى البلاغة لأن هذا الممدوح شجاعٌ بليغ قد بلغ الغاية فى الفضيلتين ، فأبعدُ غايات الشجاع وأعلى منازله أن يُحسن التوقى من هذا الممدوح ولا يتحدث بالظهور عليه لأن ذلك منه سفهُ رأى . وأبعد غايات البليغ أن يقدم فيسلِّمَ عليه ولا يتحدث بإسهابٍ فى مخاطبته ولا إطناب . وهذا فى أسلوب قول الشاعر :

يغضِى حياء ويُغْضَى من مَهابتِهِ   فلا يُكلَّم إلاَّ حينَ يَبتَسِمُ

ولأبى الطيب فضل ذكر الشجاعة والبلاغة فى بيت واحد وإفراد كل واحد من الفضيلتين بمصراع .

— ٧٧ —

وله أيضا :

(ضُرِبْنَ إلينَا بالسِّياطِ جَهَالَةً   فلما تَعارفْنَا ضُرِبنَ بها عَنَّا)

يصف خيل الروم . وذلك أن سَرِيَّةَ الروم رأت جيش سيف الدولة فظنته جيشها فهمزت نحوه تريدُ اللحاق ، فتبين لهم قبل أن يَلْحقوا أنها خيل الإسلام، فانصرفوا هاربين عنها مُجدِّين يضربونها بالسياط للإدْبار كما يضربونها للإقبال . و « عن » ها هنا : لِمَا عدا الشىء أى مبعدين عنا لها . وقوله : تعارفنا : أى افترقنا فعرفونا وعرفناهم .

(وإنْ كُنتَ سيفَ الدولةِ العَضْبَ فيهم
فدعْنَا نَكُنْ قَبلَ الضِّرابِ القَنَا اللُّدْنَا)

اللّدن : اللين . ذكّر على اللفظ لأن القنا وإن كان جمع قناة فلفظه لفظ المذكر وما خرج من الجميع على هذه الصورة جاز تذكيره وتأنيثه . يقول : إن كنت أنت سيف الدولة والسيف أشرف السلاح ، وهو المستغاث به إذا اشتد البأس ، لأن الرماح والسهام قد فنيت فَعُدَّنا نحن حينئذ رماحا وقدِّمنا ، فإذا فنينا أو قاربنا ذلك فكن أنت سيف الدولة الذى يكون به الضِّراب إذ لا يباشر ذلك إلا مثلُك . وهذا نحو قول الآخر .

فلما لم نَدَعْ قَوْساً وسَهْما مَشَيْنَا نحوهم وَمَشوا إلَيْنَا

— ٧٨ —

وله أيضا :

(اخْتَرْتُ دَهْماءَ تَيْنِ يامَطرُ وَمَنْ له فى الفضائِلِ الخِيَرُ

أراد دهماء هاتين الفرَسين ، فاكتفى بالإشارة من التنبيه تقول العرب : تا ، وهاتا ، وتى ، وهاتى . وقوله : يامطر : يخاطب سيف الدولة جعله مَطراً بجوده . (ومن له فى الفضائل الخِيَرُ) : عطفٌ على قوله : (يامَطرُ)والخِيَرُ : جمع خيَرة وهو الشىء المختار . أى له من الفضائل أشرفها ، أو من نوع كل فضيلة أشرفه . أراد ومَنْ له مِنَ الفضائل الخير فوضع « فى » موضع « من » . والفضيلة : الخَصلة التى يُسْتَحَق بها الفضل ، وضدها الرّذيلة .

— ٧٩ —

وله أيضا :

(حَصَانٌ مِثلُ مَاءِ المُزْنِ فيه كَتُومُ السِّرِّ صادِقةُ المَقَالِ)

أى هذه المرأة حصان طاهرة نقية من الشّوْب كماء المُزْن فى المُزْن

قبل انحطاطه إلى الأرض ومُمَازَجَته طبيعة التّراب . فالهاء فى قوله (فيه) : راجعة إلى المُزن . كَتُوُم السِّر : يعنى محاسن خُلُقها وخَلْقها ، وكتمها إياه : صونها له حتى لا يُطَّلع عليه منها . ولما كَنَى بالسِّر عن المحاسن الخَلْقيَّة والخُلُقية كنى عن صونها بالكتمان . وكأنه إنما سَمَّى ذلك سرًّا لأنه مما يجب ألا يُعرف من النساء . (صادقة المقال) أي لا تَدْخل فى ريبة فتحتاج إلى افتعال التأويل والتحيّل للاعتذار ، ولكنها حسنة الخفايا سالمة الإرادة ، فصدقها يُغْنيها عن التماس الكذب . وإن شئت قلت : وصفها بصدق المقال مُطلقًا لأن ذلك من أجلّ ما يُمدح به ولا خفاء بمزية الصدق .

(فلا غِيضَتْ بِحَارُكَ يَاجَمُومًا   عَلَى عَلَلِ الغَرَائِبِ والدِّخَالِ)

بحر جَمُوم : كثير الماء ، وكذلك البئر . والدِّخال : أن تُدْخِل بعيرا قد شرب بين بعيرين لم يشربا . والغرائب : الإبل الواردة حِياض غير أهلها فهى مدفوعة عنها ممنوعة دُونَها كقول الحجاج (ولأضربنَّكُم ضربَ غَرائِبِ الإبل) وغيضت ، نقصت غاض الماء وغِضْته وفى التنزيل . ﴿ وغِيضَ الماء ﴾ والعَلَل : الشُّرب الثانى من النَّهَل . فيقول : لا غِيضَت بحارُك : أى لا قَصَّر جودُكَ عن كثرة من يَرِدُهُ من الغرائب وذوات الدِّخال وكلاهما نوع غير مستحق للورود ، فكنى بهم عمن لا يستحق جُودَ هذا الممدوح . وإن شئت قلت : كنى بهما عن المقيمين والطارئين عليه . أى عَمَّ جودكَ الفريقين . يدعو له بذلك .

— ٨٠ —

وله ايضا :

(بِنَا منكَ فوقَ الرَّمْلِ مَا بِكَ فى الرَّمْلِ
وهذا الَّذِى يُضْنِى كَذَاكَ الذى يُبْلِى)

منكَ : أي من أجلك . تقديره : بنا فوق الرمل من الحزن بك والأسف عليك ما يُنْحِفُنا ويُضنينا كما بك في الرمل . إلا أن هذا لنا مُضْنٍ وذاك مُبْلٍ وكلاهما مشتبهان في أن عملهما التنقُّص والفساد، إلا أن حالك البِلَى وحالنا الضَّنَى وقال : (وهذا الذي يُضْنِي) فأشار إلى الضنى إشارة القُرب لأنه مُشاهد . وقال : (كذاك الذي يُبْلِي) : فأشار إلى البِلَى إشارة البعد لأنه مُغَيَّبٌ عنه .

(تَرَكتَ خُدودَ الغَانياتِ وَفَوْقَها
دُموع تُذِيبُ الحُسْنَ في الأعين النُّجْلِ)

هؤلاء الغواني كُحْل الأعين كَحَلاً طَبيعياً . والكَحَلُ الطبيعي يزيده الحسن حسناً لأن كلّ طبيعيٍّ يُقوِّيه المكتَسبُ المشاكِلُ له ، فيقول : إن دموع الغانيات الكُحْلِ المكتحلات تغسل الكُحْلَ الذي هو زيادةٌ في حسن الكَحَل فيزول حُسن الكُحْلِ ويبقى حُسنُ الكَحَل فقد زال الحُسن الاكتسابيّ الذي كان زيادة في الطبيعيّ فنقص الحسن عما كان عليه إذ كان المكتسب موجوداً مع الذاتي، وكأن الدمع هو الذي أذابه ونقصه . ولا يُكنى في حدّ الحقيقة عن تنقص الحسن بالإذابة لأن الحُسن عَرَضٌ فلا يذوب وإنما تذوب الجواهر، لكن لما كانت زيادة الحسن بالكُحل وكان الكحل جوهراً استجاز إيقاع الإذابة على العَرَض الحادث عنه فتفهمه .

(تَبلُّ الثَّرى سُوداً من المسك وَحْدَهُ وقدْ قَطَرَتْ حُمْراً على الشَّعَرِ الجَثْلِ)

أي بَكَيْنَ دَمْعاً مشوباً بدم لإفراط الحزن عليك تقطرت حُمْراً ووقعت على الذوائب المنشورة على الخدود للحزن وفيها أفواهُ المسك فسقطت إلى الأرض سُوداً بالمسك وحْدهُ دون الكُحْل لأنّ الكُحْل قد أذابهُ الدمع وأسالهُ . وقال (تبل الثرى) : فأشعر بأنها خرقت الأرض لشدة وقوعها وغزارتها حتى رسَخَتْ في الثرى .

(أَلَسْتَ مِنَ القوم الذين رِمَاحُهُمْ   نَدَاهُمْ وَمِن قَتْلاَهُمُ مُهْجةُ البُخْلِ)

لمّا استعار للبُخل مهجة مقتولة، جعلها إحْدى قتلاهم، وكان البخل إنما يُقتل بالنّدى، جعل نداهم رُمحاً يُقتَلُ به البخل. وقيل: من رماحهم نداهم: أى يجودون بما أفاءتْ عليهم رماحُهم. والأول أولى لقوله: ومن قتلاهم مهجةُ البخل. وقوله: « مهجة البخل »: تفلسُفٌ لأنه إذا قتلت المهجة والمهجة قِوام المقتول أغنى ذلك عن وصف الجُملة بالقتل. وهذا منه احتيال مليح لتسوية إعراب الرّوى. وليس للبخل مُهجةٌ. إنما المهجة للحيوان فاستعارهُ وسَهُل ذلك حين استعار القتل للبخل. وقال: (ألست). فأخرج اللفظ مُخْرَجَ الاستفهام ومعناه الإثبات والتقرير كقوله تعالى ﴿ألستُ بربكم﴾؟ قال جرير:

ألستم خيرَ من ركب المطايا   وأندى العالَمين بُطون رَاحِ

فمعناه أنت من القوم الذين شأنهم كذلك كما أن معنى ﴿ألستُ بربكم﴾: أنا ربُّكم. ومعنى (ألستم خير من ركب المطايا): أنتم خير من ركب المطايا.

(وَيَبْقَى عَلَى مَرِّ الحوادِثِ صَبْرُهُ   وَيَبْدُو كما يَبْدُو الفِرِندُ على الصَّقْلِ)

أى إذا نزلت بك الملماتُ ثَبَتَ من صبرك وتبيَّن من جَلَدك ما يزيدك فى النفس جَلالاً لأن ذلك عين الخبر والمِحْنَة، كما أن السيف إذا أخذ منه الصَّقْلِ جلا عن جوهره الذى كان يخفيه منه الصَّدَى فازداد شَرفًا بذلك؛ ولذلك قالوا: خرج منها كالشِّهاب. أى بَيِّن الفضل واضح الشرف. وقابل الحوادثَ بالصَّقل لأن ذلك كله رَوْزٌ واختيار وداعية إلى الوقوف الصحيح من الشىء.

(بِنَفْسِى وَليدٌ عَادَ من بَعْد حَمْلِهِ   إلى بَطْنِ أُمٍّ لاتُطَرَّقُ بالحَمْلِ)

يعنى أنه عاد من بعد الحمل الذى تبعته الولادة إلى بطن أمٍ لاتضع حملها

يعنى الأرض لأن من تضمنته لا يخرج منها إلا إلى الحَشْر فجعل تضمينها له كالحَمْـل به ، ونفى عنها التّطريق الذى هو ضد الحمل وكل ذلك مستعار .

(وَمَا الموْتُ إلا سَارِقٌ دَقَّ شَخْصُهُ   يَصُولُ بلا كَفٍّ ويَسْعَى بلا رِجْلِ)

قوله (: دق شخصه) : كلام شعرى لأن الموتَ عَرَض والعرض لا يُشَخَّص ، إنما التشخيص للجواهر . وقد يُتجوز بالعَرَض المحسوس كالحمرة والصفرة . فأما الأعراض النفسانية فلا تُشَخَّص وسوّغه ذلك قوله فيه (سَارق) لأن السارق لا يكون إلا شخصاً ، فلما نسب إليه صفة لا تكون إلاّ فى الجواهر ، وهو السَّرَق استعار له التشخّص . (يصُولُ بلا كف ويسعى بلا رِجْل) : أى أنه عَرَض والعَرَض لا يَدَ له ولا رِجْل .

(يَرُدُّ أبُو الشِّبْلِ الخَمِيسَ عن ابْنِهِ   ويُسْلِمُهُ عندَ الوِلادةِ للنَّمْلِ)

يَعْذِر سيف الدولة فى أنه لم يطق دفع المنية عن ابنه . يقول : إن الأسد يَرُدُّ الخميس عن شِبْله وذلك لكبر أجرامهم وعظم أشخاصهم ويسلمه عندما يولد للنمل تأكله إذ لا يطيق دفعها عنه لدقة أشخاصها فكذلك الموت لو نجم لردّهُ سيف الدولة عن ابنه ولكنه عَرَضٌ غير مُتَجسّم ولا محسوس ، فلا قوة به عليه ، بل سيفُ الدولة أعذر من الأسد لأن النمل وإن دقت فهى مرئية والموت غير مرئى ، فدفعه أبعد من الإمكان . ألا ترى إلى قول بعض حكماء العرب يوصى ابنه : (فإنما تَغُرّ من تَرَى ويغرُّك من لا يُرى) . يعنى الموت وهو الذى لا يُرَى .

— ٨١ —

وله ايضا :

(فَما تُرَجِّى النُّفوسُ مِنْ زَمن   أحمد حَالَيْهِ غَيرُ مَحْمُودِ)

أى أحمد حَالَى الدهر أن يَمُدَّ للإنسان فى العمر ويُسَلّمه ثم يُفضى به بعد ذلك إلى الملكة وتلك حال غير محمودة لمصيرها إلى ما لا يُحمد ، لكنها

أحمد الحالين ، فما ظنك بالآخر . وإن شئت قلت : أحمد أحوالك بقاؤك بعد صديقك ، وتلك حالٌ غير محمودة لما هو به من تعجُّل الوجَـل وانتظار الأجل. وهذا إفراط من القول لأنه إذا كان الأحمد غير المحمود فهو مذموم لا محالة . فأى صفة تقع على الأذَمّ والمحمود مذموم ما هى إلا أن الأذَمّ أذهب فى باب الذم وإلا فالذم مشتمل عليها فذكر محموداً لأنه ذهب إلى الأحمد .

(تَحْمِلُ أغمادُها الفِدَاء لَهمُ فانْتَقَدُوا الضَّرْبَ كالأخادِيد)

الأخدود : الشق الواسع فى الأرض يُخَدُّ فيها : أى يحفر . شبه الضربة العظيمة بها وكان أبو وائل تغلب هذا ، قد أسرته بنو كِلاب ، فضَمِن لهم الفِداء عن نفسه فكان مكانَ ما ضمن لهم من الفدية أن غزاهم فأوقع بهم . ألا ترى إلى قوله فيه وفيهم :

فَدَى نفسه بِضَمانِ النُّضَارِ وأعطَى صُدورَ القنَا الذّابِلِ
ومنَّاهمُ الخيلَ مَجْنُوبَةً فَجِئْنَ بكل فَتىً بَاسِلِ

فيقول : تحمل لهم أغمادُ السيوف ماضمنه لهم من الوَرِق والعَيْن وغيرهما ، وذلك منه هُزْء بهم أى إنما كان الفداء المحمولُ إليهم أن ضربُوا بما فى الأغماد وهى السيوف . فكانت كل ضربة على قدر الأخدود عِظَماً . ولما كان المعتاد فى الفِداء الذهب والفضة بالأغلب جعلَ السيوف نقوداً والأغماد أكياساً ، وحَسُن ذلك لأن السيف من الحديد ، والحديد يَشْرك الذهب والفضة فى أنه جوهرٌ معدنى كما أنهما معدنيان . فانتقدوا الضرب ، أى قام لهم مقام النقْد . وقيل : وقع بهم أجود الضرب كما يختار المنتقد أجود الدراهم والدنانير ، وكله هُزء . وقوله : « كالأخاديد » : فى موضع الحال . أى انتقدوا الضرب عريضاً ومستطيلا . والضرب ها هنا يجوز أن يكون الجنس ، وأن يكون جمع ضَرْبة . فقد ذهب محمد بن يزيد فى قوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وقَابِلِ التَّوبِ﴾

إلى أنه جمع تَوْبة ، إلا أن أكثر ذلك إنما هو فى الجواهر المخلوقة دون الأعراض، نحو لَوزة ولوز ، وموزة وموز : وقد جاء فى الجوهر المصنوع منه شىء كدواة ودَوِىّ ، وسفينة وسفين . فأما فى العَرَض فقليل كما قلنا . لكنى أوثر أن يكون الضرب هنا جمع ضَرْبة لقوله (كالأخاديد) مع ما آنَسَنا محمد بن يزيد فى قوله تعالى : ﴿ وقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ . وأضمر السيوف فى قوله : (تحمل أغمادها) للعلم بمكانها ، كقوله تعالى : ﴿ كُـلٌّ من عَلَيْها فَانٍ ﴾ وأيضاً فقد جاء ذكر الجنود والسيوف متصلة بهم فكأنها مذكورة .

(مَوْقِعُه فى فَرَاشِ هَامِهِمِ وَرِيحُه فى مَنَاخِرِ السِّيدِ)

الفَراش: قشور تكون فى الرأس على العظم دون اللحم، وقيل : ما يتطاير من عظام الرءوس واحدته بالهاء . و (مَوْقِعه) : وقوعه . أى يقع هذا الضرب برءوسهم فَتَشمُّ الذئابُ رائحة الدم فتقطع إليهم لتأكلهم . فالهاء فى قوله : (وريحه) ليست للضرب لأن الضرب لا طبيعة له فيكون ذا ريح ، وإنما الهاء للدم ، فأضمره لمكان العلم به ، وقد يجوز أن تجعل الريح للضرب وإن كان فى الحقيقة للدم لأن الدم إنما حدث عن الضرب فكأن الريح للضرب. وإن شئت قلت : إذا وقعت الضربة أَرَشَّت دَماً فتغير منه الهواء ، حتى ينْشَق الذئب رائحته فيستدل عليه . وقوله (فى مناخر السيد) كان ينبغى أن يقول مَنْخِر السيد أو فى منخرى السيد . ولكنه جعل كلَّ جزء من المنخر مَنخِراً ، ثم جمعه كما حكاه سيبويه من قولهم للبعير : ذو عثانين كأنهم جعلوا كل جزء منهم عُثنوناً .وعليه وجه قول العرب : آتيك عُشَيَّانات ، قال : جمعوا لأنه حين ، كلما تصوبت الشمس ، ذهب منه جزء . وأنشد قول جرير :

قال العواذلُ ما لجهلك بعدما شَابَ المفارقُ واكتسين قتيرا

وإن شئت قلت : إنه عنى بالسيد هنا : النوع فجمع المنخر لذلك وكل واسع.

(ثُمَّ غَدَا قَيْدُهُ الحِمَامَ وَمَا تَخْلُصُ مِنه يَمِينُ مَصْفُودِ)

صَفَدْتُ الأسير وصَفَّدته : أوثقته . وأصفدت الرجل : أعطيته بالألف لا غير . فمصفُودٌ على صَفَدته . وكانت أغلال العرب القد . ولهذا قالوا فى المرأة السيئة الخلق : غُلٌّ قَمِلٌ ، لأنهم كانوا يشدُّون القِدَّ على الأسير فيقمل . فمعناهُ : كان هذا الميِّت أبو وائل أسيراً فى يد العِدا فأنقذته منهم ثم غدا بعد ذلك فى أسر الموت فلم يك بك قدرة على تنقذه منه وما يخلص منه يمين مصفُودٍ . وَعَذَرهُ لعجزه عن تَنَقُّذه إياه من الموت ، فالموت لا يخلص منه من أوثقه . فأنتَ ياسيف الدولة غير ملوم على أن لم تنقذه من الحِمام كما تنقذه من الأنام . (قيده الحمام) : مبتدأ وخبر فى موضع خبر غَدا ، واسم غدا : مضمر فيها ، كما حكاه سيبويه من قولهم : (كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يكون أبواه اللذان يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه) أضمر اسم يكون فيها ، وجعل الجملة فى موضع الخبر ، وأنشد :

إذا ما المرء كان أبوهُ عَبْسٌ فحسْبُكَ ما تريد إلى الكلام

ولو قال : (ثم غدا قَيْدُهُ الحِمام) أو (قِدُّهُ الحِمام) ، لكان حسناً لكنه لما كان ذكره إنما هو لأبى وائل ، وقد أجراه كثيراً ، أكّد ذلك بالمحافظة عليه فأضمره . ألا ترى قوله : (قد مات من قبلها) . . . وقوله : « ما كنت عنه » . . . وقوله : (أين الهبات التى يفرقها) إلى سائر ما فى القطعة من إخباره عن أبى وائل ، واستفهامه عنه .

- ٨٢ -

وله ايضا :

(ولا فَضْلَ فيها للشجاعة والنَّدَى وصبر الفتى لولا لِقَاء شَعُوبِ)

فيها : أى فى الدنيا . وشَعُوبُ : المنية تَشْعَبُ أى تفرِّق ، وأنشد يعقوب :

فقام إليهـــــا بها جازرٌ   وَمن تَدْعُ يوماً شَعُوبُ يُجبْها

يعزّى عن الدنيا ويقول إن تمام هذه الفضائل فيها إنما هو بتيقّن الفناء . أى لولا خوف الموت، شجع كل الناس وجادوا وصبروا فلم يك أحد مخصوصاً بهذه الفضائل دون صاحبه ولو كان كذلك لم يك لهذه الفضائل فضل لأن الأشياء إنما تَتبَيَّنُ بأضدادها . فلو عُدِم الضِّدّ خفى ضدُّه . وإن شئت قلت: لو أُمِنَ الموتُ لَمَا كان للشجاع فضل، لأنه قد أمن الموت. وكذلك السّخىّ والصبور لأن اعتقاد الخلود ، وتنقل العُسْر إلى اليسر والشدة إلى الرخاء مما يُسَكِّن النفوس ويسهل البوس . هذا قول أبى الفتح ، وهو حسن . وقوله : (لولا لقاء شَعُوب) أراد لولا تيقن لقائها . و (الفتى) هنا لا يعنى به فتاء السن إنما يراد به المدح . كقولك : أنت الرجلُ أى الجَلْد الصابر و كقول الهذلى :

فتًى ما ابنُ الأغرِّ إذا شتَوْنَا   وحُبَّ الزّادُ فى شَهْرَىْ قُمَاحِ

كنى بالفتوة عن الكرم ، كأنه قال : ابن الأغر كريم مُتَفَتٌّ ، ولولا ذلك لم يعمل (فتىً) فى (إذا) لأن الظروف لا تعمل فيها الأفعال أو ماهو فى طريقها ، وإذا قلت زيد فَتىً تعنى به السِّن ، فليس فيه معنى فعل .

(فَعَوَّضَ سيفُ الدولة الأجرَ إنَّه   أجلُّ مُثَابٍ من أجلِّ مُثِيبِ)

إن شئت عَنَيتَ بالمثاب سيف الدولة ، وإن شئت عَنَيتَ به الأجر الذى أثيبه .

(إذا استقبلَتْ نَفسُ الكريم مُصَابَها   بِخُبْثٍ ثَنَتْ فاستَدْبَرَتْهُ بِطيبِ)

المصاب هنا الإصابة لأن المصدر قد يخرج على شكل المفعول به لأنه فى المعنى مفعول ، فمن ذلك الميسور والمعسور والمعقول والمجلود فأما فيما جاوز الثلاثة فمطرد كالمُوَقى فى معنى التوفية ، والمقاتل فى معنى القتال أنشد سيبويه :

أقاتِل حتى لا أرى لى مُقَاتلا   وأنجو إذا لم ينج إلا المُكَيِّس

والخُبثُ في هذا البيت : كناية عن الجَذَع ، وجَيَشان النفس عند الفزع . والطيب : كناية عن الصبر والتوطين . أى إذا جَزِع الفهم فى أول نزول المصاب به رَاجَعَ أمره بعد ذلك ، فعادَ إلى الصبر . وإن شئت قلت : من لم يوطِّن نفسه للقاء المصائب قبل نزولها صعبت عليه عند حلولها فليستشعر اللبيب التوطن على لقاء المكروه لأنه إذا لم يفعل ذلك ، ونزل به ما يكره ، عظم عليه وجزع منه ثم يحول بعد ذلك إلى الصبر ، لاجَدْوى له فى الجزَع .فالحكم أن يبتدئ أولاً بما يعود إليه آخراً كقول الشاعر :

رَأَى كلَّ شيء إلى غاية فصيَّر آخرَهُ أوَّلاَ

وقد فسّر المتنبي معنى هذا المتقدم بقوله بعد هذا :

(وللواجِدِ المحزُونِ مِن زفراته سُكونُ عَزاء أو سكونُ لُغُوبِ)

أى لا بد للمحزون أن يسكن حزنُهُ: إما تعزيا وهو الجيد ، وإما إعياء وهو اللغوب . وإن شئت قلت : إن لم يصبر تعزِّيا واحتساباً ، وإلا صبر لغوبا حين لا أجر له ولا فضل .

— ٨٣ —

وله أيضا :

(فلِمْ لا تَلُوم الذى لامَهَا وَمَا فَصُّ خاتِمه يَذْبُلُ)

كأن لائماً لام هذه الخيمة على عجزها عن الاستقرار على سيف الدولة والاعتلال له حين تقوضت . فيقول: لاينبغى أن تُلام لأن ذلك ليس فى وسعها ، ولااستطاعتها ، وليس على تارك ما يطيق لوم . فإن كان الإنصاف أن تُلام هذه الخيمة على ما ليس فى طَوْقها ، فلم لا تَلُوم لائمها على أن لم يعلق أن يجعل

فصّ خاتمه يذبل ؟ لأنهما قد استويا فى العجز وإنما كان ينبغى أن يلومها من أطاق التختّم بهذا الجبل . فإذن لا أحد يقدر على ذلك فلا تلومَنّ الخيمة على تقوضها ، وضعفها عن حمل سيف الدولة ، لأن العجز عن الممتنع قد وضح فيه العُذر ، و (لِمْ) : لغة فى (لِمَ) فاشية معروفة .

(فَمَا اعْتَمد اللهُ تَقْوِيضَها وَلَـكِنْ أشار بما تَنْتَقِلُ)

أى لم يقوضها ليحْزنَك ، ولـكن أشار عليك بالرّحيل نحو ما اختاره لك من الجهاد ؛ وسلوكِ سُبُل الرشاد . والإشارة من الله عز وجل عليه : إنما هى إلهامُهُ إياهُ ، وليست على حد الإشارة الإنسانية ، لأن هذه إنما هى الجوارح . وربنا تعالى يَجِلُّ عن ذلك .

(رَأتْ لَون نُورِكَ فى لَونِها كَلَونِ الغَزَالَةِ لا يُغسَلُ)

وهذا عذر الخيمة فى سقوطها ، أى أنها رأت لَون نورك فى لونها كنور الشمس فَراعَها مَيلك ذلك ، لأنها ظنتك الشمس ، التى هى تلك الكواكب ، فلذلك سقطت لأنها استعظمت حملها لك ، وقوله : (لا يُغسَلُ) أى اتصل نورك بها حتى صار فيها كالشّامة التى لا تُمْحَى بالغَسْل .

(وقد عرَفَتْكَ فما بالُها تَراكَ تَراهَا ولا تَنزِلُ)

هذا البيت شُنْع وكُفر لِمَا عَنى أن هذه الكواكب غير عاقلة لأنها لو كانت عاقلة لعرفَتْك ، وتبيّنت أن مَحَلك فوق محلّها ، فكانت تنزل إليك فإذ لا تنزل ، فهى غير عارفة بك ، وإذا هى غير عارفة بك ، فهى غير عاقلة . ولعمرى ، فقد ذهب فى تلك إلى تكذيب من ادعى أن الكواكب تعقِل وإن كان قد غلا .

— ٨٤ —

وقال أيضا :

(ومَا عَفَتِ الرياحُ له محلاً عَفَاهُ من حَدَا بِهِمُ وَسَاقَا)

أى لم تعف الرياح هذا المنزل ، وإنما عفاه بتنقلهم عنه وإخلائهم له .

(نَظَرتُ إليهمُ والعينُ شَكْرَى فصارت كلُّها للدمع ماقَا)

شَكْرَى : أى مَلْأَى لم تفض بعدُ . والماقُ : مجتمع الدمع . فلما رأيتهم متحملين ، فاض الدمع من جميع جوانبها ولم يخص الماق وحده ، بل صارت العين كلها للدَّمْع مَجْرىً ، فكأنها كلُّها مآق ، كقول الشاعر :

أُقَلِّبُ عينى فى الفوارِس لاأرى حِراقاً وعينى كالحَجَاةِ من القَطْرِ

أى تملأتْ كلُّها من الدمع حتى عادت كالحَجَاةِ ؛ وهى نُفَّاخة الماء .

ولا أقول : إن الألف فى « ماق » مبدلة من الهمزة ، لمكان الردف ، لأنهم قد قالوا « ماق » بزنة « مال » وكسَّرُوه على أمواق كأموال ، فدل ذلك على أن ألفه منقلبة عن واو ؛ كألف مال . ولو لم نعرف ماقاً مكسَّراً على أمواق ، لعلمنا أن ألفه منقلبة عن همزة ، لقولهم مَأْق مهموزة .

(وخَصْرٌ تثبتُ الأبصارُ فيه كَأَنَّ عليه من حَدَقٍ نِطَاقَا)

إن شئت قلت : إذا نظرته العين استحسنته ، فلم تَعْدُه ، وتثبت فيه . فكثر الناظرون إليه من كل جانب حتى كأنه متنطق بالحَدق . وإن شئت قلت : تثبت الأبصار فيه لبضاضته ونعمته ؛ فكأن ماثبت فيه من حَدَق الناظرين إليه نطاق له . وأراد كأن عليه نطاقا من الحَدَق المُحدِق به .

(أَبَاحَ الوَحْشَ يا وَحْشُ الأعادى فَلِمْ تَتَعَرَّضينَ له الرِّفَاقَا)

الوحْشُ مؤنث . ويروى (أَباحَكِ أيُّها الوحش الأعادى) . والأعادى : جمع الجمع : عدو وأعداء وأعادٍ ؛ وأصله أعادىّ كأفاعىّ ؛ فحذفت إحدى الياءين تخفيفاً ، ثم حذفت الأخرى حذفاً لغير علة ؛ وصار التنوين عوضاً منها . وأراد (الأعادىَ) لأنه فى موضع نصب ؛ بكونه مفعولاً ثانياً لأباح فاضطره

الوزن إلى تسكين الياء . والرِّفاق : جمع رُفقة كحُفْرة وحِفار ، وعلبة وعِلاب والمعنى أيتها الوحش ؛ قد أباحك هذا الممدوح أعاديَه قتلهم وصَرَعَهم لك ؛ وحكَّمك فى أ كلهم ، فلِمْ تتعرضين له الرفاق السائرة إليه ، وقد أغناكِ عن الاعتساس والطلب فيمن أَجْزَرَكِ من أعاديه ، وجَعَلَه لك أ كِيلةً .

(إذا أُنعِلْن فى آثارِ قَوم وإنْ بَعُدوا جَعَلْنَهمُ طِرَاقا)

الطِّراق : ماأطبقت عليه النعل فَخُرِزَت به ؛ وهـو طبقته السفلى . وقيل الطراق : نعل تُطْرح تحت النعل ، استظهاراً وتوكيداً . أى إنها إذا أُنْعلت فى طلب قوم أدركتهم قداستهم ؛ فصارت أشلاؤهم نعالاً لتلك النعال .

(أقَامَ الشِّعْرُ ينتظر العطَايَا فلمَّا فَاقَتِ الأمْطارَ فَاقَا)

انتظر الشعر أن تُحسِن ، فأشكرُ وأُشعرُ . فلما فاقت عطاياك الأمطار ، فاق شعرى الأشعار كقول البحترىّ :

فقد أتتكَ القوافى غِبَّ فائدةٍ كما تَفَتَّحُ بعدَ الوابل الزَّهَرُ

(يُقَصِّرُ عن يَمينكَ كلُّ بَحْرٍ وَعَمَّا لَمْ تُلِقْهُ مَا أَلاقَا)

لاَقَ الشىء وألاقَهُ : أمسكَهُ . ولاقَ هو نَفْسهُ : أمْسك . أنشد سيبويه:

تقولُ إذا استهلكتُ مالاً للذةٍ فُكيهةُ هَشَّىءٌ بكفيكَ لائِقُ

يقول : يقصر البحر عن يمينك جوداً ؛ ويُقَصِّر ما ألاقَ من الأعلاق ، عما بذلته أنت . أى إنما تعطيه أنت أ كثر مما يمسكه البحر فى ذاته .

- ٨٥ -

وله ايضا :

(لا الحُلْمُ جَادَ به ولَا بِمِثَالِهِ لَوْلاَ ادِّكَارُ وَدَاعِهِ وَزِيالِهِ)

أى مثله لايستطيع الحلمُ أن يُصوِّره ، لأنه أرفع من ذلك . لـكنى تذكرته

حين تذكرت وداعَه ومزايلته ؛ فثبت ما امتثلت منه فى هاجسى ؛ فأرانى النوم إياه . فإذن لم يَجدْ لديه إلا تذكُّرَهُ له . وهذا رأى بعض الفلاسفة فيما يراه النائم.

وقال أبو تمام :

زارَ الخيالُ لها لا بل أزارَكَهُ فِكرٌ إذا نامَ فكرُ الخَلْقِ لم يَنَمِ

وإن شئت قلت : إنه بالغ بصفة هجر محبوبه له فقال : لا يسمح لى بمواصلةٍ فى يقظة ولا نوم ؛ وإنما أطلت تذكره ؛ وواصلت ذلك ليلاً ونهاراً حتى رأيت خياله . وأبلغ منه قول الآخر :

« صَدَّتْ وعلمت الصـدود خيالها »

فهذا يصف أنه لم يرَ خيالهـا .

(إنَّ المعيدَ لنا المنامُ خيالَه كانت إعَادَتُه خيالَ خياله)

أى كنا قبل النوم نتخيل خياله بالتذكر والتفكر ؛ فلما نمنا رأينا خيال ذلك الخيال الذى كنا تخيلناه . وإن شئت قلت : إنه كنى بذلك عن قلة الزمن الذى استمتع فيه بالخيال . والإعادة بمعنى المُعاد ، وضع المصـدر موضع الاسم ولا يكون الخيال هو الإعادة ، لأن الخيالَ جوهرٌ والإعادة عَرَض .

(تَجنِى الـكوا كبَ من قلائدِ جيده ونَنَالُ عينَ الشمس من خَلْخَالِهِ)

السابق من هذا البيت إلينا ، أنه شَبَّه دُرّ قلائده بالكوا كب لبياضه ، وخَلْخاله بعين الشمس لاستدارته ولونه ، إن كان من ذهب ولـكن ألطف من هذا أن يقول إن هذا المحبوب ممنوع لا تصل اليد إلى العبث بقلائد جيـده ، ولا تمسُّ خَلْخاله الأيدى ، فيقول : من مسَّ قلائده فكأنه جنَى الـكوا كب لبُعدها ومناعتها ، ومن نالَ خَلْخاله ؛ فـكأنه نال الشمس لذلك أيضاً مع التشبيه الذى تقدم ذكره ولو قال : « ونَنال الشمس من خَلْخاله » كان كافياً فى المعنى.

لكن قال : « عين الشمس » لأن هذه الجارحة مستديرة . وإن شئت قلت : إنه عنى بعين الشمس حقيقة جوهرها ، لأن هذه الجارحة من الحيوان .

(بِنتُم عن العين القريحة فيكُمُ وسَكَنتُم طَيَّ الفُؤادِ الوَالِهِ)

فيكم : أى من أجلكم ، كما تقول : هُجرت فيك : أى من أجلك . وليست (فى) هنا للوعاء (وسكنتم طيّ الفؤاد) : كان يعنى من ذلك أن يقول : وسكنتم الفؤاد . ولكنه وطّأ بذكر الوطن صنعةً وتسبباً ، إلى حفظ إعراب القافية وجعل الهاء الأصلية فى الواله صلةً لأن العرب تصل بها أصلاً كما تصل بها زائدة . قال :

حوريـةٌ أُولِعتُ باشتهارها فَاصِلةُ الحَقْوَينِ من إزَارِها
يُطرِقُ كلبُ الحىّ مِنْ حِذَارها أعْطَيْتُ فيها طائعًا أو كارِها
حديقةً غلباء فى جِوارِها وفَرسًا أنثى وعبداً فارِها

فوصَلَ بالهاء الأصلية فى قوله كَارِهًا وفَارِها كما وصل بالزائدة فى سائر الأبيــات .

(فَدَنوتُمُ ودُنُوُّكُم مِنْ عِنْدِهِ وسَمَحْتُمُ وسَمَاحُكُم من مَالِهِ)

أى فكَّر فيكم فأدناكم فؤاده ، ولم تَدْنُوا أنتم بإرادتكم . فالمَنُّ للفؤاد لا لَكُمْ ، وسمحتم وسماحكم من ماله . أى سمحتم له بالزيارة ، وسماحكم من لَدُنه ، لأنه إنما كان لِمَا امتثله خاطركم من ذكراهم ، وتصوّر لقيامم . ولما ذكر السماح استجازَ ذكر المال ، وإلا فلا حقيقة له .

(إنّى لأُبغِضُ طيفَ من أحْبَبْتُه إذ كان يَهجرنِى زمَانَ وِصَالِه)

إنما شَنَأَ الطيف ، لأنه وصله أيام هجر الحبيب له ، وهو المُوجب لزيارة الطيف لأن إمكان الوصل الحقيقى لا يكاد يكون معنى خيال إنما الخيال مع عدمه لما يَحدُث من الشوق والتوقِ .

وقيل معناه : إذا كان الحبيب يهجرني زمان وصاله الخيال ، وهذا من الضعف بحيث لايلتفت إليه ، وإنما نقلته تعجباً .

(إن الرياح إذا عَمَدْنَ لناظرٍ أغْنَاهُ مُقْبِلُها عن استِعْجالِهِ)

أى لهذا الممدوح من شيمة المبادرة إلى الجود ، مايغنى عن السؤال ، كما أن للريح من السرعة ما يغنى عن الإستعجال لها . والهاء فى استعجاله إياها يجوز أن تكون للناظر ، فتكون فى موضع الفاعل ، أي عن استعجاله إياها ، ويجوز أن تكون للمُقْبل ، فتكون الهاء فى موضع المفعول . وذلك أن الاستعجال مصدر ، والمصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول .

(غَرَبَ النُّجومُ فَفُزْن دون هُمُومِهِ وطَلَعْنَ حِينَ طلعن دُون مَنَالِهِ)

أى قد نال ما هو أعلى من النجم ، وهمته فى ذلك غير مقتنعة بما نالت ، ولا مقتصرة عليه ، فهى تطالبه بما هو أبعد من مطالعها ومغاربها .

- ٨٦ -

وله ايضا :

(الفاعِلُ الفعلَ لم يُفْعَل لِشِدَّتِهِ والقائلُ القَولَ لم يُتْرَكْ ولَمْ يُقَلِ)

أى يفعلُ الفعلَ الذى لم يفعله غيره ، بل عجز عنه وقصَّر ، لشدته وثقل مَئُونته ، و (القائل القولَ لم يُتْرَك) : أى لم يَتْرُكِ الناس اجتهاداً فى أن يقولوا مثله ، فهذا معنى قوله « لم يُتْرَك » : لكن لم يقدروا عليه ؛ فهذا معنى قوله : « ولم يُقَل » . وهو كقول البحترى :

فى غايةٍ طُلِبَتْ وقصَّر دُونَها مَنَ رامَهَا فكأنها ما تُطلَبُ

أى لما كان الطلب علةً للإدراك ؛ ثم لم تك هذه الغاية مُدرَكة ، كان الطلب كأن لم يكن .

وتقدير البيت : الفاعل الفعلَ الذى لم يفعل؛ والقائل القول الذى لم يقلْ؛ فحذف (الذى) ومثله كثير ؛ أنشد سيبويه :

لَوْ قُلْتَ ما فى قَومِها لَمْ تِيثَمِ   يَفضلُها فى حَسَبٍ ومِيسَمِ

(هو الشجاعُ يَعدُّ البخلَ من جُبُنٍ   وهْوَ الجوادُ يَعدُّ الجُبنَ من بَخَلِ)

أى إنه شجاع جواد ؛ لأن إحدى هاتين الصفتين منوطة بالأخرى ؛ لأن الشجاع يجب له أن يعلم أن البُخل جُبن وهَلَعٌ من الفقر ؛ فإن كان بخيلاً فهو ناقص الشجاعة ؛ لحذَره من الإعْدام ؛ ويُحَبُّ للجواد أن يعلم أن الجُبنَ بخلٌ بالنفس ؛ فان لم يك ذا شجاعة فهو ناقص الكرم ؛ لبخله بذاته .

فهذا الممدوح قد تَبَيَّن له أن البخل جُبنٌ ؛ وان الجُبن بُخلٌ ؛ فلم يرض إحدى الخطتين دون صاحبتها ؛ فشجُع وكَرُم . ومثله قوله هو أيضا :

فقلت إن الفتى شَجَاعَتُــه   تُريه فى الشُّحِّ صورةَ الفَرَق

وقد اجادَ ابن الرومى تلخيص ذلك وتسهيلَه ؛ فقال :

البخلُ جبنٌ والسماحُ شجاعةٌ   لاشَكَّ حين تصحِّح التَّحْصيلَا

جُبنُ البخيل من الزمان وصَرْفِهِ   فتهيَّب الإفضال والتنويـلا

(وكَمْ رِجَالٍ بلَا أرضٍ لـكثْرتِهم   تَركتَ جَمْعَهُم أرضًا بلا رَجُلِ)

أى كانوا كثيراً قد غَطّوا الأرض بكثرتهم حتى خَفيَتْ ، فكأنهم بلا أرض البتَّة ؛ يقول : قتلتَهم أنت ؛ عادت تلك الأرض الموَطأةُ بكثرتهم ؛ أرضًا لا تَرى فيها رَجُلا . وأوقع (كَمْ) على جميع هذا ؛ لأنها خبر .

قال :

كم دُون سَلْمَى فَلَواتٍ بيدِ   مُنْضِيةٍ للبازلِ القَيْدُودِ

وقوله :(تركت جمعهم أرضا بلا رَجُل) جملةٌ فى موضع جر ،لأن موضع كم هنا رفع بالابتداء .

(يَا مَنْ يَسِيرُ وحُكْمُ النَّاظِرِينَ لَهُ   فيما يَرَاهُ وحُكْمُ القلْبِ فِى جَذَلِ)

أى قد أطاعتك آمالُك ، وحكّمك الزمان فى نيلك كل ماسعيت إليه ، وبَنَيْت هواك عليه ، فما تقع عيناك من المرئيات إلا على ما يسُرهما ويؤديان به إلى فؤادك ما يخبرك ويسرك . وقال :وحكم الناظرين وحكم القلب : أى حكم ناظِرَيه وحكم قلبه . وكلتا الجملتين فى موضع الحال من الضمير الذى فى الفعل، أعنى (يسير) أى : يامن يسير مسروراً جَذِلَ الفؤاد .

(أجْرِ الجيادَ على ما كُنتَ مُجْرِيَها   وخُذْ بِنفسِكَ فى أخْلاقِكَ الأُوَلِ)

السابق إلىَّ من هذا البيت ، أنه رأى منه تغيّراً عما كان عليه من تفضيله على من سواه من الشعراء ، فقال له : اعْدِل كما كنت فاعلا .

وأما ابن جنى فقال : سألته عن هذا فقال : كان سيف الدولة قد ترك الركوب أياماً ، فحضّهُ بذلك على المُعاودة .

- ٨٧ -

وله ايضا :

(إذَا كان مَدْحٌ فالنَّسِيبُ المُقَدَّمُ   أَكُلُّ فَصِيحٍ قَالَ شِعْراً مُتَيَّمُ)

من شأن الشعراء إذا أرادوا المدح ،أن يقدِّموا النسيب .هذاهو الأغلب، حتى سَمَّوا الشعر الذى لا يُصَدَّر بالنسيب خَصِياً ، حُكِى هذا عن أبى زيد .

فالمتنبى قد خَرَق فى هذا الشعر عادتهم ، وأنكرها عليهم ،وجعل ابتداء شعره مدح سيف الدولة . ثم قال : (أكلٌّ فصيح قال شعراً مُتَيَّمُ) ؟ هذا فى اللفظ إنكارٌ ، ظاهره استخبار ، وهو فى الحقيقة خبر منفيّ . أى ليس كل فصيح شاعراً مُتَيَّماً ، فيلزمه النسيب إذا مدح .

(فَجَازَ له حتَّى على البدرِ حُكْمُهُ   وبَانَ له حتَّى على البدرِ ميسَمُ)

أى إذا سَارَ أثَار الغبارَ ، فحكم على الشمس بالاسوِدَاد . وهو ضدُّ لونها . وَإذا سَارَ ضاعفَ الغبار . وكَلَفَ البدر . والمِيسم على هذا القول — من الوَسْمِ — الذى هو العلامة بالنار والقطع ، وليس بآلة هنا ، إذ لامعنى لذلك . وقيل المِيسَم هنا الحُسن . أى فاق البدرَ فى الحسن والأول أولى .

وتقدير البيت : فجاز له حُكم على كل شىء ، حتى على الشمس . وبان له وسْمٌ على كل شىء ، حتى على البدر . وينبغى أن يكون الفعل مَنوِيًّا مع حتى ، كأنه قال : حتى جاز على الشمس ، وحتّى بان على البدر ، أى إلى أن . ولا تكون حتّى هنا حرف غاية ، وتكون داخلة « على » لأن حتّى وعَلَى حرفان ، ولا يدخل حرف على حرف . فلا بد من تقدير حتّى (بإلى أن) . وإذا قدرتها بإلى أن ، فقد حصل الفعل ؛ لأن « أنْ » لابد لها من الفعل .

(وَلَا كُتْبَ إلا المَشْرَفيَّـةُ والقَنَا   ولَا رُسْلُهُ إلا الخميسُ العرَمْرَمُ)

أى الذى يقوم له مَقام الكُتُب ، إنما هو السيوف . والذى يقوم له مقام الرُسُل ، إنما هو الجيش العظيم ، يُهْدِيه إلى عدّوه . وإنما نفى عنه الإخلاد إلى الكُتُب والرسل ، لأن ذلك تأنٍّ ، وأخْذٌ بالهُوَيْنَى .

(يَطَأْنَ من الأبطَالِ مَنْ لا حَمَلْنَهُ   وَمِنْ قِصَدِ المُرّانِ مَا لَا يُقَوَّمُ)

القصَد : كِسَر الرماح ، واحدتها : قِصْدة . وَالمُرّان : وَشِيج الرماح إذا لاَن وتَخَلّق ، من المَرانة ؛ وهى اللّين ، ألا تراهم قالوا فى هذا المعنى : رمح لَدْنٌ . واللُّدنة : اللِّين . ومن هنا زعم سيبويه أنه إذا سَمَّيتَ بمُرَّانٍ صرفته ؛ لتصوره معنىً من اللين فيه . ومعنى البيت : أنَّ خيلَه يَطَأْن من أعدائه ، من لم يَحْمِلْنَه . فوضع الماضى موضع المستقبل .

وإنما توضع الأفعال بعضها موضع بعض فى غالب الأمر مع الحروف ، نحو قولك : إن فعلتَ فعلتُ : أى إن تفعلْ أفعلْ ، وقولك : والله لافعلتُ ، تريد : لا أفعلُ .

(ومِن قِصَدِ المُرَّان ما لا يقوّمُ) أى قد بالغت فى تحطيم الرماح وتَعْويجها، حتى ليس فى الإمكان أن يُجْبَر عَنْ كسرها ؛ ولا أن يُقوَّم مُنادُها وقيل: (مَنْ لَا حَمَلْتَهُ) : دعاء للمدوح : أى لاغلَب عِداهُ حرابه ، فيملكوا خيلهم .

والأول عندى أولى ، لقوله : (ومِن قِصَدِ المُرَّان ما لا يقوّم) فهذا خبر ، إلا أن تضع (يُقوّم) موضع (قُوِّم) فيتوجّه معنى الدعاء ، وقد يجيء لفظ الدعاء مساوياً للفظ الخبر ، كما يكون ذلك فى الأمر والنهى ، كقول الشاعر ، أنشده يعقوب :

كَمَلْقَى عِقالٍ أو كَمَهلِكِ مَالِكٍ   وليس لِحَىٍّ هالك بوصَيلِ

وقال الهُذَلىّ :

لَيْسَ لِمَيْتٍ بوَصْلٍ وَقَــدْ   عُلِّق فيه طَرَفُ المَوصِـلِ

فمعنى هذا كله : ولا وُصِل هذا الحىّ بهذا الهالك . وهذا دعاء قد خرج على لفظ الخبر ، ومثله كثير .

(يُقِرُّ له بالفَضْلِ من لا يَوَدُّهُ   وَيقْضِى له بالسَّعدِ من لا يُنَجِّمُ)

أى إن فضله ذائع شائع ، يضطر عداه إلى الإقرار به له ، منكبا لخرق الإجماع ، وعلماً منهم أنهم أفكر ، ولم يقبل ذلك منهم ، فكان دليلاً على تعسُّفهم كقول البحترىّ :

لا أدّعِى لأبى العلاء فضيلةً   حتى يسلِّمها إليه عِداهُ

(ويَـقضى له بالسَّعدِ من لا يُنَجِّمُ) : أى قد عهد سعيداً ميموناً مدركاً لـكل من طلب فيقاس بماضى أفعاله وحاضرها على مستقبلها .

(أجَارَ على الأيام حتى ظَنَنْتُهُ   تُطالبُـه بالرَّدِّ عَادٌ وَجُرْهُمُ)

(أجار على الأيام) : حمى منها ومَنَع ، وجعل نفسه ملاذاً للناس منها ، حتى ظننت أن الغابرين من الأمم ستطالبه بأن يردّها إلى الحياة ، وأن يُعْدِيَها على الأيام التى تَحيَّفَتْها وأهلـكتها . وخص عاداً وجُرهماً لقدمهما . وإن شئت قلت : لعظمهما .

(كَأَجْنَاسِها رَايَاتُها وشِعارُها   وَمَا لَبِسَتْه والسِّلاحُ المُسَمَّمُ)

عسكر العرب قبيلةٌ واحدة . فخيله وسلاحه وملبوسه كُلّه عربىّ ، وإنما مدح عسكره بذلك ، لأن الجيش إذا كان من قبيلة واحدة كان أشدَّ لبأسها . هذا قول أبى الفتح .

والذى نؤثره نحن ، أن عسكر العرب إنما هو كما قال ، ألا ترى أن النابغة قد قال :

وَثِقْت لهم بالنصر إذْ قيل قَدْ غَزَت   كتائبُ من غسَّانَ غيرُ أشائِب

وهى التى تسمى الحمرة . ومنه قول الحطيئة لعمر بن الخطاب : (يا أمير المؤمنين ، كُنا ألف ألف فارس ، ذَهبيّة حَمْراء : أى لم يختلط بنا أحد ، فهكذا عسكر العرب. فأما عساكر الملوك فكلّما تنوعت أجنادها ، كان أعظم لمُلْـكها ، وأقدر لملـكها ، لأنه متى تغيرت حربٌ ما ، قوم بحرب آخر) فيقول إن أجناس عسكر هذا الملك كثيرة مختلفة بالنوعية ، فينبغى أن تختلف أيضاً أعلامها وبِزتها وسلاحها ، لـكل نوع من أنواع الخميس زِىّ يخالف زِىّ صاحبه كقوله هو يصف عسكراً :

تَجَمَّعَ فيه كل لِسْنٍ وأمة فما تُفهِمُ الحُدَّاثَ إلاَّ التراجمُ

وتقدير البيت: راياتُها وشِعارها وسلاحها كأجناسها. أى أن هذه المحمولات كلها متنوعة فى ذاتها، كما أن الحاملين لها متنوعون. والتنوع الذى ذكرناه فى هذا البيت؛ إنما هو تنوع بالنَّسب، وتنوع بالصورة، لا تنوع بالفصول الذَّاتية، ولو قال هو كأنواعها، لكان أشبه، ولكنه آثر كلام الجمهور.

(بِغُرَّتِهِ فى الحربِ والسِّلم والحِجا وَبَذْلِ اللُّها والحدِ والمجدِ مُعْلَمُ)

أى أنه مُعلَمَ بغرته فى هذه الفضائل كلها مَطْرور بها. ذهب إلى شهرته وجَهْـرَتِه.

(ضَلالاً لِهَذِى الريح ماذا تُرِيدُه وهَدْياً لهـذا السَّيْلِ ماذَا يُؤَمِّمُ)

دعا على الريح، لأنها عارضت سيف الدولة فآذت، ودعا للغيث، لمشاكلته إياه فى طبيعة الجود.

(تَلاَكَ وَبعضُ الغيثِ يَتْبَع بَعضَه من الشَّامِ يَتْلُو الحاذقَ المُتَعلِّمُ)

تَلاكَ يعنى الغيث، ويخاطب الملك، وكان الغيث قد صحبه من الشـام إلى ميَّافارقين وبعض الغيث يتبع بعضه: أى أنك غيث، فلا تلم الغيث فى اتباعه إياكِ، لأن بعض الغيث يتبع بعضاً. و(من الشام): متعلق بتلاَك؛ أى تلاك هذ الغيثُ من الشام.

(يتلو الحاذِقَ المتعلمُ): إما أن يكون هذا على المَثَل، فيكون الحاذق والمتعلِّمُ نوعين، أى كل حاذق يتلوه مُتَعَلِّمه، من أى الطبقات كان. فهذا وجه المثل الكلِّى.

وإما أن يَعنى بالحاذق سيفَ الدولة، وبالمتعلِّم الغيث، أى سيف الدولة هو الحاذِق بسلوك طريقة الجود، والغيثُ مُتَعَلِّمٌ منه، فهو يتبعه لذلك.

ولو اتزن له أن يقول : يتلو المُعَلِّمَ المُتعلِّم ، لكان حسناً لمقابلة الفاعل بالمنفعل المفعول ، ولكن فى الحاذق مَزِيَّةٌ ، إذ ليس كل مُعَلِّم حاذقاً .

(أَلَمْ يَسأَلِ الوَبْلُ الذى رَامَ ثَنْيَنَا فَيُخبِرَه عنكَ الحديدُ المُثَلَّمُ)

أى : ألم يسأل الوبلُ الذى أراد صَرْفَنَا عن وجهنا ءالحديدَ المَثلَّمَ فيخبره عنك ، أنه لم يجد فيك مَطْمَعا ، ولا لعَرْفك مَوضِعاً . فكيف يَرومِ الغيث من كفك وصَرْفك ، ما عجز عنه الحديدُ ، الذى هو أقدر على ذاك منه . فالعامل فى هذا البيت الفعل الآخر ، الذى هو (فيخبره) . وهذا كقولك : ضربتُ وضربنى زيد ، أى ضربت زيداً ، وضربنى زيدٌ .

فحذف لدلالة الثانى عليه . وقد أبان سيبويه ذلك وقال : إنه كلام العرب ، أوأ كثر كلامها . يعنى إعمالَ الثانى . ولو أعْمَل الأول لقال الحديدَ المثلَّمَ فيخبره ، وهو كقولك:ضربت وضربنى زيداً،أىضربت زيداً وضربنى .

— ٨٨ —

وله أيضا :

(وَمَنْ صَحِبَ الدنيا طويلاً تَقَلَّبَتْ عَلى عينهِ حتَّى يَرَى صِدْقَها كِذْباً)

أى لا صدْقَ أصدقُ من العيان ، وبه تثبت حقيقة البُرهان . فيقول : من عرف الدنيا عَلِمَ أن مايراه عياناً مما يسُّره ، لايلبث أن يزول ، فيعقبه ما يسوءه فكأن ذلك الصدقَ المدركَ بالعيان كذب . و (طويلا) هنا : نصب على الحال ، ولا يكون على الظرف ، لأن طويلاً ونحوه صفة ، وليس بحين يقع فيه الفعل ، ولذلك اختار سيبويه فى قولهم: (سِيرعلَيه حسناً وشديداً ونحوهما) أن يكون أحوالا لا ظرفاً ، لما قدمنا .

(لَقَدْ لَعِبَ البَيْنُ المُشِتُّ بِهاَ وَبِى وَزَوَّدَنِى فى السَّيرِ مَا زَوَّدَ الضَّبَّا)

يعنى ما زوّد الضبُّ العدَمَ ، وإن كان لفظه لفظ الوجود . أى لم يُزَوِّدنى

شيئاً بقدر ما يَشربُ الضبُّ من الماء . والضبّ لا يشرب الماء ألبَتّة ، إنما يستروح النسيم .

(إذا الدَّولةُ استَكفَتْ به فى مُلِمَّةٍ
كَفاهَا فكانَ السَّيفَ والكَفَّ والقَلْبَا)

استكفَتْ به : أى طلبت الكِفاية . ولو قال استَكفَتْــهُ فاتزن ، كان (مثل) قوله : استغفرت الله واستعجلت السير .

(كفاها فكان السيف والكف والقلب) : أى كان هو الجامع لهذه الثلاثة، وذلك أن السيف لا يستغنى عن الكف ، والكف لاتقبض عليه حتى يؤيدها القلب . وقد قال هو فى تحقيق هذا :

وَلَكِنْ إذا لم يَحمِل القلبُ كفَّه على حاله ، لم يحمل الكفُّ ساعدُ

(فَبُورِكْتَ مِنْ غَيثٍ كَأَنَّ جُلُودنا به تُنْبِتُ الدِّيباجَ والرَّيْطَ والعَصْبَا)

العَصْب : برود اليمن ، جعله كالغيث وجعل جلودهم كالأرض التى إنما تُنْبِت بالغيث . فان شئت قلت : كَنَى بالديباج والريط والعصب عن نَعْمة جلودهم وما يعلوهم من الخير . وإن شئت قلت : كنى به عما تَهَب لهم من الكُسا ، وإن شئت قلت : إنّ الغيث يُنْبِت الرياض ، وجلودُنا بندالك تنبت ماهو أحسن من الرياض : عَصْباً وديباجاً .

(ولكنَّه وَلَّى وللطَّعْنِ سَوْرةٌ إذا ذَكَرَتْها نَفْسُه لَمَسَ الجَنْبَا)

سَوْرَة : حِدَّةٌ وارتفاع : أى إذا ذكر سَوْرَة الطعنة لم يصدق أنه نجا منه فلمس جنبه ، ليعرف هل أصابه الطعن أم لا ؟ كقول أبى نواس :

إذا تفكرتُ فى هَواىَ له لستُ رأسى هل طار عن جسدى

يعنى أنه يَهْوَى ممتنعاً عزيزاً .

(فأضحى كأنَّ السُّورَ من فوقُ بَدْؤُهُ

إلى الأرض قَدْ شَقَّ الكواكبَ والتُّرْبا)

(من فوقُ) : مبنى على الضم لحذف المضاف إليه . وبدؤه : ابتداؤه .
أى أن هذا السور فوقَه قد شق الكواكب إلى ما فوقها ، وأسفَله قد شق
الترب إلى ما تحته ، كقول السموءل بن عادياء يصف حصْنا :

رَسا أصلُه تحتَ الثَّرَى وسما به إلى النجم فَرْع لا يُنَال طَويلُ

فكأنه قال من السماء بدؤه إلى الأرض . وإذا كان من السماء إلى الأرض ،
فهو لا محالة من الأرض إلى السماء . وإن كان المبدأ الصحيح إنما هو :
من الأرض .

— ٨٩ —

وله أيضا :

(أعيذُها نَظَراتٍ منكَ صَادِقةً

أن تَحسِبَ الشَّحْمَ فيمَن شحمُهُ وَرَمُ)

أى : أُجِلُّ نظرك الصادقَ المصيبَ ، أن تظنَّ بى حُسن حَالٍ ، لما يظهر
لك من شارتى ، وإنما ذلك تجمُّــل لا غِنىً ، فنظرُكَ هذا يُشَبِّه لك الأمر
بخلاف ما هو به . ويكون النظرُ ها هنا ظنَّه الخيرَ فيمن لا خير فيه ؛ والأول
أشبـــه

(إذَا تَرَحَّلْتَ عن قَومٍ وقَدْ قَدَرُوا ألاَّ تُفَارِقَهُمْ فالرَّا حِلُون هُمُ)

أى إذا قدرُوا على إغنائى عن مُفارقتهم ، ثم اضطرونى إلى فراقهم
(فهُمُ) المُخِلُّون بى حقيقة . وإن كنت أنا المُخِلَّ بهم ، لأن سبب
إخلالى بهم إنما هو سبب إخلالهم بى . إذ لو شاءوا ألاَّ أرحل عنهم لم أرحل .

(وقد قَدرُوا) : جملة فى موضع الحال . وجاز أن يكون حالاً من قوم ، وإن كانوا نكرة ، لأن فيه معنى العموم ، ولولا هذه الواو ، لكان أولى من ذلك أن تكون الجملة فى موضع الصفة للنكره . فأما مع الواو فلا يكون ، لأن الصفة والموصوف كالشىء الواحد . فإذا عطفت الصفة على الموصوف ، فكأنك عطفت بعض الاسم على بعض ، وهذا ما لا يَسوغ . وأما الحال فمفصوله من ذى الحال ، فجاز الفصل بينهما لذلك .

(وَشَرُّ ماقَبَصَتْهُ رَاحَتِي قَنَصٌ شُهبُ البُزَاةِ سَواءٌ فِيهِ والرَّخَمُ)

أى : أنا فى الشعراء كالبَازِى فى أنواع الطير ؛ والشعراء غيرى كالرَّخَم ، وبين البازى والرخَمة من الفضل ما قد عُلِم . فيقول : إذا تساويتُ أنا ومن لا تُدرِكه فى أقدار عَطاياك ، فكان له منها مالى ، فأىُّ فضل لى عليه ، وإن كنت فاضلاً له ؟ يقول : إما أن تُمَيِّزَنى على غيرى من الشعراء ، وتُبقِى عطاياك لهم كما هى ، وإما أن تُبقِى عطاءك لى كما هو ، وتَنزِلَهم عنه ، ليكونوا دُونى فى النَّوال ، كما هُم دُونِى فى المقال .

وخَصَّ شُهب البزاة لأنها أفرهُهُنَّ وأقنَصُهُنَّ . وقد قيل إن البُزاة كُلَّها شُهْب . فليس إذن على طريق التخصيص ، وإنما هو على حسب الصفة التى البزاة بها .

(وَمُهجةٍ مُهْجَتِي مِن هَمِّ صَاحِبِها أَدْرَكْتُها بِجَوادٍ ظَهْرُهُ حَرَمُ)

أى : وُربَّ ذى مهجةٍ طلب منى ما طلبت منه فلم ينلنى ونلته أنا . بجواد ظهره حَرَمٌ : أى من ركبه ولاذَ به لم يُنَل ، ولا قُتِل ، كما لا يُقتَل اللائذُ بالحرم .

(رِجْلَاهُ فى الرَّكْضِ رِجْلٌ واليَدَانِ يَدٌ

وفِعْلُه ما تُرِيدُ الكَفُّ والقَـــدَمُ)

أى : أنه يطفِر ، فَتَقَعُ رجلاه معاً كأنما هما رِجْل واحدة . وكذلك تقع يداه ، فكأنهما يد واحدة . (وفعله ما تريد الكفُّ) إذا ضَرَبْتَهُ ، والقدم إذا ركضتَه .

يقول : فهو يُغنى فارسه أن يضرب بسَوْط ، أو يركضه بعقبيه ؛ ليستدرَّ بذلك جَرْيَته ، ويستمرىَ مِشيته .

— ٩٠ —

وله ايضا :

(أشْـكُو النوى ولهُمْ مِنْ عَبْرَتِى عَجَبٌ

كَذاكَ كُنتُ وما أشكُو سِوَى الـكِلَلِ)

أى : عجِبوا من بكائى وقد غيبَّها البُعد ، وكذا كان دمعى وهى حينئذ قريبة لا تغيِّبها عنى إلا الـكِلَل . فـكيف يعجبون من بكائى الآن .

فقوله : (وما أشـكو سِوَى الـكلل) : جملة فى موضع الحال . كأنه قال: كذلك كانت عَبْرتى وهذه المحبوبة قريبة . وجعل (سِوَى) ها هنا ، اسما ، فوضعها نُصِبَ بأشكو . وهو فى قوة قوله : وما أشكو شَيْئاً سِوَى الـكِلَل . وحَسَن ذلك أنه فى معنى : وما أشـكو إلاَّ الـكِلَل .

(مَابَالُ كُلِّ فُؤادٍ فى عَشِيرَتِهَا بِهِ الذى بِى وَمَا بِى غَيْرُ مُنْتَقِلِ)

أى به من الحب لها مثل ما بى . والذى بى مع ذلك مُنتقل وكان القياس، إذْ كان بهم مثلُ ما بى ، أن ينتقل عنى حبُّها .

وقيل معناه : به مثلُ الذى بى . والذى بى ثابت . فالذى بِهِمْ أيضاً ثابتٌ لا ينتقل . والفؤاد هنا يجوز أن يعنى به الطائفة التى هى موضع الحب ، أعنى القلب . ويجوز أن يعنى به كل سيّد فى عشيرتها ، لأن الفؤادَ من أشرف طوائف الجسم . وهذا كما يسمى الشريف عَيْنا لأن العين أشرف الحواسّ ، وألطف جوهراً ، فيكون كقول أبى تمام :

وسَنِىٌّ فما يصطادُ غير الصَّيدِ

(مُطَاعَةُ اللَّحظِ فى الألْحَاظِ مَالِكَةٌ لِمُقْلَتَيْها عظيمُ المُلْكِ فى المُقَلِ)

أى إذا رأت العيون عينَها ، ملكت عينها العيونَ ، فلم تقدر أن تتعداها إلى غيرها . فكأن عينها للعيون مَالِكة ، بمنعها إياها التصرّف ، والمالك مُطاعٌ . والألحاظ : جمع لحظ . على أنه سمى العين لَحْظاً ، ثم جمعه . وإلا لم يُسوَّغْ جمعُ المصدر ، إلا أن تكون العَرب قد صَرَّحت بجمعه .

ونظير الألحاظ قولهم (الأسماع) . إنما سمى موضع السَّمع بالمصدر ، ثم كُسِّر . ولو قيل إنه اعتمد اللحْظ الذى هو المصدر مختلف الأنواع ثم كسره ، كما كسرت الحلوم والأشغال ، لكان وجها ، إن كان ثبت عنده له سماع ، يثبت أن المصدر الذى هو (اللَّحْظ) يُجْمَع .

ولو قال (عظيم المِلْك) بالكسر، لكان أشبه بمالك ، كما أنه لو قال (ملكَه) لا تزن ذاك ؛ فكان ضم الميم فى (المُلك) أشبه بملك، لأنّ المعروف مالكٌ بَيِّن المِلْك، ومَلِكٌ بين الملك . ولكنه لما قال عظيم وكان (المُلك) أفخم من (المِلْك) (اختار المُلك) . وحَسُن ذاك ، لأن البيت يشتمل بذلك على المِلْك الذى هو أعمُّ من المُلك بقوله : (مالكةٌ ، وعلى المُلك الذى هو أشرف من المِلْك .

(تشَبَّهُ الخفِرَاتُ الآنِسَاتُ بِهَا فى مَشْيِها فَيَنَلْنَ الحُسْنَ بالحِيَلِ)

الخَفِرةُ : الحَيِيَّةُ ..والآنسة : المتحببة . أى كل امرأة حَسنة مقصِّرة عن حُسنها ، تشَبَّهُ بها فى مِشْيَتها ، فيَغيبُ حسنُ المَشْى بقصر حسنها . فتنال

الحُسْن بالتَحيُّل . وحَسُن التشبّه بها فى المشى ، لأن غير ذلك من أنواع حسنها لا يُقْدَر على محاكاته .

(وَقَدْ أرَانِي الشَّبَابُ الرُّوحَ فى بَدَنِي
وَقَدْ أرَانِي المَشِيبُ الروحَ فى بَدَلِي)

أى قد كنت فتى يُريني شبابى رُوحى فى بَدَنى لا أُوذَنُ بنُقْلته ، ولا أستشعر قرب رحلته ، فلما شِبتُ أيقنت أنى قَرُبت إلى الموت وإلى فراق الدنيا ، ليعمرُها بَدَلى ؛ أى غيرى . فكأن رُوحى قد فارقه حين تيقّن بإنذار المشيب أنه له مُفارقٌ . وقد قال هو فى هذا المعنى يصف الدنيا :

تَمَلَّكها الآتى تَمَلُّكَ سَالبٍ وفارقها الماضى فِرَاقَ سَلِيبِ

أى كأن الآتى سَلَبَ الفانى رُوحَه .

وذُكر أن الحسن البصرىّ مَرّ بمكتب ؛ فبكَى فقيل له ما يُبْكيك فقال : اعتبارى من هؤلاء الصبيان ، كأنهم يقولون : انصرفوا قد بُعِثْنا أبْدالَكُمْ . إلا أن المتنبى تصور روحه فى غيره والحَسَن لم يفعل ذلك .

(وَقَدْ طَرقْتُ فَتَاةَ الحَىِّ مُرتَدِيًا بِصَاحِبٍ غَيْرَ عِزْهَاةٍ وَلَا غَزِلِ)

الفتاة : أنثى الفتى ، كقولهم : غلامٌ وغُلامة ، ورجل ورَجْلة . الطُّرُوق : الإتيان ليلاً . وأضافَ الفتاةَ إلى الحىّ ، تفخيماً لشأنها ، وإشادة بمكانها ، كقوله :

ولكنّ قَلْبِى يابْنَةَ القَومِ قُلَّبُ

وأراد بالصاحب : السيف لأن الصعلوك لا يفارق سيفَه ، فأشعر أنه مُتَصَعْلِكٌ بقوله : إن السيف صاحب له . والعِزْهاةُ : الماقت لحديث النساء ومجالستهن . والغَزِلُ : ضدُّه . يقول : طرقْت هذه الفتاة مُرتدياً لسيفى.وجعله

لا عِزْهَاةً ولا غَزِلاً ، لأن الغَزِلَ فى طريق القسمة . والعَزَاهَةُ فى طريق العدم . فيقول : سيفى صاحب لا يوصف بعزاهة ولا بغَزِلٍ . والجمادُ لا يقبل قسمة ولا عَدَماً . فتفهمه فإنه معنى لطيف ، وهو باب من المنطق حسن . ولولا أنه ليس من غرض هذا الكتاب لزدته بياناً . وقد يجب أن أُعْذَر فى قولى (العزَاهةَ)، لأنه إنما قلته لمكان الغزل ، وإن لم تستعمل العربُ (العزَاهةَ). وأقلّ من هذا العُذر يغنيني مع من عَلِمَ طريقة المنطق .

(والمَدحُ لابنِ أَبِى الهَيْجَاء تُنْجِدُهُ بالجاهليَّةِ عَينُ العِيِّ والخَطَلِ)

كان بعض الشعراء يمدح سيف الدولة ، بذكر أسلافه من أهل الجاهلية ، فعابه أبو الطيب بذلك ، وقال : إنّ فيما يشاهدون من أفعاله وفضائله ما يغنى عن ذكر قدمائه من جدوده وآبائه .

وإعراب البيت يتوجهٌ عندى على وجهين : أوضحُهما أن يكون (المدحُ) مرتفعاً بالابتداء ، و (عين العِيِّ والخَطَل) : خبره ، أى : مدحه إذا أنجده بذكر الجاهلية عِيٌّ وخَطَل . وبالجاهلية ، متعلق (بتُنْجِدُهُ) أىْ تُقَوِّيه بها ، ولا يجوز أن يكون متعلقاً بالمدح ، لأنه إذا كان كذلك صار فى صلة المصدر ، وقد حُلْتَ بينهما بتنجده ، فلذلك لا يتعلّق به .

ويجوز أن يكون المدح مرتفعاً بالابتداء كما قدمنا ، والخبر تنجده . وعين فاعلة بتنجده . أى مدح هذا الملك بأخبار الجاهلية إنما يَمْدَح المادحُ بها لعِيِّهِ وخَطَله .

(والعُرْبُ منه مع الكُدْرِىّ طَائِرَةٌ والرُّومُ طائرةٌ منهُ مَعَ الحَجَلِ)

والعُرْب : لغة فى العَرَب . ونظيره ، العُجم والعَجَم . والقطا : نوعان كُدْرِىّ وجُونى ، فالكُدرىّ اسم عمّهما ، والحَجَلُ : القبج ، واحدتها حَجَلَة ، وقد يكون واحدتُها (حِجْلَى) ، فيكون الحَجل اسم الجمع ،

كما ذهب إليه سيبويه فى قولهم : خادِم وخَدَم ، وعازِب وَعَزب . فالقطا من طيور ديار العرب الوَحْشية . والحَجَلُ من طير الجبال ، وهى من مساكن الروم . فيقول : اضطرَّ أعداءه من الفريقين إلى الهَرَب منه والتوحُّش . فلحق كل واحد منهما بالوَحْشيِّ من طير أرضه ، وصار فى جملته ، حتى كأن لم يكن إنسانًا ، بِسكونه مخالطًا للطير . ولذلك قال : (طائره) .

وقد يجوز أن يَكْنِيَ بالطيران عن شدة الهَرَب ، وإلا فالعرب والروم وسائر الأجيال لا يتحولون طَيراً .

وخَصَّ حُوشية الطير دون سائر الوحش ، لأنها أسرع فى الهَرَب . وقوله: « منه » : أى من أجله .

(وَمَا الفِرَارُ إلى الأَجْبَالِ من أَسَدٍ   تَمْشِى النَّعامُ به فى مَعْقِلِ الوَعِلِ)

أى النعام سُهْلِية لا قوةَ لخفافها على خشونة الجبل ، ولو ركب سيف الدولة النعامَ ، سَهُل عليها من ذلك ما صَعُب من سعده ، ويُمْنِ نقيبته ، فمشت به فى معاقل الأوعال ، وهى ذُرَا الجبال ، لأن كل صَعبٍ سهلٌ عليه .

وإن شئت قلت : إنه عنى بالنعام خيلَه ، يقول : يركب أوعر الأوعارِ ؛ فكيف يطمع العدوّ المعتصم بالجبل أن يُعيذَه منه . ومما يُحَسِّن أنه يعنى بالنعام هنا الخيل ، وأنه ليس بحقيقة النعام ، قولُه : (وما الفِرارُ إلى الأَجْبَال من أَسَدٍ) ، يعنى بالأَسَد سيفَ الدولة ، لا نوع الأسد الذى هو السبُع .

فمن ظريف الصنعة أن يُوَفِّق بين آخر البيت وأوله ، فلا يَعنى بالنَّعام ، النوعَ الذى يُقال له النعام ، كما لم يَعْنِ بالأَسد الشخصَ الذى يسمى أسَداً على الحقيقة .

(وَرَدَّ بعضُ القَنَا بَعضاً مُقَارعةً كأنّه من نُفوسِ القومِ فى جَدَلِ)

أي ضاق المعْتَرَك ، وتحيَّر الملتقَى ، حتى ردّ بعض القنا بعضاً وتقارعت ، فكان رد بعضها لبعض تقارعاً ، وإذا كان قِراعٌ ، كان صوت ، فكأن ذلك الصوت الذى حدث عن التَّقَارُع تخاذلٌ . وذلك القراع والجدال كأنهما منافسة فى النفوس ، كما يتنافس المتجادلون فى الظفر ، فيرد بعضهم قولَ بعض . وأراد كأنهما ممن يحاول الظفر بالأنفس ، فحذف ، لأنه قد علم ما يعنى .

— ٩١ —

وله أيضا :

(وَأَشْنَبَ مَعْسُولِ الثَّنِيَّاتِ وَاضِحٍ سَتَرْتُ فَمِى عَنْهُ فَقَبَّلَ مَفْرِقِى)

يذهب إلى إيثار الجلالة على اللّذاذة ، ويدعى ذلك لتسميته ، حتى إنه يصحبه فى خلوته ، وحين الظفر بمحبوبته . والصبر عند ذلك أدل على مِلْكِه لأرْبه .

قال : فربّ حبيب مثلك حُسناً ودَلاً زارنى ، فحاول تقبيل فمى ، فسترت فمى عنه ، لأنه موضع اللّذاذة ، واللّذاذة لا أوثرها ، وبذلت له تقبيل مَفْرِق ، لأنه موضع الجلالة التى أوثرها .

وهذا كقول الآخر ، إلا أنه بالعكس ، ومنعه محبوبه من نفسه ، ما منع المتنبى من نفسه حبيبه :

حاولت منها قُبْلَةً فتعمَّدتْ بعقَاربِ الأصداغ قَطْعَ طريقِها

(وَمَا كُلُّ مَنْ يَهْوَى يَعِفُّ إذَا خَلَا عَفَافِى وَيُرْضِى الحِبَّ والخيلُ تَلْتَقِى)

ويروى (ويرعىَ الحب) . فمن رواه « يُرضى » فإن من شأن نساء العرب أن يُحبِبْن من مُحِبِّيهن الشجاعة والإقدام ، كقول عمرو بن كُلْثوم :

يَقُتْنَ جِيادَنَا ويَقُلْنَ لَسْتُم بُعُولَتَنَا إذا لم تَمنَعُونَا

فيقول: أنا أعف كرماً، وأرضى محبوبى فى الحرب، بمشاهدته منى، ما يهواه منى، أو بإخباره ذلك عنى. وليس كل أحد من العشاق يجمع عِفة وشجاعة، إذ العشق والعفة والفتك غريزة الاجتماع.

ومَنْ رواه (ويرعى الحِب) فهو يقول: أنا أعف كرماً لا فتوراً فى هواى، بل أنا مُراعٍ المحبوب، حتى إنى أذكُره فى الحرب، وأراعيه أوان الشدة. فكيف فى حال السكون والهدوء.

وفى (رَعْى الهوى) هنالك مَزِيَّتَان: إحداهما رباطة الجأش، حتى لا يُشْغَل الخاطر عن ذكر الهَوى. والآخر لشدة محافظته على الوفاء، حتى لا يَشْغَلَه عنه شدةُ، كقول زياد الأعجم:

ذكرتك والخَطِّىُّ يخطِر بيننَا وقد نَهِلَتْ منا المثقفة السُّمْرُ

وقوله: (والخيل تلتقى)؛ جملة فى موضع الحال. أى ويرعى الحب محارِباً.

(إذَا مَا لَبِسْتَ الدَّهْرَ مُسْتَمْتِعاً بِهِ تَخَرَّقْتَ والمَلْبُوسُ لَمْ يَتَخَرَّقِ)

لَبِسَ الدهْر مَلْبوساً، وإنما هى استعارة. يقول: إذا لبستُ الدهر مَلِيًّا أهْرَمَنِى، وهو لا يُهْرِمُه امتداد برهته، فجرى الأمر بينى وبينه بضد ما يجرى بين اللّابس والملبوس، لأن شأن اللابس أن يُخلِقَ الملبوسَ، والدهرُ ملبوسٌ يُخْلِق لاَبِسَه. ولما استجاز أن يجعله مَلْبُوساً، استعارَ له التَّخَرُّقَ.

(إذَا سَعَتِ الأعْدَاءُ فى كَيْدِ مَجْدِه سَعَى جَدُّه فى كَيْدِهم سَعْىَ مُحْنَقِ)

حَنِق حَنَقاً: غضب، واحتنقته: أى إذا رام العدو كيد مجده، فحاول

هَدْمَه بمبارزته أو مقاومته ، غضِب جَدُّه ، فدفع سعى عِداه بسَعْى أنفٍ وأيدٍ، على ما تقدم قبلُ .

(كيدُ العدو لجده) . (وكيد) : مصدر كاد يَـكِيد المتعدية : كقوله تعالى : ﴿ فإن كَانَ لَـكُمْ كَيْدٌ فَـكِيدُون ﴾ . فَجَدُّه ، مجرور فى موضع نصب . أى فى كيدهم لجده . وذلك أن المصدر يضاف إلى المفعول ، كما يضاف إلى الفـاعل ، كقوله تعالى ﴿ لاَ يسْأَمُ الإِنسَانُ مِنْ دُعَاء الخَيْرِ ﴾ ، فالخير فى موضع المفعول ، أى من دعائِهِ الخيرَ .

—٩٢—

وله أيضا :

(يَشْـكُو المَلاَمُ إلى اللَّوائِمِ حَرّهُ   وَيَصُدُّ حِينَ يَلُمْنَ عَنْ بُرَحَائِهِ)

أى إن الملامة لا تتعدَّى سَمْعى؛ ولا تصل إلى فؤادى ، لأن حرّه يمنعها من ذلك ، فهى تتفادى منه . ويعتذر إلى اللوائم من قصوره عن الوصل إليه، بما يتوقعه من نَارِيَّته . والـكلام شِعرىٌّ لا حقيقة ، لأن المَلام عرَض ، والعرَض غير حاسٍّ فيشكو . وانما تشـكو الجواهر ما يلحقها من العرَض . وشَبَّهَ أبو الفتح هذا بقول كثيِّر :

ذَهوبٌ لإعتاق المِئِينَ عَطاؤه   غَلُوبٌ على الأمرِ الذى هو فاعلُ

(ويصد حين يلمن عن برحائه)

مثل ما تقدم والبرحاء : الشدة .

(مَا الخِلُّ إلاَّ مَنْ أَوَدُّ بِقَلْبِهِ   وَأَرَى بِطَرْفٍ لاَ أَرَى بِسوائِهِ)

أى ما الخِلّ الا مَن يكون حَظِّى من قلبه ، حَظَّه من قَلبى ، ويرى بالعين التى أراهُ بها ، فيقع التكافؤ فى الحبّ والجلالة ، لا مَنْ حَظى من فؤاده مُقَصِّر عن حظه من فؤادى ، وتعظيمه لى دون تعظيمى له .

وقد يجوز أن يعنى بذلك التناهى فى التشاكل والتناسُب ؛ حتى كأنه هو جملةً . واذا كان هو إيله بالجُملة ، فقَلْبهُ قلبُ خليله ، وَعينه عينه .

(عَجِبَ الوُشَاةُ مِنَ اللُّحَاةِ وَقَوْلِهِم دَعْ مَاتَرَاكَ ضَعُفْتَ عَنْ إخْفَائِهِ)

إنما عَجِب الوشاة من اللُّحاة فى ذلك ، لأنهم كلَّفوه تَرْكَ ما يعجز عن إخفائه ، والإخفاء للحُبِّ أمكَنُ من تَرْكِهِ . فإذا ضعف عن الأقلِّ الذى هو الإخفاء ؛ وقد علم اللُّحاةُ ذلك منه ، فكيف يكلفونه الأكثرَ الذى هو السُّلْوان .

وقوله : « ضعفت عن إخفائه » : جملة فى موضع المفعول الثانى ، إن كانت الرؤية عِلْمية ، أو فى موضع الحال إن كانت الرؤية حِسِّية .

(مَهْلاً فإنَّ العَذْلَ مِنْ أسْقَامِهِ وَتَرَفُّقاً فالسَّمعُ مِنْ أعْضَائِهِ)

أى إن العَذْل يُسقمه كما يُسقمه الحب ، فهو نوع من إسقامه ، وتَرَفُّقاً فى عَذْلك ، فإن السمع الذى يقرعه عذلُك من جملة أعضائه . فإن عَنُفْتَ به فى العذْل ، اختل سمعُه أو ذهب .

وإنماَ قَدر ذلك نافعاً له عند من عَذَلَه ، لأن العاذل لم يُرِد بعذله إفسادَ جَوْهرِه ، وإنما أراد إصلاحَه . فيقول : إن لم تترفَّق ، عاد ما حاولتَه من إصلاحى إفساداً إلىَّ .

والسمع : يجوز أن يكون مصدراً ، إلاَّ أنه إذا كان مصدراً ، فليس من أعضائه . لأنه حينئذ جنس ، والجنس عَرَض ، والأعضاء جواهر ، والعَرَض لا يكون جزءاً للجوهر . وإنما عَنَى موضع السمع من أعضائه .

وقد يجوز أن يكون السمعُ اسماً للأُذن ، سُمِّى لحِسِّها ، كما سميت العينُ بصراً فى بعض المواضع . وإنما البصرُ فى أكثر الكلام حِسٌّ .

(وَهَبِ المَلَامَةَ فِى اللَّذَاذَةِ كَالـكَرَى مَطْرُودَةً بِسُهادِهِ وَبُـكَائِهِ)

أى إن كنت تَلتذُّ بالملامة ، فاجعلها كالـكرى الذى قد عدمتُه أنا ، على التذاذى به . فـكما نفاهُ عنى سهادى وبـكائى ؛ فـكذلك ينبغى لك أيها اللائمُ أن يُسَلِّيك عن كلامى الذى تلتذُّ به ما تراه من سُهادى وبكائى، فيعودا سواء فى امتناع الالتذاذ . ودعاه إلى الائتساء به فى الصبر على عـــدم ما يُلْتَذُّ به .

« ومطرودة » : مفعول ثان لِهَبْ ، لأنها بمعنى (اجْعَل) المُعتدية إلى مفعولين . وإن شئت قُلْت: إنه بدل من موضع « كالـكَرَى » لأنه بمنزلة قولك مثل الـكَرَى . وهذا القول أقوى .

(إنَّ المُعِينَ على الصَّبَابَةِ بالأَسَى أولَى برحْمَةِ رَبِّهَا وإخائِهِ)

أى مُعينِى على الصبابة : مَنْ أعان بالمؤاسَاة لاَ باللام . فإنْ رَاحِمَ ذى الصَّبابة مُؤاسيه بالعذْر ، لا لائمه .

(والعِشْقُ كالمعشُوقِ يَعْذُبُ قُرْبُهُ لِلمُبْتَلَى وَيَنَالُ من حَوْبَائِهِ)

أى العشق مُلتذ مَحبوبٌ ، كما أن المعشوق كذلك . وكلاهما نائل من حَوْبَاء المُبْتَلى وقاتلٌ له . وقوله : « والعشق كالمعشوق » : جملة يفسرها ما بعدها من البيت . كأنه لما قال : والعشق كالمشوق ، قيل له فيه ، أو كيف تفسره للسائل ، فتقديره : والعشق كالمعشوق فى أنهما يَعْذُبان ويقتــلان مـــع ذلك .

(وقـِىِ الأميرُ هَوَى العيُونِ فإنَّهُ مَا لاَ يَزُولُ بِبَأْسِهِ وسَخَائِهِ)

أى وقِيَ هوى العيون . وأما ما سواه فقد آمنتُهُ عليه ، لأنه دافعٌ له ببأْسه وسخائه . وهَوَى العيون مالا ينفع فيه بأس ولا سخاء ؛ فإنما أدعو له أن يُوَقَّى ما لا طاقة لجوده وبأسه على دفعه .

(مَنْ للسيُوفِ بأن تكونَ سَمِيّها فِي أصْلِه وفِرِنْدِه وَوَفَائِه)

أى بأن تكون مثل سميِّها فى أصله ، إما أن يريد : فى نوعه الذى هو الإنسانية ، وإما فى قبيله ، وفرنده ؛ أو فى صورته ، لأن صورة الإنسان أحسن من صورة السيف ، ورونقه أفضل من رونقه . وأما وفاؤه فلا وفاء للسيوف . ولا عُذر إلا على المجاز ، لأن ذلك من خواص الإنسان .

(إنِّى دَعَوتُكَ للنَّوائِبِ دَعْوةً لم يُدْعَ سَامِعُها إلى أكْفَائِه)

أى : دعـوتك لخطب ليس كُفْؤا لك ، لأن كل خطبٍ دُونك ، لا يعزُّكَ ولا يَغْلِبُك .

وإن شئت قلت : كل نائبة وإن عظمت فهى دون أن يُدْعَى مثلُك إليها ، وإن كنت لا تُدعى من النوائب إلاّ إلى ما أنت له كُفُوء ، ما وجدنا ما يكون كفؤاً لك ، فندعوكَ إليه ، لـكن لابد أن ندعوكَ لما ناب ، وإن جلّ عنه خَطَرُكَ ، وعَلا قدرُكَ .

— ٩٣ —

وله ايضا :

(كَأنِّى عَصتْ مُقْلَتِى فِيكُمُ وكَاتَمتِ القَلْبَ ما تُبْصِرُ)

هذه مبالغة فى كتمان السر والضِّن بإذاعته ، أى رأت عينى ما رأت ، فـكتمتهُ عن قلبى . وإذا كان القلب لم يعلم ذلك ؛ لم يمكن أن يعلم غيرُه به ، إذ لا يمكن أن يعلم غيرُكَ إلا ما عَلِمته .

وإن شئت قلت : إذا رأت عينى ما تحبُّون كتمَتهُ ، تناساه قلبى ، حتى كأن العين كتمت عنه ما رأت . والمقولان متقاربان .

وقوله (فيـكم) : أى من أجلـكم . وعصيان المقلة للفؤاد : إنما هو كتمها

عنه ما رأته ، فكأنه قال : كأنى عصتْ مقلتى فيكم قلبى ، وكاتمتْه ما تبصر .
فحذف الأول لدلالة الثانى عليه ، وأعمل (كاتمت) . إذ لو أعمل الأول واتزن
لقال : وكاتمته القلب . أى عصت مقلتى القلب وكاتمته .

— ٩٤ —

وله ايضا :

(إذا كان شَمُّ الرَّوحِ أدْنى إليكُمُ فَلَا بَرِحَتْنِى رَوْضَةٌ وَقَبُولُ)

أى إن كنتم إنما تؤْثِرون شَمَّ الرَّوْح ، ونسيم الهواء . وذلك إنما
يكون بحضور الروض والريح القَبول ، فلا زِلت أنا روضة فتضمكم ، وريحاً
قبولاً تَشُمونها ، تَلَذُّ لكُمْ ، إذ كلما كنتُ كذلك ، فأنتم قريبٌ منى ،
وطالبون إلىَّ .

وقوله : (أدنى إليكم): أى أشد إدناء لمن يُحبُّكم . وقوله : (فلا بَرِحَتْنى
روضة وقبول) : ان شئت قلت : أراد فلا برحتُ روضة وقَبولاً ، فعكس ،
فجعل المعرفة الخبر ، وهى (نِى) والنكرة الاسم ، وهى (روضة وقَبُول) .
وإن شئت قلت : إن (نى) من (بَرِحتْنِى) ليست بخبر ، ولا بَرِح هذه
المقتضية للاسم والخبر . وإنما (برِح) هنا المتعدية إلى المفعول . كقوله تعالى :
﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِى ﴾ فيكون (نى) على هذا
مفعولاً ، ويكون التقدير : فلا فارقْتنى ، أو فلا زايلتنى روضة .

أى فإذا كان ذلك ، قصدتم هذه الروضة التى عندى ، فسعِدت أنا بقربكم .
والأول أبلغ ، لأنه على ذلك القول الأول ، يجعل نفسه ذات الروضة ؛ ويتمنى
الخروج من النوع الحيوانّى الإنسانى إلى النوع النباتّى ، إيثاراً لهواهم ، واختياراً
لقربهم .

(لقيتُ بدَرْبِ القُلّةِ الفَجْرَ لَقْيَةً   شفَتْ كَمَدِى واللّيلُ فيه قتيلُ)

أى أصبحت فى هذا الموضع ، أوْ أفجرْت فيه . « شفت كمدى » . أى شفت اللُّقْيَةُ للفجر بانحسار الليل ، ما كان من الكمد . (والليل فيه قتيلُ): أى قد ذهب ، واشتمل ضده على مَحلّه ، فكأن الليل لما عُدِم أو قارب العدم مقتـــول .

وإن شئت قلت : طال علىّ الليل بالصبابة ، فكأنه وَتَرَنِى ، فاستوجب بذلك أن أطلبه بثأرى : فأوقد سيف الدولة بالدرب نيرانا ، فخالط ضَوْؤها دخانَها ،فبدت لى من الضوء المختلط بالدخان ، سُمرة كسمرة الفجر ، قبل أوان الفجر ، فكأن هذا الملك قد قتل الليل بإيقاده هذه النيران ، التى خَلْخَلَتْ كثافة الظلمة ، فأنا أكنى بذلك عن ثأرى ، فيُشْفَى كَمَدى .

وقيل : الفجر هنا سيف الدولة ، أقام غُرّته مُقام الفجر ، وبالغ فى ذلك ، حتى جعله قاتلاً لليل ، وما طُلِب عند ليل زَحْل ، ولا نِيل منه ثأر قبل هذا .

(عَلَى طُرُقٍ فيها عَلَى الطُّرْقِ رِفْعَةٌ   وَفى ذِكْرِهَا عِنْدَ الأنِيس خُمُولُ)

رِفْعتها : أنها أكمٌ وجبال ، وخمولها : أنها غير مسلوكة لوعورتها ، فهى لذلك خاملة . وقد يجوز أن تكون طرقاً لم يسلكها إلا جيش سيف الدولة ، لأنها مَخُوفة فالناس لا يعرفونها لذلك .

(وَمَا شعَرُوا حَتَّى رَأوهَا مُغِيرَةً   قِبَاحاً وَأمّا خَلْقُهَا فَجَمِيلُ)

أى قباح الأفعال بهم ، وإن كانت فى خِلقتها جميلة ،لأن خوفهم لها يُقَبِّحها فى أعينهم ، فيخفى عليهم جمالُها .وهذا نحو قوله :

حَسنٌ فى عيون أعْدَائِهِ أقْبـــحُ من ضيفهِ رأتهُ السَّوَامُ

فالحسن فيه طبيعة ؛ والقبح عَرَض .

(وأَضْعَفْنَ ما كُلِّفْنَهُ من قُبَاقِبٍ   فأضحَى كأنَّ الماءَ فِيهِ عَلِيلُ)

قُبَاقِب: نهرٌ دهمته هذه الخيل، فسدّت مجاريَ الماء فيه، بكثرة قوائمها، فارتدع الماء، إلا ما تخلل شُعَب قوائم الخيل، فأضعفته عن قوة جَرْيِه، حتى كأنه عليل. والعلة هنا كناية عن الضعف، إنما العلة فى الحيوان، والمـــاء ليس بحىّ.

(نَجَوتَ بإحْدَى مُهجَتَيْكَ جَرِيحةً   وَخَلَّفْتَ إحدى مُهْجَتَيك تَسِيلُ)

يخاطب الدُّمُسْتُق، وكان شُجَّ فى وجهه ونجا جريحًا، فهذا معنى قوله: (نجوتَ بإحدى مهجتيك جريحة)، وكان ابنه قد أُسِر، فلذلك قال: (وخلفت إحدى مهجتيك تسيلُ)، أى تركته يذوب فى الكبْــل والحَبْس، مع ما اشتمل عليه من خشية القتل:

(إذَا لَمْ تَكُنْ للَّيثِ إلاَّ فَرِيسةً   غَذَاهُ وَلَمْ يَنْفَعكَ أَنَّكَ فِيلُ)

ضرب (الفِيل) مثلاً لعظم عَدَد الروم، وضرب (الليث) مثلاً لسيف الدولة وجيشه، أى فلا تُعْجِبَن الروم كثرة عددهم، فإن الكمية لا تغنى، وإنما الغَناء للكيفيّة. وقال: (غذاه): أراد غداهُ ذلك الشخص المفْتَرس.

(أُعَادَى عَلَى مَايُوجِبُ الحُبَّ لِلفَتَى   وأَهْدَأُ والأَفـكارُ فِىَّ تَجُولُ)

أى أُعادَى على ما لدىّ من الفضائل النفسانية، كالشجاعة والفروسية، والفصاحة والشعر، حسداً لى على ذلك. وكل واحدة من هذه الفضائل فى حد الحقيقة، مُوجِبة للحب، فكيف أُشْنَــأُ على ما يُوجب الحبّ؟ يقول ذلك متعجباً.

قال أبو الفتح: لو قال (أُبْغَض) مكان (أُعادَى) كان أوفق فى مذهب الشعر، يعنى أبو الفتح: أنه لو قال ذلك، كان أذهب فى باب التقابُل، لأن

النقيض إنما يقابل بنقيضه ؛ وكذلك الضدّ بضدّه . فضدّ الحب البغض . وضد العداوة الصداقة . فإذا قابلت العداوة بالحبّ ، والصداقة بالشَّنآن ، لم يكُ ذلك على تقابل الضدّ والنقيض .

لكن الذى يُسَهِّل ذلك ، أن العداوة علّتها البِغْضة ، التى هى ضد الحب ، فأقام العلة التى هى العداوة ، مُقام المعلول ، الذى هو البُغْض . ولولا ما يَدْخُل التخفيفَ البدلىّ من الاضطرار ، لقال : فأشْنِى ، أو (أشْنَ) على احتمال الجزم ، ولكن، الأول أسوغ أعنى وضع (أعَادَى) مكان (أبْغَض) لما ذكرت لك ، من دلالة العلة على المعلول .

- ٩٥ -

وله ايضا :

(تَرِى الأَهِلَّةَ وَجْهًا عَمَّ نَائِلُهُ   فَمَا يُخَصُّ بِهِ من دُونِها البَشَرُ)

أى أنه يكسِب الأهلة بنظرها إلى غُرّته نوراً وسعداً ، فتنال بذلك من جوده كما ينال الناس . فالبَشَر إذْن نوع غير مخصوص بنائله بل هو عام للعالم العُلْوىّ والسُّفْلىّ .

- ٩٦ -

وله ايضا :

(وشَرْبٍ كاسٍ أكْثَرَتْ رَنِينَهُ   وَأَبْدَلَتْ غِنَاءه أنِينَـــهُ)

الشرب : اسم للجمع عند سيبويه ، وهو عند أبى الحسن جمع . ويدل على صحة قول سيبويه : إن العرب إذا حقّرت هذا النحو حقّرته بوزنه ، كما تحقّر الواحد ، فقالوا : شُرَيْب ورُكَيب . فلو كان جمعاً كما ذهب إليه أبو الحسن ، لَرَدّه إلى واحده فى التحقير ، ثم جمع بالواو والنون ، فقيل : رُوَيْكِبون ورُوَيْجِلُون . وإنما كلام العرب ما قدّمنا .

أنشدنا القرشي :

بنيته بعُصْبَةٍ من ماليـــا   أخشى رُكَيْبًا ورُجَيْلا عادِمَا

وذهب قوم إلى أن معنى البيت : أن هذا الشَّرْب — وهم أعداء الممدوح — غَنَّوا بمناقبه ، حتى إذا سكروا هاج لهم السكر ذِكْرُ من سَبا منهم وقَتل ، فأَرَنُّوا حُزْنا ، وعاد ذلك الغناء أنينًا وتفجعًا .

والذى عندى أن هؤلاء الشَّرْب غَنَّوا ، فأَثْخَن فيهم هذا الملك وأوجعهم ، فعاد ذلك الغناء رنينًا وأنينًا . وقوله : (أَكْثَرَتْ) و (أَبْدَلَتْ) : إخبار عن الخيل والقنا اللتين فى قوله :

(إنَّ الجِيَادَ والقَنَا يَكْفِينَهُ)

- ٩٧ -

وله أيضا :

(فإنى رأيتُ البَحْرَ يَعْثُر بالفَتَى   وهـذَا الذى يَأْتِى الفَتَى مُتَعَمِّدَا)

أى أن سيف الدولة أولى بأن يرجى ويخشى من البحر ، لأن البحر وإن أروى وأعطى ، فليس شيء من ذلك على عَمْد ولا قصد ، لأنه لا رُوحَ له ولا فؤاد ، فليس إذن يحمد على مكرماته ولا ذميمٌ لآفاته . وهذا كقوله هو :

أَلاَ لاَ أُرِى الأحداثَ حَمْدًا ولاذمًّا   فما بَطْشُها جهلاً ولا كَفُّها حِلْمَا

وأما سيف الدولة فهو لـكل ما يأتيه من إفاقة وإغناء وإماتة وإحياء ، عامدٌ قاصد ، لأنه من نوع الإنسان ، الذى هو أشرف الحيوان .

(وَتُحْيِى لَهُ المالَ الصَّوارِمُ والقَنَا   وَيَقْتُلُ مَاتُحْيِى التَّبَسُّمُ وَالجَدَا)

أى أن يغير فيغنم بسيوفه ورماحه ، فهى تحيى له المـال . ثم يهب عُفاته ،

ما يسلبه عُدَاته ، وذلك فى حال تبسُّم وأريحيةً للعطاء ، فذلك التبسم هـو الذى يقتل المـال الذى أحيته الأسنة والصوارم ، كقول أبى تمام :

إذا ما أغاروا واحْتَووا مَالَ معشَرٍ أغارتْ عليه فاحتَوتْهُ الصَّنائع

وذكر التبسم والجَدَا هنا كقول كُثَيِّر :

غَمرُ الردّاء إذا تبسّم ضاحـكاً غَلِقت لضِحكته رِقاب المالِ

ولو قال (يميت) مكان (يقتل) لـكان أشد مقابلة للحياة ، لأن القتـل ليس بضدّ الحياة إنما هو علة ضدّ الحياة فى بعض الأوقات .

ونقيض الحياة إنما هو الموت . ومقابلة الشيء بنقيضه أذهب فى الصناعة . و(التبسم والجدا) : مرتبطان بيقتل ، أى ويقتل التبسم والجدا ما تحييه الصوارم والقنا . ففى تحيي ضمير راجع إلى القنا والصوارم ، أى ماتحيى هى .

(هُو الجَدُّ حتى تَفضُلَ العينُ أُخْتَها وَحتَّى يكُون اليومُ لِلْيَومِ سَيِّدَا)

إنما ذكر فضل يوم الأضحى وجعله سيد نوعه . ثم مَثَّل به فضل سيف الدولة على جميع نوعه . وذلك فى البيتين اللذين قبل هذا البيت . ثم عجب من تفاضل الأشخاص الواقعة تحت نوع واحد ، على أن عنصر هـذا واحـد . فقال : (هو الجَدّ حتى تفضل العين أختها) فبالغ بالعجب من العين التى تفضل صاحبتها على اقترابهما وشدة اقترابهما . وبالعجب من الأيام التى تتفاضل بما يحدث فيها من السراء والضراء وضروب المهالك والمناسك .

(أجِزْنِى إذَا أُنْشِدْتَ شِعراً فإنَّما بِشِعْرِى أتاكَ المادِحُون مردَّدَا)

أجِزْنِى : أى أعطنى الجائزة إذا مدحك غيرى ، فإن الشعراء إنما يأخذون معانى شعرى ، فيمدحونك بها ، فاذن إنما المستحق بجوائزك أنا لاهُمْ . إذ لولا شعري لم يهتدوا إلى ما يمدحونك به . فـكلما أحسنوا فإنما الإحسان لى كقول الآخر:

فإن أَنْشَدَ حَمَّادٌ فقدْ أحسن بَشَّارُ

أى إن حماداً إنما يأخذ شعر بشّار . فالإحسان له ، والإنشاد لحماد .

— ٩٨ —

وله ايضا :

(ثِيابُ كريمٍ مايَصُونُ حِسَانَهـــا
إذَا نُشِرتْ كانَ الهِبَاتُ صِوَانَهَا)

يعنى ثيابا رَومِية كساه إياها ، (كان الهبات صِوانها) أى أنه لايصونها إنما يبتذلها بالهبة . فالهبة هى التى تـكون لها مَقام الصوّان إذ لاصِوَان لها عنده وإذا لم يصن حسانها كان أحجَى ألاّ يصون دُونَهَا .

(تُرِينَا صَنَاعُ الرُّومِ فيها مُلوكَهَا وتَجلُو عَلَينَا نَفْسها وقِيَانَهَا)

يعنى ما فيها من التصاوير الرومية .

(وَلَم يَكفِهَا تصويرها الخيلَ وحْدَهَا فَصَوَّرت الأشْيَاءَ إلاّ زَمَانَهَا)

أى صورت الأنواع الحيوانية إلا الزمان ، فانها لم تصوره لعجزها عن ذلك وذلك أن الزمان هنا إما أن يعنى به الفَلَك ، ولا أحـد يستطيع تصويره على حقيقته التى هو بها ؛ وإما أن يكون الزمان هنا وجودَ النور وعدمه وذلك عَرَض والعرض لايتصور إلا فى جوهره الذى هو منه .

(وَأُمِّ عَتِيقٍ خَالُهُ دونَ عَمِّه رَأى خَلْقَها مَنْ أعْجبتهُ فَعَانَهَا)

وأم عتيق : يعنى فَرَساً . وعتيقُها : مُهرُها، والعتق : الـكرم . وجعل لها خالاً وعمّاً ، يذهب إلى أن هذه الفرس ذات طرَفَين كريمين ، مختلفين بالنسب ، لأن ذلك مما يُستَحب فى الخيل أعنى ألاّ يكون الأبوان متناسبين .

وقد يستحب ذلك فى الإنسان ، لأنهم يزعمون أن الأبوين إذا كانا متناسبين جاء الولد هناويًا ، أي مهزولاً ، دقيق العظم (ابن السكيت) .

ومنه الحديث : (اغتربوا لا تُضْوُوا) . أى لا تنكحوا فى الأقاربَ ، فيجىء الولد ضاويًا . وقال : (خاله دون عمه) يذهب إلى أن أباه أكرم من أمه ، وذلك أعجب له . (رأى خلفها من أعجبته فعَانَها) . يزعمون أن الشىء المُعْجِب ربما أصابته العين فقسد لذلك ، فيقول : رأى هذه الفرس بحجر مَنْ أُعجب بها ، فاعقها بعينه . وهنا رواية ضعيفة ، وهى . (رأت خلفَها من أعجبتْه فعانها) . أى رأت خلفَها خلا حاول كَوْمَها حين أَعْجَبَتْه ، فأمكنته ، فأولدها ، فكأنه تنقصها بالإيلاد ، كما يُتَنَقَّص الشىء الحسن المعجب إذا أصيب بالعين .

(إذَا سَايَرتْهُ بايَنَتْه وبَانَهَا وَشَانَتْهُ فى عَيْنِ البَصيرِ وَزَانَهَا)

أي باينته ، من (البَوْن) أى باعدته . فان قلت . ينبغى على ذلك : (باونته) ، لأنه من الواو . فان شئت قلت : إن هذا على المعاقبة ، ومعناها : قلب الواو ياء لغير علة إلاّ طلب الخفّة ، وهى لغة حجازية عربيّـة . يقولون : (صُيّاغ) فى (صُوّاغ) ، ومَيَاثِق فى مَواثِق ، وهو كثير ، قد عمل فيه يعقوب باباً واسعاً . وإن شئت قلت : إن من (البَيْن) الذى هو فى معنى (البون) . حكى أبو عُبيد ، بينهما (بونٌ) بعيدو(بَيْنٌ) . وقد بانَ صاحبَه يبونُه ويَبِينُه . فحملُك إياه على هذا ، خيرٌ من اعتقاد المعاقبة الحجازية ، لأنك إنما تلوذ بها إذا لم تجد عنها مَعْدِلاً .

و (شانَتْهُ فى عين البصير) : أى شانته بكونها أمَه لتقصيرها عنه . « وزانها » ، بكونه ابنها وهو زائد عليها .

(وأينَ التِّي لا تأْمَنُ الخيلُ شَرَّها وشَرِّي ولا تُعْطِي سِوَايَ أَمَانَها)

إن شئت قلت : أين فَرسى التى من أمرها وشأنها ، من هذه الفرس المعيبة ؟ وإن شئت قلت . أراد : هَبْ لى الفرس التى هى أكرم من هذه الفرس التى وهبتها لى .

وقوله : (لاتأْمَنُ الخيلُ شَرَّها) : إذا كَرَرْتُ بها . وأراد أهل الخيل، فحذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه . (ولا تُعطى سِوَايَ أمانَها) : أى لا يأمنها إلا مِثْلِي من الحُذَّاق بركوب الخيل .

- ٩٩ -

وله أيضا :

(تَشْبِيهُ جُودِكَ بالأَمْطَارِ غَادِيَةً جُودٌ لِكَفِّكَ ثَانٍ مَالَه مطَرُ)

أى أنك غاية فى الجود لا فَوْقَها، فإذا شبهنا كفك بالمطر ، فالمشبَّه دون المشبَّه به ، فقد بالَغنَا بمدح المطر وشرَّفناه . فكان هذا التشريف له بتشبيه جودك به ، جُوداً عليه ثانياً من جودك علينا بالمال وخَصَّ الأمطارَ الغَوادِي، لأنها بالأغلب أغزرُ ماتكون حينئذ فى أول النهار ، والنفوس حينئذ شَهِمَةٌ مُنْشَطة ، فهى حينئذ أروق وأعلَق .

— ١٠٠ —

وله أيضا :

(وقاسَمَكَ العينين .منه ولحظه سَمِيُّكَ والخِلُّ الذى لا يُزايل)

يعنى بسميِّه والخِلِّ الذى لا يزايل : السيف . أما سميه فلأنه سيف، والمَلِكُ سيف الدولة ، فهو وسيفه سَمِيّان . وأما كونه خِلاً لايزايلُه ، فلأن السيف لا يفارقه . فيقول : نظر إليك طامعاً فى إحسانك ، وإلى سيفك، خائفاً من بأسك ، يقلِّب طَرْفَه من يمين إلى شِمال ، فذاك معنى المقاسمة ، أى أن

السيف قد قَاسَمَكَ عَينَىْ رسول الروم فهو تارة يتأملك ، وأخرى يتأمل سيفك، ولحظه ، عندى حشو ، لأنه إذا قاسمه عينيه فقد قاسمه اللّحْظ .

(وَأَكْبَرَ منهُ همةً بَعَثتْ بِهِ إليكَ العِدَا واسْتَنْظَرَتْهُ الجحَافِلُ)

أى أكبرت العِدَا همةَ هذا المُرْسَلِ ، وأعظمت شأنه لإقدامه عليك ، ومُثُوله بين يديك . (واستنظرته الجحافل) : أى سألته أن يُنْظِرَها، بشغله إياك أيها المالك عنهم . فمعنى استنظرته : طَلَبَت منه النَّظِرَة ، أي التأخير .

(أطَاعَتْكَ فى أرْوَاحِها وتَصَرَّفَتْ بأمْرِكَ والتَفَّتْ عليك القبائل)

بالغ بإطاعتهم إياه فى أرواحهم ، لأنهم إذا أطاعوه فى ذواتهم ، كانوا أَجْدَر أن يطيعوه فيما سواها . و (التفَّتْ عَليكَ القبائلُ) : أى أحدقت بك العرب ، لأن كل جيش مُحْدِق بأميره .

وإن شئت قلت : جعله سِطَةً لِسراوة نسبه ، وعـلاوة حسبه ، وقبائل العرب محيطة به ، فالمحاط به أشرف مِنْ المُحِيط ، كالقِلادة التى أنفَسُها سِطَتُها، والدائرة التى أشرفُها نقطتها .

(رَميتُ عِداهُ بالقَوافى وفَضْلِهِ وَهُنَّ الغَوازِى السَّالِماتُ القَوَاتِلُ)

وفضله : أى وفضائله . هذا أذهب فى الصناعة ؛ أي أعنى يعطف جمعاً على جمع فى النية وإن لم يستقم ذلك فى اللفظ . إذا أغضبتُ عِداه لمدائحى فيه بفضائله النفسانية ، فلم يجدوا فى شعرى مَطْعَناً ولا فى فضائله الذاتية مَدْفَعاً ، فقد قَتَلتُهم بأن أغضبتهم وأعجزتهم ، وسَلِمَت هى فى أنفسها ، إذ لم يقدروا على غض أشعارى ، ولا إنكارِ فضائله .

(يُقَبِّعُ هُوَّابَ الرِّجَالِ مُرَادُهُ فَمَنْ فَرَّ حَرباً عَارَضَتْهُ الغَوائِلُ)

الغَوائلُ : الدواهى المهلكة . تقول العرب : الغضب غُولُ الحِلْم . أى

يذهب بالحلم فيغتاله . يقول: إن سعده يتبع المهزومين ؛ فيقتلهم بالعطش والـكلال وسائر أنواع الآفات ، كقوله هو :

إذا فاتُوا الرماحَ تَنَاوَلَتهُم بأرماح من العطش القفارُ

ويتبع من باب (فَعَّل) فى معنى (تفعَّل) أى يتتبع . ونظيره ما حكاه سيبويه من قولهم بَيَّن الشىء وتَبَيَّنَه . وفى المثل : قد بَيَّن الصبحُ لذى عينين. أى تَبَيَّن .

(رَأَيتُكَ لَوْ لَمْ يَقتَضِ الطَّعنُ فى الوغَى إليكَ انقيادًا لاقتَضَتهُ الشَّمائلُ)

أى لو لم يجرِ من أصحابك على الطعن ، انقيادُهم لك ، وطاعتهم إياك ، لاقتضاهم إياه حُبُّهم لك . و (الشمائلُ) يجوز أن تكون منه ومنهم ، فان كانت منهم ، فمعناه :حبُّهم لك بطاعتهم . وإن كانت منه فمعناه : بحبهم لشمائلك.

- ١٠١ -

وله ايضا :

(وأَسقَطَتِ الأَجِنَّةُ فى الوَلَايَا وأُجْهِضَتِ الحَوائِلُ والسِّقَابُ)

أى أن النساء أُرْدِفْن ، وعُسِفَ بهن فى الهزيمة ، فمن كان منهن حاملاً أسقَطَتْ فى الولايا ، وهى الأحلاسُ على إعجاز الخيل والإبل ، وأجهدت الإبل ، وكُلِّفَت أكثرَ من طاقتها فى السير ، فأُجْهِضَت الحواملُ ، وهى الإناث ، والسِّقابُ ، وهى الذكور . والإجهاض للنوق ، كالإسقاط للنساء . وهذا كقول أبى النجم :

كَمْ طَرَحَتْ من وَلَدٍ لايغتذِى تراه كالمسلوخِ والجِلْدُ بَرِى

(وَعَمروٌ فى مَيَامِنِهم عُمُورٌ وكَعْبٌ فى مَيَاسِرِهم كِعَابُ)

عمرٌو وكعب : بطنان ، كعب : بن ربيعة ، وعمرو بن مالك . فان شئت قلت :

اختلفت كلمتهم فأشارت طائفة بالهَرَب ، والأخرى بالاستذمام وأخذ الموثق من سيف الدولة . وكانوا قبل يداً واحدة ، كلمتهم سواء فكأنهم باختلافهم تقسموا وافترقوا فصارت القبيلة باختلاف كلمتها فى قبائلك ؛ فلذلك جعل عمراً عَمُوراً ، وكعباً كعاباً .

أنشد سيبويه :

رَأيت الصَّدْعَ من كَعبٍ وكانُوا   من الشَّنآنِ قد صَارُوا كِعاباَ

وإن شئت قلت : هربوا وتبددُوا ، فصاروا شِيَعاً وأحزابا ، فكل جزء من عمرو عمور ، وكل جزء من كعب ، كعوب . والقولان متقاربان .

(وَلَو غَيرُ الأميرِ غزَا كِلاَباً   ثَنَاهُ عن شُموسِهِمُ ضَبَابُ)

يعنى بشُمومهم : حقائق نفوسهم . والضَّباب : ما يلقاه من الطعان والضراب . وقيل : ثناه عنهم أقل ما يصيبه منهم ، لأن كثافة الضَّباب أقل من كثافة السحاب . وقيل : عنى بالشموس نساءهم التى سباها سيف الدولة ، وبالضَّباب : مَنْ فيهم من الكُماة والحُماة .

— ١٠٢ —

وله ايضا :

(تُفَدِّى أتَمُّ الطيرِ عُمرًا سِلاَحَهُ   نُسورُ الفَلاَ أحْداثُها والقَشَاعِمُ)

أتَمُّ هنا: بمعنى أطول . وإنما جاز ذلك لأن التمام فى باب (كيف) ، نظير الطول فى باب (كَمْ) . وإنما المستعمل فى العمر أطول ، فلم يتَّزِن له ، ونحوه قول رؤبة :

(كالـكَرْمِ إذ نَادَى مِنَ الـكافُورِ)

وإنما المعروف صاح الـكَرْم ، وسائر الشجر إذا بدا ثمره . إلا أنه لو قال

صاح الكَرْم لكان فى الجزء طى ، وهو ذهاب فاء (مُستفعِلُنْ) ، لأنَّ قوله : (صاح مِثلْ) مُسْتَعِلُنْ ، فاستوحش من الطَّيِّ ، فوضع نَادَى مكانَ صَاحَ ، ليسلم الجزء .

والمتنبي أعذر ، لأنه لو قال : (أطول) لا نكسر البيت ورُؤْبة لو قال : صاح من الكافور لم ينكسر البيت ، وإنما كان يلحقه الزّحاف الذى وصفناه .

وقال . « تُفَدِّى » فأنث الفعل ، وإن كان للأَنَمِّ ، والأنم مذكر ، حملاً على المعنى ، لأن الأنم هو النسور فى الحقيقة . ونظيره قول بعض العرب : فلان لَغُوب جاءته كتابى فاحتقرها . أنث الكتاب لَمَّا كان فى معنى (الصحيفة) . و (نسور الفلا) . بدل من (أتم الطير) . و (أحداثها والقَشاعم) : بدل من (نسور) . وكلاهما بدل بيان . يقول : أَوْسَعَتْ سِلاحُه النسور شِبَعَاً من لحوم القَتلَى قديماً وحديثاً الآن ، فقشاعمها وهى المسانّ تشكر القديم والحديث ، وأحداثها تشكر الحديث ، لأنها متأخرة الكون عن زمن القديم . فكلا النوعين يشكر سلاح هذا الملك ، و (يُفَدِّيه) : اى يقولان نحن الفداء لسلاحه . واستعار الأحداثَ للنسور ، وإنما هو فى نوع الإنسان ، ومثل هذه الاستعارة كثير .

(هَلِ الحدَثُ الحمراءُ تعرِفُ لَونَها وتَعلَمُ أيُّ السّاقِيينِ الغَمَائِمُ)

(الحَدَث) : حِصْنٌ معروف ، وأنثه على معنى القَلْعَة ، او المدينة ، وجعلها حمراء ، لما سال عليها من الدماء ، وكانت غيرَ حَمراء . يقول : فهل تعرف الآن لونها القديمَ الذي بُدِّلَت منه الحُمْرة . وإن شئت قلت : هل تعرف الآن أنها حمراء ، أو تنكر ذلك ؟

وقيل : جعلها حمراء ، لأن سيف الدولة بناها بحجر أحمر ، ولم يَك قبل ذلك .

يقول : فهل تعرف هذه القلعة أن بناءها الحديث غير بنائها القديم ؟ وكذلك بَلّتْ هذه السيوفُ هذه المدينة بالدّم ، كما يَبُل ـ السّحابُ الأرض بالمطر فهل تعرف أن الغمام سقاها الآن أو السيوف ؟

وقد بين ذلك بقوله بعد هذا :

(سَقَتْهَا الغَمامُ الغُرُّ قبل نُزُولِهِ فَلمَّا دَنَا مِنْها سَقَتْهَا الجَماجِمُ)

أى سقاها السحاب قبل نزول سيف الدولة بها ، فلما دنا منها قتل من كان بها من الروم ، فسقتها السيوف بدمائهم .

(وَكانَ بها مثلُ الجُنونِ فأَصْبَحَتْ وَمِن جُثَثِ القَتْلَى عَلَيْهَا تَمَائمُ)

التمائم : العُوَذ ، وهى تُناط بمن كان به مَرَض أو جُنون أو سِحْر .

فيقول : كانت هذه القلعة مضطربة غير مطمئنة ولا مستقرة بمن غلب عليها من الروم ، حتى كان بها من ذلك مثل الجُنون ، لأن الجنون يخالطه اضطرابٌ وقلة ثَبات ، ولذلك قيل له: (الأَوْلَق) . لأن الوَلْق : سرعة الطّعن والمشى ، وهذا فيمن أخذه من ذلك ، فجعله (أفعل) .

فأما سيبويه ، فهو عنده (فَوْعَل) بدليل (مَأْلوق) فلما وردها سيف الدولة فقَتل مَنْ تغَلّبَ عليها ، استقرّت واطمأنّتْ ، فكانت جثث القتلى عليها تمائم أوجَبتْ لها الاستقرار والطمأنينة .

(وقد حَاكَمُوها والمَنَايَا حَواكمٌ فَمَا مَاتَ مَظْلُومٌ ولاَ عاشَ ظَالِمُ)

أثبتَ حكمًا من حيث أثبت ظلماً ، لأن الظلم جَوْرٌ ، والجور نوع من الحكم ، ضد العَدْل ، فحاكموا هذه القلعة . والسيوف حواكم : أى هُنّ ذوات الحكم على المتحاكمين عليها ، وكان الظلم مِن قِبَل الروم لهذه المدينة ، بهدْمهم إياها ، وإخلائهم لها ، فلما كان الحُكم للسيوف ، مات الظلم بقتل هؤلاء الروم الظالمين .

(فما مَاتَ مَظْلُوم) : يعنى القلعة ، أى لم يَعْفُ أثرُها ، بل جُدِّد بناؤها ، وزيدت تحصيناً . (ولا عَاشَ ظَالِمُ) : أى لم يعش الروم الذين هدموها ، بل قتلهم سيف الدَّولَة .

(تَقَطَّعَ مالا يَقْطَعُ الدِّرعَ والقنَا وفرَّ من الفُرْسانِ من لا يُصَادِمُ)

أى ما كان من السيوف قاطعاً للدرع وللابسها بقى وما لم يبلغ من الحدة والشدة أن يقطعهما ، تقطَّع وفَنِى ، وذلك لشدة ما كان هنالك من الضرب . ومَنْ كان من الفُرْسان غير مزاحِم ولا مصادِم لم يَثْبت . يذهب فى كل ذلك إلى أنه لم يبق إلا الجيِّدُ الصابر على الكِفاح ، من الرجال والسلاح . ألا تراه يقول :

ولله وقْتٌ أذْهَبَ الغِشَّ نَارُه فلم يَبْقَ إلا صَارمٌ أو ضبَارِمُ

(تجاوَزْتَ مِقْدارَ الشَّجاعةِ والنُّهَى إلى قول قوْم أنت بالغيب عالم)

أى أن أناساً من الحُذّاق لما رأوا إقدامَك، وإعمالَكَ رُمْحَك وحُسامَك، يُبِيحَان لك سلامة الحَوْباء ، والظَفر أبداً بالأعداء ، قالوا إنه لا يقتحم ذلك إلا بعد ما ظل عالماً ، أنه لا يَئُوب إلا سالماً غانماً . فخَصَلْتَ عندهم بذلك عالِمَ غيبٍ غبر ، مُتَقَفيا للعواقب غير ذى رَيْب وهذا أرفع من منزلة الشجاعة والتدبير .

(تَظُنُّ فِراخُ الفُتْخِ أنّكَ زُرْتَها بأمّاتِها وهى العِتَاقُ الصّلادِمُ)

أى أن خيلَك صَعدت الجبال حتى انتهت إلى أعاليها ، وهناك وكُورُ العِقْبان . فلما أشرفْتَ على تلك الوكور جَمْجَمْتَ ، والجمجمة تشبه صَرْصَرَة عتاق الخيل ، ظنتها فِراخُ العِقْبان أُمَّهاتِها . ومما يدلُّك على أن الجمجمة تشبه الصرصرة قول الشاعر :

إذا الخيلُ صاحَتْ صِياحَ النسور   حَزَزْنَا شَراسِيفَها بالجذَمْ

وعنى بالفُتْخ : العِقبان . أقام الصفة مُقام الموصوف ، لأنها صفةٌ غالبة ، تقوم مقام الاسم . وإنما سميت العُقابُ فَتْخاء ، للين جناحها . والفَتَخُ : اللين ، والصلادم : شِداد الخيل ، واحدها : صِلْدِم وصِلْدِمة .

(أَفِي كلَّ يومٍ ذَا الدُّمُسْتُقُ مُقْدِمٌ   قَفَاهُ على الإقْدام للوجْهِ لائمُ)

أى إن هذا الدمستق فى كل يوم يُقْدِم فيُهزم ، ويُحْجِم فيَسْلَم وجهُه ، ويُضْرب قَفَاه ، فالقفا يلُوم الوجه على الإقدام . يقول له : كَمْ تتوجه إلى من قد علمت أنه لك هازِمٌ ، فتسلمُ أنت ، ويهونُ عليك ما ألقاه إذا سلمتَ أنت . وأراد قَفَاهُ لائمٌ لوجهه على الإقدام فقال : (للوجه) ، لأن إضافة القفا إليه تشعر أنه لا يعنى من الوجوه إلا وجهه .

(يضْرِبٍ أتى الهَامَاتِ والنصرُ غَائِبٌ   وَصَارَ إلى اللَّبَّاتِ والنصرُ قَادِمُ).

أى أن الضرب إذا قُرِع الهامَ لم تَعُدَّه نَصْرَه ، إذ فى الإمكان أن يموت صاحبُها ، وأن لا يَمُوت . فإذا وصَل إلى اللَّبَّة ، هلك لا محالة ، فحينئذ يُعْتَدُّ بالنصر . وضرب الغيب مثلاً للشك فى النصر ، والقدوم للتيقّن . وكذلك الغائب مشكوك فيه ، والحاضر مُتيقَّن .

(حَقَرْتَ الرُّدينياتِ حَتَّى طَرَحْتَها   وَحَتَّى كأن السَّيفَ للرُّمحِ شاتِمُ)

الرُّدَينيات : الرماح ، منسوبة إلى امرأة تسمى رُدَيْنَة ، كانت تُرَكِّب فيها الأسنة .

يقول : إنما أحببتُ لقاء العدوّ على قُرْبٍ معانقةً ومصافحة ، لجرأتك وشجاعتك ، ولم ترض أن تستعمل فى قتاله الرمحَ ، لأن ذلك مُشْعِرٌ بالجبن ، لأن القتال به إنما هو على بُعد ، فاطَّرحته واستعملت السيف مكانه . قال :

(وحتّى كأن السيف للــرُّمح شاتِم)

أى لكأنك قد رأيت السيف قد عيَّر الرمح بالضعف والتقصُّف وقلة الغناء ، فهَان عليك الرمح لذلك ، ألا تَراه يقول بعد هذا :

ومَنْ طَلَبَ الفَتح الجليلَ فإنَّما مَفَاتِيحُه البِيضُ الخِفافُ الصَّوارِمُ

ومن كلام بعض العرب : الرمح أُخُوك وربما خانك . وقال عمرو بن مَعْدِ يكرب فى السيف :

خَلِيلِى لم أَخُنْه ولم يَخُنِّى على الصَّمْصَامَةِ السيفِ السَّلامُ

- ١٠٣ -

وله ايضا :

(أَرَاعَ كَذَا كُلَّ الأَنَامِ . هُمَامُ وسحَّ لَهُ رُسْلَ الملوكِ غَمَامُ)

كذا فى موضع نصب صفةٌ لمصدر محذوف . أى راع رَوْعاً مثل هذا :

(وسح له رُسْل الملوك غَمــام)

أى تقاطروا عليه ، وقد جاءوه تَتْرى من كل أَوْب ، حتى كأن غماماً سحَّهم عليه لكثرتهم ، أى صبَّهم ، فرُسْلَ الملوك : منصوبٌ على المفعول به ، لأن سَحَّ فعل متعدّ .

(وَرُبَّ جَوابٍ عن كتابٍ بَعَثْتَهُ وعنوانُه للنَّاظرين قَتَامُ)

يعنى جيشاً أجاب به عن كتاب ، فأنبأهم قتامُه عنه ، كما يُنْبِئُ عن الكتاب عنوانه .

(تَضيقُ به البَيْدَاء من قَبْـل نَشْرِه وَمَافُضَّ بالبَيْدَاء منهُ خِتَامُ)

أى أنه يملأ البيداء ، وهو مجتمع قبل انتشاره ، فكيف به إذا انبث وانبعث .

(حُروفُ هِجاء النَّاسِ فيه ثَلاَثةٌ   جَوادٌ ورُمْحٌ ذَابِلٌ وَحُسَامُ)

أى لا يشاهد فيه إلا هذه الأنواع ، كما لا يشاهد فى الـكتاب إلاّ حروفه .

— ١٠٤ —

وله ايضا :

(بِلاَدٌ إذا زَارَ الحِسانَ بغيرِها   حَصَى ترْبِها ثَقَّبْنَهُ للمِخَانِقِ)

بلاد : أى هى بلاد ، يعنى (الثَّوِيَّة) وهى الـكوفة وحصاها وهو ذلك الذى يعرف بالرومى ، وهو شفاف حسن . يقول : فإذا زِيرَ به النساء فى غيرها من البلاد استحسنه فَثَقَّبْنَه ووضعنه فى مُخانقهن . وليس الحصى هو الزائر فى الحقيقة لأن الزيارة إنما هى لمن يعقل ، والحس جماد . وإنما أراد زِيرَ به الحسان فاتسع بأن جعل الفعل له . وواحد المخانق مخنقة ، سميت بذلك ، لأنها توضع فى موضع الخَنْق من الحَلق .

(وَأَغْيَدُ يَهْوَى نَفْسَهَ كلُّ عاقِلٍ   عَفيفٍ ويَهْوَى جِسْمَه كلُّ فَاسِقِ)

أى أنه كامل الحُسن خَلْقاً وخُلقاً ، لحسنه حُسنان رُوحانى ، وهو حسن الخُلُق ، وجُسْمانى وهو حُسن خَلْقه ، فأوجب ذلك أن يعشقَّه العفيف والفاسق ، فالعفيف يَهْوَى نفسه ، ولها الحسن الخُلُقى ، والفاسق يَهوى جسمَه ، وله الحسن الخَلْقى . ولو اتزن له أن يقول:(كل عفيف) ولم يذكر العاقل ؛ لـكان أذهب فى التقابل لأن العفةَّ ضد العقل . وإنما يقابل العاقلُ الأحمق ؛ فلا معنى لقوله « كل عاقل » ، لـكن لـما كانت العفة للجزء المعتدل ، وكان الجزء المعتدل يوصف بالعقـل ، حَسُن أن يذكر العَقْل مع العفـة ، وإلا فوجه التقابل ماذكرت لك .

وقوله : « وأغيد » : عطفٌ على قوله : (مليحةٌ) من قوله :

(سقتنى بها القُطرُبُّلِىَّ مَليحةٌ)

وإن شئت رفعت أغيد على الابتداء ، وخبره مضمر . كأنك قلت : وثَمّ أغيــدُ .

(يُحدِّثُ عمَّا بين عَادٍ وبَيْنَه وصُدْغاهُ فى خَدَّى غُلامٍ مُراهِقِ)

ويُرْوَى : (يحدث مابين القرون وبينه) . وهى الأمم الخالية . أى أن هذا الأغيد حافظ واع حسن الحديث ، جيد السِّياق له ، فهو يحدث عن الأوائل ، ويخبر بأخبار القدماء ، وإن كان حديث السن .

وقوله :

(وصُدغَاهُ فى خَدَّى غلامٍ مُرَاهِقِ)

كناية عن حداثته وفُتُوَّته . ويَعنى بالصدغ : ماسال من الشَّعْر على خدّه . وهذه الكناية ، وإن كانت حسنة ، فإن فيها تكلفاً ، كان أقرب من ذلك لو اتزن له أن يقول : وهو مُرَاهِق . فكان يعنى من قوله :

(وصدغاه فى خَدَّىْ غلام مراهق)

ولكنه تكلّف ذلك ، لحفظ إعراب القافية .

(يُفَرِّقُ مَا بَيْنَ الكُماةِ وَبيْنَها بِطَعْنٍ يُسَلِّى حَرُّه كلَّ عَاشِقِ)

أى بين الكماة ونسائهم ، بطعن يؤلم العاشق ، فيُسْليه بحَرِّه عن المشوق .

(أَتَى الطَّعْنَ حَتَّى ما تَطِيرُ رشَاشَةٌ مِنَ الخَيلِ إلاَّ فى نحُورِ العَوَاتِقِ)

الرشاشُ : ما أرشَّ من الدم . يقول : ألحقَ عَقيلاً بحلالهم وعِيالهم ، حتى إنهم إذا أصيبوا بالطِّعان ، طَارَتْ دماؤُهم فى نُحورِ الشَّوابِّ من النساء . وبالغ باختصاص الشوابّ ، لأنهنّ لوازِم لزوايا الخُدور ، فذلك أغرب .

(وَمَلْمُومَةٌ سَيْفِيَّةٌ رَبَعِيَّةٌ يَصيحُ الحَصَى فيها صِياحَ اللَّقالِقِ)

ويروى تصيح الحصى . مَلْمُومة : يعنى كَتِيبة مجتمعة لُمّ بعضها إلى بعض ، أى جُمع . وقيل مجموعة كالحجر الململوم . والقولان متقاربان . سيفية : منسوبة إلى سيف الدولة . رَبَعيةٌ : منسوبة إلى رَبيعة ؛ لأن سيف الدولة منها .

(يصيح الحصى فيها صياح اللَّقالِق)

أى قد كَثُر فيها الخيل والرَّجْل ، فالحصى يصيح تحت حوافر الخيل ، وأرجل الرجال ، صياحَ اللقالق : وهى نوع من الطير . واحدها لَقْلاق . وحقيقة اللقالق : الصوت ، فسمى هذا النوع من الطير لَقْلاقاً بصوته ، وكان يجب على هذا (صياح اللقاليق) لأن واحدها لَقْلاَق . وإذا كانت الألف وغيرها من حروف اللين رابعة فى الواحد ، ثبتت ياء فى الجمع ، نحو حِمْلاق وحَماليق ، وكُرْدوسُ وكراديس ، وشِمْلال وشماليل . لكن الشاعر إذا اضطر حذف هذه الياء فى الجمع . أنشد سيبويه :

قَدْ قَرَّبَتْ ساداتها الروائسا وَالبَكَراتِ الفُسَّج العَطامِسا

فكذلك اضطر هذا الشاعر ، فحذف ياء (اللقاليق)ولا يلتفت إلى قول العامة فى واحدها (لَقْلَق) ، فإن ذلك خطأ .

وقيل : كانت هذه الكتيبة مَكْسُوّة تجافيف ودروعاً فإذا وضع الفرس حافره على حصاة أطارها ، فقرعت تَجْفَافاً أو درعاً ، فأشبه صوت وقوعها بالدرع أو التجفاف ، صوت اللقالق . واستعار الصياح للحصى وإنما الصياح للحيوان . ومن رواه « تصيح » أراد تُصيح هذه الكتيبة الحَصَى ، وكان يجب على هذه الرواية أن يقول إصاحة اللقالق ، لأن مصدر أفعل إنما هو الإفْعَال ، فإن كان الفعل معتل العين ، كان مصدره إفْعَالَة ، فحذف

العين ، ويجعل الهاء عوضاً منها ، كقوله أقَالَهُ إقَالَةً ، وأقامه إقامةً ، لكنه قال : صياح ، فجاء بالمصدر على غير فعله ، لأنه أراد فتصيح صياح اللقالق ، وفى التنزيل ﴿ واللهُ أنبَتَكُم من الأرْض نَبَاتاً ﴾ أى فنبتم نَباتاً . ومثله كثير ، قد أفرد سيبويه فيه باباً .

(وكانَ هَدِيراً من فُحُولٍ تَرَكْتَها مُهَلَّبَةَ الأذْنَابِ خُرسِ الشَّقَاشِقِ)

أى كان هذا الذى أبدتْه عُقَيل من الطغيان والأشر ، بمنزلة الهدير للفحول ، والفحول إذا هاجت هَدَرَت ، وأخرجت شَقاشِقها ، وهى هَنَوات تخرج بيضاً وحُمْراً كالرِّئة . أنشد ابن دريد فى صفة شِقشقة حمراء :

فى جَوْنَةٍ كَقَفَدَانِ العَطَّارْ

القفدان : أدَمَة حمراء ، تصان فيها أنواع العطر ، فشبّه الشقشقة فى لونها وعِظَمها بها . والجَوْن : يكون للأبيض والأسود والأحمر .

وإنما قلنا هنا : إنه يصف شِقْشِقة حمراء . لتشبيهه إياها بالقَفَدان ، والقفدان أحمر . فاذا تهادرت الإبل ، شُدَّت أذنابُها وأهْلابُها ، فسكنت وخَرِست شقاشقها وذَلَّت ، فجعل عُقَيلاً بمنزلة الفحول ، وأشَرها وتوعُّدها لسيف الدولة كالهدير . وجعل إذلاله لهم ، وتحبيسه إياهم ، بمنزلة تهليب الأذناب ، وإخراس الشقاشق .

وإن شئت قلت : لما هزمهم ، فأدرك بعضاً وفاته بعض ، كانوا بمنزلة فحول صال عليها فَحْل مُقْرِم ، فهربَتْ أمامه ، فهلَّب ما أمْكنه من أذنابه أى نَسَفها .

وله أيضاً :

(وَغَيَّرها التراسُلُ والتَّشاكِى وأَعْجَبَها التَّلَبُّبُ والمُغَارُ)

أى تراسلوا بما لَقُوه من هذا الملك ، وشكاه بعضهم إلى بعض ، فدعاهم ذلك إلى ترك الطاعة ، وغيرهم عن الائتمار لسيف الدولة . (وأعجبها التَّلبُّب): وهو التحزُّم بالسلاح ، والمُغَارُ : أى الإغارة على الأحياء .

(فكُنتَ السَّيفَ قائمُهُ إليهِمْ وفى الأَعداء حدّكَ والغِرَارُ)

أى كنت قبل نِفاقهم وشقاقهم ، سيفاً مردود القائم إليهم ، لاتقطعهم ولا تؤذيهم ، لأن القائم لايؤثر . وفى أعدائهم غِرارك : أى حَدّك وله التأثير .

(فَأَمْسَتْ بالبَدِيَّةِ شَفْرَتَاهُ وَأَمْسَى خَلْفَ قَائِمِهِ الحِيَارُ)

البدية والحيار : ماءان بأرَّجَان . والحِيار أقرب إلى العمارة فيقول : سِير من الحِيار إلى البدية وبها أدركهم ، فصار الحيار خلف القائم . والشفرتان بالبـدية ، ضارباً لهم بالسيف ، الذى كان قبـل مشاقَّتِهم له يضرب به أعداءهم عنهم .

(مَضَوا مُتَسابِقِى الأَعْضَاء فِيهِ رُءُوسُهُم بأَرْجُلِهِمْ عِثَارُ)

اى أنفصلت أعضاؤهم بعضها قبلَ بعض . يقُول : تقطعت أعناقهـم فبُدِّدَتْ ، فتعثرت .

(يُغَادِرُ كُلَّ مُلتَفِتٍ إليْهِ وَلَبَّتُهُ لَثَعْلَبِهِ وِجَارُ)

الثعلب : مادخل من الرمح فى جُبَّةِ السنان ، والوجار : جُحْرُ الثعلب وِجَار ووَجَار ، حققهما يعقوب . وشك أبو عُبيدفى الكسر . أى إذا التفت إليه المنْهزِم ليقاتل بُعدَه وقُربَه لم يلبث أن يُطْعَن به فى لَبَّتِه . فتكون بمنزلة الوِجار للثعلب . ويجوز أن يجعل اللَّبة وجاراً من حيث سُمِى مايدخل من الرمح فى جُبَّة السنان ثعلباً .

وقوله : (وَلبَّتُه لثعلبه وجار) : جملة فى موضع الحال ، إذا رَدَدتَها إلى المفرد فكأنك قلت : يغادر كلَّ ملتفت إليه مَطعونَ اللَّبة به ، وهو فى موضع القلادة من الصدر .

(فَهُمْ حِزَقٌ عَلَى الخَابُو رصَرْعَى بِهِمْ مِن شُرْبِ غَيْرِهِم خُمَارُ)

أى أنهم جدوا ، وأجهدوا خيلهم ، فانقطعوا وانقطعتْ ، وأقاموا فى هذا الموضع صَرْعَى ، كأنهم شَرْب مَخْمُورُون وليسوا بشَرْب ، إنما الشَّرْب رماح سيف الدولة ، لأنها التى شربت دماءهم ، والخُمار إنما هو للشارب . يَسْخَرُ بهم فيقول : كيف خُمِر هؤلاء . وإنما الشاربة رِماحُك .

وإن شئت قلت : جعل المهزومين كالمخمورين ، لما بهم من الحيرة والكسل والفتور . وجعل الهازمين كالشَّرْب ، لما نالوا منهم ، أو مابهم من الفرح بقلهم لهم ، وقتلهم إياهم ، كفَرَح الشرَّاب للنبيذ .

(يُوَسِّطُه المَفاوز كلَّ يومٍ طِلَابُ الطَّالبينَ لا الانتِظَارُ)

يوسِّطه : أى يدخله وَسْط المفاوز ، طِلابُه للمهزومين الهاربين إلى القفار ، فهو يطلبهم هناك . يقول : فهذا هو الذى يدخله المفاوز ، لا هربه من أعدائه ، ولا انتظاره أن يُدْرِكوه . وقوله : (طِلَابُ الطَّالبين) : كان الأحسن فى الظاهر — لو اتزن له — أن يقول : طِلَابُ المَطْلوبين ، ولكن هذا يتجه على ثلاثة أوجه : إما أن يكون عنى بالطالبين أعداءه الذين كانوا يطلبونه قبل ، وهم الآن مطلوبون ، وإما أن يكونَ عَنَى بالطالبين للنجاة ، وهم هؤلاء المهزومون، وإما أن يكون «الطالبين» بمعنى المطلوبين ، فقد يجيء (فاعل) بمعنى مفعول كما يجيء عكس ذلك كثيراً ، فما جاء (فَاعِل) فيه بمعنى مفعول قولُ بشر بن أبى خازم:

ذكرتُ بها سَلْمَى فبتُّ كأننى ذكرت حَبيباً فاقداً تحت مَرْمَس

أى مفقوداً . وأما عكسُه ، فنحو قوله تعالى : ﴿ إنَّه كانَ وَعدُه مَأْتِيًّا ﴾ أى آتياً .

وذُكِرَ لى أن المتنبى سُئل عن هذا فقال : عَنَيْتُ بالطالبين سيفَ الدولة وكتيبته ، وهذا عندى حسن . فطالبين على هذا فى موضع رفع اى طلاب الطالبين لعدوهم ، كقولك : (عجبت من ضرب زيد) وانت تريد من ضرب زيد لعمرو ، فاذا كانوا قد يحذفون الفاعل ، ويجتزون بالمفعول ، للعلم بالمعنى ، مثل قوله تعالى :

﴿لاَيَسْأَم الإِنسَانُ مِن دُعاء الخَيْر﴾

اى من دعائهِ الخير ، فحذف المفعول وإبقاء الفاعل اولى . فقد جاء المفعول محذوفاً كثيراً ، فى مثل قوله تعالى :

﴿يَوَمَ تُبَدَّلُ الأَرضُ غَيْرَ الأَرضِ والسَّموات﴾

أراد : والسمواتُ غيرَ السموات . وزعم الفارسىّ أنه قد رُوى بيت ذى الرمة هكذا :

رَخِيمَاتِ الكَلامِ مُبَتَّلَاتٍ ... جَواعلَ فى القَنَا قَصَباً خِدَالاَ

مبتلات (بالكسر) أى مُقطِّعات للكلام ، يَبِهُرْن المنطِقَ نَغْمة ، فحذف المفعول ومن رواه (مبتّلات) فقد كفاك ، لأن المبتَّلة لفظ المفعول ، وهى من النساء التى كل شيء منها حَسن على حدة ، كأن الحُسن (بُتِّل) على كل جزء منها ، أى قطع . وقد أثبت هذا فى كتابى الموسوم بالمخصص فى اللغة .

وتوسطه فى المفاوز فى أثر المنهزمين يكون كناية عن بُعد هِمّته ، كقوله هو فيه :

أَكلَّما رُمتَ جَيْشاً فانثَنَى هَرَباً ... تَصَرَّفَتْ بكَ فى آثاره الهِمَمُ

عليكَ هَزِمُهُمُ فى كل معترك وما عَليكَ بهم عارٌ إذا انهزَمُوا

وقد يكون ذلك كناية عن هدايته ومعرفته بالسُّبُل والمخادع ، حتى لايفوته الهارب منهم ، كقوله هو فيه أيضا حين هزم عُقَيلاً :

تَوهَّمها الأعرابُ صَولَةَ مُتْرَفٍ تُذَكِّرُه البيداءُ ظل السُّرَادقِ
فذَكَّرتَهُمْ بالماء ساعةَ غَبَّرت سَماوَةُ كَلْبٍ فى عُيُون الحَزَائِقِ
وكانوا يَرُوعُون الملوكَ بأن بَدَوْا وأن نَبَتَتْ فى الماء نَبْتَ الغَلافِقِ
فَهاجُوكَ أهْدى فى الفلا من نُجومِهِ وأبدَى بيُوتًا من بُيوت النقانق

(غَطّا بالعِثْيَرِ البَيْداَء حَتَّى تَحيَّرَتِ المَتالِى والعِشَارُ)

العِثْير: ماء ، أى غطَى مالهُمُ البيداء ، فى هذا الوضع المسمَّى بالعِثْيَرَ ، حتى تَحَيرت مَتالية وعشاره : أى أعز أولادها ، وذلك لكثرة العدد ، وغزارة المدَد .

(وَجَيْشٍ كلما حَارُوا بأرضٍ وأقبَل أقبلَتْ فيه تحَارُ)

أى أن سيف الدولة تَبِـع بنى كعب بجيشه ، فكان الكعبيون كلما مروا بأرض واسعة حاروا فيها . وكان جيش سيف الدولة كلما مروا بتلك الأرض التى حَارَ أولئك فيها ،حارتِ الأرض فيه ، وذلك لعظمه ، وجمهور أممه، مع ماخالط الكعبيين من الخوَر ، وهؤلاء من التحدّث بالظفر . فالضمير فى حاروا راجع إلى هؤلاء المتبوعين ، وفى أقبل : راجع إلى الجيش . وكذلك الهاء فى قوله « فيه » راجعة إليه أيضاً .

(وَأجفَلَ بِالفُراتِ بَنُو نُميرٍ وَزَأْرُهُم الذى زَأَرُوا خُوَارُ)

الزئير للأسد ، والخُوار للضأن ، يقول : كانوا أسْداً قبل لقاء سيف

الدولة ، فعادوا ضأناً عند لقائه . وكَنّى بالزئير عن الأسد ، وبالخوار عن الضأن ، لأن الزئير والخُوار فى هـذين النوعين خاصتان ، والخاصة دالة على مخصوصها فتفهمه .

(فَهُم حِزَقٌ على الخابور صَرْعَى بِهِمْ من شُرْبِ غيرِهِمُ خُمَارُ)

قيل معناه : أراد غيرهم ، فظنوا أنه أرادهم ، ففروا وتفرقوا .

والذى عندى أن سيف الدولة أوقع ببنى كعب ، فذلك معنى قوله: (من شُرْب غيرهم خُمار) ، وخاف النميريون من مثل ذلك فتفرقوا ، فذلك خُمارهم لأن الخُمار أقرب إلى الصحو من السكر المُغْرِق. ففزعُ هؤلاء النميريين أخفّ من موت الـكَعْبِيين .

(بَنُو كَعْبٍ وَمَا أَثَّرْتَ فِيهِمْ يَدٌ لَمْ يُدْمِها إلاَّ السِّوَارُ)

أى أنك وإن نِلْتَهم بمساءة ؛ فقد شَرَّفْتَهم باعتمادك إياهم ، واشتغالك بهم ، كالـكفّ التى إن أدْماها السِّوار ، زيَّنها ذلك وإنْ آلمَها .

- ١٠٦ -

وله أيضا :

(أيَا رَامِياً يُصْمِى فُؤادَ مَرامِهِ تُرَبِّى عِدَاهُ رِيشَها بِسِهَامِهِ)

يخاطب سيف الدولة . يقول : أيا رامياً يصيب مارامه ، فرماه بسهم ريشُهُ أجنحة عِداه . عنى بالسهم : جيشه ، وبريش عداه : سِلاحهم الذى سَلَبَهم إياه ، وكساه جيشه . وجعل سلاح عداه ريشاً ، لـكونه عوناً لهم . كما أن الريش عَون للسهم ، وسَوَّغ ذلك أيضا أن السلاح لباس ، واللباس يُـكْنَى عنه بالريش ، لقوله تعالى : ﴿ ورِيشاً ولِبَاسُ التقْوى ﴾ ، وكنى بالسهم عن جيشه ، لأنه يقتل به عَدُوَّه ، كما يَقْتُل بالسهم .

وحَسُن أن يناديه بالنكرة ، لأنه قد أطال وصفها ، وذهب إلى أنه ليس أحد يستحق هذه الصفة إلاّ هو . فكأن النكرة هنا معرفة . والعِدَا : اسم للجمع عند سيبويه ، وليس بجمع لان (فَعُولا) لا يُكَسَّر على (فِعَل) وإنما، جمع عَدُوٌّ أعداء ، وأما عُداةٌ فجمع عادٍ . حكاه أبو زيد عن العرب . أشمت الله عادَيك ، أى عدوك .

وما كان على (فاعل) من المعتل اللام ، فَفُعَلَة فيه مطردة كقاضٍ وقُضاة ، ورامٍ ورُماة . ولا يكون (عُدَاة) جمع عدو ، لأن (عدو) فَعول ، و (فَعُول) لا يُكَسَّر على (فُعَلة) ، ولم أسمع لعادٍ فعلا يجىء (عادٍ) عليه ، أى لم يجىء (عَدَوته) فى معنى (عاديته) . ولكن هذا عندى على النَّسب ، أى ذو عَدَاوة ، ونظيره . فاعِل ، ونابل ، وأشياءُ قد حكاها سيبويه وغيره .

(وَيَجْعَلُ ما خُوِّلتُهُ من نَوَالِهِ جَزَاءً لما خُوِّلْتُهُ من كَلَامِهِ)

أى إن أياديَه تُنطقنى بجيِّد الشعر وتطلعنى على بالغ الشكر ، فهو سبب ماخُوِّلته من الكلام . فإن ذا الكلام إنما هو منه ، ثم يجازينى بالنَّوال ، على ما أعاننى عليه من المَقال . يُغْرِب المتنبى بذلك وهو كقول البحترى :

فهو يُعطِى خيراً ويُثْنَى عليه ثم يُعطِى على الثَّناء جَزَاءَ

وقوله : جزاء لما خُوِّلته من كلامه : أراد (جزاء على ماخولته) ، فأبدل اللام مكان (على) ضرورة . ويَجْعلُ هنا : بمعنى (يُصَيِّر) فهى متعدِّية إلى مفعولين ، كقولك : جعلتُ الطينَ خَزَفاً .

وله أيضا :

(قَاسَمَتْكَ المَنُونُ شخصَيْن جَوْراً   جَعَـل القِسْمُ نَفْسَه فِيكَ عَدْلاَ)

ويروى « فيه عَدْلا » يعنى بالشخصين . (أُخْتَيه) أخذتِ المنون إحداهما ، وهى الصغرى ، وأبقت لك هذه الأُخرى . وهذه المقاسمة جَوْر ، لأنه تسوّرٌ عليه فى أهله . إلاّ أن القسم صَيَّر نفسه عدلاً فى ذلك الجَوْر ، بأن أبقى لك الـكبرى ، وسلَبك الصُّغرى ، كقوله :

قد كانَ قَاسَمكَ الشخصين دَهْرُهُمَا   وعاش دُرُّهما المَفْدِىُّ بالذَّهبِ

ومن روى (فيكَ عدلاً) : عنى أنه إذا سلِمْت أنت فلم يأخذك ، فذلك الجوْر عدل ، لأن مَنْ تركَ أنفسُ ممن أخذ ، إلا أنّ الجَور فى ذلك موجود . وإنما كان يكون العدل لو ترك الجميع مَوفوراً . وإنما هذا العدل على الإضافة ، لا على الإطلاق .

(خِطْبَةٌ لِلحِمَامِ لَيسلَهَا رَدٌّ   وإنْ كَانَـتِ المُسَمَّاةَ ثُـكْـلاَ)

أى حُلول الحمام بهذه العقيلة ، يعنى أُخت سيف الدولة ، خِطبةٌ لا تردّ ، يذهب إلى إعظامها وإنـكارها ، وإن كانت هذه الخطبة نسميها نحن ثُـكْلا فليست كذلك فى الحقيقة ، إنما هى إرادة من النُّور العُلْوِىّ ، يَجذبها ويُصَيِّرها إلى ذاته .

(وَكَم انتَشْتَ بالسُّيوفِ مَن الدَّهْـرِ أسِيراً وبالنّوال مُقِلاًّ)

(عَدَّها نُصْرةً عَلَيه فَلَمّـا   صَالَ خَتْلاً رآهُ أدْرَكَ تَبْلاَ)

أى تَسَوَّرْت أنت على الدهر فى مظلوميه ، ففـككت أسيره ، وجَبَرْت كَسِيره ، وأغنيت فقيره ، فأغضبته بمضادتك إياه فى أفعاله . فأَرْصَد لك خَتْلَةً

يقتهزها منك ، إذ عَدَّ كل ذلك إنصافاً منه لمظلومَيْه ، ونُصْرة عليه لمغلوبيه .
فأخذ إحدى أختيك ، مكافأة لذلك وعقاباً ، فقَدَّر أنه أدرك ذَحْلا ،
ونال تَبْلا .

والهاء فى (رآه) : عائدة إلى الدهر ، فالفاعل هنا هو المفعول ؛ ولا يكون
مثل هذا عند سيبويه إلاَّ فى الأفعال النفسانية التى فى معنى الشك والعلم فرآه
هنا : المتعدية إلى مفعولين . وإذا كان كذلك ، فالجملة التى هى قوله (أدرك
تَبْلا) : فى موضع المفعول الثانى . وخَتْلا : مصدر فى موضع الحال ، من باب
أتانا غَدْواً ومُسْيا . والانتياش : التخليص والانتفاض .

(وَهُوَ الضَّارِبُ الكَتِيبَةَ والطَّعْنَةُ تَغْلُو والضَّربُ أَغْلَى وأَغْلَى)

أى أن الكتيبة متمنّعة ببأسها شديدة ؛ فالطعنة تَغْلو فيها ، أى تعلو وتشتد
على مريدها منها . فإذا كانت الطعنة الواحدة غالية ؛ فالضرب أغلى منها ،
لأن الطعن أمكن من الضرب ، إذ هو على بُعْد ، والضرب على قُرب ، وقال:
(والطعنة) ثم قابلها بالضرب ، احتياجاً لإقامة الوزن . وكان أذهب له فى
الصنعة — لو اتزن له — أن يقابل الطعنة بالضربة ؛ والطعن بالضرب .

— ١٠٨ —

وله أيضا :

(كُلَّمَا رَامَ حَطَّها اتَّسَعَ البَنْـ ـىُ فَغَطَّى جَبِينَهُ والقَذَالاَ)

بنَى بَنْياً : مصدر بنى إما أن يكون قد تُكُلِّم به ، وإمّا أن يكون
على الضرورة ، لأن الشاعر إذا اضطر ، كان له أن يَرُدَّ مصادر الأفعال
الثلاثية غير المزيدة إلى (فَعْل) ، وإن استُعْمِل فى الكلام على ذلك زيادة
وغير زيادة . مِثال ذلك، بعُد بَعْدًا ، وذهب ذَهْبا، وكذَب كَذْبا ، فيُرَدُّ كل

ذلك إلى قَفل . هذه حكاية الفارسىّ . « والجبين » : من أمام الرأس . « والقذالُ » من ورائه .

يقول : كلما رام (ابنُ لاوَن) ملك الروم هدمَ هذه القلعة، أوسع سيف الدولة بناءها وأطاله ، حتى امتدّ ظله من أمامه ، فغطّى جبينه ، ومن ورائه فغطى قَذَاله . أى قَذال ملك الروم وجبينه .

(وتُوَافِيهمُ بِهَا فى القَنَا السُّمْـــرِ كَما وَافَتِ العِطَاشُ الصِّلاَلاَ)

الصِّلال : الأَرَضُون التى لم تُمْطَر بين أَرَضين مَمْطورة . واحدتها صِلَّة ، وقيل : هى الأمطار المتفرقة . ويروى (الضَّلالا) : وهى بقايا الماء ، واحدها ضَلَل وقيل الضَّلَلُ : الماء الجارى تحت الحَجر . ويقول : توافيهم بها أو بالمنايا وهى فى القنا السمر ، يبادر جيشك إليهم بالقتل كما تبتدر الأنفس العطاش بقايا الماء . والعِطاش أحرصُ عليها ، لأنهم لايثقون بالرِّىّ ، لقلة الماء ، فهم يتسابقون إليه . ولو كان كثيراً وثقِوا بما يأتيهم من الرِّىّ ، فلم يتسابقوا .

وقوله : فى (القنَا السُّمْر) : فى موضع نصب على الحال ، أى مستقرة فى القنا السمر ، وملتبسة بها ، كقولك : خرج زيد فى ثيابه : أى لابساً لها ، مشتملاً بها ، و (كما وافت) أيضاً نَصْب على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى موافاة مثل موافاة العِطاش . ولو قال قائل : إن (فى) مع قوله :(بها) اسم على حِدَة (فاعِل) مقلوب موضع العين إلى اللام ، من هافت الإبل تهاف : إذا عَطِشَت لكان حسناً . وهذا الباب كثير ، قد عمل سيبويه وأهل اللغة فيه أبواباً . فكأن المعنى حينئذ أن الرماح تبتدر شُرْب دمائهم ، فكأنها عَطِشَةٌ إليها ، كما يَبتَدِرُ العِطاش الماءَ .

(أَبْصَرُوا الطَّعْن فى القلوب دِرَاكاً قبل أن يُبْصِرُوا الرِّمَاحَ خَيَالاً)

أى رأوا أصحابهم مقتولين ، فشاهدوا الطعن فيهم دِراكاً قبل أن يروا أشباح الرماح .

وإن شئت قلت : أعْجلَتِ الرماحُ هؤلاء القتلى أن يتوقعوا قبل ذلك ، فيروها فى نومهم . يذهب إلى أنّه لم يك هنالك توعُّد من سيف الدولة ، ولكن فَجِئَهم فقتلهم .

وقد يتوجه المعنى على أنهم أبصروا الطعن فى قلوبهم دراكاً بالقرع قبل أن يَرَوْا نَفْس الرماح ، كأن القَرْع قتلهم .

وليس قول من قال إن البيت مقلوب العجز والصدر ، لأن ذلك فاحش يذهب إلى أنه أراد : أبصروا الرماح خيالاً ، قبل أن يبصروا الطعن فى القلوب دِراكاً ، استدلالاً بقوله :

يرى فى النوم رُمحَك فى كُلاه ... ويخشى أن يراه فى المَنامِ

(أىُّ عَيْن تَأمَّلتكَ فَلاقَتْـ ... كَ وطَرْفٍ رَنَا إليكَ فَـآلاَ)

أى أنك مُتهيَّب ، فإذا رأتك العين تغشَّتْها هَيْبتُك ، ولم تَتَمَلَّ ، منك فتصنَك وصف من لَقِى الموصوف ، وأىُّ طَرْف رَنَا إليك ، فأنكر أنَّ شعاعَك يغلِبه ويَبْهَرُه ، فيمنعُه إدامَة النظر إليك ، وكَرَّه عليك . كقوله هو فيه :

كأن شعاع ضَوء الشمس فيه ... ففى أجسامنا عنه انكسارُ

أراد : (أىُّ طَرْف) ، فاجتزأ بالأول عن الثانى ، كقولهم ، أيُّنا فعل ذلك أخزاه الله ، أراد : (أيِّ وأيك فَعَل) . من أبيات الكتاب :

فأيِّى ما وأيُّكَ كانَ شَرًّا ... فَسِيقَ إلى المنيَّةِ لاَيَرَاهَا

(كُلَّما أعْجَلُوا النَّذِيرَ مَسِيرًا ... أعْجَلتهمْ جيادُهُ الإعْجَالاَ)

أى كلما آب إليهم المنذِر بإقبال خيل سيف الدولة مُعْجَلا سبقوه ، كأن ذلك قد وَقَع فى رَوعهم قبل الإنذار ، فتُعْجِلُهُمْ خيلهُ عن العَجَلة التى تكلَّفُوها للهَرَب فخيلُ سيف الدولة منهم ، فى إعجالها إياهم ، بمنزلتهم من النذير ، فى إعجالهم إياه .

(رُبَّ أمرٍ أتاكَ لاتَحْمَدُ الفُعَّـــالَ فيه وتَحْمَدُ الأفْعَالاَ)

هؤلاء جيش من الروم ، نزلوا على (الحَدَث) فنذِرُوا بعسكر سيف الدولة ، فانهزموا ، فالانهزام محمود ، والمنهزم غيرُ محمود على ذلك ، لأنهم فرُّوا وخَلَّوا له سبيلَه ، اضطراراً لا اختياراً . والمضطر غير محمود على فعله ، وإن كان فعله فى ذاته حَميداً . وهذا كقوله هو :

فولَّى وأعطاكَ ابنَه وجُنودَهُ جميعاً ، وما أعطى الجميعَ ليُحْمَدَا

(وَقِسِيٌّ رُميتَ عَنْها فَرَدَّتْ فى قُلوبِ الرُّماةِ عَنْكَ النصالاَ)

أى رموك فأخْطئوك ، ورميتهم أنت فأصبتهم .

(أخذوا الطُّرْقَ يَقْطَعُون بها الرُّسْل فَكَان انْقِطَاعُها إرْسَالاَ)

أى لما قطعوا الطُرُق ، فلم يمكن الإرسال ، استمع الناس وتطلَّعوا إلى عرفان الأنباء ، فأوجبهم ذلك إلى إنعام البحث ، حتى عرفوا مع انقطاع الرسُل ، ما كانوا يعرفون بالإرسال أو أكثر ، فكأنّ الانقطاع صار إرسالاً حينَ أنتج من معرفة أخبار الأعداء ، ما كان يُنتجه الإرسال .

(مَامَضوا لَمْ يُقاتِلوكَ وَلـكِـــنَّ القِتَالَ الذى كَفَاكَ القِتَالاَ)

(لم يقاتلوك) : جملة فى موضع الحال ، أى هؤلاء — وإن لم يقاتلوك — فما مضوا غير مقاتلين لك . وذلك القتال هو علمهم بظَفَرِك بهم ، وعلمهم باعتيادك إبادَتهم ، وهو الذى حملهم على ترك القتال ، فهو الذى كَفَاكَ القتال .

فقوله : (القتال) ، نصب بلكنّ ، و (الذى) ؛ خبر لكنّ ؛ أى ، ولكنّ القتال القديم الذى عَلِموه منك ، هو الذى كفاك القتال الآن .

(والثّباتُ الذى أجَادُوا قَديماً   عَلّم الثابتين ذَا الإجْفَالاَ)

أى لما ثَبَت للهاجمين منهم فبادوا ، امتثل هؤلاء خلاف ذلك . خشية أن يَحُلّ بهم ماحل بأوائلهم ، فهربوا وأجفلوا ، وكانوا من ذوى النجدة والثبات .

(بَسَطَ الرَّوْعَ فى النُّهَير يَميناً   فَتَوَلّوا وفى الشّمال شِمَالاَ)

إن شئت قلت : أتاهم الروع من أيمانهم وشمائلهم . وإن شئت قلت : ضاعف الرَّوْعَ عساكر سيف الدولة فى عيونهم ، ففرّوا ولم يَثْبُتوا .

- ١٠٩ -

وله ايضا :

(يَقْمُصْنَ فى مِثْلِ المُدَى من بَارِدٍ   يَذَرُ الفُحولَ وَهُنّ كالخِصْيَانِ)

القُماص . النَّزوَان ، حكى سيبويه عن العرب أفلا قِماص بالعير ، وقال هو مثل هذا الماء الذى ذكر المتنبى (أرْسناس) دائم البرد مَشْتىً ومَصيفاً ، وكانت هذه الغزوة صيفية . فيقول : إنّ هذا الماء خَصَى الخيل ، فآلمها البردُ إيلاَم المُدى ، وهى السكاكين ، حتى قَلّص ذلك البرد الخصى ، فعاد الفحلُ منهن كالخَصِىّ . وقال : (مِنْ باردٍ) ، فوضع الصفة موضع الموصوف ، لأنه قواه بالنعت ، وهى الجملة التى هى قوله: (يذر الفحول) فصارت الصفة كالاسم ، بما هَيّأ لها من الوصف . ولولا ذلك لَقَبحُ . قال سيبويه : لو قلتَ ما أتانى اليوم إلاّ قوىّ ، وإلاّ بارداً ، لم يكن فى قوة قولك : ما أتانى اليوم إلاّ رجلٌ قوىّ ، و إلاّ ماء بارداً .

(والماء بين عَجَاجَتَين مُخَلِّصٌ تَتَفَرَّقَانِ به وتَلْتَقِيَانِ)

يعنى عَجاجة الإسلام، وعَجاجة الروم ربَّما جازت النهر فالتقتا، وربما قصرتا عن ذلك فتفرقتا.

(رَكَضَ الأميرُ وكاللُّجَينِ حَبَابُهُ وَثَنَى الأعنةَ وهو كالعِقْيَانِ)

أى جاوزه أبيض بريئًا من الدم والقتلُ لم يقع بعد، ثم أوقع بالروم فسالت دماؤهم فى (أرْسناسِ) فاحمر، وعَبَرَه للرجوع، وهو من ذلك الدم أحمر كالعقيان، وأراد: ركض الأمير الخيل فحذف المفعول.

(وَحَشَاهُ عَادِيَةً بِغَيْرِ قَوَائمٍ عُقْمَ البُطُونِ حَوالِكَ الأَلْوَانِ)

يقول حشا سيف الدولة هذا النهر سُفُنًا سُودًا بالقار عُقْمًا: أى لا تحمل. وإنما أقام السُّفُن فى هذا النهر مُقام الخيل. وقال: (عادِية بغير قوائم) لأن السفن سابحة لا ماشية. ونظير قوله: (حوالِك الألوان) قول الآخر فى وصف سفينة:

وإلى نداك ركبتُها زَنْجِيَّةً كَرُمَتْ منابتُ أصلها من عَرْعَرِ

(وعَلَى الدُّرُوبِ وفى الرُّجُوعِ غَضَاضَةٌ والسَّيرُ ممتنعٌ من الإمْكَانِ)

أى: كان الذى عَدَدْنا من أحوالك، وذكرناه من أخبارك على الدروب.

وإن شئت قلت: وعلى الدروب لك آثار أيضًا، إذ فى الرجوع غَضَاضَةٌ ونقصان على الرَّاجع، والسير حينئذ صَعبٌ لا يُمكن، وقوله:

(وفى الرجوع غَضَاضة) و (السيرُ ممتنع)، جملتان فى موضع الحال. ولو قال: (والسيرُ مُمْتَنِعٌ)، لكان الكلام تامًّا، لأنه قد عُلِم أن الممتنع غير ممكن. ولكن القافية وباقى بناء البيت أحوجاه إلى قوله: (من الإمكان).

(وفَوارِسٌ يُحْيِي الحِمَامُ نُفُوسَها فَكأنَّها لَيْسَتْ مِنَ الحَيَوانِ)

من شأن الحِمام أن يميت ولا يُحْيِي، لكن هؤلاء يُحْيِي الحِمام نفوسَهم، بما يَتبع موتَهم فى الحروب من عالى الذكر؛ وجميل الثناء، بحسن البلاء، كقول أبي تمام:

أَلِفُوا المنايا فالقتيلُ لديهِمُ مَنْ لم يُخَلِّ العيشَ وهْوَ قَتِيل

وإن شئت قلت: يُحيي الحمامُ نفوسَهم، وهولاء يُحبُّونه ويُـؤْثرونه؛ فكأنهم ليسوا من الحَيَوان، لأن الحيوان يكرهون الحِمام؛ وهؤلاء يحبونه ويؤثرون حُبَّ الحِمام نفوسهم.

(حُرِمُوا الذى أَمَلُوا وأَدْرَكَ مِنْهُمُ آمَالَهُ مَنْ عَادَ بالحِرْمَانِ)

أى الذى أمَّلوه من الظفر بسيف الدولة؛ وأدرك الناجي منهم بنفسه أمله الحادث له حينئذ، لأنه لما حُرم الظَّفَر، وعلم أن سيف الدولة مُظفر به، جعل أقصى آماله السلامةَ والنجاة بذاته، فمن تهيأ له ذلك منهم، فقد نال أمله الحادث، وإن كان قد حرم ذلك الأول. ونحوه قول امرئ القيس:

وقد طوفت فى الآفاق حتَّى رَضيتُ من الغنيمة بالإيابِ

ومن أشعار المَثَل:

اللَّيلُ داجٍ والكِبَاشُ تَنْتَطِح فمن نَجَا برأسِهِ فقد رَبِح

- ١١٠ -

وله أيضا:

(عُقْبَى اليمين على عُقْبَى الوَغَى نَدمُ مَاذَا يَزِيدُكَ فى إقْدَامِكَ القَسَمُ)

كان الدمستق أقسم على أن يَلقَى سيف الدولة. فلما لَقِيَهم انهزم، فنَدِمَ على قسمه، فجعله المتنبي مثلاً. يقول: إذا حَلَفت أن تلقى من لست

قِرْناً له مُوازياً ، ولا كُفُؤاً مساوياً ، ندمت على ما فَرَطَ منك من حَلِفك .
ثم قال : ماذا يزيدُك فى إقدامك القسمُ ؟ أى لا تقسم فإن ذلك لا يزيدك فى إقدامك ؛ بل ربما أعْقَبك الندمَ ، وهذا نحو قول العرب : الصدق يُنبِئُ عنك لا الوعيد .

وقوله : (على عُقْبى) متعلقة باليمين وإن لم يُسْتَعْمل منه فعل . وحروف الجر إنما تتعلق بالأفعال والأسماء المشتقة منها . لكن جاز تعلُّقُها باليمين ، لأن فى اليمين معنى الحَلِف ؛ فكما كانت تتعلق بحَلَف ؛ كذلك تعلقت بما هو فى معناها . والعُقْبى : العاقبة .

(وَلّى صَوَارِمَهُ إكْذَابَ قَوْلِهِمُ فَهُنَّ ألْسِنَةٌ أفواهُها القِمَمُ)

كان زعيم الروم أقسم ليَغْلِبَنَّ سيف الدولة أو لا يَبْرَحُ ؛ فكان الأمر بخلاف ماأقسم عليه ليكونَنّ ، فأعقب ما كان من ذلك القسم ،أشد مايكون من الندم . فيقول : ولّى سيفُ الدولة صوارمه إكذاب قول هؤلاء ، بإصارتهم إلى الحنث ، لأنهم لما واقعوه ،لم يلبثوا أن انهزموا ، قال: (فهُنَّ ألسنةٌ) يعنى السيوف ، شبّهها بالألسنة فى الصورة والمضاء ،وجعل هامَهم المفلّقة بها ، بمنزلة الأفواه التى تكون بها الألسنة ، وجعل عمل السيوف فى الهام ، بمنزلة الفُتيا المرخِّصة لهم فى الهرب .

ومما شبه فيه السيف باللسان قول الشاعر :

وسَيْفى من خَوْض الدِّماء كأنه لسانُ الذّيبِ أوْلَغَه الدّما

وماشُبِّهَ فيه السِّنان باللسان أيضاً قوله :

وأسمرُ فى رأسه أزرقٌ مِثلُ لِسَانِ الحية الصّادى .

(وَشُزَّبٌ أذْكَتِ الشِّعْرَى شَكائمها
وَوَسَّمَتْها على آنافِهَا الحَكَمُ)

أى أحمَى طلوع الشِّعرى العبور ، وهو أوان اشتداد الحر ، وانقطاع المطر ، شكائم هذه الخيل الضامرة .والشكائم : فئوس اللُّجُم ، واحدتها شكيمة وقيل : الشكائم : الحكمَ ، فاستحرّت الحكمَ حتى عادت كالمكواة ، فوسمت آناف الخيل ، كما يسمها المكاوى بالنار .

(حتى وَرَدْنَ بِسمنينٍ بُحَيْرتهَا   تَنِشُّ بالماء فى أشدَاقِهَا اللُّجُمُ)

أى أن الخيل شربت من بُحيرة سُمْنِين . فغلا ذلك الماء فى أفواهها ، باستحرار اللجم التى فى أشداقها ، كان ذلك الحر الذى فى الحديد هو الذى أحمى الماء فغلى فى أفواه الخيل .

(وَأَصْبَحت بِقُرَى هِنْزِيطَ جَائلة   تَرعَى الظُّبَا فى خَصِيبٍ نَبتُه اللِّمَمُ)

الخصيب هنا : الهامُ ، ونبتها الشَّعَر . والخصيب كناية عن كثرة الشَّعَر . وإنما عنى أن هؤلاء القتلى شباب لم يَصلَعُوا بعد ، وهم يَكْنُون عن كثرة الشعر وسواده بالخصب ، وعن ضد ذلك بالمَحْل فمما جاء فى ذلك قوله :

خليلىَّ لَونُ الشيب دَاءٌ كرِهتُه   فما أحسنَ المَرْعَى وما أقبحَ المَحْلاَ

وقال :

رأت أقحوانَ الشيب فوق خَطِيطَةٍ   إذا أُمطِرتْ لم تستكنَّ صُؤَابها

شبه رأسه حين صَلِع بالخطيطة ، وهى الأرض التى لم تُمطَر بين أرضين ممطورتين . وإذا لم تُمْطَر لم تُنْبِت . وقال : (تستكن صُؤابها) : أى أنه ليس هنا شَعَر فيستتر فيه الصؤاب لَوْ مُطِر ، ولانعلم أحداً شبه الشيب بالأقحوان إلا هذا الشاعر . قال أبو النجم فى تشبيهه قلة الشعر بالجرب (أجرب الغالى إذا الغالى فَلاَ) كقولك : أهيَجتُ الأرضَ : وجَدْتُها هائجة النبات . وله نظائر كثيرة .

(فَمَا تركْنَ بِها خُلْدًا لَهُ بَصَرٌ   تَحتَ التُّرابِ ولاَ بَازًا لهُ قَدَمُ)

استثارت هذه الخيل من مُنهزمى الروم مَنْ وَلَجَ بطنَ الأرض ، وسلكَ الأخاديد ، فصار بتخلله التراب ، بمنزلة الخُلْد وهى الفأرة العمياء ، إلا أن الخلد هنا إنسان وله بَصَر ، إنما أخرجه بقوله : (لَهُ بصرٌ) من نوع الخلد إلى نوع الإنسان. إذ هو المختبئ فى التراب ، وليس بخُلْد فى الحقيقة ، إنما هو إنسان، وإنما شبهه بالخلد فيما ذكرت لك . وكذلك أنزلت منهم صَقَر الخيل والعُقاب ، فصار بازًا فى تسنُّمه المرَاقِب ، كتسنم البوازى ، إلا أن له قدمًا ، إذ ليس بباز فى الحقيقة . وبقوله : (قدم) أخرجه من نوع البازى إلى الإنسانية ، كما أخرجه من نوع الخُلْد بقوله : (له بصر) وهذا الإخراج مليح ، وإن كان قوله :(له بصر) و (له قدم) ، من باب الرسم لا من باب الحدّ ، فقد أحال ، فتفهمه ، فإنه لطيف .

(وَلاَ هِزَبْرًا لَهُ مِنْ دِرْعِهِ لِبَدٌ   وَلا مَهاةً لها من شِبْهِهَا حَشَمُ)

أي : درعه له كاللِّبدة للأسد ، (ولها من شِبْهِهَا حشم) : أى : جَوارٍ مثلُها فى الحسن والسِّنِّ يَخْدُمْنها . وبقوله : (من درعه لِبَدَ) أخرجه من نوع الأسدِ ، لأن الأسَدَ لا يَدَّرِعُ . وبقوله :(لها من شِبْهِهَا حَشَم) أخرجها من نوع المهاة ، لأن البقرة ليسَ لها خدم من نوعها .

وهذان الفصلان : أعنى (له من درعه لِبدَ) و (لها من شبهها حشم) عرَضان ، ليسا برسْمَين ، كالبَصر والقَدم الذى قبله ، لأن البصر والقدم جوهران .

(عَبَرْتَ تَقْدُمُهُمْ فيه وفى بَلَدٍ   سُكّانُهُ رِمَمٌ مَسكونُها حُمَمُ)

والحُمَم : الفَحْم ؛ واحدته حُمَة بالهاء . سمى بذلك لسواده . أى قتلتهم وأحرقت منازلهم ؛ فلم يبق من أنفسهم إلا أعظمُ رمم ، وهى البالية ، ولم يبق من

مَنازلهم إلا ماعاد حُمَما . فالأَعْظُم هى الساكنة لأنها جزء من السكان ، والمسكونَةُ هى الحممَ ، لأنها جزء من المساكن .

وما أحسن ماقابل به بين الرِّمَم والحُممِ : لفظاً ومعنى . وقوله : (سكانها رِمَمُ) جملة فى موضع النعت لبلد . وقوله : (مسكونها حُمَم) : جملة فى موضع النعت لرمم . فكأنه قال : فى بلد خال مُحْرِق .

(وَفى أكُفِّهِمُ النارُ التى عُبِدَتْ قَبْلَ المَجُوسِ إلى ذا اليومِ تَضْطَرِمُ)

شبه السيوف بالنار فى صفائها والتهابها وقوة تأثيرها . وقوله : (عبدت قبل المجوس) : كلام صحيح ، لأن الحاجة إلى السيف طبيعة ، وعبادة المجوس النار شريعة ، والطبيعة أقدم من الشريعة ، وإن لم تكن هذه السيوف المحدثة الآن ، هى السيوف التى استعملت قبل عبادة المجوس النار ، وإنما أراد التى عُبِدت أفرادُها من السيوف ، أو عبدت أمثالها . ومعنى عبادتها : القول بها ، والاستغاثة إليها .

وقيل : اشتمالهم بها : كاشتمال الإسلام بالمصاحف ، والنصارى بالإنجيل ، ونحو ذلك من أنواع الشعار الإلهى .

وقيل ، معنى (عُبدت قبل المجوس) ، إنما ذهب إلى أنها عتيقة قديمة .

(تَلقَى بهم زَبَدَ التَّيارِ مُقْرَبَةٌ عَلَى جَحَافِلِها من نَضْحِهِ رَثَمُ)

يعنى زَوارق يحثُّها سيف الدولة لأصحابه ، حتى عَبَروا عليها هذا النهر . والرَّثَمُ : بياض الشفة العليا ، والجَحْفَلَةَ للفرس : كالشفة للإنسان ، يقول : جُزْتَ بهم التَّيارَ على هذه الزوارق . والتيار : هو الموج يَقْذِف على مَقادم هذه الزوارق ، والسُّمَيْرِيَّاتِ بالزَّبد ، وهو أبيض ، فكأن ذلك الزبدَ عليها رَثَمٌ . ثم جعل الزوارق مُقْرَبة ، إنما المُقْرَبة الخيل ، لأنهم كانوا يعبُرون

عليها هذه الأنهار بالخيل ، فأقام هو الزوارق مُقام الخيل ، فاستجاز لذلك أن يصفها بالمقربة . ولما جعلها خيلاً مُقْربة ، استجاز أن ينسب إليه أعصاء الخيل وشِياتها . فجعل لها جَحْفَلة ، إنما هي للخيل ، وجعل لها رَثَما حين جعل لها جَحْفلة . والنَّضَح : مارَمَى به الزَّبد . يقال : نضحَ ونَضَخَ : وقيل ما كان فِعْلا فهو نَضْح ، بالحاء غير معجمة ، وما كان اسما فهو بالخاء معجمة . وهكذا رُوِى هذا البيت عنه .

فإن قلت : كيف قلت إن المقربة هنا زوارق ، وهو يقول عَقِب هذا البيت :

تجَفَّل الموجُ عن لَبَّات خَيْلِهِم كما تجفَّلُ تحت الغارة النَّعَمُ

فأنبأ أنهم عبروا على الخيل . وقال فى موضع آخر وذكر هذا العبور :

حتى عَبَرْن بأرْسَنَاسَ سوابحا يَنْشُرْنَ فيه عمائمَ الأبطال

فالقول عندى : أن بعضهم عَبَر على الخيل ، وبعضهم على زوارق . وقد يجوز أن يكون قوله : (تجَفَل الموجُ عن لَبّات خيلهم) : عنى فيه بالخيل الزوارق ، على ماتقدم فى البيت الأول .

ومما يدلك أنه عنى الزوارق قوله بعد هذا :

(دُهْمٌ فَوارِسُها رُكّابُ أبْطُنِها

مَكْدُودَةٌ وبِقَوْمٍ لاَ بِهَا الألَمُ)

فالخيل لاتُرْكَب بطونها ، وإنما يُركب منها الظهور . وأراد المتنبى بقوله : ركاب أبطنها : أن يَفصِلها من أنواع الخيل . وقوله : (بقوم لابها الألم) : إنما الألم باقتنا لابها وإن كُدَّتْ . وقيل : الألم بالقوم العاملين فيها .

(مِنَ الجِيَادِ التى كِدت العَدُوَّ بِهَا وَمَا لَها خِلَقٌ مِنها وَلاَ شِيَمُ)

أى السفن مبلغة لك من عَدُوك ، ما أبلغتك الخيل منهم ، فهى من الخيل بمشاركتها إياها فى ذلك . لكن لا تشبهها فى حلية ولا خَلِيقة . الخيل حيوان، والسفن عيدان .

(صَدَمتَهمْ بِخَميسٍ أنتَ غُرَّتُهُ وَسَمْهَرِيَّتُهُ فى وَجْهِهِ غَمَمُ)

أنت غُرَّته : أى أنت أمامه ، فكنى بالغرة عن التقدم والشهرة . ولما جعل للخميس غُرة ، فوصفه بما هو من شِيات الخيل ، استجاز أن يصف بالغَمَم ، وهو كثرة شعر الناصية . فجعل الرماح المشْرعة فى وجهه بمنزلة الشعر الكثير . وحمل الغَمم وهو عَرَض ، خبراً عن السَّمهرية ، وهى جوهر تجوزاً وكأنه أراد ، وتكاثُفُ السمهرية فى وجهه غَمٌ . لكنه حذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه . ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ البِرَّ من آمَنَ باللهِ﴾ أراد: ولكن (ذا البرّ من آمن بالله) ، وليُقابِل الجوهر بالجوهر ، والعَرَض بالعرض . ولذلك اعتقد النحويون الحذف فى مثل هذا .

(فلا سَقَى الغيثُ ماوَارَاهُ مِنْ شَجَرٍ
لَوْ زَالَ عنهُ لوَارَتْ شَخْصَه الرَّخَمُ)

يعنى ماوارى ابن شُمَشْقِيق من الشجر ، وذلك أن الشجر حال بينه و بين المُتَّبِعين ، فأفلت . فدعا المتنبى على هذا الشجر ألا يَسْقيه الغيث حين وارى هذا المنهزم ، فكان ذلك سبب نجاته . (لو زال عنه) : أى لو زال هذا الشجر عنه ، فلم يوارهم لقتل ، فتجمعت الرَّخمُ عليه تواريه بشُخوصها .

وقيل : لو رأته لأكلته ، فيتوارى فى أجوافها . ويروى : لوارى شخصه الرَّجَمْ بالجيم وهو القبر ، والأول أسبق ، لأن القتيل فى المعترك ، إلى أن تأكله الطير والسباع أقرب منه إلى أن يقبر ، وبذلك وصَفَت العرب قتلاها . كقول عنترة :

فتركته جزَرَ السِّباع ينشْنه   ما بين قُلّة رأسِه والمِعْصم

وقال :

إنْ يَفعلا فلقَد تركتُ أباهما   جَزَراً لخامِعةٍ ونسرٍ قشعَمِ

وقال آخر :

تركتُ أباك قد أطلَى ومالت   عليه القشعمان من النسور

- ١١١ -

وله ايضا :

(فارقتكمُ فإذَا ما كان عِنْدَكُمُ   قَبْلَ الفِراقِ أذًى بَعْد الفِرَاقِ يَدُ)

(إذَا تَذَكرْتُ ما بَيْني وَبيْنَكُمُ   أعانَ قلبى على الشّوقِ الذى أجِدُ)

هذان البيتان يخاطب بهما سيف الدولة ، بعدفراقه إياه ، وهما يخرجان على ذم سيف الدولة وعلى حمده .

فأما خروجهما على ذمه ، فمعناه : أنى تأذيت بمجاورتكم ، فبعثنى ذلك على فراقكم ، فعاضَنِي الدهرُ خيراً منكم ، وتبدلتُ بالأذى راحةً . فصار ذلك الأذى الذى كان قبلُ يداً عندى الآن . إذ كان سبب تنقلى عنكم ، وارتيادى ما أحمدته حين وجدته .

وقوله : « إذا تذكرت ماينى وبينكم » يعنى من الحال ، وهو الأذى الذى عَدَا منهم إليه . هاج شوقى فأعان قلبي على ما يجده من ألم التوحش .

وقد يجوز أن يعنى بقوله : « إذا تذكرت ماينى وبينكم » ، مابينهما من تفاوت المنزلتين ، كان ذلك سبباً للسُّلو .

وأما خروجهما على حمده ، فمعناه : شكرتكم قبل أن أختبر غيركم فلما جَرَّبتُ من سواكم ، علمتُ أن ما شكوته منكم كان بالحمد أولى .

ثم أَعْلَمَ أن سيف الدولة مع ذلك كان غير منصفٍ له. وإنما حمده بالإضافة إلى غيره ، فقال : إذا تذكرت مابيني وبينكم من قلة إنصافكم لى ، سَلَّانِي ذلك عنكم .

- ١١٢ -

وله ايضا :

(طَوَى الجزيرةَ حتى جاءنى خَبَرٌ   فَزِعْتُ فيه بآمالِى إلى الكَذِبِ)

أى عظم عندى ، وأطمَعْتُ نفسِى أن يكون، كَذِباً ، تعَلُّلاً بذلك ، لأن الإنسان كثيراً ما يميل إلى تصديق مايوافقه من الأخبار ، وتكذيب مالا يوافقه منها ، لما وُضِعَتْ عليه النفس من مُنافرة المحذُور ، وملاءمته مايجنيها ثمرةَ الحُبُور ، كقول الشاعر :

وَعلّلت نفسى بالمرجّم غَيْبهُ   وكاذَبْتُها حتّى أبَانَ كِذَابُها

أبان ، أى استبان . « وخَبرٌ » مرفوع على مذهب البصريين « بجاءنى » لأنهم إنما يُعمِلُون أقربَ الفعلين ، ولابد على هـذا من إضمار الفاعل فى « طَوَى » على شريطة التفسير ، وإن كان إضماراً قبل الذكر ، لأن خلو الفعل من الفاعل ، أذهب فى القبح من الامتناع من إضمار مالم يتقدم له مُظهر .

ومن حُكم العربية ، إذا وَرَد أمران كلاهما متَجَنَّبٌ على حِدَةٍ ، تُجنِّبَ أقبحهما ،وأوثِرَ الثانى . ألا ترى أنهم يكرهون توالى إعلالين؟ وقد أخذ الخليل بهما فى جاء ونحوه ، حين أبدل وقلَب فاحتملهما كراهيةَما هو أشد منهما ، وهو اجتماع الهمزتين فى كلمة واحدة ؛ فتفهمه .

وأما على مذهب الكوفيين فيرفع « خبر » على أنه فاعلٌ (بطوى) : لأنهم يُعملون أسبق الفعلين . فلابد على هذا من الإضمار فى جاءَنِى ، أى طوى الجزيرة خبرٌ حتى جاءنى .

والقول الأول عندى أحسن فى هذا البيت ، لأن النكرة التى هى (خَبَرٌ) على ذلك القول ، موصوفة بالجملة التى هى (فَزِعْتُ فيه بآمالى) . إلاَّ أن فيه ما قد أرَيْتُك من الإضمار فى الأول ، على شريطة التفسير . وعلى هذا القول الثانى ، ليس للنكرة وصفٌ . وقوله : « إلى الكَذِبِ » : أراد إلى اعتقاد الكذب ، كائناً فى هذا الخبر .

ويجوز أن يريد إلى التكذيب ، فوضع الكَذِبَ موضع التكذيب ، كقوله:

(وبَعْدَ عَطائك المائةَ الرِّتاعَا)

(يا أخْتَ خَيرِ أخٍ يا بِنتَ خَيرِ أبٍ   كنايةً بهما عن أرْفَعِ النَّسَبِ)

أى أخُوَّتك من سيف الدولة ، وأبوتك وبُنوتك من أبى الهيجاء ، (كناية) عن أرفع الأحساب ؛ لأن مَنْ كانت لهذا الملك أُختاً ، ولهذا الأمير بِنتاً ، فقد نَصعَ نسبُهُ ، وارتفع حَسَبُهُ . « فكناية » على هذا نُصب على المصدر ، أى أُكْنى بهذين السببَين عن أرفع نَسبين .

(أُجِلُّ قَدْرَكِ أن تُسَمَىْ مُؤَبَّنَةً   وَمَنْ يَصِفْكِ فقد سَمَّاكِ لِلْعَرَبِ)

أى إنى أُكرِمُك عن الإيضاح لا سمك ، فأعدلُ عن الإفصاح باسْمك ، فإذا وصفتك ورثَيتُك ، عَلِمَتِ العربُ أنى عَنَيْتُك ، فأغنانى حُسْن التَّخْلية ، عما لا يحسن من التسمية .

ومؤبنة : نصب على الحال والتأبين: الثناء على الهالك .

(حتَّى إذَا لم يَدَعْ لى صِدقُهُ أَمَلاً
شَرِقْتُ بالدَّمع حتى كَادَ يَشْرَقُ بِى)

أي بكيتُ حتى شَرِقْتُ بالدمع ، وذُبْتُ من حرارة الوجْد ، فعدْتُ جوهراً سَيَّالاً ، حتى كاد الدمع يَشْرَق بى ، لذوبى ولُطفى .

(مَسَرَّةٌ فى قلوبِ الطِّيبِ مَفْرِقُها   وحَسْرَةٌ فى قُلوب البيضِ واليَلَبِ)

أى أنها امرأةٌ تتطيَّبُ ولا تَلْبس السِّلاح . فالطِّيب يُسَرُّ بمفرقها ، والسلاح يَحسُدُ الطِّيبَ ، لأنه لا يصل منها حيث يَصلُ الطِّيب .

وقال : (فى قلوب الطِّيب) : ذهاباً إلى أنواعه . ولو ذهب إلى الجنس أو الشخص لقال فى فؤاد الطِّيب : وحَمله على اختيار ذلك قولُه :(فى قلوب البيض) ليقابل جمعاً بجمع ؛ ولو قال : فى فؤاد الطيب ثم قال . فى قلوب البيض ساءت الصناعة ؛ وكلٌّ واسع .

— ١١٣ —

وله أيضا :

(تَشْتِكى ما اشْتَكيتُ من ألَمِ الشَّوْ
قِ إليها والشَّوقُ حَيْثُ النُّحُولُ)

أى أنها تشكو إلىَّ مَلَقاً ، وأشكو إليها حُرَقاً ؛ ثم أقام على تملقها وتخلّقها بُرْهاناً عَيانيًّا ؛ فقال : (الشوقُ حيثُ النُّحول) أى النحول عندى ؛ وهو نتيجة الشوق ؛ فلو كان بها شوقٌ كما بِى ؛ لـكان بها من النُّحول ما بى ؛ ولا نحول لديها ، فلا شوق بها .

(مَنْ رَآهَا بِعينِه شاقَه القُطَّانُ فيها كما تَشُوقُ الحُمولُ)

أى من رأى الدنيا بعينه ؛ أى بالحقيقة التى هى بها ؛ شاقه الباقون فيها ؛ لعلمه أنهم ظاعنون ، كما يشوقه الذاهبون عنها ، فالقُطَّان والراحِلُون عنها سواء ، فى أنه ينبغى أن يشوقه النوعان ، لعلمه باشتمال الفَناء على الفريقين .

وقوله : (الحُمولُ) : أراد كما يشوقه المتحملون ، فوضع (الحمول) ،
موضعها . وإن شئت قلت : عنى بالحُمول هنا . أُسِرَّة المَوْتَى .

(صَحِبَتْنِي على الفَلاَةِ فَتَاةٌ عَادَةُ اللَّونِ عِندَهَا التَّبْدِيلُ)

كَنَى بالفتاة عن الشمس ، وآثَرَ التأنيثَ لتأنيث العرب أسماءها ، ولذلك
سَمَّوها (الجارية) عند الفارسىّ . و (عادةُ اللَّون عندها التَّبديل) : أى
أنها حَمْراء وقتا ، وبيضاء وقتا ، وصفراء آخر . فعادة لونها التبديل فى ذاته .
فكان يجيب على هذا — لولا الوزن والقافية — أن يقول : التَّبدُّل ، لكن
وضع التبديل موضعة اتساعاً .

وإن شئت قلت : التبديل لها لوناً بعد لَوْن .

(سَتَرَتْكِ الحِجالُ عنها ولكِنْ بكِ مِنها من اللَّمَى تَقْبِيلُ)

الحِجال : الأَسِرَّة عليها الكِلَلُ خاصَّة . واحدتها حَجَلَة . وقد يكون حجال
جمع حَجَل . وحَجَل جمع حَجَلة. يقول : أَدُمْتُ أنا بهذه الشمس ، وأما أنت
فَسَتَرَتْكِ الحِجال عنها . ولم تمش فى البَرَاز ، فَتُورِثَكَ سُمرةً كما أورثتنى ،
لكن سُمرة شفتيك سُمرةٌ طبيعية ، فكأن الشمس قبَّلتك ، فألقت فى شفتيك
سُمرةً ، وهو اللَّمَى . (وفيها) الهاء راجعة للحِجال . أى وإن كنت مستورة
بالحُجُب ، فإن الشمس قد احتالت عليك ، ووصلت إليك ، وَقبَّلتك ،
وأكسَبَت اللمَى شفَتيك .

(لاَ أقمنا على مَكَانٍ وإن طَا بَ ولا يُمكنُ المكانَ الرَّحِيلُ)

أى لانُقيم دون (حَلَب) بمكان ، وان طاب ذلك المكان ، إلاَّ لو أمكن
ذلك المكانَ أن يرحلَ معنا ، فأما ولُا يمكنه ذلك ،فلا إقامة لنا عليه ولو طاب
والماضى هنا الذى هو (لا أقمنا) فى معنى الحال أو الاستقبال .

(مِثْلُها أَنْتِ لَوَّحَتْنِي وأَسْقَمْتِ وزادت أَبْهَا كُما العُطْبُولُ)

يقول : أنت مثلُها فعلاً ، ولو قال : (مثلها أنت) جاز أن يكون مَثَّلها بها فى الحسن ، وأن يكون مَثَّلها بها فى الإساءة اليه ، فأراد هو أن يُبيِّن ما أشبهت فيه هذه المرأة الشمس ، فقال : مبينا للمشابهة ، (لَوَّحَتْنِي وأسقمت) : أى الشمس لَوّحتنى وغَيَّرتنى ، وأنت أسقمتنى . والإسقام أشد من التلوح . فلهذا قال : (وزادت أبْهَا كُما العُطْبُول) يعنى هذه المحبوبة . والعُطْبول : الطويلة العُنُق .

(وَمَوالٍ تُحْيِيهِمُ مِنْ يَدَيهِ نِعَمٌ غَيرُهُمْ بها مَقْتُولُ)

(موال) : يعنى أولياءه وأقاربه ، يَقْتل أعداءه ؛ فيغنم أموالهم ، فيعطيها أولياءه ، فيحييهم بذلك . وقوله : (بها مقتول) : أى بِسَلْبِهم إياها ، أو مقتول من أجلها .

وقد يجوز أن يحييهم بهذا المَغْنَم ، فيقدرُوا بذلك على قتل أعدائه .

— ١١٤ —

وقال أيضا :

(وَقد كانَ يَنصُرُهم سَمْعُهُ وَيَنْصُرنِى قَلْبُهُ والحَسَبْ)

يعنى هؤلاء الوشاة الذين كانوا يَشُون به إلى سيف الدولة ، كان ينصرهم سمعه لأنه لم يكُ يُطيق سَدَّ أذنيه عن سماع كلامهم ، وينصرنى قلبه بحبه لى ، وتكذيبه إياهم سِرًّا . والنصر بالفؤاد أنفع من النصر بالسمع . وجعل حسَبَه ناصراً له أيضاً ، لأنّ شرفه حمله على الثبات ، وإلغاء ما يورده عنه حسادُه .

(وَما قُلْتُ لِلْبَدرِ أنتَ اللُّجينُ وَما قُلْتُ لِلشَّمسِ أنتِ الذَّهَبْ)

أى أنى لم أتنقَّصْك ، ولا بَخَستُ مناقِبك حقَّها ، كما يُنْتقص البدرُ لو يُشبه باللُّجين ، أو الشمس لو شُبِّهت بالذهب . وإنما ضرب ذلك مثلاً ، وجعل اللُّجين للبدر ، لكون أن أهل الكيمياء من الطبيعيين يقولون إنه من

أكوان القمر ، وجعل الذهب للشمس ، لأن أولئك يزعمونه من أكوان الشمس .

وقيل : هذا البيت تعريض بشعراء سيف الدولة .

يقول : كل واحد منهم يمدحك ، يريدون ما تستحقه من المدح ، ثم ينقلب المدح ذمًّا . فكأنه يقول للبدر يافضة ؛ وللشمس ياذهب ؛ فيُحط بذلك قدرهما ؛ ويَهبِط به خَطَرهما . وأنا لم أقتصر على هذه الرتبة ؛ ولاقنِعت لك بها ؛ بل وَفَّيْتُ مدحك ماقصروا هم عنه ؛ فسبيل الغضب أن يكون عليهم لا عليّ .

واللُّجَيْن من الأسماء التى لم تستعمل إلا مصغرة ؛ وقد عمل سيبويه فيه بُوَيباً .

(فَإِنْ فَارَقَتْنِيَ أمطَارُهُ   فأَكثرغُدرانِهَا مَانَضَبْ)

المطر : ذو مادة : والغدير لا مادة له ؛ انما هو القطعة من الماء ؛ يغادرها السيل ؛ أى يتركها ؛ فجعل عطاياه أمطاراً ؛ لكونها ذات مادة ؛ وجعل ماحصَل عنده من عطاياه — وقد انقطع جوده عنه بفراقه له — بمنزلة الغُدران التى لا مادة لها . فيقول : إن كنتُ رحلتُ عنه وانقطعتْ عنى جوائزُه ، فقد جَمعْت من سوالفها وعوارفها مالم يَنفَدْ أكثرها بعد .

(ويَسْتَنصِران الّذِى يَعْبُدانِ   وعنـدهما أنَّه قَدْ صُلِبْ)

يسفّه النصارى ؛ ويستضعف أخلاقهم حِين يستنصرون بالمسيح عليه السلام وهم يعتقدونه ميتاً مصلوباً ؛ ولم ينصر نفسه حينئذ .

— ١١٥ —

وله أيضا :

(كَفَى بِكَ داء أن تَرَى الموتَ شَافِيَا
وحَسْبُ المنَايَا أن يَكُنَّ أمَانِيَا) .

الفرق بين الباء التى فى (بك) وبين التى فى قوله تعالى : ﴿ و كفَى بالله شهيداً ﴾ أن الباء فى كَفى بالله داخلةٌ على الفاعل ، وفى بك داخلة على المفعول ، أى كفاك داء . ويجوز أن يكون كفى بدائك داء ، فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مُقامه ، وداء فى كل ذلك نصب على التمييز . ومعنى البيت: كفى بما تلقاه من شدة الزمن ، وتناهى المكروه ، حتى أدَّى ذلك إلى تمنى الموت ، واعتدادك به شافياً يعظم بذلك مئونة ما يَلْقَاه . ومن العَجَب أن يُلاَقِى الإنسان بَلِيةً ، تجعلُ المنية من أجلها أُمْنية .

(تَمَنَّيتَهَا لمـــا تَمَنَّيتَ أن تَرَى   صَدِيقًا فَأَعْيَا أَوْ عَدُوًّا مُداجيَا)

أى تمنيت المنَّية حين تمنيت صديقاً مصافياً ، أو عدواً مداريًا ، فكلاهما أعْوزَك وأعياك . فأما تمنِّيه الصديق فَسَجية مألوفة ، وأُمْنِية معروفة ؛ لأنَّه رَيْحانةَ الفؤاد ، وإنما هو الصديق المخلص الوِداد .

وأما تمنيه العدّو المداجيا ، فهو الخَطْب العجيب ، والخبر الغريب ، لأنا لا نعلم أن أحداً تمنى لقاء عَدُوٍّ ، ولكنه إنما عرَّض بأنه فقد العِزّة ، ولم يُؤْت ما كانت همته له لاَمِحَةً إليه ، وعَينه طامحة عليه ، فَنَدَر بذلك قدرُه ،وهان على عَدوه خَطَرُه ؛ فجاهر بمداجاته ، ولم يتكلف مداراته ، تهاوناً منه به ، ولو كان على عَدوه قديراً ، أو فى نفسه خطيراً ، لتكلّف له المداجاة ، وبيَّن أنه إنما يُلاَينُك عدوّك ويداجيك ، إذا رآك بحال يحذر بها منك .

يقول : أنا لاصديق يُصْفِينى، ولا عدو يُداجينى ،فأية مَأْرَبة لى فى الحياة؟ بل أحب إلىّ منها لقاء الوفاة .

(حَبَبْتُكَ قَلْبِى قَبْلَ حُبِّكَ مَن نَأَى   وَقَدْ كان غَدّارًا فكُنْ أَنْتَ وَافِيَا)

(مَنْ نأى) : يقول لسيف الدولة . يقول لقلبه : أنا أحببتك قبل حبِّك لهذا النائى ؛ وصَحِبْتك قبل صحبتك إياه فعليك أن تبقى لى ، وتسلوَ

عن هذا الغادر الذى لم يستعمل الوفاء لى ؛ فإنك إن لم تفعل فقد عذرتنى بحبك هذا الذى غدرنى ؛ ولو أسعده الوزن بأن يقول : وقد كان غادراً ؛ ليطابق قوله وافياً ؛ لـكان أذهب فى الصناعة ؛ وأدل على الاستطاعة . وقلبى : نداء مضاف ؛ أى ياقلبى . ولا يجوز أن يكون بدلاً من الـكاف ؛ لأن المخاطب لايبدل منه كما لا يبدل من المخبر عن نفسه لأن المخاطب والمخبر عن نفسه قد أمن التباسهما ، فقد أغنى ذلك عن الإبدال منهما إذ البدل إنما هو للبيان.

قال سيبويه : فإن قلت : بى المسكين كان الأمر ، أو بك المسكين مررت ، لم يجز . ثم احتج بمثل هذا الذى ذكرت لك .

(تَمَاشَى بأَيدٍ كلما وافَتِ الصَّفَا   نَقَشْنَ به صَدْرَ البُزَاةِ حَوافِياَ)

تماشى ؛ يعنى الخيل ، أى تماشى بأَيْدٍ قد سقطت نعالها من السفَر ، وما فى الطريق من الحصى والمدر ، لـكن حوافرها شِداد حِداد . إذا وافت الصفا — وهى أصلب ماتـكون من مواطن الحجر — نقشت فيها أمثال صدور البزاة ، لشدتها . وصدر: مفرد موضوع موضع الجمع ، لأنه مضاف إلى جمع . وهو كثير فى النظم ومنثور الـكلام . كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ المُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ ونَهَرْ ﴾ أراد ؛ وأنهار . لأن مياه الجنة أنهار لا نهر واحد . ألا تراه يقول كثيرًا فى وصف الجنة : ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنهارُ ﴾ وقال : ﴿ فيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غيرِ آسِنٍ ﴾ إلى آخر الآية .

وأما فى الشعر فقوله :

لاتُنكِروا القَتْلَى وقد سُبِينَا   فى حَلْقِـكُمْ عَظْمٌ وقد شَجِينَا

ورواه بعضهم : (صُدْر البُزاة) أراد ؛ جمع (أَصْدَرَ) وهو العظيم

الصدر ، ولا يعجبنى . إن الحافر إنما يصون صَدْر البازى — لو صوِّر — لا جملة البازى كلها . والصفا : جمع ، واحدته : (صفاة) ، وألفه منقلبة عن واو ، لقولهم : الصفوان والصَّفواء .

(بِعَزْمٍ يَسِيرُ الجسمُ فى السَّرْجِ رَاكِباً
به ويَسِيرُ القَلبُ فى الجِسْمِ مَاشِياً)

أى أن الجسم — وإن سار راكباً — فإن القلب يسير فيه ماشياً لتوقره فإنه لا يُغنِيه مَشْى الراحلة والفرس ، جرياً إلى إدراك مرغوبه ، والظفر بمطلوبه.

(فَجَاءتْ بِنَا إنْسَانَ عَينِ زَمانِه وخَلَّت بَياضاً خَلْفَهَا وَمآقِياً)

أشرف ما فى العين إنسانها ، لأن حسن النظَر إنما هو به ، وكذلك كافور لزمانه ، كالإنسان للعين ، أى أنه أشرف بنى دَهْره ، وأعلى عامرٍ فى عصره ؛ وإنما الملوك غيرُه لعين دهرهم كالبياض والمآقى ، وحسَّن ذلك أن كافوراً أسود ، فقد شاكل سواد العين ، وغيره من الملوك الذين خلفهم المتنبى وراءه بيض ، فقد شاكل البياض والمآقى ، وهذا وإن كان قد أجاد فى مدح كافور ، فقد عرَّض بسواه ، وقلَّما مرَّ له فيه غريب بيت ، إلاّ قد جمع مَدْحاً وتعريضاً ؛ ولذلك قال فيه بعد صَدِّه عنه :

وشِعْرٍ مدحت به الكَرْكَدَّ نَّ بين القَرِيض وبين الرُّقَى

ولو قال هذا البيت فى رجل أبيض ، أعنى (فجاءت بنا) ، لكان مدحا لا يُجارَى ، وتعْرِيضاً لا يُبارَى ، وإنما نقص عن غاية المدح ، لتعريضه بسواه ، ولكن هذا البيت فى الأسود أشد تحققاً منه فى الأبيض لأنه فى الأسود يحوى الطبيعةواللون ، وفى الأبيض ينفرد بما طُبِع دون اللون ، فتفهمه .

(لَقِيتُ المَرَوْرَى والشَّنَاخِيبَ دُونَه وَجُبْتُ هَجِيراً يَترِكُ الماءَ صَادِياً)

بالغ فى صفة حرِّ الهجير ، بتركه الماء صادياً ، لأن الماء لا يَصْدَى بل هو مُزيل للصَّدَى ولو قيل إن إصداءه للماء ؛ إيباسهُ له ، وتنضيبه إياه ، لأن

الصديان ذابل عما علية الريّان ، من النضارة والغضارة ، لـكان وجها .

(إِذَا كَسَبَ النَّاسُ المعَالِيَ بالنَّدَى فإنَّكَ تُعطِى فى نَدَاكَ المعَالِيَا)

المعالى على ضربين : طبيعى ، ومُقْتَنَى . فأما الطبيعى فالفضائل النفسانية : كالشجاعة والـكرم والفهم والعفة ،وهذا لايمكن أن يُوهَب البتَّة ، لقوله هو فيه :

ولو جَازَ أن يَحْوُوا عُلاكَ وهَبْتَها

وَلـكِنْ من الأشياء ماليس يُوهَبُ

يعنى الخصال الذاتية ، وخلال الفضل النفسانية ،

وأما المُقْتَنَى فنحو المال والجاه والثروة ، فإن هذا فى الإمـكان أن يُوهَب . يقول له : إذا كان قصارى أفاضل الناس اكتساب المعالى بالنَّدَى ، فإنك أنت تعطِى المعالى فى نداك ، فتُوَلِّى البلاد ، وتَكسِب الأجناد .

وإن شئت قلت : إن عطاياك تُشَرِّفُ المُعْطَيْن ، فتفضى بهم إلى المعالى ، وما كان سبباً للمَعْلاة فهو مَعْلاة .

وقد ينقلب هذا المعنى على ما قدمناه ، كأنه يريد ؛ إنك لاتحسن المعالى إذ لامَادَّة لك تربِّيها وتُنَمِّيها بصنعَة جوهرك ، ورداءة عنصرك ، حتى إذا هُيِّىء لك منها شىء ، وقاربت مِلـكه والاشتمال عليه، انصرفتَ عنه ، وسَلَّمته إلى غيرك ،

(إذا الهندُ سَوَّتْ بَينَ سَيْفَى كَرِيهَةٍ

فَسيفُكَ فى كَفٍّ تُزِيلُ التَّساوِيَا)

أى إذا سَّوى أهل الهند بين سيفين ؛ طَبْعًا ، وصَقْلاً ، واستجادة عُنْصر ، فإن السيف الذى يقع منهما بكفك ، فتضربُ به ، يكون أمضى من صاحبه الذى تضرب به كفٌ غيرك ،لأن كفك أقوى الأكفّ ، فقد أزالت كفُّك التساوى بين السيفين اللذين سوّت الهند بينهما .

وقال (فى كفّ)، فأفاد، وإن كان نكرة، لأنه قد عُلم أنه لا يعنى من الأكف إلا كفّه، كقولك مررت برجل حسن وجْهُه. (والكريهة) الشدة المكروهة. وهذا البيت نحو قوله فيه أيضاً :

إذا ضَربْتَ كَفَّاكَ بالسيف فى الوغَى
تَبيَّنْتَ أن السيف بالكف يضرِبُ

— ١١٦ —

وقال أيضا :

(مَنَ الجآذِرُ فى زِىِّ الأعارِيبِ حمْرَ الحلَى والمطايَا والجلاَبيبِ)

ألحقهن بنوع الجآذر، وحقق ذلك إغراباً ومبالغة، وتَجَوَّزَ بكونهم أعاريب، فعَزاهم إلى زِيِّهم لاإليهم، والحُمرةِ فى الحلَى، واللباس، والأينُقِ حُمْرِ الألوان، فخصهم بها من بين سائره.

(لاَتَجْزِنِى بِضَنًى بِى بَعْدَهَا بَقَرٌ تَجْزِى دُمُوعِى مَسْكُوباً بِمَسْكُوبِ)

يعنى بالبقر : أحبابه. يقول : بَكَيْنَ كما بكيتُ، فسكبْن من الدمع مثل ما سكبت مكافأة، فإذْ قَدْ جَزَيننى ببُكائى، فلا جُزِيننى بضناى ونحولى، أى لاضَنِين كما ضَنِيت، يدعو لهن، فهذا الأسبق والأليق.

وإن شئت قلت : إن حُبّهن قد أضنى جسدى، وأفنى جسدى، وأسقم وأهرم، فلم يبق فىّ موضع لحبّهن إياى. فإذا كان ذلك، لم تَضِنْ النساء عشقاً، وإن نظرْنَ إلىّ فبكين، فإنما يبكين رحمةً لى لاعِشقاً، فيكون لفظه على هذا لفظ الدعاء، ومعناه الخبر. كأنه قال فى المعنى : ليس يجزيننى.

وقوله (تَجْزِى دموعى مسكوباً بمسكوب) : جملة فى موضع الصفة لبقر. والهاء فى بعدها عندى : للحالة أو المسرة. وقد يكون راجعاً إلى النساء. واستجاز أن يقول : (بعدها). وإن عنى النساء، وهو من النوع الناطق، لأنهن قد سماهنّ بَقَرًا، والبقر وغيرها من الأنواع غير الناطقة، يُخْبَر عنها

كما يُخبر عن الواحد المؤنث .تقول : الجمال رأيتها ، والجبال علوتها ، ولو سوّغه الوزن أن يقول : (بَعْدهُن) كان أذهب فى الحقيقة ، لأنهن لسن جآذر ، وإنما هن نسوة .

(أَوْ حارَبَتْه فما تَنْجُو بِتَقْدِمَةٍ عِمَّا أرادَوَلا تَنْجُو بِتَجْبِيبِ)

أى هذه الأعداء إن حاربَتْه لم ينجها منه إعداد عُدّة يُقَدِّمون النظر فيها ، كتشييد سُور ، وحفر أُخدود ، واستظهارٍ بحُشود . وكذلك لاتنجو منه بما يؤخرونه من الاحتيال للهرب ،وإعداد الحيل المنجية ، ومن القتل والحرب.

وإن شئت قُلْت : ماتنجو بتقدمتها نفوسها إليه ، ولا بتجبيبها عنه . والتجبيب : الهرب والنُّكوص .

ولو قلت : إن التقدمة هنا بمعنى التقدم ، ليقابل التجبيب ، لأن التقدم غير متعد ، كما أن التجبيب كذلك ، لكان حسناً ، كقول قَطَرِىّ :

تأخرتُ أَسْتَبقِى الحياةَ فلمْ أجدْ لنفسى حياةً مثل أنْ أتقدَّما

ووضع المصدر مكان مصدر آخر كثير ، قد عمل سيبويه وغيره من أهل اللغة فيه أبواباً .

ولو علمنا أن العرب قالت : قدّم فى معنى تَقدّم ، كقولهم : بيّن الأمر ، أى تبيّن ، ألغينا الاحتيال له ، لكن مثل هذا لايضبط إلا سماعاً .

(بَلَى يَرُوعُ بِذِى جَيْشٍ يُجَدِّلُه ذَا مِثْلِه فى أَحَمِّ النَّقْعِ غِرْبِيبِ)

أى أنه لايقصد استمداد الأموال من الملوك ولا السُّوقة . وإنما قصده ترويعُ الملوك بالقتال ، فإذا صَرع مَلِكاً ذا جيش أجدَّله ، روّع به آخر لم يُجدِّله بعدُ . وقولُه : (ذا مثله) : أقام فيه الصفة مقام الموصوف ، أى ذَا جيشٍ مِثْلِه . وحَسَّن حذف هنا وإقامة الصفة مقامه لأمرين : أحدهما أن مثل

مضافة ، فشاكلت بذلك الأسماء ، لأن الإضافة إنما هي للاسم . والآخر أن لفظ الموصوف المحذوف ، وهو الجيش ، قد تقدم مُظْهَرًا في قوله : (بلى يَزُوعُ بذى جيش يُجَدِّله) . وقوله : (في أحمِّ النقع غِرْبيب) : أراد في موضع أحم النقع . والغربيب : الأسود .

— ١١٧ —

وله أيضاً :

(يُبَاعِدْن حِبًّا يَجْتَمِعْن وَوَصْلُهُ فَكَيْفَ بِحِبٍّ يَجْتَمِعْنَ وَصَدُّهُ)

عنى بالحِبّ هاهنا : الشيب ، لأنه محبوب على الكره ، وبإضافته إلى الموت فيقول : الأيام مُشَاكِلةٌ بالطبيعة الشَّيْب ، لأن الشيب هَمٌّ ، كما أنهن هَمٌّ . فكان القياس ألاّ تباعده لمكان المشاكلة ، وإنما مباعدتها له بالموت ، الذى هو أشدُّ كَرْبًا ، وأجل خَطْبا ، فإذا باعدت الشيب الآن وهي مجتمعة معه ، فكيف أطلب منها حِبًّا قد اجتمعت هي وضِدُّ ذلك الحب ؟

ويعني بالحِبِّ هاهنا : الشباب . يعاتب نفسه على مطالبة الأيام برد العجيب الذى فات ، وهى لا تبقِي له الأقلّ الذى بقى . ألا تراه يقول :

أَبَى خُلُقُ الدنيا حبيباً تُدِيمُهُ فَمَا طَلَبِي منها حبيباً تَرُدُّهُ

أى الدنيا لاتُديم لى حياتى ، وهى معى إلى الآن ، فكيف أطلب منها شبابى وقد ذهب .

وإن شئت قلت فى البيت الأول : إنه أراد : يُباعدن حبيبًا هو الآن معى ، وأصل لى ، أى هذا من قوتها وفعلها ، أعنى أنها تُباعد الحبيب الواصل ، فكيف لى منها بإدناء حبيب مُحْتَجِزٍ منّى ، نازح عنى ؟ وعطف وصله وصده على المضمر فى (يجتمعن) اضطراراً ، كقوله :

قلت إذ أقبلت وزُهْرٌ تَهادَى كنِعَاج الفلا تعسَّفْن رَمْلَا

ولو كان الروىّ منصوبًا ، لكان « وصَدّه » هو الأجود ، على المفعول معه ، ولو أسعده الوزن بتأكيد الضمير فقال (هى) لكان الرفع لاضرورة فيه ، ولو أنه أكّد وكان الروىّ منصوبًا ، لكان النصب حسنًا .

ولما ذكر سيبويه وجه النَّصْب فى قوله : (ما فعلتَ وأباك) قال : إنما فعل ذلك ، لأنك لو قلت : افعل وأخوك ، كان قبيحًا ، حتى تقول : اقعدْ أنت وأخوك ، قال : فإذا قلت : ما فعلتَ أنت وأباك ؟ فأنت بالخيار : إن شئت حملته على المعنى الأول (يعنى الرفع على العطف) . وإن شئت حملته على المعنى الثانى ، (يعنى النصب على المفعول معه) . وجعل الأيام مجتمعة بالوصل والصدّ ، لأنهما عرَضان ، وظروف الزمان مشتملة على جميع الأعراض كاشتمال الأمكنة على الجواهر . هذا معنى الاجتماع ، فتفهمه .

(بِوَادٍ به ما بِالقُلوبِ كأنَّه وَقَدْ رَحَلُوا جِيدٌ تَنَاثَرَ عِقْدُهُ)

أى أنهم كانوا لهذا الوادى كالعِقد للجيد ، فلما رحلوا توحّش ، وعَطِل كما يَعْطَل الجيد إذا تناثرَ عقده . وقوله : (به ما بالقلوب) ، أى من الأسف عليهم ، والحنين إليهم ، (وقد رحلوا) : جملة فى موضع الحال ، أى فى حال رحيلهم عنه . وكأنه قال : مرْحُولاً عنه جيدٌ هذه صفته . ولابد من تقدير (عنه) إذ لابد للحال من ضمير يعود إليه من الحال .

(يُخَلِّفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ دارَكَ غَايَةً وَيَأْتِي فَيَدْرِى أَنَّ ذلكَ جُهْدُهُ)

أى أنت أرفع المقصودِين . فمن قصد غيرك ، فقد ترك مقصوداً فوقَ مقصوده ، وهو أنت . فإذا قصدَك تبيَّن وتيقَّن أنه قد بلغ أقصى الغايات ، إذ لامقصود وَراءَك ، ولا مَوْرُودَ فوقك . وقوله : (ذلك جهده) : أى أقصى غاياته ، وأبعد نهاياته . وحينئذ تقرّ عين القاصد ، لأنه لا يُعنَّف على ترك الجرى إلى أقصى ما يمكنه من ذلك ، إذ ليس يمكنه تجاوزه .

— ١١٨ —

وله أيضا :

(قدِ اُخْتَرْتُكَ الأَملاكَ فاخْتَر لهُــم بِنَا
حديثًا وقد حَــكّمتُ رأيك فاحْــكِمُ)

أى من الأمْلاكِ ، فحذف وأوصَلَ الفعل ، ومثلُه كــثير ، إلا أنه ممنوع لايقاس عليه . وقد صرح بذلك سيبويه ، والأملاك : يجوز أن يكون جمع مَلِك ومَلَك ومليك ، أى قد اخترتك من جميع الأَملاك ، ورجوتك لِحقى ومطلبى ، فاختر لهم بنا حديثًا : أى اجعل الصنيعة فىّ ، فإنك إذا فعلت ذلك تُحُدِّث عنك بالإحسان ، وتُحُدِّثَ عنِىّ بأنىّ استأهلْت ذلك عندك ، وقد حكّمت رأيك ، أى سلمتُ إليكَ ، فافعل ماتشاء ، فإن طبيعتك لاتحملك على ضد الجميل .

— ١١٩ —

وله أيضا :

(أغَالِب فيــكَ الشّوقَ والشّوقُ أغْلبُ
وأعْجَبُ من ذَا الهجرِ والوصلُ أعجبُ) .

أى والشوق أغلب منى ، فحذف للعلم بما يَعْنى ، كــقولنا : الله أكبر ، أى من كل شىء فحذف ، أنشد سيبويه :

مَرَرْتُ على وادى السباع ولا أرى كوادِى السِّباع حين يُظْلِم وَادِيَا
أَقلَّ به ركبٌ أتوه تَئِيّةً وأخوفَ إلاّ ما وقى اللهُ سارِيَا

أراد : أقلّ به ركب تَئِيّةً منه .

وذهب بعضهم إلى أن « أغلب » هنا ليست للمفاضلة ، وإنما هو أفعلُ صفة كأحمر ، ولا يعجبنى لأن قوله فى آخر البيت «والوصل أعجبُ » لايسوغ فيه إلا (أفعل) التى للمفاضلة ، بأن يكون المصراع مشاكلا للمصراع الأول وإنما كان الشوق

أغلب له ، لأنه لو كان ضد ذلك لم يكن عاشقًا . وقوله : (وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب) : إنما كان الوصل أعجب من الهجر ، لأن الهجر نوعٌ من مكاره الأيام ؛ والوصل نوعٌ من مَحَابِّها ؛ وشيمة الأيام أن تأتى بما يَكْرَه ؛ فلا عجب من الهجر الذى هو فى خليقتها ؛ ولكن الوصل لو تيسر ، كان أعجب من الهجر لشذوذه عن خلق الزمان . وأراد : والوصل أعجب منه ، فحذف كما تقدم فى (أغلب) .

(فَكَمْ لِظَلَامِ اللَّيلِ عندكَ مِنْ يَدٍ تُخَبِّرُ أَنَّ المَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ)

المانوية : أصحاب مانى وهم أهل الثَّنَوِيَّة ؛ يذهبون إلى أن ظلام الليل يكون الشّر وأن النور يكون الخير ، والمتنبى يرد على هؤلاء الثَّنَوِيين فيقول: ليس الأمر على ما وصفتموه ، بل قد أجد ذلك بالعكس . فإن الليل قد وقانى شرَّ الأعداء ، وأن وَارَانِى منهم بظلامه ، كقولهم : (الليلُ يَسْتُرُ الوَيْل) .

وقالوا : اتخذِ الليلَ جَمَلاً : أى اركبه لحاجتك . وكذلك زَارَنِى الحبيب بالليل ، فأخفى مزاره على الرقيب ، وهذه أفعال الخير ، فلم تنسبون إلى الظلمة الشَّر ؟

ولما قال : «فكَم لظلام الليل عندك من يَد» فسره فى البيت الثانى بقوله :

وقَاكَ رَدَى الأعداء تَسْرى إليهم وزَارَكَ فيه ذُو الدَّلَالِ المُحَجَّبُ

ولما حَمِد الليل بما أسدى إليه من الخير ، وكذَّب المانَوِية بهذا البرهان ، أخذ فى فى ذمِّ النور ، فقال :

(وَيومٍ كَلَيْلِ العَاشِقِينَ كَمَنْتُهُ أُرَاقِبُ فيه الشَّمسَ أَيَّانَ تَغْرُبُ)

أى أنى قد أمنت من العُداة بالليل ، فَسَرَيْتُ وأَدْلَجْتُ ، وخشيتهم بالنهار فكَمَنْتُ وتَخَبَّأْتُ . وتلك كُلْفة ومَشَقة ، وجهد على النفس لإخفائه ، وما أحسن ما اتفق له الاستطراد فى هذه الأبيات .

وقوله : (أيان) أى متى . وليس من لفظ أين . إنما (أيَّان) من (أيٍّ) فهى فَعْلان كَرَيَّان التى فى الأزمنة .

ويدلك على أن (أيَّان) ليست من (أيْن) ، أنّ (أيْن) يكون سؤالاً عن الجوهر والعرض ، كقولك فى الجواهر ، أين زيدٌ ؟ وفى العَرَض : أين اللِّقاء والقتال .

فأما (أيَّانَ) فلا يسأل بها إلاَّ عن العَرَض . تقول : أيَّانَ القتالُ . ولا تقول أيان زَيدٌ . وقد قال عز وجل : ﴿ يَسألون أيَّانَ يومُ الدِّين ﴾ وقال : ﴿ يسألونك عن السّاعة أيانَ مُرْسَاهَا ﴾ فحُكم (أيَّان) إذَنْ حكم متى ، ومَتَى خِلافُ أيْن . فأيَّان إذَنْ خِلافُ أيْن .

وقد يجوز أن يكون أبو الطيب فى ذمّه النهار ، مُعَرِّضا بسيف الدولة لبياضه ، وفى حمده الليل ، مُتَعَلِّلاً بكافور لسواده ، فإن كان قصد ذلك فهو ظريف ، وإن كان لم يقصده ، فتوجيهنا له غريب .

(وأصْرَع أىَّ الوَحشِ قَفَّيتُه بِهِ   وأنزلُ عَنهُ مِثلَهُ حين أرْكَبُ)

قَفَّيته : أى اتَّبعت قفاه . يقول : أَقْتُلُ بهذا الفرس أىَّ نوع أو شخص من الوحش حاولتُ به إدراكه ، وأنزلُ عنه بعد ذلك وهو فى مثل حالهِ حين ركبتُه ، من الجمام ووفور الجرى لم يغيِّره إجرائى له ، ولا أذهب مَيْعته . وهذا كقول المَرَّار بن منقذ السَّعدى فى صفة عجوز يذكر بقاء حسنها :

من بَعد ما لَبِسَتْ زماناً حُسْنَها   وكأن ثوب جمالها لم يُلْبَسِ

« ومثلَه » . منصوب على الحال من الهاء التى فى عنه . و « حين » ظرف متعلق بأنزل .

(تَزيدُ عَطاياهُ على اللَّيث كَثْرَةً   وَتلبَثُ أمْواهُ السحاب فَتَنضُبُ)

أى كلما لبثت عطاياه تضاعفت ونمت ، لأنها ذوات مواد كحجر يهبها فتنتج مهراً ، أو ضيعة تورثه غَلَّة ووَفْراً ، فتنمى هباته على الأيام ، وتواتر الأعـــوام .

وأما مواهب السحاب فكلما لَبِثَتْ نشفَتْها الشمس ، ونَضَّبتها الأرض، واستقتها الواردة . فهذا فضل ندى كافور علَىَ ندى السحاب .

(ودُون الَّذِى يَبْغُون مَالَوْ تَخَلَّصُوا
إلى الشَّيْبِ مِنْهُ عِشْت والطِّفْلُ أَشْيَبُ)

(مالو تخلصوا إلى الشيب منه) : يعنى الموت . أى دون ما يحاولونه منك الموت ، الذى لو تخلصوا منه إلى الشيب ، لشاب طفلُهم فى حال طفولته — أراد العرب — ولكنهم لا يمكنهم التخلص من الموت إلى الشيب ، بل أنت تأتى عليهم، فتقتلهم فى الحال .

وقيل معناه : لو أمهلَ الحسدُ حسادك رَيْثَ هجوم الشَّيب ، لشاب طفلُهم الآن ، ولم يتأخر الشيب عنه إلى أوانه ، ولكن أنت تعجلهم ، وشيب الطفل فى كل ذلك : يذهب به إلى القُرْب . أى لو أمهلهم الموت الذى يحدث عنه الحسد ، لشابوا فى هذا الوقت ، ولم يمهل الطفل منهم إلى أوان المشيب، بل كان يشيب مع هؤلاء .

وإن شئت قلت : إن هذا كقوله :

فإنك سوف تحلُم أوْ تناهَى ... إذا ما شِبتَ أو شاب الغُرابُ

أى إنما تحلم إذا شبت ، وأنت لا تشيب أبداً ، لأن حِلْمك على الناس يقتلُك ، فيُعجلك عن بلوغ الشَّيْب ، وكذا لا يشيب الغراب أبداً .

فكذلك لا تحلم أبداً . فيقول : لو تخلصوا من الموت إلى الشيب —

وهذا غير ممكن — أى لو أمكن ذلك الممتنع ، الذى هو التخلص من الموت إلى الشيب ، لأمكن هذا الممتنع الثانى ، وهو شيب الطفل .

(ثناهُم وبرقُ البيْضِ فى البِيضِ صَادِقٌ
عَلَيْهِم وَبرْقُ البَيْضِ فى البيضِ خُلَّبُ)

البرق على ضربين : صادق ، وكاذب . والكاذب يقال له : الخُلَّب ، من الخِلابة ، وهى الخِداع . فوَعْد بَرْق سيوفك بأن يُفلِق البَيْض إلى ما تحتها من الهَام ، صادق ، لأنها تفعل ذلك . وبَرْق بَيض عِداك أن تقى هامهم من بيضك ، أى سيوفك ، كاذب ، لأن سيوفك من عاداتها أن تَقُدَّ تريكهم إلى هامهم ، فهو خُلب لذلك . وقد يقولون : برقُ الخُلب فيضيفون ، وهذه الإضافة على حذف الموصوف ، أى برق السحاب الخُلَّب . وإن شئت، جعلتها من إضافة الشىء إلى نفسه ، كنحو ما حكاه أبو بكر محمد ابن السَّرِى من قولهم : مَسْجدِ الجامع ، وباب الحديد . وقدحمل بعضهم قوله تعالى ﴿ ولَدَارُ الآخرةِ خيرٌ ﴾ على ذلك .

(سَلَلتَ سُيُوفاً عَلّمت كُلَّ خاطِبٍ عَلَى كُلِّ عُودٍ كَيفَ يَدعُو ويَخْطُبُ)

إن شئت قلت : لما رأى الناس تأثير سيوفك فى عِداك ، دَانُوا لك ، نخطبوا باسمك على كل مِنبر . وان شئت قلت : كان الواجب فى الاختطاب على المنابر أن يكون باسمك ، فَتُجُوِّز فى الخُطب باسم غيرك ، فَسَلَلْتَ سيوفك ، وقتلت بها أعداءك ، وبلغْت أمانيَّك ، نخطبُوا لك خاصّة ، فكان تخصيصك بذلك من تعليم السيوف التى سللت ، كقوله :

تولِّيه أوْسَاطَ البــلادِ رِماحُهُ .

وقوله : (كيفَ يَدعو ويخطُبُ) جملة فى موضع المفعول الثانى ،

و (علّمت كل خاطب) : الدعاء والخطبة . و (على كلّ عُود) : أراد على كل منبر ، لأن المنبر من العُود ، فأقام المُنْصُر مكانَ الصورة ، ومثله كثير .

— ١٢٠ —

وله أيضا :

(أُرِيدُ مِنْ زَمَنِي ذَا أن يُبَلِّغَنِي   مَالَيْسَ يَبْلُغُهُ من نَفْسِهِ الزَّمَنُ)

أى أريد أن يدوم شبابى وسرورى أبداً ، فلا أَهْرَم ولا أهتمّ . وهذا الذى أريده من الزمان ، لايبلُغُه هو من أمنيته لذاته ،لأنه لو اختار أن يكون ربيعاً أبداً ، ونهاراً سرمداً ، لم يبلغ ذلك ، لأن أحواله الأنيقة تتكدر ، فيلحق ربيعَه القيظ ، ويتخلل نهاره الليـل . فإذا لم يبلغ الزمان مُرادَهُ فى نفسه ، فجدير ألا يُبَلِّغَنى مرادى . إذ لو كان ذلك فى قوته ، لآثر به نفسه .

يتعجب من تشططه على الزمن ، وتكليفه إياه ماليس فى وسعه ، ولا يجد مُعيناً عليه من طبعه .

وجعل للزمان نَفْساً وإنما هو نورٌ وظلمة ، تَحْدثان عند حركة الفَلَك ، لأن العرب تنسُب الأفعال إلى الدهر كثيراً ، لوقوعها فيه . فيقولون : فَعل الزمان ، وصنع ، كقوله تعالى حكايةً عن الـكفار : ﴿ وما يُهلِـكُنَا إلاَّ الدَّهْرُ ﴾ .

(مِمـا أَضَرَّ بِأَهْلِ العِشْقِ أَنَّهُمُ   هَوَوْا ومَا عَرَفُوا الدُّنْيا ولَا فَطَنُوا)

أى أنهم اعتبروا حُسْن الخَلْق لا حُسْن الخُلُق . ولو جَرَّبوا الدنيا ، فأجادوا الاعتبار ، وأطالوا الاختبار ، لوجب أن يُؤْثِروا حسن الخُلُق ، فيجب إذ هو أولى فى الحقيقة بذلك ، من اعتبار هذا الحُسن المحسوس . وقد فسره هو فى البيت الثانى الذى بعده فقال :

(تفْنَى عيونُهُم دَمْعاً وأنفُسهم   فى إثْر كل قبيحٍ وجْهُهُ حَسَنُ)

أى فى إثر كل قبيح الخُلُق .

(تَحمَّلُوا حَمَلَتُكم كُلُّ نَاجِيَةٍ فَكُلُّ بَيْنٍ عَلَيَّ اليومَ مُؤْتَمَنُ)

نسيب هذه القطعة قاله أبو الطيب مُغْضباً ، شاكياً لأمره ، متسخِّطاً على دهره ، حتى أفضت به شدةُ العتاب ، إلى ملامة الأحباب ، واحتمل إفراط الجفا ، لما تأمَّله من قلة الوَفا ، فقال : (تحمَّلوا حَمَلَتْكُم كل نَاجيةٍ) : أى أُبْعِدتم ولا دَنوتم ، بخلاف قوله هو راضياً عن أحبابه :

لَا سِرْتِ من إبلٍ لَوَ آنِّيَ فَوقَها لَمحتْ حَرارةُ مَدْمَعِيَّ سِمَاتِها

ثم أدركه بعدَ ضَجْرة التأسّف ، وإظهار البراءة عن العشق بعدهم ، فقال :

فكل بَيْنٍ عليّ اليوم مؤتَمَن

أى أنى كنت أحذَر بَيْنَكم ، فإذ قد وقع ، فما أُبالى بشىء بعده ، كقوله الأول :

مَنْ شاء بعدَكَ فليَمُتْ فعليكَ كُنتُ أحَاذِرُ

وامتثله أبو نواس فقال :

وكنتُ عليه أَحْذَرُ الدهرَ وحدَهُ فلم يبقَ لى شىء عليه أُحَاذِرُ

والفاء فى قوله : (فكل بين) لعطف الجملة الثانية على الأولى ، التى هى (تحملوا) .

(رأيتكُمْ لا يَصُون العِرضَ جَارُكُمُ
ولَا يَدِرُّ على مَرعَاكُمُ اللَّبَنُ)

أى من جاوركم ذَلّ ، وأقام صابراً على الذِّلة ، حتى يكون عرضُه غيرَ مصون لأنكم لا تنصرونه على من أوصل إليه الأذاة ، بل تَدَعُونَه نُهبة ، ولا يستطيع أن ينتصر هو لخذلكم إياه . وهو فى هذا البيت يُعَيِّرهم الصَّبرَ على الذلّ والقُلِّ ، لأنّ قوله : (ولا تدر على مَرَعاكُم اللَّبن) : يعنى به أن رِفدكم قدر الكفاف ، ليس فيه مايفضُل عن الاستشفاف .

(فَغَادَرَ الهجرُ مابَيْنِي وَبينكُمُ   بهْمَاءَ تَكْذِبُ فيها العينُ والأُذُنُ)

البهماء : الأرض القفرة ، (فَعْلاء ، لا أَفْعل لها من جهة السماع) .
أى لا يقال : (قَفرٌ أَبْهَمُ) . وقد غَلَبَت (البَهماء) غلبة الأسماء .
حكى أبو زيد عن العرب ؛ البَهماوات . فلو عاملوا الصفة لقالوا :
البُهم ، أى غَادَرَ الهَجْرُ بيننا فلاةً بهماء يَقْرَعُ فيها الحِسّ ما ليس
بحقيقة ، كتخيل الآل ، وتصوُّر الأشخاص ، وعَزيف الجِنّ ؛
ونحو ذلك مما لا حاصل له .

(تَخْبُو الرَّواسِمُ من بعد الرَّسِيم بِهَا
وَتسْأَلُ الأرضَ عن أَخْفَافِهَا الثَّفِنُ)

أى تخبو الإبل الراسمة من هذا القفر ، والثَّفن : ما يصيب الأرض
من البعير والناقة إذا بركا ؛ وهى خمسٌ رُكبتاه من ذراعيه وساقيه ونخذه ؛
فإذا حَفِيت هذه الإبل ، فبركت على ثَفِناتها ، وصدمت بها الأرض ،
قالت الثّفِنات للأرض : أين الأخفاف التى كانت تَكفينا إياكِ ، وتقِينا
لُقياكِ ؟ و (الثّفِن) : جمع ثَفِنة ، كلبِنة ولَبِن . و (تسأل ونسأل)
كلاهما عربى ، لأن ما لم يفارق من الجمع واحده إلا بالهاء ، جاز تذكيره
وتأنيثه ولذلك - إذا وافقت صورة هذا الجمع صورة الجمع المكسَّر - استدلّ
سيبويه على الجمع الذى بايَنَ واحده بالهاء بدليل التذكير ، مثل ذلك قوله : إن
الرُّطَب ليس كالغَرَب ، وإن اتفق المثلان ، لأن الغَرَبَ مُكسَّر ،
بدليل تأنيثه ، والرُّطب يذكّر ويؤنّث ، يقولون : هذا الرُّطَب ، وهذه
الرُّطَب .

— ١٢١ —

وله أيضا :

(وَلَوَ آنَّ الحياة تبقى لِحَىٍّ لَعَدَدْنا أَضَلّنَا الشُّجْعانا)

[أى أن الحياة لا تدوم ، فما ينبغى للحىّ أن يَجْبُن ، إذ لا بُدَّ من لقاء الموت . وفى الجُبْن العار . ولو كانت الحياة تدوم ، لكان أضلّنا الشجاع الذى يتعرض للقتل فيقتل ، فيحرم بذلك نفسه بقاء الحياة ولذّاتها . ولكنْ إذا كان الموت لا بُد منه ، وفى الشجاعة المجدُ ، فهى أولى من ضدها .

— ١٢٢ —

وله أيضا :

(كَأَنَّ رِقَابَ النَّاسِ قالت لِسَيفِهِ رَفِيقُكَ قَيْسِىٌّ وأَنْتَ يَمَانِ)

قيس من عَدْنان ، وَاليمن من قَحْطان ، وبينهما منافرة . فيقول : كثُرَ تقطيعُ شبيب لرقاب الناس بسيفه ، فأغرت الرقابُ بينهما ، ليفترقا فتسلم . وقوله : (رفيقُك قيسىٌّ وأنت يمانٍ) ، تَوريةٌ عن قولهم : لِمَ تتفقان وأنتما بالنسب مفترقان . ونحوه قوله الآخر :

أيها المُنكِحُ الثُّريَّا سُهيلاً عَمْرَكَ اللهَ كيف يَلْتَقِيَان
هى شامِيَّةٌ إذا ما استقلّتْ وسُهيلٌ إذا استقلّ يمانِ

والألف فى يمانٍ عوض من إحدى ياءى النسب ، التى فى قولك (يَمَنِىّ)

ومن العرب من يقول : يَمانىّ . فهذا ليس على العوض ، لأنه لم يحذف منه شيئًا فتكون الألف عوضًا منه ، ولكنه من بوادر النسب .

(أَتُمْسِكُ مَا أوليتَهُ يَدُ عَاقِلٍ وتُمْسِك فى كُفْرانِه بِعِنَانِ)

أى سبيل النعم التى زالت من يدك إلى يده ، أن تَنْهَى كفّه عن الإمساك بعنان فى معصيتك ، فهلا فعل ذلك ؟ ينكر على شبيب كفره أيادى كافور بنفاقه عليه ، وخلعه طاعته .

(ثَنَى يَدَه الإِحسَانُ حَتَّى كَأَنَّها وَقَدْ قُبِضَتْ كَانَتْ بِغَيرِ بَنَانِ)

أى لما همّ بمعصيتك ، ثَنَت كثرةُ أياديك عن العصيان يده ، حتى ألقت السيف كأنها لا بنان لها يُمْسِكُهُ بها ،وقوله : (وقد قبضت) : جملة فى موضع الحال من الضمير الذى فى (كأنها) . و (كانت) ها هنا يجوز ان تكون المفتقرة إلى الخبر ، ويجوز أن تكون بمعنى خُلقت ، فتكون الغنية .

حكى سيبويه : أنا أعرفك مُذْ كنت ، أى مذ خلقت ، ويكون المجرور على هذا فى موضع الحال ، كما ذهب إليه سيبويه فى رواية من روى :

إذا كان يومٌ ذو كواكب أشنعَا

من أن أشنع حال ، ولا تكون خبراً لـكان ، لأن الخبر سبيله أن يكون مفيداً ، وليس فى أشنع من الفائدة إلا ما فى قوله (ذو كواكب) لأن اليوم إذا كان ذا كواكب كان شنيعاً إذ ظهور الكواكب إنما يكون للقتام الذى يكسف ضوء الشمس ، فتظهر . وهذا من دقائق سيبويه التى يسميها المتأمل إعجازاً .

— ١٢٣ —

وله أيضا :

(عُيونُ رَواحِلِى إن حِرْتُ عَيْنِى وَكُلُّ بُغَامِ رَازِحَةٍ بُغَامِى)

حِرْت: أى تَحَيَّرت ، والعيون هاهنا : يجوز أن تكون جمع عين ، وهى

الشخص ، أى أنى ماهر بالفلاة معاود لها أحس فيها أملى فأدعها ذؤاما فى الطريق ، فإذا أنا تحيرت فى التِّيه ، فدليلى كل عُود أُخلِّيه ، لأنى أرى شخصة فيكون لى كالمنار الذى يُسْتَدَل به . وقد تكون العيون هنا جمع العين التى هى كالجارحة النظَرية ، أى تبدو لى أعين هذه الزّوَايا ، وخَصَّ أعينها بقوله : عينى . وكذلك إذا أردتُ استنباخ الكلاب ، ليُدلَّ نُباحها على الحِلاَل ، وأماكن الحُلاَّل ، بَغَمت ناقتى ، والبُغام : صوت تقطِّعه ولا تمدُّه ، فيسمع الكلْب بُغامها فينبح ، فذلك البُغام يغنينى أن أستنبح الكلاب ، والرازِحة : الناقة المعيبة ، رَزَحَت تَرْزَح رُزُوحاً ورُزاحًا . وخصّ الرّازِحة ، لأنه يصف نفسه بإدمان السير ، والصبر على التعب فى السفر .

(فَقَدْ أَرِدُ المياهَ بِغَـير هَادٍ   سِوَى عَدِّى لَهَا بَرْقَ الغَمَامِ)

يصف نفسه بمعرفة الارتياد ، ويتَعرّب بذلك ، فيقول : لا أحتاج على الماء دليلاً ، إذا ابتغينا إليه سبيلاً ، لأنى عالم بمخايل المطر ، كعلم رُوّاد العرب ومنتجعيهم بذلك . وهم يزعمون أن البرقَ إذا لمع مائة وَمْضة ، وَثقوا بالمطر وانتجعوا الناحية ، التى لاح منها ذلك البرق .

وقيل : إذا بَرَقت السماء أربعين برْقة ، وثقوا فساروا ، وربما طاردوا جَوّه عشراً ، فوافقوا الماء .

(يَضيقُ الجِلْدُ عَن نَفَسِى وعَنْها   فَتُوسِعُـه بأنْـواعِ السَّقَامِ)

أى أنحَلَتْنِى هذه الحُمَّى ، فكأنها وجَدَتْ جلدى لايسع نَفَسى وإياها ، فأكلت اللحم ، ليتسع الجلد فيجمعهما ، كما وَسِعَ النَّفَس والنَّفْس .

(وَضَاقَتْ خُطَّةٌ فَخَلَصْتُ مِنْها   خَلَاصَ الخَمْرِ من نَسْجِ الفِدَامِ)

الفِدَام : المِصفاة ، ونَسْجُه ضيقٌ ، تَدْفَعُ إليه الخَمْرُ قَذَاها ، فتمرق منه

صافية فتزداد شرفًا بنقائها وصفائها . شَبَّه الخُطَّة ، وهى النازلة العظيمة من نوازل الدهر ، فى ضيقها بالفِدَام المُضَيَّق . فيقول : إذا دُفِعتُ إلى مُلِمٍّ ضَيِّق فعجز غيرى عن نفاذه ، خرجتُ أنا منه وقد استدل مُبصرِى على فضلى ، إذ لم تَعْلَق بى تَبِعَتُها وازددتُ شرفًا بذلك ، كازدياد المدام عند فراغها صافية للفِدام ، كقوله :

ما تعترينى من خُطوبٍ مُلِمَّةٍ   إلا تُشرِّفُنِى وَتَرْفَعُ شانِى

ولهذا قالوا خرج منها كالشِّهاب ، أى لم تعلقه منها تبعة . وأراد : (وربما ضاقت خُطَّة) ، أو (فقد ضاقت خُطَّة) يذهب فى ذلك إلى خُطَطٍ شتى ، لا إلى خُطَطٍ بعينها . وأراد (من منسوج الفِدَام) إذ النسْج عرَض ، والخَمْر جوهر ، والجوهر لا يتخلل العَرَض .

قال سيبويه : هذا ثوبٌ نَسْج اليمن ، ودرهم ضَرْبُ الأمير : أى منسوج ومضروب ، ومثله كثير .

(وَإِنْ أَسْلَمْ فَمَا أَبْقَى وَلَـكِنْ   سَلِمْتُ مِنَ الحِمَامِ إلى الحِمَامِ)

أى إن سلمتُ من موت على وجه ما ، لم أسلم من آخر على وجه ما ، وإن سَلِمتُ من الموت فى زمن ما ، لم أسلم فى غيره ، إذ الخُلد فى الحياة ممتنع . وقوله : (من الحِمام إلى الحِمامِ) : لم يُرِد الجنس ولكنه أراد من بعض أنواع الحمام إلى بعض أنواع الحمام .

— ١٢٤ —

وله أيضا :

(مُنًى كُنَّ لِى أَنَّ البياضَ خِضَابُ   فَيَخْفَى بِتَبْيِيضِ القُرونِ شَبَابُ)

(أَنَّ البياض) : خبر ابتداء مضمر . أى كانت لى مُنًى . ثم أوضح تلك المنى وكأنه قال : هى أن البياض وقار لى ، فيخفى شبابى بالمشيب ، ذهابًا إلى إكبار الشيب ، وذلك لما يَلحقُ الشباب عنده من العَيْب .

(فكيفَ أذمُّ اليومَ ما كنتُ أشتهِى
وأدعُو بما أشكُوهُ حِين أُجَابُ)

يعنى فى كل ذلك الشيب ، أى قد كنت أيام أسأله عزّ وجلّ ، وأدعو أن يسلُبَنِى الشباب ، ظانًا أن الشيب لا يَلحقُ الإنسان معه ألَمٌ ولا هَرَم . فلما شِبْت ولحقنى من الضعف مالحقنى ، علمت أن رأيى فى سؤالى الشيبَ ، ورغبتى إلى الله فيه ، كان سَفَهًا . لكن كيف أذمُّ المشيب وقد كنت أشتهيه . وكيف أشكوه وقد كنت أدعو الله أن يَهَبَه لى . يقول : فإن شكوْت ما كنتُ أُحِبّ ، وذَممْتُ مادعوت إلى الله فيه ، وقع التناقض فى مَذْهبى ، مع أن ذلك غير نافع فالصبر أولى والرِّضا بكل ذلك أحجى .

(جَرَى الخُلْفُ إلا فِيكَ أنَّك وَاحِدٌ وأنّك لَيثٌ والمُلوكُ ذِئَابُ)
(وَأَنّك إنْ قُويِسْتَ صَحَّفَ قَارِىءٌ ذِئَابًا فلم يُخْطِىءْ فقال ذُبَابُ)

أى إذا عُدِدتَ ليثًا ، وطلب من السباع ماهو دون الليث ، مما يقاس به الملوك إليك رُبتوا ذئابًا . ثم إن حُقِّق القياس ، كان مابينك وبين الملوك تفاوتًا ، كما بين الأسد والذئاب ، حتى لو صَحَّف مُصحِّف فقال : ذباب لم يخطىء فى قياسه إليك ، وإن كان صَحَّف ، بل يكوْن بهذا التصحيف أشعر كقول الأصمعىّ لقارىء عليه ، صحف عليه بيتَ الحُطَيئة ، وهو قوله :

وَغَرَرْتَنِى وَزَعَمْتَ أنّكَ لابِنٌ بالصَّيفِ تَامِرْ

فقال : (لا تَنِى بالضَّيْفِ تَامُر) ، فقال له الأصمعىّ ، أنت والله أشعر من قائله ، حين قلبتَ هَجْوهُ مَدْحًا . وقوله : (أنك واحدٌ) : بدل من الكاف فى فيك . وإن قلت : منع سيبويه البدل من المضمر المخاطَب ، فقال : إن قلت : بك المسكين مَرَرْت ، لم يجُز ، لأن البدَلَ إنما هو للإيضاح

والمخاطب لايُشْكل ، فيحتاج إلى البيان . قلنا إنما منع سيبويه فى هذا بَدَلَ الجملة من الجملة ، أعنى الكلّ من الكلّ ، الذى هو هوَ ، فأما بدل الجزء من الكلّ ، فغير ممتنع ؛ كقولك أعجبتنى وَجْهُك ، وعَجِبتُ منكَ صَبْرِكَ ، فكذلك (أنك واحد) ، وإن لم يكن جزءا من كل فهو عَرَض فى جوهر كقولك : جَرى الُخلْف إلا فى كونك واحداً ، والعَرض — وإن لم يكن جزءا من الجوهر — فهو مرتبط به ، فكان كالجزء منه . والخلْف هنا : بمعنى الاختلاف ، ولذلك جاز أن يتعدى إلى فى . وذئاب هاهنا : اسم للجنس لأنه قد قال : (والملوك ذئاب) ، فأخبر بالجمع عن الجمع ، ولو لم يجعل الذّباب جنساً ، لَلَزِمَك أن تخبر عن الجمع بالواحد .

وقد حكى أبو عُبيد فى (الغريب المصنف) عن الأحمر : (النُّعرة : ذبابة) . فإن صح ذلك ، ولم يك وهمًا من أبى عُبَيد ، فذباب هنا جمع ذُبابة ، لايحتاج حينئذ إلى تأول الجنس ولا إلى جعل الواحد موضع الجمع . ولا أعلم أحدًا من أهل اللغة حكى فى ذُباب ذُبابة إلا أبا عُبيد وحده .

— ١٢٥ —

وله أيضا :

(والعَبدُ ليس لِحُرٍّ صَالحٍ بأَخٍ ... لَوْ أنَّه فى ثيَابِ الحُرِّ مَولُودُ)

أَى لو غُذِّى ورُبى وأُدِّب بمثل مايغذى به الُحرُّ ويرَبى ويؤدَّب ، لقصرَ عن طبيعة الُحرِّ ، ولو لم يَرُم العبودية ، والعبد بمتهنه الُحرُّ ، فإذا كان كذلك فهو عدو لا أَخٌ .

(أَولَى اللِّئَامِ كُوَيفِيرٌ بمعذِرَةٍ ... فى كلِّ لُؤمٍ وبَعضُ العُذْرِ تَفنِيدُ)

أَولَى اللِّئَامِ فى العذر فى اللوم كافور ، لأنه شَرُّ نفْسٍ من أَخسِّ جنس، أعنى بالجنس : الجيل ، لا المقُول على الأنواع ، وإذا خَسَّ الجنس ؛ عذر

الواحد منه أن يجرى على قيسه ، الذى هو طبعُ جنسه ، فهذا عذراً له ، وإن كان هذا العذر بالذم والتنقص أشبه . فهو إذن عذر يزيد على التفنيد ، لأن التفنيد يشعر أن المفند موجود ، كقوله :

ويَبْقَى الُودُّ ما بَقِي العِتَابُ

فأما إذا ترك التفنيد ، للعلم بأن الإساءة طبيعة فى المسىء ، فذلك أقصى نهايات الذم . وأراد : (أَوْلَى اللئام بمعذرة كويفير) ، لأن قوله : (بمعذرة) من تمام الاسم ، الذى هو أولى . فكان ينبغى له ألا يجىء بالخبر الذى هو (كويفير) إلاّ بعد قوله : (بمعذرة) لتعلق الباء بأَوْلَى . وكذلك إن جُعِل (كويفير) هو المبتدأ ، وجعل (أولى اللئام) خبر مبتدأ مقدماً ، فقد حال أيضًا بين الاسم الذى هو الخبر ، وبين ماهو من تمامه .

ولذلك جعل الفارسىّ ((كِلاَ) فى قوله :

كِلاَ يَوْمَىْ طُوالَة وصْلُ أَرْوَى ظَنونٌ آنَ مُطَّرَحُ الظُّنُونِ

جزءا من الخبر ، لامن المبتدأ ، الذى هو وصل أرْوَى ، لأن وصلاً مصدر ، فكان يكون (كِلا) من صلته متقدّمًا له . والصّلة لاتتقدم على الموصول .

وكما لا يُقدَّم بعضُ أجزاء الاسم على بعض مُغَيَّرًا عن وضعه ، فكذلك لا يُحال بين بعضه وبين بعض بأجنبى أيضًا ، فلذلك مَثَّلنا بيت المتنبى فى فصله بين (أَوْلَى) وما يتعلق بها ، بالبيت الذى أنشده أبو علىّ ، فى أنه لايجوز تقديم الصلة على الموصول . وإنما قوله : (بمعذرة) متعلق بأَوْلَى . ثم أبرز مضمره . أى أولاهم بمعذرة .

وله أيضا :

(وَعَدْتُ ذَا النَّصْلَ مَنْ تَعرَّضَهُ وَخِفْتُ لمَّا اعْتَرضْتَ إخْلَافَا)

اختلس له بعض أعبده سيفا ، وأعطاه امرأة وَرْدان بن ربيعة الطائى الذى تضيفه بحِسْمى . وكان عبيده قد خالفوا إليها فوثب أبو الطيب إلى العبد الذى اختلس السيف ، فأخذه منه ، وضربه به فقتله ، فيقول : لم أقتلك لأن السيف عَظُم علىَّ قدرُه وجلَّ لدىّ خَطَرُه ، حتى دعانى فقده إلى قتلك ، ولكن وَعَدْتُ هذا السيف أن أقتل به من تَعَرَّضَه ، ولما تَعَرَّضْتَ أنت له وهممتُ بالصفح عنك ، خِفتُ أن يتخلّل وَعْدى إخلافٌ ، فأكون غير صادق الوعد . وأراد : (من تعرضَ له) فحذف وأوصل وكذلك أراد (وخفت لما اعترضت له) ، فحذف الجار والمجرور ، كقوله :

إنْ لم يجدْ يوماً على مَنْ يَتَّكِلْ

أراد يتكل عليه ، حكاه سيبويه . وقوله : (من تعرَّضه) أراد : قتلَ من تعرضه ، فحذف المضاف ، لمكان العلم به ، وأقام المضاف إليه مَقامه ، و (مَنْ) : فى موضع المفعول الثانى بوعدت .

— ١٢٧ —

وله أيضا :

(ألا كُلُّ ماشيةِ الخيزلَى فِدَا كلُّ ماشيةِ الهيْدَبَى)

الخَيْزَلَى : مِشيةٌ من مَشْى النساء ، فيها تَخَزُّل وتفكُّك . والهَيْدَبَى (بالدال والذال) : أعلى من مِشية الخيل والإبل ، فيها سُرْعة . فيقول : كل امرأة معشوقة التحرك فِدًا كل ناقة وجَمَل من الإبل التى خرجت عليها من مصر ، لما نلت بها من الضيم ، وقد بين ذلك بقوله بعد هذا :

. . .   . . .   وَمَا بِيَ حُسْنُ المِشَى)

أى ما علىّ من حسن مشية النساء لأنى لا أعْنَى بذلك ، وإنما أعْنَى بطلب النجاة ، ومحاولة المُعَالاة ، وإرغام العُداة ، وقد بين ذلك أيضاً بقوله :

(وَلَـكِنَّهُنَّ حِبَالُ الحَيَاةِ   وَكَيْدُ العُدَاةِ وَمَيطُ الأَذَى)

أى هن أسباب الحياة ، فوضع الحبال موضع الأسباب لأن السبب من أسباب الحبل ، « وكيد العداة وميط الأذى » أى وسبب كيد العُداة أكيدهم بها ، وسبب مَيْط الأذى أيضاً . فحذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه .

وإنما تأوّلنا ذلك ، لأن الخيل لا تـكون فى الحقيقة كيْداً ولا مَيْطاً ، إذ الخيل جوهر ، والـكيد والميط عَرَضان ، والجوهر والعرض ليسا من باب « هو هو » ، بل هما من باب الغير . وقد يجوز أن يجعل الخيلَ هى الـكيد والميط ، على سعة الـكلام ، كأنها لما كانت سبب ذَيْنِكَ ، كأنها هُما .

وقد ذهب سيبويه إلى الوجهين جميعاً فى هذا الضرب ، أعنى كقولهم : ما زيد إلا أَكْلٌ وشُرْب ، فإنما هى إقبالٌ وإدبار .

قال : جعلها الإقبالَ والإدبارَ على سعة الـكلام ، وإن شئت على الحذف ، كما قدمنا .

(فَمَا كَانَ ذَلِكَ مَدْحاً لَهُ   ولـكنّه كانَ هَجْوَ الوَرَى)

أى إذا كان مقصودُهم وممدوحهم مثل كافور ، فـكـفى بذلك هَجْواً لهم .

وإن شئت قلت : أحوجنى الوَرَى إلى مدح كافور ، وذلك سَفَهٌ ، فـكان ذلك المدح هجوا لهؤلاء ، إذ لو كانوا كُرَماء أحراراً ، أغنونى عن مدحه ، والتعرض للقائه .

وله أيضا :

(قَالَ الزَّمانُ لَهُ قَولاً فَأَفْهَمَهُ   إِنَّ الزَّمانَ عَلَى الإِمْسَاكِ عَذَّال)

يقول : من رأى للمسكين خشية الإقلال ، وموتهم عن الأموال، وتَخليتها للأعداء الأضداد غير الأشكال ، فقد أراه الزمانُ فيهم العِبَر والغِيَر ؛ فكأنه قد حذَّره الإمساك ، ولاَمَهَ على ذلك ، وليس للزمان على الحقيقه قَولٌ ، لأن الزمان عَرضٌ مُتولّد عن حركة الفَلك ، وليس للعَرض قول، إنما هو للجوهر الناطق ، لكنه لما اتعظ بتصاريفه ، ومشاهدة تكاليفه ، صار كأنَّه لَهُ لاَئِمٌ. ومثله كثير .

والقول الذى قاله الزمان ، إنما هو : لا تمسك المال ؛ فإنك إن فعلت ذلك كان عليك حُوبُه ، وللوارث لذته وطِيبُه .

وقد ألم الحارث بن حِلِّزة بهذا المعنى فى قوله :

لا تَكْسَعِ الشَّوْلَ بأغْبَارِها   إِنَّكَ لاتدرِى من النَّاتِجُ

(القَائِدُ الأُسْدَ غَذَّتْها بَرَائِنُه   بِمِثْلِها مِنْ عِدَاهُ وَهِى أَشْبالُ)

برائنهم : سيوفهم . وأما البرثن فى الحقيقة ، فهو المِخلب ، لكن السلاح للإنسان كالبَراثِن للسباع ، أى أنه يسير للهيجاء فى غلمانه الذين رباهم وضرّاهم وثبّتهم لسلب عِداه ، الذين هم مثلهم فى الشجاعة ، وذلك من حدّ صغرهم إلى كبرهم ، وقوله : وهى أشبال : جملة فى موضع الحال ، إذا رددتها إلى المفرد ، فكأنك قلت : غَذَّتها براثِنُه صغاراً ، والشبل : ولد الأسد .

(وَقَدْ يُلَقبُ المَجْنُونَ حَاسِدُهُ   إذا اخْتَلَطْنَ وبعضُ العَقْلِ عُقَّالُ)

معنى هذا أن (فاتكا) كان يُلَقّب (المجنون) ، وهو لقب له — كما تراه — قبيح ، فاحتال المتنبى ، لتأوُّله على أحسن الوجوه ، فقال : إنما جنونه إذا

تزاحمت السيوف، واختلطت الصفوف، فى الاقتحام والاهتجام. ثم قال:
وبعض العَقل عُقّال: لأن الجُبن يتصور لأهله فى مَعْرِض الحزم والعقل، وهو مذموم. وعقّال: أى أنه يَعْقلهم عن الجراءة، لأن العُقّال ظَلَع يكون بالبعير ساعة ثم ينشط.

(إِذَا العِدَا نشبتْ فِيهِمْ مَخَالِبُه   لَمْ يَجْتمع لَهُمُ حِلْمٌ ورِئْبَالُ)

هذا تفسير للبيت الأول، واعتذار من تلقيبه (المجنون). يقول: فهو فى الحرب أسد، والأسد لا يُوجد عنده الحِلْم، فلا يُلاَمَنَّ فى عدمه الحِلْم، كما لا يلام الأسد، ولا يُسَمَّيَنَّ (مجنونا) لأنه قد تحوَّل فى الحرب عن طبيعة الإنسان، إلى طبيعة الأسد، وإنما كان يسمى (مجنوناً) لو فارق الحلم وهو فى النوع الإنسانى، فلا يصح عليه اسم الجنون كما لا يصح على الأسد.

والرئبال: الأسد، يُهْمَز ولا يهمز. وليس ترك الهمز فيه على التخفيف القياسىّ، إذ لو كان كذلك لم يقل فى الرئبال والرِّيبال. إنهما لُغَتان، كما لا قول فى (ذيب، وذئب) أنهما لغتان. وذلك أن تحقيق الهمز وتخفيفه لا يُسَمى فيهما لغة، مادام التخفيف قياساً، إذ التخفيف على القياس فى فئة المحقّق. ويدلك على أن (ريبالا) ليس بتخفيف قياسىّ، وإنما هى لغة، قولُهم فى جمعه: رَيَابيل. فلو كان (رِيبالا) على التخفيف، لقيل فى جمعه (رآبيل) لأن العلة التى كانت تقلب الهمزة ياء، وهى الكسرة فى رِئْبال، قد زالت فى حدّ الجمع، وعاقبتها الفتحة. وينبغى أن يكون وزن الكلمة (فِعْلالاً). وإن كانت الياء لا تكون أصلا فى بنات الأربعة، وأمثال ذلك إن كانت زائدة كان فى الكلام فِيْعَال. وهذا بناء قد نفاه سيبويه عن الأسماء، إنما هو للمصادر.

فلما كان ذلك أشْذَذْنا (رِيبالاً) فجعلنا الياء فيه أصلا لعدم (فِيْعَال)

فى الاسم ، كما حملت الضرورة سيبويه ، على أن يعتقد الواو فى (وَرَنْتَل) أصلاً ، وإن كانت الواو لا تكون أصلاً فى بنات الأربعة.

ومن العرب من يقول : (رَئْبال) بفتح الراء فإذا جاز ذلك ، فالياء حينئذ زائدة وليست من لفظ رِئْبال ، ولو أسعده الوزن والقافية فقال (حلْمٌ وَرأْبَلَة) ليُوفِّق بين المصدر والمصدر ، لكان أذهب فى الصنعة.

فقد قالوا : (ماأشد رَأْبَلَته) . وحكى أبو زيد عن العرب : خرج المُتَرأْبِلُون (وهم المتلصصون) ليلاً كالأسد.

واستجاز أن يجعل لفاتك مخالب ، وإنما المخالب للسَّبُع ، لكن سوّغه ذلك جعلُه إياه رِئْبالا . والرِّئْبال ذو مخالب ، لأن المِخْلَب للسَّبُع كالظُفُر للإنسان .

(أَنالَهُ الشَّرفَ الأعْلَى تَقَدُّمُهُ فمَا الّذِى بِتَوَقٍّى ما أَتَى نَالُوا)

أى توخّى التقدم فى جوده وجُرْأته، فنال بها الشرف ، على أن الجود يفقر ، والجُرْأة تُهلك . فما الذى ناله غيره بتوقيه الفقر إن جادَ ، والموت إن أقدم ؟

— ١٢٩ —

وله أيضا :

(وَصَلَتْ إليكَ يَدٌ سَواءٌ عِنْدَها البَازِى الأُشَيْهِبُ والغُرابُ الأَبْقَعُ)

يعنى بذلك الموت ، جعلَ له يداً ، لقولهم : أخذه الموت إذا الأخذ أكثر ما يكون باليد . ولذلك سَمَّوا القُوة يداً ، لأنها إنما تكمل باليد ، أوقعوا اسم الجارحة على العَرَض . وقوله : (سَواءٌ عِنْدَها البازِى الأُشَيْهبُ والغُرَابُ الأَبْقَعُ) : ضرب البازى مثلاً للأرفع ، والغراب الأبقع مثلاً للأوضع ، أى الموت يُسَوّى بين الفاضل والمفضول ،

والرفيع والوضيع ، حتى لا يَفرِق بينهما ، بل هما متساويان فيه ، وكلاهما طُعْمة لِفيه ، فهو نحو قول الآخر :

لو كُشِّفَتْ للناس أغطيةُ الثَّرَى لم يُعرَفِ المولَى مِنَ العبْدِ

أى قد استويا فى التغير بالمنزلة . ونحو قول المتنبى أيضاً :

يموتُ راعى الضأنِ فى جَهْلِهِ مِيتَةَ جالينُوسَ فى طِبِّه

وقوله : (سواء عندها) : خبر مبتدأ مقدم ، والبازى الأشيهب ، مبتدأ . وإنما آثرنا ذلك ، لأن « سواء » نكرةٌ وإنْ تقوّى بقوله : (عندها) . و (البازى الأشيهب) معرفة . وإذا اجتمع معرفة ونكرة ، فالمبتدأ المعرفة ، والخبر النكرة ، ألا ترى أن سيبويه لما قال فى قوله : مررت برجل سواء هو والعدَمُ ، حين فرغ من الجَرِّ ، (وإنما جعلت هو مبتدأ ، حذراً أن يُوهِمَك أن « سواء » هو المبتدأ) .

وقطع ألف الوصل فى قوله : « والبازى الأَشَيْهب » لأنه فى أول المصراع الثانى ، فكأنه آخِذ فى بيت آخر . وهذا مما أجازه سيبويه فى الأنصاف خاصة . قال : إن الأنصاف مواضع فُصول وأنشد :

ولا يُبادُر فى الشتاء وَليدُنا القِدْرَ يُنزِلُها بغير جِعالِ

(وَتَصالَحتْ ثَمرُ السِّياطِ وَخَيْلُهُ وَأَوَتْ إليها سُوقُها والأَذْرُعُ)

ثمر السياط : عُقَد عَذَباتها . وقيل : أطرافها ، وهو الصحيح . وجعل الثمر لما تَنْمِى استعارة ، وحسَّن ذلك أن الثمرة إنما تكون فى طرف العود . وأما ما رُوِى عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ وكان له ثمر ﴾ من أن (الثَّمَر) الذهب والفضة ، فإنما هو عندى على التفاؤل وذلك أن الذهب والفضة جماد ، والجماد لا يَنمى ، والثمر نام ، فسُمِّى ،

هذا الذى لا ينمى، باسم الذى ينمى تفاؤلا . يقول : إنه كان يُديم ضرب الخيل بالسياط، لحرب عَدو ، أو لمحاولة فتنة ، أو لِطَرد قنص ، فكأنَّ السياط كانت محاربة للخيل تؤلمها ، والخيل محاربة لها ، بكراهتها إياها ، فالآن إذا مات لم يبق من يزْجُرُ خيلاً إلى حرب ، ولا نَهب ، ولا طَرْد ، فكأن ثمر السياط قد صالحت خيله حتى سكنت إليها سوقها وأذرعها، لما فقــدته من ضربها . وقوله : أوَتْ : أي رجعت آمنة لها ، ساكنة إليها .

— ١٣٠ —

وله ايضا :

(حَتّامَ نَحْن نُسارِى النَّجمَ فى الظُّلَمِ
وَمَا سُرَاهُ عَلَى خُفٍّ ولاَ قَــدَمِ)

يعجب من طول مساراته للكواكب ، على أن سُراه هو متكلف. وسُرَى الكواكب طبيعىّ فيقول : كيف أقدِر بهذه السُّرى المتكلَّفة على مسايرة النجم ونحن على خف وقدم ، وكلاهما حيوان ، وذلك نور يسير بجرية الفلك ؟

وحذف الألف من (ما) لأن (ما) إذا اتصلت بحرف الجر فى حد الاستفهام حذفت منها الألف ، فحتى بمعنى إلى ، فكأنه قال : (إلى ما ؟) أى إلى أى وقت ؟

(وَلاَ يُحِسُّ بأَجْفَان يُحِسُّ بِهَا   فَقْدَ الرُّقَادِ غَرِيبٌ بَاتَ لَم يَنَمِ)

أى والنجم مع خفة السُّرَى عليه ، وهَوَانِها لديه ، لا يُمنَع رقاداً كما نمنعه نحن ، فكُلْفتنا أشدّ ، بل الكُلفةَ لنا خاصة . ومعنى قوله : (فَقْدَ الرقاد) : لَطيف ، لأن ما ليس فى طبعه أن يَرْقُد ، لا يقال فيه

(فَقَدَ رُقاداً) وإنما أراد أن النجم ليس بحيوان يغذوه النوم ، ويُصْلِح شأنه ، فإذا سَرى فقدَ الرقادَ فآذاه ذلك . وقوله : (ولا يحس بأجفان) : نَفَى عنه الأجفان ، لأن الجَفْن إنما هو لِذِي الرُّوح .

فيقول ؛ ليس النجم بذى رُوح فيكونَ له جفن ينفعُه الكَرَى ، ويضره السَّهَر . وبنفى هذا العضو الجسمانى ، أخرج النجمَ من النوع الحيوانىّ .

(وَتَتْرُكُ الماء لا ينفكُّ مِنْ سَفَرٍ ماسَارَ فى الغيم منه سار فى الأَدَمِ)

أما سيره فى الأَدم ، وهى الأَدواى ، فلعمرى إنه لهم وبإرادتهم . وأماسيره فى الغيم فلمُجْرِيه ومنشئه سبحانه . لكنهم لولا أنهم أودعوه مَزَادَهُم ، وجعلوه زادَهم ، لم يكُ دَهْرَه كلَّه مسافراً ، ولكان مسافراً فى السحاب ، وحالًا فى التُّراب ، فلما كان إدامة سَفَرَ الماء إنما هو بكونه فى السحاب ، وَتَزَوُّدِ هؤلاء اياها ، صار كأنّ كِلَا السَّيْرَيْنِ بملكهم .

وقيل ؛ لما كان حَمْله فى المزاد نتيجة كونه فى الغَيْم ، جعلوا السبب والمسبب كالشىء الواحد . ومثله فى القرآن والشعر والكلام كثير .

(تَبْرِى لَهُنّ نعامُ الدّوِّ مُسْرَجَةً تُعَارِضُ الجُدُلَ المُرْخَاةَ باللُّجمِ)

تَبرى : تُعارض . ونعام الدوّ : يعنى به الخيل . وبقوله : (مُسْرَجَة) : فصلها من النعام الوَحْشِى ، لأن نوع النعام لا يُسْرَج اذ لا يُرْكب . والجُدُل : جمع جَديل ، وهوحبل مفتول من أَدَم ، يكون فى عُنق الناقة والبعير .

يقول : فإبلنا طِوال الأعناق كخيلنا ، فأعناقها تُعارِض أعناق الخيل .
وأقام الجُدل واللُّجم مَقام الأعناق ، لأن فيها دليلا عليها ، إذ لا يكون
إلا هناك . وما أحسن ذكر اللُّجُم مع قوله : (مُسْرَجة) .

(تَبْدو لَنا كُلَّما أَلْقَوا عَمائِمَهُمْ   عمائمٌ خُلِقَتْ سُوداً بلاَ لُثُمِ)

يصف غِلمانه ، ويذكرهم بالمروءة . يقول : كلما سَفَروا عمائمهم
بدت لنا عمائم سُود ، يعنى لممهم ، وأثبت العمائم لهم ، لأن العمائم على
الهام ، وشعور المُرْدِ انما هى هناك . ونفى اللثُم عن عمائمهم التى عنى
بها الشعر ، لأن اللثام ما سال على الخَدِّ من العمامة . وهؤلاء مُردٌ
لا شعور فى خدودهم ، فتصل شعور رءوسهم فلذلك جعل اللمم عمائم
(بشعور رءوسهم) دون لثم ، ، وهذا مليح جداً .

(نَاشُوا الرِّماح وكانتْ غيرَ ناطِقَةٍ
فَعلَّمُوها صِيَاحَ الطَّيرِ فى البُهَمِ)

النَّوشُ : التناول . (باتت تنوشُ الحوضَ نوشاً من عَلاَ) .
وفى التنزيل : ﴿ وأنَّى لهم التَّنَاوُشُ ﴾ أى التناول للنجاة ، والبُهم :
الشجعان ، واحدهم بُهْمة . يقول : تناولوا الرماح وهى خُرسٌ فى حالة
تناولهم إياها ، فدقوها فى الأبطال ، حتى صاحتْ صياح الطير ، فحكى بذلك
نغمة انكسارها فى المطعون بها ، كقول الآخر :

تصيحُ الرُّدَيْنيات فينا وفيهمُ   صِيَاحَ بناتِ الماء أصبحنْ جُوَّعا

وقوله : (وكانت غير ناطقة ، فعلموها صياح الطير) : يشعر أنها
ناطقة إذا صاحت . وهذا مَقْطع شِعْرى ، لأن الصياح ليس بمنطق .
وإنما المنطق عبارة عن النطق المتصور فى النفس ، وهى الفكرة الباعثة
على المنطق .

فأما قوله تعالى : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ فإنما ذلك على أن الله تعالى قد جعل للطير ما تعبر به عن ذواتها ، إلّا أن ذلك لا يتأدّى إلينا نحن ، وإنما خُص لفهمه سليمان صلى الله على محمد وعليه ، وذلك أنه فهم من نَغَم الطيور ما نفهمه نحن فى هذا النوع الإنسانى بالمنطق .

(مَنِ اقْتَضَى بِسَوى الهِنْدِيِّ حَاجَتَهُ
أَجَابَ كُلَّ سُؤَالٍ عَنْ هَلٍ بِلَمِ)

أى من اقتضى حاجته أوسألها من غير أن يُعْمِل لإدراكها سيفاً أو رمحاً ، لم تُقْض له . فكلما قيل له : هل قضيت حاجتك أو أدركتها ، كان جوابه لم أقض ولم أدرك ، وإنما يدرك حاجته من اقتضاها بالسيف والرمح . وجعل (هل) ، و (لم) اسمين للحرفين ، فصرفهما ، لأنها على شكل فمٍ ودمٍ . وإن شئت قلت : أراد (لَمْ) بسكون الميم ، ثم تصور الوصل فالتقى له ساكنان ، فحرك الميم لالتقاء الساكنين ، وكان يجب أن يقول : أجاب كل سؤال بهل ، لأن السؤال ليس عن هل ، إنما المبحوث بهل عن غيرها ، كقولك : هل فى العالم خسوف قمر ، فالسؤال إنما وقع عن الخسوف القمرى بهل ، لا عن هل وهى عند أصحاب المنطق أول منازل البحوث ، لأنها إنما يُسأل بها عن الآتية لكن لما كانت هل منتظمة للقضية المسئول بها عنها وكانت تلك يتعدى السؤال إليها بمن ، استجاز أن يجعل السؤال عن (هل) اضطراراً .

وإن شئت قلت : أبدل (عَنْ) مكان الباء ، لأن حروف الجر يبدل بعضها من بعض كثيراً . وحَسَّن له ذلك ، أنه لو أسعده الوزن فقال : « بَهلٍ بلَمٍ » توالت الباءان فى الحرفين . فهذا ما يعتذر له به .

وخَصَّ المندىّ ، وهو السيف ، بتبليغ الأمل دون الرمح ، لأن العمل بالسيف أدل على الاجتهاد ، وأوصل إلى المراد ، كقوله هو :

ومن طلبَ النصرَ العلىَّ فإنما مفاتيحه البيضُ الخفاف الصوارمُ

(صُنـَّا قَوائمهـا عَنهُمْ فَمـَا وَقَعتْ
مَواقِع اللؤمِ فى الأَيْدِى ولاَ الكَرَمِ)

ويروى (ولا الكزم) فمن رواه ولا الكرم ، فمعناه : لم يقبض على قوائمها قبض اللئيم يده ، اجتهاداً فى محاربتهم ، وذلك لقلتهم عندنا ، ولصوننا سيوفنا عنهم، ولم نَمُدَّ بها إليهم صفحات أكُفّنا ، كما يتوعَّد المشير إلى سيفه، باسطاً يده كما يبسطها الكريم ، بل حَقَرْناهمْ على الحالَين معاً ، فلم نُعْمِل فيهم السيوف كذا ولا كذا .

من رواه الكزَم : أراد : لم نشدُدْ أيدينا عليها شَدَّ اللئيم الأكْزَم ، وهو الذى قصّر اللؤم أصابعه ، كقولهم فيه : كَزُّ البنان ؛ وجَعْدُ البنان ، وقولهم فى ضده : سَبْطُ البنان . والرواية الأولى أعلَى .

(تَحذِى الرِّكَابُ بِنا بيضاً مَشَافِرُها ،
خُضْراً فَراسِنُها فى الرُّغْلِ واليَنَمِ)

الرغل واليَنم : نبتان . أما ابيضاض مشافرها فإنهم لا يَهْنئونها الرعْى ، من حثهم إياها ، ومواقعتهم السير ، فلا تبلغ من الرعْى اليسير أن يخضر مشافرها ، إنما كانت تخضر لو أنعمت الرعى .

ويدلك على صحة ماذهبنا إليه قولُه :

... ... نَضْرِبُها
عن مَنْبَتِ العُشْب نَبْغِى مَنْبِتَ الكَرَمِ

أوَ لا تراه يصفها بأنه يَقْدَعُها عن الرعْى ، ويحثها على المشى .

وأما اخضرار فراسِنِها فلإدامتها السير فى الكلأ ، وأ اع النبات الأخضر . وخص الرُّغْل واليَنَم لأنها مما يَغلب على منابت الحَمْض .

(هَوِّن عَلَى بَصَرٍ مَاشَقَّ منظرُهُ فإنّما يَقَظَاتُ العَينِ كالحُلُمِ)

أى ماشقّ عليك النظر إليه ،والمشاهدة له ، من أنواع المكاره فهوِّنْه على عينك ، فكل موجود معدوم بعد وجوده ، كان خيراً أو شراً .

وقوله : (فإنما يقظات العين كالحُلُم) أى كل ما تشاهد فى اليقظة فى قلة الدوام ، فى منزلة ما يُشاهَد فى الأحلام .

وإن شئت قلت إن المشاهدة فى اليقظة غير حقيقة ، كما أن مشاهدة ما فى المَنام كذلك ، مبالغةً بقلَّة تحقق الأشياء . والقول الأول أسوغ وأبلغ .

(مازِلتُ أُضْحِكُ إبْلِى كلَّمَا نَظَرتْ إلى من اخْتَضَبَتْ أخْفَافُهابدَمِ)

يذهب الى احتقار كافور حتى إن إبله لتزدرى مقصوده ، فتضحك منه ومن القاصد . يقول : الى مثل هذا الصنف أعملنا وجهدنا ، حتى اختضبت بالدم أخفافها ،وأراد الى مَنِ اختضبت أخفافها بدم إليه فحذف الجار والمجرور، وحُسَنَ حذف ذلك ، لأن إلى قد ظهرت فى الكلام ، وان لم يكن من سبب تلك المحذوفة . ونحوه ما أنشده سيبويه :

إنّ الكريمَ وأبيكَ يَعْتَمِلْ إنْ لَم يَجِدْ يوماً على مَنْ يتَّكِلْ

أراد يتكل عليه . ونسبة الضحك إلى الإبل مَثَلٌ شعرى غير حقيقى ، لأن الضحك خاصة للإنسان ، والخاصة لاتتعدى مخصوصها .

— ١٣١ —

وله ايضا :

(وبالسُّمْرِ عَن سُمرِ القَنَا غَيرَ أنَّنِى جَنَاهَا أحِبَّائِى وأطرافُها رُسْلِى)

يُغرِب بذاته فى العشاق ، وبحبائبه فى المعشوقات . أى أنه لا نظير له فى

الحب ، لأنى إذا ذكرتُ البيض فى شعرى ، لم أعنِ النساء ، واذا ذكرت السُّمر ؛ فإنما أعنى الرماح ، ولكن إنما أحبَّائى ، الأرواح التى تجْنيها لى من أجْسام أعدائى ، وأطرافها رُسُلى ، أى أسنتها هى التى تقوم مقام الرُّسُل إلى الأحباب . أى إنما أتوصل اليها بها ، كما أتوصل إلى المحبوب بالرسول .

وجعل أرواح عِداه جَنىً على المثل ، لأنها حياة فى الحقيقة ، لأن الحياة نوع من النامى ، والروح عندنا ليس بنام ، وأراد رُسُلى نخفَّف ، وهى لغة تميم .

(فَمَا حَرَمَتْ حَسْنَاءُ بالهَجْرِ غِبْطَةً
وَلا بَلَّغَتْهَا مَنْ شَكَى الهَجرَ بالوَصْلِ)

ويُروى (بما حَرَمَتْ حسناء) . نَهَى عن الحرص على النساء ، أى إذا هجرتَها ثم وصلتَها كنت أحسن موقعاً عندها ، وأنشط لها ، فزادت الغبطة . فإذا لم تَحْرِم هى ، فهجْرتُك اياها اذا عادت الغِبطة بوصلك لها ، بعدَ هجرك إياها ؛ أبلغ . وإذا شكوْت إليها الهجرَ وتذلَّت ، هُنْتَ عليها ، فمنعتك وصلَها ، واما رواية من روى (فما حَرَمَتْ حَسْنَاء) وهى الصحيحة ، فمعناه : لم تَحرِم امرأة محبوبة محبَّها غِبطة بهجرها إيَّاه ، ولا بَلَّغت شا كياً شَكَى إليها هجراً غِبطةً بوصلها ايَّاه . يذهب الى التهاون بأمر النساء ، أى إنَّهن لا يُتِحن بهجرهن لك عدم غِبطة ، ولا بوصلهن إياك وجُودها . والهاء فى قوله : بَلَّغَتْها : عائدة إلى الغبطة ، أى ولا بَلَّغَتْ مُحِبَّها غبطة بوصلها له . و (مَنْ) فى موضع نصْب ، لأنه مفعول ثان لبَلَّغتْ .

وإن شئت كان « مَنْ » هو المفعول الأول ، و (ها) من (بلَّغتها) هو المفعول الثانى . وهذا كما تقول : كَسَوْتُ زيداً الثوبَ ، وكسوت الثوب زَيْداً . و (حسناء) هاهنا : صفة أقيمت مقام الموصوف ، أى امرأة حسناء . وقد غلبت هذه الصفة غَلَبَةَ الأسماء ، وهى من باب (فعلاء) التى لا أفعل لها من جهة السماع .

وله أيضا :

(تَعِسَ المَهَارِى غَيرَ مَهْرِىٍّ غدَا   بُمصَوَّرٍ لَبِسَ الحريرَ مُصَوَّرَا)

تَعِسَ المَهارِى : دعاء على نوع المهارى ، وهى إبل منسوبة إلى مَهرة ابن حَيْدان . وإنما دعا عليهن ، لأنهن جُنْدُ البَيْن ، ومُقَطِّعَةٌ مابين الحبيبين. أى أتعَسهُن الله فلا انتعشْنَ . ثم استثنى منها (المَهْرِى) الذى ركبته محبوبتُه .

وقد كان أولى أن يُدْعَى عليه من سائر المهارى ، لانفراده بالحبيب ، وحمله إياه ، لـكن استثناه ، لأنه يحمله ، فيقيه الرُّجْلة ، وما يلحق معها من الـكسل والـكَلَل . وقوله : (بمصَّور) : أى بِسترٍ رُقِم عليه صورة شخص قد لبس حريرا مصوراً ، ومن عادة عقائل العرب رَقْم الحِجال ، كقوله :

كأن فُتَاتَ العِهْن فى كل منزلٍ   نَزَلْن به حَبُّ الفنَا لم يُحَطَّمِ

وذلك أن حب الفنَا أحمر ، مالم يكسَّر ، فإذا كُسِّر ذهبت حمرته .

وإن شئت قلت : (بمصَّور) : يعنى هَوْدَجاً عليه حرير مصَوَّر . وإنما جعل الهودج مصوراً ، لأنه ذو شكل، وكلُ شَـكْلٍ مُصَوَّر .

(نَافَسْتُ فيه صُورةً فى سِترِها   لو كُنتُها لَخَفِيتُ حتَّى يَظهَرَا)

كان دُونَ هذا المحبوب سِترٍ فيه صُورة . فيقول : حَسَدْت هذه الصورة على قربها منه . فلو كنت مكانَ الصورة ، أو كنت إياها : لَخَفِيتُ فَزُلت عن وجهه ، ليزول الستر ، فتظهر للعيون .

فإن قلت : لا يلزم زوال الستر الحامل الصورة ، لمكان زوال الصورة ، لأن الصورة تخطيط موضوع فيه ، والتخطيط عَرَض .

قلنا : لو ارتفعت الصـورة المنتقشة فى ذات الستر ، لارتفع الجوهر الحامل لهـا . وإنما ارتفاع التخطيط عن المخطوط ، وبقاء الجـوهر بعد ذلك مُتوَهَّمٌ لا مَوْجُود .

وإذا تأملت البيت فهو شعريّ لا حقيقيّ، لأن من الصور الموضوعة فى الثياب مايمكن إزالته ،ومنها مالايمكن . وأحسن مافى ذلك أن يقال :إن المتنبى عنى الصورة بالخرقة الحاملة لها .

(لا تَتْرَبِ الأَيْدِى المُقيمةُ فَوقَهُ   كِسْرَى مُقَامَ الحاجِبيْنِ وَقَيصَرَا)

كِسْرَى وكَسْرَى : لغتان . واختار ابن السكيت الكسر . وقالوا : تَرِب الرجل : قل ماله ، وأترب : كثر ماله . أى لا تفتقر الأيدى المصورة التى أتقنت هذه الصورة صنماً ، وأجادتْها وضعاً ، فأقامت كسرَى وقيصَرَ مَلِكَى فارس والروم لها مُقام الحاجِبيْن ، فحجباها وإنما عنى بذلك صورتيهما لا ذواتهما ، لأن ذلك ليس فى الإمكان ، إذ الصورة الصناعية لا تقبل طبيعة الحيوان .

(ولَو استَطعْتُ إذَا اغْتَدَتْ رُوَّادُهُم   لمَنَعْتُ كلَّ سَحَابَةٍ أن تقطُرَا)

الرُّوَّادُ : منتجعو الكلأ ، وافتراق العرب من حِلالها إنما هو للنجعة بهم ، يقدمون الرُّواد ليخبروهم بمواقع الماء ، فى مواضع الكلأ . وفى المثل : « لا يكذب الرائدُ أهلَه » . فإذا أخبرهم بوجود ذلك ظعَنوا . وإن أخبرهم بعدمه ، سكنوا فلم يظعنوا . فإذَنْ إنما سبب الفراق نزول المطر ،وظهور الخُضَر . فيقول : لو كان فى قوتى أن تطيعنى السحاب ، لنهيتّهن عن المطر ، لئلا يجد رائدهم أرضاً مُخْصبة ، ولا روضة مُعْشبة ، يدعوهم إليها ، ويدلُّهم عليها . فلو كان ذلك من قوتى لم يفارقونى .

(فإذَا السَّحَابُ أَخُو غُرابِ فِرَاقِهِمْ   جَعَل الصِّيَاحَ بِبَيْنِهِمْ أن يُمْطِرَا)

هذا البيت تفسير للأول ، وهو عندى داخل فى نوع التضمين ، وإن لم يكن منه على الحقيقة ، وذلك أنه محمول على المعنى . أراد : لأنى تأملت بينهم ، فوجدتُ سببَه إنما هو النُّجعة . وهو كقوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبْ

بِعَصَاكَ الحَجَر فانفَجَرتْ مِنه آثنتَا عَشرةَ عينًا ﴾ أى فضرب فانفجرت ، فكذلك أراد المتنبي : لأنى تأملت فإذا الأمر كذا ، لأن المطر إذا وافى، خرجوا فى إثره منتجعين له ، فصار السحاب بمنزلة الغُراب ، فى أن أمْطارَه مشعِرة بالبَيْن ، كما أن صياح الغراب معان بذلك عند العرب ، وجَعْله إذنْ غرابَ فراقِهم ، ذهابًا إلى شبَهِهِ به ، لأن الأخوين فى غالب الأمر متشابهان . أى أقام السحاب والأمطار مقام صياح الغراب ، فى الإيذان بنوامم ، وبُعْد مَثْواهم . و (جَعَل) هاهنا ، بمنزلة صيرٍ ، فهى متعدية إلى مفعولين ؛ كما أن صير كذلك . وذكر السحاب لأنه مما ليس بينه وبين واحده إلا الهاء . وسَوَّغ التذكير فى هذا الضرب من الجمع خروجه إلى شكلِ واحده .

(يَحْمِلْنَ مِثْلَ الرَّوضِ إلاَّ أنَّها أسْبَى مَهاةً للقلوب وجُؤْذُرَا)

شبه ما على الهوادج من الحرير المزيَّن ، والوشى الملوَّن ؛ بالروض الذى سارت فيه إبلُهم ، فى تزَاهِى نواويره ، وتَخَايُل أزاهيره . والمها : وهى بقر الوحش ؛ عقائلُ الحمائل الأريضة والحقوف المريضة ؛ كقول ابن مقبل يصف بقرة وحشية :

عقيلةُ رَمْلٍ دافعت فى حُقُوفِهِ رَخَاخَ الثَّرى والأُقحوانَ المُدَّيما

فلما جعل الوشى وما على الهوادج من صنوف الرقْم بمنزلة الرياض ، جعل مايَستُره من النِّساء بمنزله المَهَا والجـآذر . وذلك فى النَّجَلِ والكَحَل . ثم استثنى فقال إلاَّ أن ما على هذه الهودج من هذه المها أسْبَى مهاةً وجُؤْذَرا للفؤاد ، من هذا الروض الباقى . فكأنه قال فى كل ذلك : سِرْنَ فى الروض بمثْل نقوشه ، من رقُوم الهَوادج ، وحَمَلْن مثـلَ وحشها من رباَبِها ، كقول البحترى :

لما مَشَيْن بِذِى الأراكِ تَشابَهتْ أعطافُ أغصانٍ به وقُدودِ

فى حُلَّتَى حِبَر وَرَوْض فالتَقَى وشْيَانِ وشىُ رُبًا ووشْىُ بُرودِ

ومثله قوله ؛ أعنى المتنبى :

إذا سَارتِ الأَحْداجُ فَوقَ نباَتِه تَفاوَحَ مِسْكُ الغَانِياتِ وَرَنْدُهُ

وأراد : أَسْبَى مَهاةً للقلوب ، وجؤذَراً منه فحذف (مِنْ) ومثله كثير .

(فَبِلَحْظِها نَكِرَتْ قَناَتِى رَاحَتِى ضَعْفاً وأنْكَرَ خاَتِماَىَ الخِنْصَرَا)

أى بكيت بعشقها حتى بكَيت ؛ فضعفت راحتى ، عن حمل قناتى ، فأنكرتها كأن القناة تقول : ليست هذه اليد التى عَهِدتُها ، ولا القوة التى شَهِدتُها ؛ وكذلك دَقَّت خِنْصَرِى ؛ ورقَّت عن خاتمى ؛ حتى أنكرَها ، لما رأى فيها من خلاف ما كانت عليه . وأراد : وأنكر خاتمى ؛ فوضع الاثنين موضع الواحد ، كقول امرئ القيس :

وعينٌ لها حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ شُقَّتْ مآقيهما من أُخرْ

وهذا الضرب من الاتساع وعكسه كثير ؛ ونَكِرَ وأنكَرَ . لغتان فصيحتان ، جمع بينهما فى بيت واحد . وهذا من غريب الصنعة الشعرية .

(أُمِّى أباَ الفَضْلِ المُبِرَّ أَلِيَّتِى لأَيَمَّمَنَّ أَجَلَّ بحْرٍ جَوْهَرَا)

أى اقصدى أيتها الخيل أبا الفضل ؛ الذى لما حَلَفت فقلت : (لأيَمَّمَنَّ أجل بحر جوهراً) والله أو غير ذلك من أنواع القسم به ، ثم قصدته ؛ فألفيته أجلَّ البحور جوهراً ، أبرَّ بذلك يمينى . وقوله لأيممَنَّ أجل بحر . تفسير الألية.

(أَفْتَى برؤيته الأنام وحاش لى من أن أكون مقصِّرا أو مقصِرا)

أى لما حلفت لأيَمَّمن أسْنَى البحور جوهراً ، لم أعلم أى البحور هو . وقد لزمتنى الألية ؛ فاستفتيت فقهاء الأنام ومتفلسفيهم ؛ فأفتوا به وقالوا :

إذا يممتَ أبا الفضل ابن العميد؛ فقد بَرَرْتَ لأنَّه أجل بحر جوهراً؛ وجلالة الجوهر كناية عن جَزالة العطاء ولو قال : أفتى بأمِّه الأنام فاتزن له؛ لكان أشدَّ تطابقاً لما قبله، ولكن لم يستقم فيه الوزن . وسوَّغ ذلك أنه إذا كانت رؤية فقد كان أمٌّ . وهذا لاينعكس؛ لأنه قد يكون أمٌّ ولا رؤية .

(خَنْثَى الفُحُولَ من الكُمَاة بِصَبْغِهِ   ما يَلْبَسُونَ من الحديدِ مُعَصْفَرَا)

(خنثى الفحول من الكماة) : خَنَثَ اللهُ الخَنِث : خلقه خُنْثَى . وهو الذى لا يخلُص إلى الإناثية ، ولا إلى الذُّكوريَّة . والمعصفر : من زىِّ الإناث ، وذوى الانخناث . فيقول : صيَّر الفُحولَ من الكماةِ إناثاً ، بصبغة ما يلبسون من الدروع والجواشن والبَيْض بالدم . فزيّاهم زِىّ النساء ، وألحقهم بهن فى الجُبن؛ بما ألقى فى قلوبهم من الرعب .

(فدَعاكَ حُسَّدُكَ الرئيس وأمسكُوا   وَدَعَاكَ خالقُكَ الرئيس الأكبرَا)

(خَلَقَتْ صِفَاتُك فى العيونِ كلاَمَهُ   كالخَطِّ يملأُ مِسْمَعَىْ مَنْ أبصَرَا)

أي أن حسادَك لم يجدوا بُدًّا من أن يَدْعوك رئيساً؛ إذ لو جَحَدوا ذلك لما جُومِعُوا عليه ، ولا طُووعوا بالإجابة إليه . لكن لم يبلغوا الغاية فى إنصافك ، حين لم يسموك الرئيس الأكبر . وأنصفك خالقك ، فدعاك بما قَصَّروا هم عنه ؛ فدعاك الرئيس الأكبر . ثم أقام البرهان على هذه الدعوى الحقيقية . فقال : لك صفات توجب لك أن تسمى الرئيس الأكبر ؛ فكأنها خُطَّ فيها حكاية قوله تعالى : (إنَّك رئيس) وإن كنت لاتسمع .

(وَتَرَى الفَضِيلَةَ لاتَرُدُّ فَضِيلَةً   الشَّمْسَ تشرقُ والسَّحابَ كَنَهْوَرَا)

الكَنَهْوَر : السحاب المتراكم : أنشد سيبويه :

كَنَهورٌ كانَ من أعْقاب السُّمِى

وإشراق الشمس وتكاثف السحاب ؛ فضيلتان ضِدِّيتان . والضدان مختلفان ؛ لامؤتلفان . ومُمْتَنِعان لا ملتقيان • وهـذا الممدوح قد جمع إشراق الشمس ، وتكاثف السحاب ؛ لأنه مستبشر الوجه جميله ، مستبشر النيل جزيله ؛ فالإشراق بشره وجماله ، والأمطار بِرُّه ونَوالُه ، وهذا كقوله فيه :

وأحسنُ ذى وجهٍ ، وأسمحُ ذى يدٍ
وأشجعُ ذى قلْب ، وأرحمُ ذى كَبِدِ

فجعله حسناً سمحاً بهذا ؛ كوصفه إياه بالشمس والسحاب ؛ فيقول : ليت هذه الباكية التى أبكاها نواى عند وداعها إياى ؛ شهدتْ ماشهدته من هذه القضية ؛ فتعذرنى فيما رأتنى عليه ؛ من اجتماع النية ؛ وإزماع الطِّيَّة ، إلى هذا الممدوح ؛ لمشاهدة مافيه من الأمر العجيب ؛ والفضل الغريب .

وقوله : (الشمسَ والسحابَ) ؛ بدل من الفضيلة ؛ وهو محمول على المعنى ، لأن معناه ؛ فترك فضيلتين لاتَتَرَادَّان ، على ماهما به من كونهما نوعين متضادين ؛ ولو قال (الشمسَ والسحابَ) لكان حسنا ، لكنه تمَّم بقوله : (تشرق) لقوله : (كَنَهْوَرَا) ؛ إذ قد تكون الشمس مع السحاب ، إلاَّ أن كل واحد منهما غير متناهٍ فى صفته ؛ فإذا وقع التناهى ، فكانت الشمس مُشْرِقةً ، والسحاب كَنَهْوَراً ، لم يمكن اجتماعهما .

— ١٣٣ —

وله ايضا :

(كُلَّما قَالَ نَائِلٌ أَنَا مِنهُ سَرَفٌ قَال آخَرٌ ذا اقْتِصَادُهْ)

أى كلما استعظم منه نائل يُعَدّ سَرَفا ، أعقبه نائل أعظم منه يَعُدُّ ذلك

النائل الأول الذى كان يستشرف اقتصاداً ، بإضافته إلى الثانى ، وليس للنائلين منال ، لكن القول لما كان من أجلهما ، نَسب القول إليهما .

(قَلَّدَتْنِي يَمِينُه بِحُسَامٍ   أَعْقَبَتْ مِنْهُواحدًا أَجْدَادُهْ)

أى نُسِب إلى الهند ، كما ينسب الشريف إلى الجدّ .

يقول : إن الهند لم تَطبَع له نظيراً يكون له ثانيًا ، فقد أعقبت مِنْه واحداً. و (مِنْ) هاهنا للجنس . ولولا القافية لقال : آباؤه ، مكان قوله (أجدادُه) ، لأن الجدّ أعم من الأب ، فكل جدّ أبّ ، وليس كل أب جدًّا .

(كُلَّمَا اسْتُلَّ ضَاحَكَتْهُ إِيَاةٌ   تَزْعُم الشَّمْسُ أَنَّها أَرْآدُهْ)

أى كلما استُلَّ هذا السيف ، ضاحكته أنوار فِرِنده ، تَدّعى الشمس أنها أَرْآدُه ، وأرآد الضُحَى : ماؤها ورونقُها . فيقول : الشمس تدعى أنها من ماء هذا السيف ، وأراد أنها أَرْآدُه من أجلها ، أى من أجل الإيادة . وقد يجوز أن يكون الأرْآد هنا : جمع رِيد ، وهو التِّرب والمِثْل ، والأول أسبق .

(مَثَّلُوه فى جَفْنِه خِيفَةَ الفَقْدِ فَفِي مِثْلِ أَثْرِه إغمادُهْ)

أثْر السيف : فرنده . يقول : حَلَّوا جَفْنه بالفضة ، فهو يحكيه بياضًا وصِقَالاً ، وعلى الفضة نقش سواد ، يحكى أُثْره نَقْشا ، فكأنهم إنما فعلوا ذلك ، لأنهم لم يصبروا عنه لجماله حين واراه الغمد ، فصوروا عليه مثل صورته ، لئلا يفقدوه البتّة ، هذا معنى قوله : خشية الفَقْد ، أى خشية فقده .

(فَرَّسَتْنَا سَوابِقٌ كُنَّ فِيهِ   فَارَقَتْ لِبْدَه وفِيها طِرَادُهْ)

فَرَّسَتْنا : يعنى هذه الخيل السابقة ، التى جاءته مع السيف ، فى جملة

عطايا أبى الفضل . وقوله : كُنَّ فيه ، الهاء راجعة إلى النَّدى. (فارقت لبده) : أى فارقت سرج هذا الممدوح إلى سَرْجِى. واللِّبْد ليس بكلية السَّرج ، ولكنه طائفة منه ، فكَنَى به عن كُلِّه ، ومثله كثير . (وفيها طرادُه) : أى ذكرها سائر فى الأرض ، فكأنها بعدُ فى طِراد ، وإن استراحت لدَيْنا . وإن شئت قلت : إن هذه الخيل تغيظ الأعداء ، وتخشى الحسَّاد ، وتعين على النَّوَب ، فكأنها غير مُنفَكَّة من الطَّراد ، وإن كانت مستريحة ، لأن ذلك عملها بالقوة .

وقيل : (وفيها طِراده) : أى قد صِرْتُ فى جُملة عَبيده وعَديده ، فإذا سار إلى موضع سرت معه ، وطاردت بين يديه ، فكأنه هو المُطارِد عليها ، لأن ذلك بأمره ولطلب الحُظوة عنده . و(فيها) : بدل من (عليها) وقد يجوز أن تكون (وفيها طِرادُه): أى وفيها ما عَلَّمها من عِلْم المطاردة والعَدْو بفُرسانها .

(وَأَحَقُّ الغُيوثِ نفسًا بِحَمْدٍ فى زَمانٍ كُلُّ النُّفوسِ جَرَادُهْ)

أى زادتنا الأيام بك إعجابًا ، ولك استغرابًا ، وذلك لأن والٍ فى زمان يأخذ فيه كل والٍ أموال الناس، فهم كالجَراد الذى يحشك الزرع والربيع والبُسْر . وأنت تَبذُر مالك ، فكأنك غيث تنبت لهم المراعى وغيرك جراد يَجرُدها. وهذا كقول ابن أبى عُيَيْنَة يهجو المُهَلبىَّ ، ويمدح أباه :

أبوكَ لنا غَيْثٌ نعيش بنَبْته وأنت جَرادٌ لست تُبقِى ولا تَذَرْ

(عَدَدٌ عِشْته يَرَى الجسْمُ فيه أَرَبًا لاَ يَراهُ فِيمَا يُزَادُهْ)

يصف هذه القصيدة التى مدح فيها أبا الفضل ؛ وأهداها إليه فى النيروز، فيقول : هى أربعون بيتًا ، وهى عدد السنين التى إذا تجاوزها الإنسان نقص

عما عهده عليه فى جسمه ، من أحواله فى تقلبه وتصرفه . فلذلك اخترت لهذه القصيدة هذا العدد تفاؤلاً لك بالصحة ، واستكمال قوتك .

وقيل : كانت سن الممدوح حينئذ أربعين ، وهى ترى الجسم من استكمال القوة وبلوغ الأشد أَرْيا لا يراه فيما يُزَادُه من السنين ، بعد الأربعين لأنه بعدها كلَّ عام آخذ فى التحول ومنعكس إلى التحلل .

— ١٣٤ —

وله ايضا :

(نَسِيتُ ولَاأنْسَى عِتَابًا عَلَى الصَّدِّ ولَاخَفَرًا زَادَتْ به حُمْرَةُ الخَدِّ)

الخَفَر : شدة الحياء ، وهو من عِلَل حُمرة الخد . وقال : زادت به حُمرة الخد ، ليشعر أن هنالك حمرةً طبيعية سوى الحمرة التى يولِّدها الحياء ، لأن حمرة الحياء عَرَضٌ سريع الزوال ، إذا زال الحياء زالت . وكذلك مَثَّلَتْ به الحكماء الأعراضَ السريعة الانتقال ، فقالوا : ذلك كحُمرة الخجل ، وصفرة الوَجَل .

(ولَا لَيْلَةً قَصَّرتُها بِقَصُورَةٍ أَطَالَتْ يَدِى فى جِيدِهاصُحْبَةَ العِقْدِ)

قَصَّرتُها : جعلتها قصيرة ، أى ضد الطويلة . والقَصُورة : المرأة المقصورة الممنوعة ، أراد قَصَّرتها بوصال قَصُورة . وقصيرة لغة فى قَصُورة .

(أطالت يدى فى جيدها صحبة العقد) : أى اعتنقتها معظم ليلى أو كلّه ، فصحبت دواعى عِقدها . واليد هنا : كناية عن كُلِّيَّة الذراع ، كقوله تعالى: ﴿ فاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وأيْدِيَكُمْ إلى المرافِقِ ﴾ .

(فَإمَّا تَرَيْنِى لا أُقِيمُ ببَلْدةٍ فَآفَةُ غِمْدِى فى دُلُوقِ مِنْ حَدِّى)

أى بأنى سيف ماضٍ كثير الدُّلُوق من حدِّى . فغمدى متغيِّر مُنْقَدّ ،

لكثرة تحريكى فيه وقلقى. وضرب السيفَ مثلاً لنفسه، والغمدَ مثلاً لجسمه، الدُّلُوقَ مثلا لحركته. أى تنقلى فى البلاد يُشْجِينى ويرث بِزّتى. وقد فسره بقوله بعد هذا:

(تُبَدِّلُ أيَّامِى وَعَيشِى وَمَنْزِلِى نَجائِبُ لا يُفكِرْنَ فى النَّحسِ والسَّعْدِ)

(إذَا لم تُجزْهُمْ دارَ قَومٍ مَودَّةٌ أجازَ القَنا والخَوفُ خَيرٌ من الوُدِّ)

أى هؤلاء الفتية إذا مروا بقوم لا يودونهم، فراموا صَدَّهم، حاربوهم، فأجازتهم الطريقَ رماحهُم، «والخَوفُ خيرٌ من الوُدِّ». أى لأن تُخاف خيرٌ لك من أن تُوَدَّ وترْحَم، كقولهم فى المثل السائر: (رَهَبوتٌ خيرٌ من رَحَموت).

ومن أمثالهم: (أوَفَرقا خيرًا من حُبِّين): أى إذا فَرِقوك فَرَقا يكون ذلك الفرَق خيرًا من حُبّين.

وهذا كقول دُوَيْد بن نَهْدَ فى توصيته لبنيه: (أخيفوا الناسَ وارعَوا الكلأ).

وأراد: أجازهم القنا إياها، فحذف المفعولين، لأن فى قوله: (إذا لم تُجِزهم دار قوم)، مايدل على هذا المحذوف، إذ دلّ الأول على الثانى، والثانى عين الأول؛ فاستُجيز الحذف فيه، كقوله تعالى: ﴿يوَمَ تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرْضِ والسَّموات﴾ أى والسماوات غير السماوات، فحذف الثانى الذى هو الأول للذكور فى المعنى أولاً.

(كَفَانا الربيعُ العِيسَ من بَرَكاتِهِ فَجاءتْه لم تَسْمَع حُداءً سِوَى الرَّعْدِ)

أى كُفِينا حُدَاء الإبل برعْد الربيع، لأنه قام لها مقام الحُداء بصوته، وقيل: كفانا الربيع العيس: أى كان منه رَعْيُها وشُربها وحُداؤها. ولو عدد

للربيع أيادى غير الرعْد كما قال ، لقال : فجاءته : أى رعت . وشربت ؛ وجاءته . وإنما قال (فجاءته) : فبين كيفية الكفاية ، كما تقول : أحسنت إليك فوهبتك ألفا ، فهبة الألف تفسير للإحسان . وقوله : (لم تَسمَعْ حُداء) جملة فى موضع الحال أى جاءته غير سامعة حُداء إلا الرّعْد .

والرّعْد هنا : مصدر من قولك : رَعَدَت السماء تَرعُد رَعْداً . ولا يكون الرعْد الذى هو الجوهر المكنى فى قوله تعالى : ﴿ وَيُسَبِّح الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ لأن ذلك لايُسمع بذاته ، إنما يسمع صوته . والحداء عَرَضٌ ، فمقابلته بالعَرَض أولى ، وهذا دقيق فتفهمه .

(إذا ماالستَحَيْن الماء يَعْرِضُ نَفْسَه كَرَعْن بِسِبْتٍ فى إناء من الوَرْدِ)

يصف ماأمطرتهم به السماء من الماء ، وأنبتت لهم الأرض من الربيع ، فى مُضِيّهم إلى أبى الفضل ، لمكان بركته ، وأن العناصر تُعَظِّم شأنه ، وتعلى مكانَه ، فتسقى رُوّادَه ، وتَرْعَى قُصّادَه . والسِّبْت : كل جِلد مدبوغ وقيل : هو المدبوغ بالقَرَظ خاصة ، وهو يلين الجلود ويحسنها ، حتى تُشبِّهُ العربُ مَشافر الإبل بها ، فيقول : إذا مرّت هذه الإبل بهذه السيول التى غادرتها هذه الغيوث ، ظلّت كأنها تعرِض نفسها عليها . فكأن الإبل مستحية منها ، لإلحاح المياه عليها ، بعَرْضها أنفسها ، وقد أحاطت بها رياض الورد أو مايشبه الورد ، من ضروب الأزاهير ، وأنواع النواوير . فهى تُدخل أكارعَها فيه ؛ وتَغْمِس مَشافِرَها فى تلك المشارب ، متقنعة من إفراط الحياء ، بذلك الورد النابت . وإنما عنى (بالسبت) هاهنا مشافرها ، كقول طرفة :

وَخَدٌّ كقرطاس الشآمِى ومِشْفَرٌ كَسِبْتِ اليَمانِى قَدُّه لم يُحَرَّد

وقيل : غَسَلَ الماء المستنقع فى الأرض أخفافَ الإبل من الطين ، حتى

عادت كالسّبت فى نقائها ، وأنبتت حافات الغُدُر زَهْراً ، فكأن الماء :
بعرض نفسه يتراءى فى إناء من الورْد ، والأول أولى .

(فَىَّ فَاتَتِ العَدْوَى منالنَّاسِ عَيْنُهُ فَما أَرْمَدَت أَجْفَانَه كَثْرَةُ الرُّمْدِ)

ضرب الرَّمدَ مثلاً للعيوب المُعدِية ؛ لأنه داء ربما أعدى كالجَرَب ونحوه . فيقول : كثرت العيوب فى الناس ، لكنه سَلِم هو منها ، فلم تُعْدِه ، لشرف عنصره ، وصفاء جوهره . وقصد منه (العين) ، توطئة لذكر الرمد الذى جعله مادة القافية ، وحسَّن ذلك ماذكرت لك من طبيعة الرَّمَد فى العَدْوَى .

(يُغَيِّرُ أَلْوانَ اللَّيَالى عَلَى العِدَا بِمَنْشُورَةِ الرَّاياتِ مَنْصُورَةِ الجُنْدِ)

أى يوقد النيران فى معسكر هذه الكتائب ، فيغيِّر من سواد الليل . ولما كانت النارُ إنما تُوقدهاهذه الكتيبة ، جعل التغيرُ لها ، إذ هى الفاعلة الحقيقية ، والنار وإن كانت مُغَيِّرة ، فإنها مفعولة للكتيبة ، فهى الفاعلة على القصد الأول ، والنار الفاعلة على القصد الثانى . فافهمه .

إِذَا ارْتَقَبُوا صُبْحاً رَأَوا قَبْلَ ضَوئِهِ
كَتَائِبَ لا يَرْدِى الصَّباحُ كَمَا تَرْدِى

أن يتوهَّم العدوّ المغزوّ بتلك النار صُبْحا وهو يترقَّب حقيقة الإصباح ، فتوافيهم هــذه الكتائب مكان الصباح الذى ارتقبوه ، وجعل الكتائب أسرع من الصباح عَدْواً . وإن شئت قلت : إن مجىء الصباح غير مجىء الكتائب ، لأن مجىء هذه مَشْىٌ ؛ ومجىء الصباح طلوع ، فلذلك قال : (لايَرْدِى الصباحُ كما تردِى) .

(يَغِضْن إذَا مَا عُـدْنَ فى مُتَقَاذِفٍ
مِنَ الـكُثْرِ غانٍ بالعَبِيد عَنِ الحَشْدِ)

(يَغِضْن) : يَنعَدِمْن فلا يُوجدن . أى بعوثك المتوجهة للغارة على عظمها وكثافتها ، إذا عادت إلى معظم جيشك ، غاضت فيه كما يغيض النهر فى البحر ، و (متقاذف) : جيش يقذف بعضه بعضاً ، لكثرتهم والتقائهم ، كقول الراجز فى صفة خصب وإبل :

أَرْعَيْتُها أَكرمَ عُودٍ عُودَا بِحَيْثُ* يدعُو عامرٌ مَسْعودا

أى يتقاذف هذان الراعيان فى طول هذا المكان واكتماله ، حتى ينادى كل واحد منهما صاحبه .

(غان بالعَبيد) : أى أن هذا الجيش متألِّف من عبيد ابن العميد . فقد استغنى بهم عن الحَشْد ، للقُرْبَى . وأن يكون اسما أولى ، ليُطابق العبيد ، لأن العبيد اسم . وقد قال أبو زيد الحشْد : القوم المجتمعون ؛ فهذا مما يقوى فيه الاسمية .

(حَثَتْ كُلُّ أرضٍ تُربةً فى غُبارِهِ فَهُنَّ عليهِ كالطَّرائقِ فى البُرْدِ)

البرُد : الثوب المُوَشَّى ؛ وطرائقه مختلفة الألوان ؛ أى فهذه الكتائب [شتى هى المطالب ؛ بعيدة المذاهب ؛ فهى تطأ لبعد مرامها ؛ أرضين] مختلفة أنواع التراب ؛ اختلافاً لَوْنيًّا ؛ من بياض وسواد . فكل أرض تطؤها تحتفى من غبار هذا الجيش بترابها ؛ فيكسب بذلك ألواناً [مختلفة ؛ بحسب أنواع التراب ؛ لكل نوع لون ؛ فكأن الغبار بُرْد ؛ وهذه ألوان فيه .

(وَكُلُّ شَرِيكٍ فى السُّرورِ بمُصْبَحِى   أَرَى بَعْدَه منْ لايَرى مثلَهُ بَعْدِى)

مُصبحَى : أوانُ صباحى ؛ أى وكل مشارك لى من أهلى فى السرور فى رجوعى وتصبيحى له ؛ عند رؤيته ماأقْنانيهِ لِقاء هذا الممدوح من الثروة فإنى مع ذلك كله منفرد دُونه بأُثرة ؛ وهى رؤيتى هذا الممدوح الذى لايَرى هو بعد مِثلَه . يقول ؛ فأنا أكره أن أنفرد بنوع من أنواع المَسَّرة دونهم ؛ فإذا أنا أبث إليهم ورأونى ، رأوا من لانظير له عندهم كما أرى أنا الآن من لا نظير له ، فاستَوْوا معى فيما نِلته من الغِنَى وأدركته من المُنىَ ، ألا تَراه يقول :

(وقد كنتُ أدركتُ المُنَى غيرَ أننى   يُعيِّرنى أهْلِى بإدْراكِهَا وَحْدِى)

وهذا كله اعتذار إلى أبى الفضل فى إيثاره الرحيلَ عنه . وإنما كان يريد التمادى إلى شيراز ، ثم الأَوْبَ إلى أهله .

— ١٣٥ —

وله ايضا :

(أَوْهِ بَدِيلاً مِنْ قَوْلَتِى وَاهاَ   لِمَنْ نَأَتْ والبَدِيلُ ذِكْرَاهَا)

أَوْهِ ، وأَوّهِ : كلمتا توجُّع وتَفجُّع مبنيتان على الكسر . وواهٌ : كلة استطابة واستزادة . فيقول : أنا متوجع لفراقها بعد استزادتى وصالها واستطابتى إياه ، لم أقنع بهجر الدّلال ، حتى بُليتُ بفرقة الزوال . وقوله : (لِمَنْ نَأَتْ والبديلُ ذِكْرَاهَا) أى أعنى التى أنتْ بهذا التوجع (والبديل ذكراها) ، أو ذكراى إياها بدل منها . هى مفقودة وذكراها لى موجودة .

(أَوْهِ لِمَنْ لَا أرى مَحَاسِنَها   وأَصلُ واهاً وأَوْهِ مَرْآهَا)

أى إنما أرجع هذه الكلمة التى معناها التوجُّع والتفجُّع لفقدى رؤية

محاسنها ..(وأصل واه وأوه مرآها) ؛ إنما كان سبب استطابتى إياها ، وتوجعى بنواها ، رُؤيتى لها .وذلك أنى رأيتها فهويتها ، ووصلَتْ فاستطبتها وَنأتْ فتأوّهْتُ لها .

(شَامِيَّةٌ طَالمَا خَلَوتُ بَها   تُبْصِرُ فى نَاظِرِى مُحَيَّاهَا)

شامية : منسوبة إلى الشام . يقال : شام وشَأْم . وناظر العين ؛ إنسانها والمحيّا . الوجه أى هذ المحبوبة شامية خلوت بها طويلاً ، فاستمتعت بوصالها ، واستكثرت نوالها .

(فقبلْتُ ناظـرى تغـالِطُنى   وإنمـا قَبَّلت بـه فاها)

أى كانت تنظر إلى عينى ، فشخص لها صورة وجهها فى ناظرى ، والفم جزء من الوجه . فكانت ترَى فاهًا فى جُملة وجهها المرئى فى ناظرى ،فكانت تقبل الناظر مُرِيةً أنها تريده ، وإنما كانت تريد فاهًا ، فتقبله بالناظر ، كما كانت فى المرآة لأن الناظر عضو مَجْلُوٌّ ؛ متشخَص فيه الصورة ، كتَشَخُّصها فى المرآة .

(فَلَيْتَهَا لا تَـزَالُ آوِيَةً   وَلَيْتَهُ لا يَزَالُ مَأْوَاهَا)

أى ليت صورتها لاتزال آويةً ناظرِى . يقال : أويتُ المكانَ ، وأويت إليه ، وذكر آوية ، وكان الحكمَ آويتُه ذهابًا إلى الشخص أو الشكل أى وليت الناظر لايزال مأوَى هذه الصورة .

وهذا البيت مشتمل على قضيتين ، ترجعان إلى قضية واحدة ، لأن التمنى الأول هو التمنى الثانى .

(لَقِينَنَا والحُمولُ سَائِرةٌ   وَهُنَّ دُرٌّ فَذُبْنَ أَمْواهَا)

لقيننا : يعنى هؤلاء الظُعُن . والحُمول سائرة بهن يعنى الإبل بما عليها

من المهوادج ، وهن دَرارِىّ ، قد رمت بَشَرَاتُهُنّ وصفت ، فهن كالدرّ .
وأراد مثل الدر ؛ فبالغ حتى جعلهن الدرّ نفسه . ولابد من اعتبار (مثل)
لأنهن لا يكن دُرًّا ، لأن الدرّ جماد ؛ وهن حيوان ناطق .

وقوله : فذُبْن أمواهًا : أى بكين لما سارت بهن الإبل . فلما كانت
دموعهن كبشراتهن التى شاكلت الدر ، رقة وصفاء ، ظننتهن درًّا ذائبًا ،
وهذا كقوله هو :

أوفى فكنت إذا رميت بمقلتى   بَشَراً رأيتُ أرقّ من عَبَرَاتها

وقوله : أمواهًا : منصوب على الحال ، وإن كانت الأمواه جوهراً
فقد يكون الجوهر حالاً .

حكى سيبويه عن العرب (العجب من بُرٍّ مررنا به قفيزاً بدرهم) قال :
قد يكون خبرا مالا يكون صفة . يعنى بالخبر الحال ؛ وقال : هذا بُسْراً أطيب
منه رطبا . وفى التنزيل ﴿ هَذِه نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ومثله كثير .

وقال : (ذُبْن) وإنما يعنى دموعهن . لكن ادّعى أن الجملة قد عادت
ماء مبالغة .

(أو عَبَرَتْ هَجْمَةٌ بنا تركَتْ   تَكُوسُ بَيْنَ الشُّرُوبِ عَقْرَاهَا)

الهَجْمة : القطعة من الإبل ، قد اختلف فى عددها . فقيل : ما بين السبعين
إلى المائة . وقيل أولها الأربعون ؛ إلى مازادت . يصف شُرْبَه وقراه الأضياف ؛
فيقول : تمر بنا إبلنا فنعرقبها للضيفان ؛ حتى تكوس أى تمشى على ثلاث
وقيل تزحف على رُكبها . قال الأعور النَّبهانىّ يهجو غسانَ السّليطىّ :

ولو عِنْد غَسّانَ السّليطىِّ عَرَّسَتْ   رَغَا فَرِقٌ منها وكاسَ عَقِيرُ

و (الشُّروب) : يجوز أن يكون جمع شارب ؛ كشاهد وشهود ، وساجد

وسجود، ويجوز أن يكون جمع شرب، الذى هو اسم لجمع شارب عند سيبويه، وجمعا له عند أبى الحسن . لكن أن يكون جمع شارب أولى؛ لأنه إن كان اسم جمع على مذهب سيبويه؛ فجمع اسم الجمع فى القلة كجمع الجمع، من حيث كانا مشتركين فى الدلالة على الجمع . وإن كان الشرب جمعاً على رأى أبى الحسن، فجمع الجمع قليل، لا يحمل سيبويه صيغة الجمع عليه ما وجد عنه مَنْدُوحة، وإنما يقر بجمع الجمع إذا لم يجد سبيلاً إلى غير ذلك . ومن ثم ذهب الفارسىّ فى قراءة من قرأ ﴿ فَرُهُنٌ مقبوضة ﴾ إلى أنه جمع رَهْن؛ كسَجْلٍ وسُجُل، وسَقْف وسُقُف، واستجاز هذا على قلته، كراهية أن يحتاج إلى أن يقول إن رُهُنًا : جمع رِهانٍ، ورِهان : جمع رَهْن . وإنما ذلك من أبى على فِرار من جمع الجمع . فلهذا قلنا إن : (شُرُوب) : جمع شارب، أولى من كونه جمع شَرْب، فافهمه .

(تَقُود مُسْتَحسَن الكلام لَنَا كما تَقُودُ السَّحابَ عُظْمَاهَا)

أى إذا اعتبرنا مآثِره، وامتثلنا مفاخِره، اقْتَنْتنا مُسْتَحسن الكلام فيه، وقادته لنا، كما يقودُ السحابُ سحابًا .

(لَو فَطِنَتْ خَيلُه لنائِلِهِ لَم يُرْضِها أن تَراهُ يَرْضَاهَا)

أى لو شعرت خيله أنه إنما يُعِدُّها للهبة، وإنه إنما يهب منها الخِيارَ المرضيَّة؛ لم تَرْض هذه الخيل أن يُرَى عنها راضيًا، لأن مارَضِيَ منها موهوب لآمله، ومبذول لسائله .

(تَسُرُّ طَرْبَاته كَرَائِنَهُ ثُمَّ تُزِيلُ السرورَ عُقْبَاهَا)

الكرائن : جمع كَرِينة وهى المغنِّية . والكِران : العُود . أى إن الكرائن إذا غنينه أطربنه، فوهب لَهُنَّ، وسَرَّهن بذلك . ثم تجاوز الطربُ

ذلك الحدَّ فيهن جميعَهُنَّ للشُّروب فيأسَيْن لفراقه، فتزيل عُقْبَى الطرب سُرُورَهُنَّ لهبته إياهُنَّ لندامائه. والهاء فى (عُقْباها) راجعة إلى الطَّرَبَات. وكان حكم (طَرْباته) بتحريك العين لأنه جمع (فَعْلَة) اسمًا، لكن الشاعر إذا اضْطُر سَكَّن مثل هذا، لإقامة الوزن، أنشد الفارسىّ:

أَبَتْ ذِكَرٌ عَوَّدن أَحْشَاء قلْبِه خُفُوقًا وَرَفْضَاتُ الهوى فى المَفَاصِلِ

(بِكُلِّ مَوهُــوبَةٍ مُــوَلْوِلَةٍ قَاطِعَــةٍ زِيرَهَــا وَمَثْنَاهَا)

(ولولتها): أنينها لفقده، و(قطعها الزِّير والمَثْنَى). ندم لمن حصلت عنده، ممن ليس نِدَّه.

(تَعُومُ عَومَ القَذَاةِ فى زَبدٍ من جُودِ كَفِّ الأمير يَغْشَاهَا)

زَبدٍ: أى مُزْبِد، ليس على الفعل، لأنَّا لم نسمع زبد، وإنما هو على النسب، أى ذو زَبَد، كما ذهب إليه سيبويه. أى هذه الموهوبة محتقَرة فى جملة عطائه كاحتقار القذاة فى معظم التيار.

(لا تَجِدُ الخَمر فى مَكَارِمِهِ إذَا انْتَشَى خَلَّةً تلَافَاهَا)

أى كرمه طبيعة، فسواء عليه صحا أو سكر، لا يقع فى كرمه تقصيرٌ قبل الخمر، ولا خَلَّةً تَسُدُّها الخمْرُ. وهذا كقول البحترى:

يُكَرِّم من قبل الكئوسِ عليهِمُ فما اسْطَعْنَ أن يُحدِثْن فيه تكرُّمَا

وقال المتنبى:

وجاد فلولا جودُه غير شارب لقلنا كريم هَيَّجَتْهُ ابْنَةُ الكَرْمِ

وأراد (تتلافاها) فحذف إحدى التاءين، كراهية اجتماع المثلين. وهذا مطرد فى اللغة، و(انتشى): سكر.

تُصَاحِبُ الـــرَّاحُ أَرْيَحِيَّته ... فَتَسْقُطُ الرَّاحُ دُون أَدْنَاهَا

أَرْيَحِيَّة الراح : يتكرَّم بها اللئيم ، ويزداد كَرَمًا بها الكريم فهى على كل حال تُوجد مَزية لم توجد قبلَها ، وأريحية الممدوح طبيعية بالغة غاية تكون أريحيةُ السكر مقصرة عن أدنى منازلها . فكيف أن توجد فيها مزية لم تكن من قبلُ ؟

(تَجمَّعَتْ فى فُؤَادِه هِمَمٌ ... مِلْءُ فُؤَادِ الزَّمانِ إِحْدَاهَا)

ليس للدهر فؤاد ، لأن الفؤاد جَوْهر ، والدهر عَرَض ، ولا يكون الجوهر جزءاً من العرض ، ولكن استعاره له صَنعة واقتداراً . وقد بين ذلك بقوله :

ولو بَرَزَ الزمانُ إلىّ شخصاً ... لَدَمَّى حَدَّ مَفْرِقِهِ حُسامِى

ولما جعل له فؤاداً استجاز أن يجعل له همة ، لأن الفؤاد مطية الهمة . وحَسَّن ذلك قولُه . (تَجَمَّعَتْ فى فُؤادِهِ هِمَمٌ) . فيقول : فى فؤاد هذا الممدوح هِمم كثيرة مجتمعة ، يملأ فؤاد الدهر منها واحدة ، ويضيق عما سواها .

(فَإِن أَتَى حَظُّهَـــا بأَزْمِنَةٍ ... أَوْسَعَ مِنْ ذَا الزَّمَانِ أَبْدَاهَا)

أى فإن أتى حظ هذه الهمم التى لايَسعُ فؤادُ الزمان منها ، إلا واحدة ، بأزمنة أوسعَ من هذا الزمان ، أبدى الممدوح تلك الهمم ، التى يبديها إلاّ أن يضيق الزمانُ عنها . و(حظها) هنا كقوله : (جَدُّها) . وقوله : (بأزمنةٍ) أحسن من قوله : (بزمان) ، بعد أن يحتمله الوزن ؛ لأن الجمع أبلغ من الواحد.

(وَصَارَتِ الفَيْلَقَانِ وَاحِـــدةً ... تَعثُرُ أَحْيَاؤُها بِمَوْتَاهَا)

واحدة : أى فيلقا واحدة ، وإنما صارت الفيلقان فيلقاً لاختلاطهما ،

حتى كأنهما اتحدتا . والهاء فى (أحيائها وموتاها) : عائدة إلى الفيلق الواحدة .

(يُعجِبُها قَتْلُها الكُماةَ ولَا يُنْظِرُها الدّهرُ بعدَ قَتْلَاهَا)

أى إذا قَتَل الفارس فارساً أعجبه ذلك ، ثم لا يلبث أن يُتاح له فارس آخر يقتله .

(وَدَارتِ النَّيِّراتُ فى فَلَكٍ تَسْجدُ أقمـارُها لأَبْهَاهَا)

يعنى بالفَلَك هنا : ذات المعتَرك ، حيث التقت الأمـلاك والأبطال الأنجاد . وكلا هذين القبيلين (أقمار) فهى (تسجد لأبهاها) يعنى الملك.

(الفَارسُ المُتّقَى السِّلاحُ به المُثْنى عَلَيه الوَغَى وَخَيْلاهَا)

يُتقَى به السلاح ، لأن السلاح لا يؤثر فيه ، بل هو المؤثر فيها كقول الآخر :

اللابسـينَ قُلُوبَهُـمْ فَوْقَ الدّروعِ لدَفْعِ ذلِكْ

أى إن أفئدتهم أوقى لهم من دروعهم ، لأنها أثبت صِيانة ، وأشد منها حَصانة ، وثَنّى الخيل ، لأنه أراد خيله وخيل عدوّه ، لأن الحرب إنما تقوم بطائفتين متضادّتين . ولذلك قال بعض الأوائل ، من الحكماء الأفاضل : الحرب حينئذ ذو طبيعتين متضادتين ، أى قِوامها ذاك فان بطل أحد الضدّين بطلَ الحرب .

(لَو أنكَرَتْ مِنْ حَيائِها يَدُهُ فى الحرب آثارَهَا عَرَفْنَاهَا)

ذهب قوم إلى أنه يَجلّ عن الفخر بتأثيره فى عِداه . فلو أنكرت يدُه ذلك ، لعرفنا أن هذه الآثار لها .

والذى عندى أن آثار مفاخره فى العالم حِسان ، وذلك بإغناء فقير ، وافتكاك أسير ، وبثّ فضل ، وإقامة عدْل .

وأما آثاره فى عِداه فقبيحة الصُّوَر . لأنها إنما هى إفساد جواهرهم ، وتغيير ظواهرهم وبواطنهم . فلو أنكرت يده هذه الآثار ، حياء من قبحها ، لعرفنا نحن أنها لها ؛ لأنه لا يؤثّر فى العِدى هذا التأثير الأثير إلا هى .

(وَكَيْفَ تَخْفَى التى زِيادَتُها وَنَاقِعُ الموتِ بعضُ سيمَاهَا)

يعنى يده ، أى وكيف تخفى آثار هذه اليد ، التى سوطها وناقع الموت جزء من سيماها . عنى بناقع الموت : السيف ، وبالزيادة : السّوط . وذلك أنه يضرب بالسوط ، ويقتل بالسيف . وإذا كان هذا بعض سِيماها ، ونتيجتّها الضرب والقتل ، فما الظن بكليّة سيماها .

(النّاسُ كالعَابِدينَ آلهَةً وعَبــــدُهُ كالمُوحِّدِ اللّهَ)

الآلهة : لا تغنى عبادها ، والله يغْنى عباده . يقول : فمن أمّل غير هذا الملك ، لم يستغن بواحد عن آخر ، مع ما يُنْتِج له ذلك من قلة الغنى ، ومن أمّلَه كفاه ، وأغناه ، عمن سواه ، كما يفعل ذلك بعبده الإله .

— ١٣٦ —

وله أيضا :

(عُدَدُ الوفُودِ العَامِدينَ لَهُ دُونَ السِّلَاح الشُّكْلُ والعُقُلُ)

أى لا يقصده المحاربون ، لأنه لا يطمع فيه أحد ، فلذلك لا يُعَدّ له السلاح ، وإنما يقصده الآملون ، فعُدَدهم الشُّكل والعُقل ، لأنهم يسألونه الخيل للحرب ، والإبل للدِّية . ووفد العرب انما بغيتّهم ذلك ، فهم يُعدّون الشُّكُل والعُقُل ، ثقة منهم بهبته لهم ما يسألون .

(تُمْسِى عَلَى أَيْدِى مَوَاهِبِهِ   هِىَ أَو بَقِيَّتُهَا أَو البَدَلُ)

أى أن مواهبه مستبدّة بخيله وابله ، لا مطمع للإبقاء فيها . وقد اجاد أبو الفتح فى تمثيله اياه بقول العرب فى الشىء اذا استبد به أمرٌ ما ، فلم يك ابتزازه منه مَطْمع . (وُضِع عَلَى يَدَىْ عَدْل) .

ومعنى البيت : أن يهب جُودُه خيلَه ، وخِيار ابله لأوائل الوفود عليه ، وما بعدها فى المنْزلة ، وهى البقية ، لمن يفد بعد الوفْد الأول ، حتى اذا لم يبق من خيله ولا ابله شىء أعطى بعدها القين والوَرِق .

والبَدل هنا : اسم . وقد يكون ظرفاً فى غير هذا الوضع . فاذا كان اسماً كان بمنزلة البَديل ، قال سيبويه : وتقول : ان بَدَلَك زيداً ، أى إن مكانَكَ زيدًا . قال : وإن جعلت البَدل بمنزلة البديل ، قُلْت : إن بَدَلَك زيدٌ ، فلحق بالأسماء . وأراد : (أوبَدَلُها) فجعل الألف واللام عوضاً من الإضافة ، لأن كل واحدة منهما للمعرفة وجعل للمواهب (أيديا) تحكُما على الصَّنعة ، وتأنقاً فى البلاغة ، وليُشْعر أنه إنما وَازَى به قـــول العرب فيما ينسب منه : (وُضِعَ على يدىْ عَدْل) .

(يُشْتَاقُ من يَدِهِ إلى سَبَلٍ   شَوقاً إليه يَنْبُتُ الأَسَلُ)

السَّبَل : المطر ، كناية عن العطاء ، يقول : يشتاق إلى يده ، حتى أن الأَسَلَ لا ينبت إلا ليباشر راحته ، فيُرْوَى بنائلها كَرَيِّه بالسحاب ، بل أكثر . وإن شئت جعلت حَظَّ الأسل من نائل كفه ، ما يسقيها من الدّم . وقوله : شوقاً إليه ينبت الأسلُ : جعله فى موضع الصفة

لسَبل . وشوقاً مفعولاً من أجـله ، وهو الذى يسميه سيبويه عُذْرًا لوقوع الأمر .

(فَإِذَا حَصَى أرضٍ أَقَامَ بِهَا   بالنَّاسِ مِنْ تَقْبِيلِهِ بَلَلُ)

أى إذا حلَّ بحصَى أرض ، قَبَّله الناس بين يديه ، حتى تَبَلّ أسنانُهم أى تُقْبِل وتنعطف إلى الباطن . وحَصَى منصوب بفعل مضمر . أى إذا حلَّ حصى أرض . « وأقام بها » : تفسير للفعل المضمر ، لأنه إذا أقام به فقد حلَّه ، وأراد : فبالناس ، فحذف الفاء للضرورة ، وهو كثير فى الشعر ، أنشد سيبويه :

من يفعلِ الحسنات الله يَشْكُرُهَا   والشَّرُّ بالشر عند الله مِثْلاَنِ

أى فالله يشكرها . والهاء فى (بها) راجعة إلى الحصى ، لأن الحصى يؤنث ويذكر ، وكذلك كل جمع بينه وبين واحـده الهاء . ولا تكون الهاء فى « بها » عائدة الى الأرض لأنه لا بد فى الفعل من مُضمر يرجع الى المفعول ، الا أن يُحذف لضرب من الاستخفاف ، كما قد بَيَّن سيبويه فى غير موضع .

ولو كانت الهاء راجعة الى الأرض ، ولم تَعُد الى المفعول الذى هو الحصى ، لقلت : (زيداً ضربت هنداً) مريداً (ضربتُ زيداً ضربت هنداً) . وهذا لا يقوله أحد ، لا بد فى الفعل الظاهر من ضمير ملفوظ به أو مقدر ، يعود الى المفعول المنتصب بالفعل المضمر . وقال : (من تقبيله) : حَمْلاً على التذكير ، والعرب تقول : شجر أخضر ، وخُضْر ، وحصى أسود وسُود .

(لا تَلْقَ أفرَسَ مِنكَ تعرِفُهُ   إلاَّ إذا ضَاقَتْ بِكَ الحِيَلُ)

يخاطب بذلك بَهوذان ، يقول له : من عرفت أنه أثبت منك فراسة فلا تَعرِض له ما وجدت عن لقائه مندوحة ، ولا تحاربهُ ما أمكنتك مسالمته . يعظه بذلك ، وكأنه مستهزىء به . فإذا ضاقت بك الحيلُ ولم تَجِد بُدًّا من لقائه ، فقد استحققت المعذرة .

وقوله أفرس منك : صفة موضوعة موضع الاسم أى رجلاً أفرسَ منك . وحسن وضْع الصفة هنا موضع الاسم ، لأنها قد تقوّت بقوله: (منك) . وأيضًا فإن منك مناسب للاضافة ، والمضاف اسم . وتعرفه : جملة فى موضع الصفة ، كأنه قال : لا تَلْق رجلاً أفرس منك ، معروفًا لديك .

(فَوْقَ السَّماء وفَوقَ ما طَلَبُوا   فإذا أرادُوا غَايةً نَزَلُوا)

أى رتبتهم فى أرفع الغايات من الرتب ، بحيث لا يمكن مَزِيد الى فوق ، فإذا أرادوا غاية ما غير تلك الغاية ، نزلوا الى الأسفل منها ، اذ لا تمكن غاية الى فوق ، لأن مراتبهم فى أسنى الغايات وأرفع النهايات . وقد قال هو فى هذا المعنى بعينه :

وقالوا هل يُبَلِّغُكَ الثُّرَيَّا   فقلت نعم إذا شئت استفالا

— ١٣٧ —

وله ايضا :

(لَيْسَ كما ظَنَّ غَشْيةٌ عَرَضَتْ   فَجِئْتَنِى فى خِلَالِها قَاصِدْ)

كان أبو الطيب توقع أن يلومه محبوبه لنومه بعده ، وحلْمه بخياله فيه . قال : لعل مرسلك الى أيها الخيال ، ظن أنى نائم ، أوخِلتنى أنت يا خيال كذلك ، ليس كما ظننتماه ، حالى أشدُّ من أن أنام عليها ،

وانما هي غَشْيَة . فإن الباشق يُغْشَى عليه ، وليس من شأنه أن ينام ، فلا أُلحِقَنَّ منكما ملامًا ، لأني لم أُخِلَّ بحق العشق اذا لم أَنم . وانما كنت مُخِلًّا به لو نمت ، فجئتني في خِلالها قاصداً ، أي في خِلال تلك الغَشْية . وعِيادة الخيال اياه في تلك الحال ، أبلغ وأعرف من عيادته اياه في حدِّ النوم ، لأن المغْشِيَّ عليه بمنزلة الميت ، والنائمُ قد يدرك أشياء كثيرة مما يدركه اليقظان ، كالضحك والاحتلام وغير ذلك . وما علمنا أحداً من الشعراء ذكر أن خيالاً أَلمَّ به في غَشْيَةٍ الاَّ هذا .

وقوله . (قاصد) في موضع نصب على الحال ، فكان حكمه على هذا (قاصداً) إلَّا أن من العرب من يقول : (رأيت زيدْ) في حال الوقف .

قال :

شَثْنٌ جنبي كأنِّي مهْدَأٌ جَعَل القينُ على الدَّفِّ إبَرْ

وأنشد القارسيّ للأعشى :

إلى المرء قيس أطيلُ السُّرَى وآخذُ من كلِّ حيٍّ عُصُمْ

ولا يكون (قاصد) في موضع رفع على البدل من التاء التي في خلتني ، لأن المخاطب لا يبدل منه للعلم بمكانه ، والأَمْنِ مِن التباسه . ولذلك لم يجز سيبويه (بكَ المسكن مررت) . وقد أثبت ذلك غير دفعة في هذا الكتاب .

(إذَا المنَايَا بَدَتْ فَدَعْوَتُها أُبْدِلَ نُونًا بدَالِهِ الحَائِدْ)

سَفَّه رأي هوذان في محاربته فَنَّا خُسْرُو ، ثم عَذَره ، فقال : إن المَنَايَا إذا الْمَتْ فإنما قولها ودعاؤها : (أُبْدِل نوناً بداله الحَائِدْ) :أي صُيِّر (الحائد) (حائِناً) وهو الهالك . وليس هنالك مقال ، لأن المنية ليست بنوع ناطق ،

إنما هى عدم حرارة الروح، وذلك عَرَض. ولذلك قالوا: بَرَدَ فلان، إذامات، يذهبون إلى انقطاع الحرارة الحيوانية، لكن استعار القول للمنية. وإنما أراد أن: (الحائد) الذى يحيد عن الموت، إذا وافاه حَيْنُهُ، لم يُغن عنه حيده.

(وَأوكَ لَمَّا بَلَوكَ نَابِتَةً يَأْكُلُهَا قَبْلَ أَهْلِهِ الرَّائِدْ)

الرائد: الذى يطلب الكلأ للحىّ؛ فيقول لوهسوذان: هزمتك طلائع عسكر فنّا خسرو قبله، ولم ينتظروا بك معظم الجيش؛ احتقاراً لك؛ وتهاوناً بك؛ وإكراما لكوكب الجيش؛ فكنت كالنابتة المحتقرة المستصغرة التى يأكلها الرائد قبل أهله؛ لا ينتظرهم بها؛ ولا يدعوهم إليها؛ احتقاراً لقدرها واستنزاراً لخَطَرها. و (نابتة): صفة أقيمت مقام الموصوف. وحَسُن ذلك، لأنها قد قويت بالجملة التى بعدها؛ فضارعت الاسم بهذه الصفة؛ لأن الموصوفة فى الأصل إنما هى الأسماء. هذا مذهب سيبويه. وإنما أراد: خَلَّاه نابتة وحشية، أو نَبْـتة، أو نحو ذلك.

(وَمُتَّقٍ والسِّهامُ مُرْسَلَةٌ يَحِيدُ عَنْ حَابِضٍ إلى صَارِدْ)

الحابِض: السهم الذى يقع بين يدى الرامى من ضعفه. والصارد: النافذ. يقول: إن الإنسان لا ينفعه احتسابه، ولا يقيه احتراسه، فرب مُتَّقٍ للموت فى الحرب وقد أرسلت السهام، فنفر عن الحابض؛ ولو وقف له لم يضره؛ ويعدل إلى النافذ؛ فيقتله؛ وهو فى كل ذلك مُصَرَّف بيد القدر.

— ١٣٨ —

وله أيضا:

(فَلَا قَضَى حَاجَتَهُ طَالِبٌ فُؤَادُه يَخْفِقُ مِنْ رُعْبِهِ)

يقول: إن الموت قَدَر محتوم؛ وقضاء مجزوم؛ وسواء فيه الشجاع؛

والجبان الفَزّاع ؛ فإذا كان الأمر كذلك ، فالجازع ملوم ؛ والجبان مذموم .
فمِنَ الحقّ أن يُدْعَى على الطالب الشديد الهيبة ؛ ألاَّ يَظفَر من حاجته إلاّ
بالخيبة . والجملة التى هى قوله : (وفؤاده يخفُق من رُعبه) : فى موضع الصفة
لطالب . و (طالب) : صفة وضعت موضع الموصوف . وحسُن ذلك ؛ لأنه
قد قُرِن بالصفة ؛ فضارع الاسم .

والهاء فى (رعبه) : إن شئت رَدَدْتَها إلى طالب ؛ وإن شئت إلى قوله:
(فؤاده) . والبيت مشتمل على الدعاء على كل من إذا رام الإقدام ؛ أورثه
الجبنُ الإحجام .

(حَاشاكَ أن تَضعُفَ عَنْ حَمْلِ مَا تَضمَّنَ السَّائِرُ فى كُتْبِهِ)

أى حاشاك أن تضعُف عن احتمال ماقَدَر الفَيْح الوافد بالنَّعْى على احتماله ؛
أى إذا كان الفَيج (وهو الرسول على قدميه) يقول : جاء على احتماله فى
كتبه ؛ وهو متكلِّف مع ذلك رِجْلَه ؛ وعادمٌ رَحْلَه ؛ فأنت أحجَى باحتماله
على ترك استهواله.

— ١٣٩ —

وقال أيضا :

(وَقِيدتِ الأَيِّلُ فى الجِبَال)

الأَيِّل : اسم للجنس ؛ وأنّث على معنى الجماعة ؛ وقد يجوز أن يكون
(أَيِّل) على اعتقاد ضمة مجتلبة للجمع ؛ كما ذهب إليه سيبويه فى دِلاص وَهِجان .
وقد أثبَتَ الأَيل واشتقاقه ووزنه وتكسيره ؛ وما فيه من اللغات ؛ فى كتابى
الموسوم (بالمحكم) .

(وَأَوْفَتِ الفُدْرُ مِنَ الأَوْعَالِ)

الأوعال : شياه الجبال ، والفُدْر : المَسَانّ. يجوز أن يكون جمع فَدُور ؛

فالأصل على هذا (فُدْر) إلاّ أن بنى تميم يسكنون ثانى الضرب استخفافاً .

ويجوز أن يكون جمع فادر ، كعائد وعُوّد ، لأن سيبويه قد اعتد (يفُعّل) بناء من ابنية تكسير (فاعل) .

(مُرْتَدِيَاتٍ بِقِسِىِّ الضَّالِ)

يعنى مرونها . شبهها فى انعطافها بِقِسِىّ العرب ؛ وهى تتخذ من الضَّال وهو السِّدْر الجَبَلِىّ ؛ أَلِفُه منقلبة عن ياء . وذكر بعض متأخرى أهل بغداد أنه وَجَدَ بخط (جعفر بن دِحْيَة) ، رجلٍ من أصحاب ثَعْلَب (الضَّأْل) مهموزاً ؛ فاشتقه ذلك البغدادىّ حينئذ من الضآلة ؛ وذلك لأن الجَبَلِىّ منه أقل رِيًّا ونَعْمة من المائىّ ؛ وذلك قال البغدادىّ :

ثم وجدته بخط أبى إسحاق ، (يعنى إبراهيم بن السَّرِىّ الزجاج) : أَضْيَلَ المكان : أنبت الضال . فإذا كان كذلك ، فلا أثر للهمز فى الضال ، ولا طريق إليه . وإنما هو كتاب ، فمحا البغدادىّ حينئذ ضبط جعفر ، وعوَّل على خط أبى إسحاق .

(وُلِدْن تحتَ أثْقَلِ الأثقالِ)

قيل : الجبال ، وقيل : القُرُون . فإن قلت : فإنه لم يُولد بقرن ، فتقول : إنه عنى (بأثقل الأثقال) القرون ؟ قلنا : إن لم يولد بالفعل معها ، فإنه مولود معها بالقوة ، لأن نبتة القرون للأنواع المفطورة عليها ، خِلْقة طبيعية ، فلابُدّ من خروجها إلى الفعل .

(قَدْ مَنَعْتَهُنَّ من التَّفَالِى)

أى تشابكت القرون على رءوس الأيايل ، حتى لو حاولتِ التفالِى ، منعها اشتباك قرونها من الوصول إلى رءوسها .

(لاتَشْرَكُ الأجسامَ فى الهُزَالِ)

أى أن القرون لايلحقها سِمَن ولا هُزال، كما يلحق الأبدان، لأنها ليست متصلة بلحم ودم، ولاهى فى ذواتها كذلك. ولو اتزن له ألاّ يُشْرِك الأجسام فى السِّمَن والهُزال، لكان أقعد بالحقيقة، ولكن السمن والهزال عرَضان، فى الجسم متقابلان، فإذا انتفى أن يشركها فى الهزال، انتفى أن يشركها فى السِّمَن، فاكتفى بأحد الضدين من صاحبه

(إذَا تَلَفَّتْنَ إلى الظِّلَالِ رَأَيْنَ فيها أَشْنَعَ الأَمْثَالِ)

أى إذا رأت الأيايل ظلال قرونها، استبشعتها وهالتها.

(كأنَّما خُلِقْنَ لـلإذْلَالِ زِيادَةً فى سُبَّةِ الجُهَّـالِ)

يعنى القرون صاحبها ذليل. فيقول: كأن هذه القرون إنما خلقت لتدلّ على على ذلة الأوعال، كما خُلقت للقَرْنانِ، وإن كان لاقرون له. وإنما هو تمثيل. وقوله: زيادة فى سُبة الجهال: أى أن الجهال يتشاءمون كثيراً بالقُرون، ويكنون أحدهم بأبى القُرون.

(نَواخِسَ الأطرافِ للأَكْفَالِ)

أى طالت القرون منها، حتى نَخَست الأكفال بأطرافها.

(يَـكَدْنَ يَنفُذْن مِنَ الآطَالِ)

الآطال: الخواصر، واحدها: إطِل، وإطْل. وقد قيل: الإطِل وضع، والإطْل: فرع. يقول: فى القرون شُعَب تـكاد تنفذ الخواصر، حِدَّةً واعتراضًا. وأراد: يَـكَدْنَ يَنفُذْنَ الآطالَ، فزاد (مِنْ) على رأى أبى الحسن، لأنه يرى زيادتها فى الواجب، وسيبويه لايرى زيادتها فيه.

ويجوز أن يكون أراد من الآطال إلى الآطال ، أى من اليمين إلى الشمال وبنقيض ذلك .

(شَبِيهَةُ الإِدْبَارِ بالإِقْبَالِ)

أى فى وجوهها من لحاها مايشبه أذنابها ، فقد تشابه القُبُل والدُّبُر ، وقيل : يريد عُموم قرونها ، لظهورها بالعطف عليها إلى أذنابها ،

(فى كُلِّ كِبْدٍ كِبْدَىْ نِصَالِ)

كِبْدُ النصل مابين عَيْرَيْه . أى فى كل كبد أيل ووعِل من هذه الوحش المقتوطة كبدا نصال .

(فَهُنَّ يَهْوِينَ من القِلاَلِ)

(مَقْلُوبَةَ الأَظْلاَفِ والإِرْقَالِ)

أى هذه الأيايلُ والأوعال يَهْوِين من قِلال الجبال ، وهى أعاليها ، منعكسةً أظلافها وأنابها على أجسامها .

(فكَانَ عَنْها سَبَبُ التَّرحَالِ)

(تَشْوِيقَ إِكْثَارٍ إلى إِقْلاَلِ)

أى أكثرنا من القَنَص حتى مَلِلْنا ، وشَوَّقَنا الإكثارُ إلى الإقلال ، فكان ذلك سبب التَّرحال عنها . (فعن) : متعلقة بالتَّرحال القدر قبلَها ، ولا تكون متعلقة بالترحال الظاهر لأن (عن) حينئذ من صلة المصدر ؛ وما كان من صلة المصدر لم يتقدم عليه ؛ وجعل (سبب التَّرحال) اسم كان ؛ لأنه معرفة و (تشويقَ إكثار) . خبرَها ؛ لأنها نكرة ؛ فالبيت مُضَمَّن .

وقال سيبويه : أكثرتَ ؛ جئتَ بكثير ؛ وأقللت ؛ جئت بقليل فأما كَثُرتَ وقَلَّت ؛ فجعلته كثيراً وقليلاً .

(وَلَو جَعَلْتَ مَوضِعَ الإِلَالِ لَآلِئًا طَعَنْتَ بالـلَّآلِي)

(الإِلَال) ، الحراب . واحدتها ، (أَلّة) ، وذلك لبريقها ولمعانها . ألّ الشيءُ يؤلّ ألاً : برَق . أى لو جعلت مكان الحديد والمحدَّد لؤلؤًا فعلت به من القتل مايفعل الحديد ، لأنك مؤيَّدٌ منصور .

وقيل : أراد ولو جعلت مكان أصحاب الحراب من جيشك صواحب الحليّ لقتلت بهنّ عِداك ، لأن السعد والبأس إنما هولك . وأراد (طعنت باللآلىء) فأبدل الهمزة إبدالاً محضاً ، ليس على التخفيف القياسىّ ، وإن كان مثله فى اللفظ . وإنما أبدل إبدالاً كليًا غير قياسىّ ، لمكان الوصل ، لأن التخفيف القياسىّ فى نية التخفيف . والهمزة المخففة لايُوصل بها ، فكذلك المخففة التى فى نِيَّة المخففة لايوصل بها . وقد بينت ذلك غير دُفعة فى هذا الكتاب ، وفى غيره من كتبى . وإنما أعدته لظرافته ودقته ، وأنه لايَفهمه إلا الدَّرِب . فمن أنِس به أحبَّه ووالاه ، ومن نافره قلنا فيه : من جهل شيئاً عاداه .

— ١٤٠ —

وله أيضا :

(مَغَانِي الشِّعْبِ طِيباً فى المَغانِي بِمَنْزِلَة الرَّبيعِ مِنَ الزَّمَانِ)

يعنى بالشعب : شِعْبَ بَوّان وكان فى طريقه إلى شيراز ، مرّبه فأعجبه . يقول : فهذه المغانى فى حُسنها بمنزلة الربيع فى أرباع السنة . أى أن هذه المغانى أطيب المغانى وأعشبها كما أن الربيع آنق أرباع الزمن وأخصبها .

جعل هذا المكان فى جملة الأمكنة بمنزلة الزمان ، أعنى الربيع فى جملة الأزمنة ، وهذا من عجيب الاقتران ، أعنى تمثيله للمكان بالزمان .

(وَلكنّ الفَتَى العَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الوَجْهِ واليَدِ واللِّسَانِ)

بَوّان هذه ؛ في بلاد فارس ، ولا عرب هنالك إلا غُرَباء ، فكنى بغرابة الأعضاء عن غرابة الجملة . وقيل ؛ غريب الوجه ؛ أن ألوان العرب الأدْمة ، وأهل فارس بيض ، وأما غربة اليد فقيل ؛ إنه عنى به الخط ، ولا يُعْجبنى ، إنما عَنَى به الجود ، والجود للعرب . وأما اللسان فلأنهم أعاجم ، والتفسير الأول هو الصحيح ، أعنى أنه لا عرب هناك إلا قليل .

(إذَا غَنَّى الحَمامُ الوُرْقُ فيها أجابَتْها أغَانِىُّ القِيَانِ)

أى أنها أرض طِيب ورفاهية ، واعتدال هواء ، فإذا غَنَّى الحمام فيها ، جاوبتها القيان طرباً إليها ، أى أن أهلها لا يتركون اللهو .

(وَمَن بالشِّعبِ أحوجُ مِنْ حَمَامٍ إذَا غَنَّى ونَاحَ إلى البَيَانِ)

أى أن أهل بوّان أعاجم ، لا يُفصحون ولا يُوَضِّحون ، كما أن الحمام كذلك . وجعلهم أحوج إلى البيان من الحمام ؛ مبالغةً وإفراطاً فى الكلام ، إذ يوجد لغناء أهل بوّان ترْجمان ، لأنهم أناسِىٌّ .

(وقَد يَتَقَارَبُ الوَصْفَانِ جِدًّا ومَوصُوفَا هُما مُتبَاعِدَانِ)

أى هؤلاء الأعاجم فى قلّة الايضاح ، وعدم الافصاح ، كهذه الحمائم ، وإن اختلف نوعاهما فهما متباعدان بالنوع ، وذات الجوهر ، متقاربان فى عدمهما البيان .

ويحتمل أن يُريد أن الإنسان يقرب الموصوف بوصفه له ، حتى لكأنه حاضر ، ولكنه يبعد لعدم إحاطته بجميع أحواله ؛ وغرائب أفعاله .

(وألقَى الشَّرقُ مِنْهَا فى ثِيَابِى دَنانيراً تَفِرُّ من البَنَانِ)

يصف شِعب بَوّان ؛ وهى مدينة معروفة فى طريق شِيراز . والشِّعب : الطريق فى الجبل . والشرق : الشمس . يقال ، طلعت الشرق ، ولا يقال

غاب الشرق ، فيعنى أن شجر هذا الموضع أشيب مُلتَفّ ؛ ضيق الخصاص ، وهى الشُّعَب التى بين الورق ، فإذا طلعت الشمس تخللت أضواؤها خلال الورق ، مستديرة كالدنانير من الذهب ، فى الشكل واللون ؛ إلا أنها إذا حَلَّت الكفّ ، فهمّت بالقبض عليها حال ظِل البنان بينهما ؛ واعترض دون ما فى باطن الراحة من أشكال الضوء . وقد قدمتُ الفَرْق بين تشبيهه إياها بالدنانير هنا ؛ وبين تشبيهه إياها بالدراهم فى قوله :

إذا ضوؤُها لاقَى من الطير فَرْجَةً تَدَوَّرَ فوق البَيْض مثلَ الدراهمِ

عند تفسير ذلك البيت . وقوله : (منها) أراد من نفسها ؛ وصرف (دنانير) للضرورة .

(يَحِلُّ به على قَلْبِ شُجَاعٍ وَيرْحَلُ منه عن قلْبِ جبَانِ)

أى أنه إذا رأى أضيافه نازلين به ؛ فرح فقويت ذاته ؛ وإذا رآهم راحلين ساءه ذلك ؛ فضعف منه ما قَوِى .

فعلى هذا القول ؛ تكون الشجاعة والجبن لقلب هذا الممدوح . وقد يجوز أن يكون ذلك لأفئدة الضِّيفان ؛ أى أن الضيف إذا نزل به وهو زاهد فى الحياة ؛ غير فَرِقٍ من الموت ؛ لما لَحِقه من الكدّ والجهد ؛ فرأى ما لَدَى أبى شُجاع من خِصْب المكان ؛ ولين أخادِع الزمان ؛ والخَفْض والأمان ؛ راقه ذلك ؛ فأحبَّ الحياة ؛ وكره الوفاة ؛ بعكس ما كان عليه .

(دَعتْهُ بِمفْـزَعِ الأعْضاءِ مِنْهُ لِيَومِ الحرْبِ : بِكْرٍ أو عَوَانِ)

المفزع : المستغاث . ودعته : سمَّته . فيقول : دعته هذه الدولة عضد الدولة ؛ لأن الأعضاء إنما تدفع عن نفسها بالعضد ؛ وهى حاملة اليد ؛ فكذلك هذه الدولة ؛ لما وجدَت مَفْزَع أعضائها بالعَضُد ؛ دعته عَضُدَها . فقوله :

(بمَفْزَع) فى موضع المفعول الثانى ؛ لأن هذه (دَعَوْتُ) التى بمعنى سَمَّيْتُ . تقول : دعوته زيداً ، ودعوته بزيد ؛ كقولك سميته إياه ، وسميته به .

قال سيبويه حين ذكر هذا النحو . وكذلك دَعَوْته التى تجرى مَجْرى سَمَّيْتُه ؛ يعنى أنها تتعدى إلى مفعولين : كما يتعدى سميته إليهما . قال : فإن أردْتَ الدُّعاء إلى أمر ؛ لم تجاوز مفعولاً واحداً . يعنى نحو التى فى قوله تعالى: ﴿سَواءٌ عليكم أدَعَوْتُموهُمْ أم أنتُم صامِتُون﴾ : وكقوله سبحانه : ﴿ أُجِيب دعوةَ الدَّاعى إذا دَعان ﴾ وقوله : (ليوم الحرْب) . أى إلى يوم الحرب . (بِكْرٍ أو عَوانٍ) : بدل من الحرب . وقد بَيَّن معنى هذا البيت بقوله :

(بعَضُدِ الدَّولةِ امْتَنَعَتْ وعَزَّتْ وَلَيْسَ بغَيْرِ ذِى عَضُدٍ يَدَانِ)

اليدان : إما أن يكون هما الكَفَّيْن، وإما أن تكون القوة . حكى سيبويه: لا يَدَيْنِ بِهَالكَ ، لم يَعْنِ (تثنية اليد) ، فنفى الجارحتين ؛ ولكنه نفى القُوَّة . وأراد : (لا يَدَ بِهالك) ، فوضع الاثنين موضع الواحد الدال على الكثرة ؛ فدلت التثنية من الشياع على ما يدل عليه الواحد الدال على الكثير أعنى المنفى بلا ؛ لأن ذلك الواحد متفرق للنوع المنفى بها .

وقد تجىء التثنية تدل على الكثير . أنشد الفارسىّ للفرزدق :

وكلُّ رَفِيقَىْ كلِّ رَحْل

ونظيره قوله تعالى فى صفة السماء : ﴿ فارجع البصر هل ترى من فُطُور[٣] ثم ارجع البصَر كَرَّتين ﴾ .

(فكَرَّتين) فى موضع كَرَّاتٍ . والدليل على ذلك قوله : ﴿ ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حَسِير ﴾ . فلو أمره أن ينظر فى السماء كرَّتين فقط ؛ فنظر مرتين ، لم يرجع البصر خاسئاً وهو حَسِير ، لأن البصر لا يَحْسِر من

مرتين ، انما يحسر من مرات . هذا تفسير الفارسيّ ، بعد أن أعمل فيه إنعام الفكر ؛ وقدّر مافيه من وراء علوة الجسر .

(كَأَنَّ دَمَ الجماجِمِ فى العَنَاصِى كَسَى البُلْدانَ رِيشَ الحَيْقُطَانِ)

ريش الحَيْقُطان : واحمر . والعناصى : خُصَل من الشعر . يقول : جرى الدم فى عناصيهم فاختضبت فاحمرت ، ثم تمزقت شعورهم فى المُعتَرَك ، وأطارتها الريح على الأرض ؛ فكأن العناصى المحمَّرة المتمزقة ريشُ هذا النوع من الطير . وجعل الدم هو الذى كسا البُلْدان ، ذلك ، لأنّه لولا الدم لم يُشبه العَنْصوة ريشُ الحَيْقُطان . و (فى العناصى) . ظرف فى موضع الحال ؛ أى مستقرًّا فيها .

(وكانَ ابنَا عَدُوٍّ كَاثَرَاهُ لَهُ يَاءَى حُرُوفِ أُنَيْسِيَانِ)

أُنَيْسِيَان : تصغير إنسان ، وهو أكثر حروفًا من مُكبَّره ، لكن تلك الكثرة مُشْعِرة بقلة ، فلا غناء لهذه الزيادة التى فيه ، لما يلحقه من التصغير، ونقيصة التحقير . فهو يدعو لفنّاخُسْرَ ، فيقول : لا كاثرك مَلِك بابنين إلاّ كانا له كالياءين اللتين فى (أُنَيْسيان) ؛ وكلتاهما زائدة ، لاغناء لهما. وأيضًا فإنهما للتحقير : الأولى للتصغير حقيقة ، والثانية لاتلحق إلا مع ياء التصغير ؛ فهى بمنزلتها فى الدلالة على التصغير . فلذلك قلت إنهما جميعًا للتحقير ، ولم أعنِ أنّ ياء (أنيسيان) الأخيرة من جوهر التصغير ؛ كيف يكون ذلك وهذه الياء خامسة ؛ أعنى ياء (أنيسيان) الأخيرة ؛ وياء التصغير لا تكون أبداً إلا ثالثة . و (أُنيسيان) من شاذ التصغير .

— ١٤١ —

وله أيضا :

(فِدًى لَكَ مَن يُقَصِّر عن مَدَاكَا فَلَا مَلِكٌ إِذَنْ إلاَّ فَدَاكَا)

(فَدَاكَ) يحتمل أن يكون فعلاً ، واسماً .

(ولَوْ قُلْنا فِدًى لَكَ مَن يُساوِى دَعَوْنا بِالبَقاء لِمَن قَلاكا)

أى أنه لا يساويك أحد ، فلو قلنا : فِدًى لك مساويك ، لـكان كقولنا : فِدًى لك لا أحد ، وقاليه : داخل فى ذلك .

(وآمَنَّا فِداءَكَ كلُّ نَفْسٍ ولَو كانَتْ لِمَمْلَكةٍ مِلاكا)

أى لو اشترطنا فى فدائك المساواة ، لأمن كل أحد أن يكون لك فِداء ، وإن كان ملكًا ، لأنه مع مُلْكه ومِلْكه مُقَصِّرٌ عن مساواتك .

(وَمَنْ يَظُنُّ نَثْرَ الحَبِّ جُوداً وَيَنْصِبُ تَحتَ ما نَثَرَ الشِّباكا)

أى وفِدًى لك من أعطى وغرضه أن يستجِرَّ فائدة فاضلة بعطائه ، بمنزلة القناص الذى يلقى الحَبَّ للطير ؛ وقد نصب الشبكة تحته لاقتناصها فلا ينبغى أن يحمد على ذلك ؛ لأنه ليس جوداً فى الحقيقة ؛ إنما هو دعاء إلى هُلْك .

وهذا مثل ضربه لمن طلب من الشكر أكثر مما يوجبه له نداه والشِّباك جمع شبكة كرقبة ورقاب ؛ وَرحْبة ورِحاب .

(أَتَترُكُنِى وعيْنُ الشَّمسِ نَعْلِى فَتَقْطَعَ مِشْيَتِى فيهَا الشِّرَاكا)

أى بكونى فى حاشيتك ، واعتدادى فى صاغيتك ؛ شَرُفْت وعظمت حتى عدت كأن عين الشمس نعلى ؛ فإذا فارقتك ؛ كنت كمن مَشَى بهذه النعل ؛ فانقطع شِراكها ؛ فسقطت ؛ فـكان اختلال جزئها ؛ سببًا لعدم كلها .

وإن شئت قلت : كسانى قصدك شرفًا ؛ صارت به عين الشمس لى نعلاً فإذا بَعُدتُ عنك ، أخللتُ ببعض ذلك الشرف ؛ لا بكلّه ؛ فـكأنى قطعت الشِّراك الذى هو بعض النعل ؛ فجعل الشرف كعين

الشمس ، وجعل فراقَه لعضُدْ الدولة المشْىَ فيها ؛ وجعل بعده عنه بمنزلة انقطاع الشراك ؛ الذى هو سبب الإخلال بالنَّعْل ، ولم يتوقع فى كل ذلك إخلالاً كليًّا ، لأنه كان مُزْمِعًا للعودة إليه . ألا تُراه يقول :

لعلَّ الله يجعلُهُ رَحيلاً يُعينُ على الإقامَةِ فى ذَرَا كَا

وقوله : (فتقطَع مِشْيتى فيها الشِّرا كا) : نصب فيه (تقطعَ) ، لأنه جواب الاستفهام ، والـكلام متضمن معنى الجزاء . أى إن تتركنى أسيرُ وقد انتعلت بعين الشمس ؛ قطعت مِشْيَتى شِرَاكَ نعلى .

وإن شئت رفعتَ على القطع ؛ أى فإنها تُقْطع ؛ ولا يكون عطفاً على « أتتركنى » لأن قَطْعَ مِشْيَتِهِ شِرَاكَ النَّعْل ؛ ليس داخلًا فى حدِّ الاستفهام ؛ ومعنى هذا الاستفهام الإنـكارُ والتقرير ؛ أى كيف تتركنى على ما أنا به من الرأى ؛ وأنت تعلم أن الذى أنا عليه من ذلك سَفَه .

(قد استَشفَيتَ من دَاء بدَاء وأقْتَلُ مَا أعَلَّكَ مَا شَفَا كَا)

الداء المستشفَى منه : تشوقه إلى أهله أيام كونه بشيراز ؛ وأهله بالـكوفة ؛ والداء المُسْتشفَى به من ذلك الداء : فِراقه للمَلِك . فيقول أما الآن حين أزمعتَ الإياب إلى أهلك ؛ استشفيتَ من داء الشوق بفراق هذا الملك ؛ وفراقك إياه أعْوَدُ عليك بالألم . (وأقتل ما أعلك ما شفا كا) ؟ أى أقتل ما أعلك الآن ؛ فراقُك لأبى شجاع ؛ على أنه قد شفاك من شوقك إلى أهلك ؛ فـكان اشتياقك كالمرض ؛ ومزاولتك لهذا الملك حين أزالت شَوقَكَ كالموت المذهبِ لألم المرض ؛ وهو أشد من ألم المرض .

ثم يُخَرَّج قوله (وأقتل ما أعلَّك ما شفا كا) على طريق العموم ، فيصير مثلاً ، كقوله :

أرَى بصرى قد رَابَنِى بعدَ صِحَّةٍ   وحَسْبُكَ دَاءً أنْ تَصِحَّ وتَسْلَمَا

وكذا :

ودعوتُ رَبِّى بالسلامةِ جاهداً   لِيُصِحَّنِى فإذا السَّلامة دَاءُ

وموضوع بيت المتنبى أولى .

(وأنَّ البُخْت لا يُعْرِقْنَ إلاَّ   وَقَدْ أَنْضَى العُذَافِرَةَ اللِّكَاكَا)

البُخْت : جمع بُخْتِىّ ؛ حذفت ياء النسب فى الجمع ؛ لأنها بمنزلة التأنيث ؛ فى أنها داخلة على الاسم بعد تمامه ؛ ألا تراهم قالوا تَمْرة وتَمْر ؛ ونخلة ونَخْل . (ويُعْرِقْنَ) : يأتين العراق . و (أنضى) : أهزل و (العُذافرة) : العظام . أخبر عن جماعة ما لا يَعْقل بشكلِ الواحد . حكى سيبويه عن العرب: الجمالُ ذاهبة وذاهبات . ولا أقول (العُذافرة) هاهنا واحدة ؛ لأن تَدَى فَنَّاخُسْرَ عنده ؛ أعظم من أن يصفه بأن تستقل به ناقة واحدة . واللِّكاك : الأينق الشِّداد ؛ وهى اللَّحِمة أيضاً هنا . حكى سيبويه : ناقة لِكاك ؛ وأينق لِكاك . والقولُ فى هذا ؛ القول فى دِرْعٍ دِلاَص وأدرع دلاص . فان الكسرة التى فى الجمع غير التى فى الواحد ؛ والألف غير الألف . وقد أعَدْتُ هذا القول مراراً لأونس به المستوحش ؛ فانى رأيتُهم عند تفسيره لهم دَهِشِين . ولو فهموا كلام سيبويه ، أنِسُوا إليه .

ورواه بعضهم : (اللُّكَاكَا) . وقَال : من الجمع العزيز ؟ إلاّ أنّ له نظائر جمَّة ، كعَرْق وعُرَاق ، وثِنْى وثُناء . وقد ذكر سيبويه وأهل اللغة منه حروفاً جمّة . وعليه وجه الفارسىّ قراءة من قرأ ﴿ إنّا بُرَآءُ مِنْكُم ﴾ . قال : هو جمع بَرِىء كَفَرِير وفُرار ، يعنى ولد البقرة . وجعل بعضهم الفرار لغة فى الفَرِير . ونظائره عَرِيضة أُرِيضة .

ومعنى البيت : ولَيْتَ النوم حَدَّث هذا المحبوب الذي يريه إيايَ فى النوم ، حُبَّهُ لى ، وتوحُّشَهُ نحوى ، أن البُخْت لا تبلغ بنا العِراق حتى يُنْضيها او يُفْنيها ما تَحَملتْهُ من نَداك ، لثقل ما حَمَّلتها إياه ، من البُدور والخلع . وهذا نحو قول أبى العتاهية يصف الإبل ،

فإذا وردن بنا وَرَدْنَ مُخفَّةً وإذا صَدَرْنَ بنا صَدَرْنَ ثِقالا

والضمير فى (أنضى) : راجع إلى النَّدَى فى قوله : (فليت النومَ حَدَّث عن نَدَاكا) .

(وكَمْ طَرِبِ المَسامِعِ لَيس يَدْرِى أَيعجَبُ مِنْ ثَنَائِى أَمْ عُلاَكَا)
(وذَاكَ النَّشْرُ عِرضُكَ كانَ مِسْكَا وذَاكَ الشِّعرُ فِهْرِى والمَدَاكَا)

اي طَرِب السامع لاستماع شعرى ؛ ليس يدرى أىُّ الأمرين أولَى بالتعجُّب منه ، أجودة شعرى فيك ، أم رفعة عُلاك فى ذاتها ، لأن شعرى متناهٍ فى نوع الشعر ، وعُلاك متناهية فى نوع العُلَى ؛ فقد تساويا فى السبْق والفضل . ولولا البيت الذى بعد هذا ، لعُدَّ جَفَاء من المتنبى ، لتسويته شعره فى نوعه بعُلا الملك فى نوعها ؛ لكن حَسُنَ ذلك بالبيت الذى اردَفه به ، فيقول : الأريج الذي ذاع وشاع لشعرى ، إنما هو لعرضك السليم الكريم ؛ فان عرضك هو المسكُ الذى إنما طبعُهُ الطيب لذاته لا شِعْرِى . وإنما شعرى هو بمنزلة الفهر والمداك ، اللذين يُظْهِران فوح المسك ، وينشران نَشْرَه ، لان المسك إذا سُحِقَ كان أسطع لَعَرْفه ، وأشيَع لِفَوْحه .

وأما شعرى فلم يك له فى ذاته طِيب ، إنما كان كالآلة للطِّيب ، ألا ترى أن آلة الطيب ليس فى طبيعتها فَوْحٌ ، إلا بحسب ماتعلق بهذا من الجوهر الذى صُرِّفت فى صنعته . وقوله (ذاك النشر) : ذاك مبتدا ، والنشر صفة له ، وعرضك : خبر المبتدأ . وأراد : وذاك النشر نشْرُ عِرْضك .

هذا إن عنى بالعِرْض الإناء والذات ، لأنها جواهر ، والنَّشر عَرَض ، فلا يخبر عن العَرَض بالجوهر . فلذلك احتجنا إلى تقدير حذف المضاف ، كما احتجنا إليه فى قوله تعالى : ﴿ ولـكن البرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ ﴾ وذهب سيبويه إلى أن التقدير : (ولـكن البر برُّ من آمنَ بالله) ، أى إيمانُ من آمن بالله لأن (البرّ) عَرَض ، و (من آمن بالله) : جوهر ، فَقَدَّر الحذف مضافاً ، ليخبر بالعَرَض عن العَرَض .

قال الفارسيّ : وقد يجوز أن يكون التقدير ، ولـكن أهلَ البِرّ مَنْ آمَنَ بالله ، وذلك لتقابُل الجوهر بالجوهر لأن أهل البر جوهر ، و (من آمن بالله) كذلك فيخرج إلى باب (هو هو) لأن أهل البر هم المؤمنون بالله ،وإن جعلت العَرَض هنا المَجْد وسائر أنواع الفضائل ، لم يحتج إلى حذف المضاف ، لأن النشر والمجد كلاهما ليس بجوهر (وذاك الشعر فِهْرى والمَدا كا) : أى وكان ذاك الشعر . وقوله (كان مِسْكاً) إلى آخر البيت : تفسير لقوله : (وذاك النشر عرضك) . والمَدَاك : صَلاَية العَطّار ، دُكْتُ الشىء دَوْكاً : دققته وكان القياس (مِدْوَكاً) : لأن بناء مايُعْتَمل به (مِفْعَل) ، لـكنه شذّ كما شذ المُسْعُط وأخواته ، وإن اختلف بناؤهما ، فقد التقيا فى الشذوذ .

(فَلا تَحْمدْهُما واحْمَد هُمَاماً إذَا لم يُسْمِ حامِدُه عَنا كَا)

أى لا تحمد الفِهْر والمَدَاك اللذين عنيت بهما شعري ، لأن حقيقة الطيب ليس لهما ، فلا يستحقان شيئاً من الحمد ، وإنما ينبغى لك أيها الملكُ أن تحمد نفسك التى اقتنت المساعى ، وأنبتت المعالى ، باستدعاء القوافى ، والثناء الوافى ويعنى بالهُمام نفس المَلِك .

وقوله : (إذالم يُسْمِ حامده عنا كا) : الهاء راجعة إلى الهُمام ، وأخبر عنه

كما أخبر عن الغائب ، لأنه قد أخرجه ذلك المخرج لقوله (واحْمَدْ هُمَاما)
فلم يكن بُدٌّ من أن يعيد إلى الموصوف ذكراً من صفته ، لأن قوله (إذا لم
يُسْمِ حامده) فى موضع الصفة (لهَمَام) ، وأراد إذا لم يُسْمك حامُده ، وإذا
لم يُسْمِ حامده محموداً ، فإنما يَعْنيك .

وإن شئت قلت : معناه : لو لم يُسْمِك الحامد لعناك ، والقولان متقاربان
والمعنى مشتق من قول أبى نُواس :

إذا نحن أثنينا عليك بصالحٍ فأنت كما نُثْني وفَوقَ الذى نُثْني
وإن جرَت الألفاظُ يومًا بمِدْحة لِغيركَ إنسانًا فأنتَ الذى نَعْنى

ولو قال : (إذا لم يُسْمِ حامُده عناهُ) كان حسنا ، ولـكنه حمله على
المعنى ، لأن المراد فى كل ذلك المخاطبة .

(أغرُّ لهُ شَمَائِلُ من أبيه غَداً يَلقى بَنُوكَ بهَا أبَا كَا)

أى قد أخذت شَبَه أبائك ، صورةً وفِعْلاً ، وبنوك يستـكملون شَبَهك
لأنهم الآن يُشْبِهونك بعض الشَّبَه ، إذْ لم يستـكملوا خِصالك ، فإذا
استكملوها أشبهوك ، وإذا أشبهوك وأنت تشبه أباك ، فقد أشبهوا أباك . وهذا
يتألف فى الشـكل الأول من المنطِق . تقول : زيد يشبه عَمْراً وعمرو يشبه
خالداً ، النتيجة : فزيد يشبه خالدًا .

(وفى الأحْبَابِ مُخْتَصٌ بوَجْدٍ وآخرُ يَدَّعِى مَعَه اشترَاكَا)

يُومِئُ إلى أن وجْدَه لفراق عضُد الدولة طبيعىٌّ لا عَرَضىٌّ ، وإن كان
غيره يدعى مثل ذلك ، فليس كذلك .

(إذَا اشْتَبَهتْ دُموعٌ فى خُدودٍ تبيَّن مَنْ بكَى مِمَّنْ تَبَاكَى)

(بكى) : كناية عن الطبيعىّ، و (تباكى) : كناية عن العَرَضِىّ ، لأن التفاعُل قد يأتى لغرض ، لإظهار خِلاف ما الأمر به فى الحقيقة .

أنشد سيبويه :

إذا تَخازرْتُ ومابِى من خزَرَ

فقوله : ومابى من خزر دليل على ذلك . أى : إذا اشتبهت الدموع فى الخدود ، بمـا هى عليه من الهَمَلان ، وسرعة الجَرَيان ، لم يَكُ هنالك بدٌّ من فصل يُمَيِّزُ بَيْنَ العَرَضِىّ والطبيعى .

وهذا آخر ما انتهى من الشرح المبارك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٣١١/١٩٧٦

ISBN ٩٧٧ ٢٠١ ١٨٥ ٢


مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٥٠ قرشا